شِفَاءُ العَلِيل

في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل

تأليف

الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر
ابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١هـ)

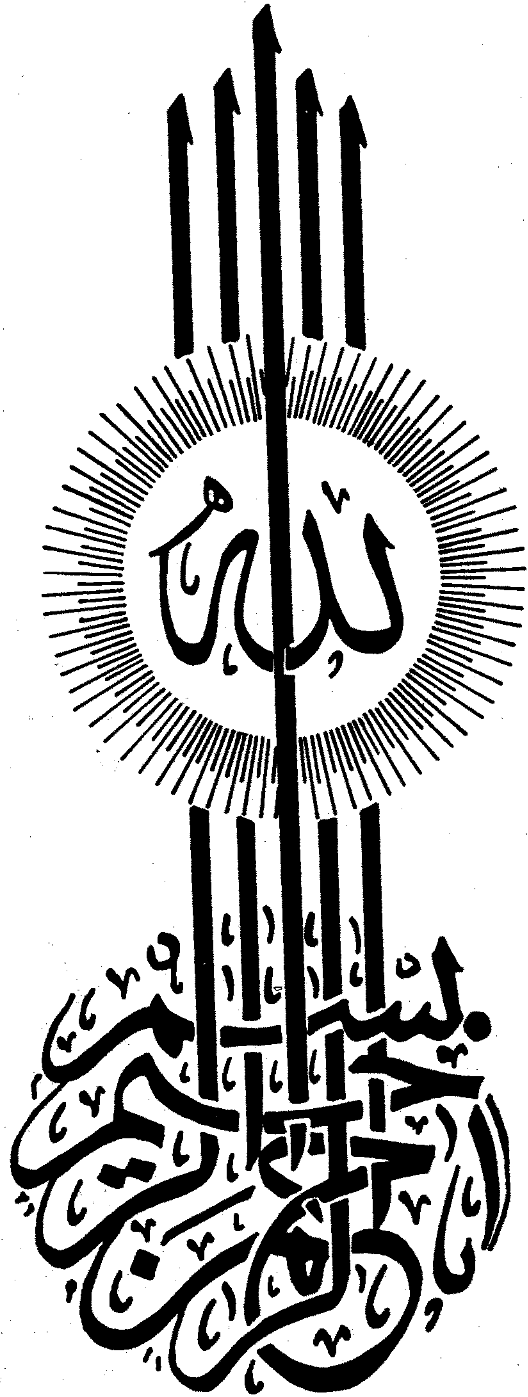
الجزء الأول

خرج نصوصه وعلق عليه
مصطفى أبو النصر الشلبي



مكتبة السوادي للتوزيع
جدة - هاتف: ٦٨٨٤٢٦١٢

بسم الله الرحمن الرحيم



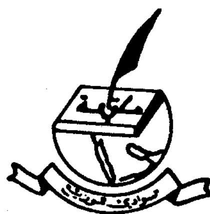
شفاء العليل

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩١م



الناشر

مكتبة السوادي للتوزيع

ص.ب - ٤٨٩٨ جدة ٢١٤١٢ - ت: ٦٨٨٤٢١٢

فاكس ٦٨٧٨٦٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران، آية ١٠٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء، آية ١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

(الأحزاب، الآية: ٧٠ ـ ٧١).

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

فمما لا شك فيه بأن الإيمان بالقدر هو نظام التوحيد، كما أن الإيمان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره هي نظام الشرع.

ولا شك أيضاً بأن أمر الدين لا ينتظم ولا يستقيم إلا لمن آمن بالقدر وامتثل للشرع، كما أخبر بذلك معلم البشرية وهاديها إلى كل خير ﷺ حيث قال في حديث جبريل الطويل: (وتؤمن بالقدر خيره وشره)(١) وقال لمن قال له: أفلا نتكل على كتابنا وندفع العمل؟ قال: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)(٢).

ولا شك أيضاً بأن وحدانية الله تبارك وتعالى وانفراده بالملك والألوهية والربوبية والحاكمية في الوجود كله، يجعل القول بوجود مشيئة حرة مطلقة بحاجة إلى تفسير وإيضاح، لما يبدو في ذلك من تعارض بين الجبر والاختيار، وتلك هي مشكلة القضاء والقدر.

ومن أجل هذه القضية الخطيرة في القدر والحكمة والتعليل شهد التاريخ على مداره الطويل قديماً وحديثاً نزاعاً قوياً أدى إلى تفرق الناس إلى مذاهب شتى، فقد روي أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم يتنازعون في القدر، فنهاهم عن ذلك، وأخبر أنه إنما أهلك من كان قبلهم هذا الجدال.

ومن أجل هذا الجدل ـ فيما بعد والخوض في تعليل الأحكام الشرعية والأمر والنهي، والكلام في مسألة التحسين والتقبيح العقلي القائم على النظر والبحث من غير اعتصام بالكتاب والسنة ـ انقسمت الأمة الإسلامية في القدر إلى ثلاثة أقسام:

فقسم غالوا في إثباته، وسلبوا العبد قدرته واختياره، وقالوا: إن العبد ليس له قدرة ولا اختيار، وإنما هو مسير لا مخير.

وقسم غالوا في إثبات قدرة العبد واختياره، حتى نفوا أن يكون لله تعالى مشيئة واختيار، وزعموا أن العبد مستقل بعمله، بل غلا طائفة منهم وقالوا: إن الله تعالى لا يعلم ما يفعله العباد إلا بعد أن يقع منهم.

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن وسيأتي تخريجه إن شاء الله.

(٢) رواه البخاري (٦/٨٤) في تفسير سورة ﴿والليل إذا يغشى﴾، ومسلم برقم/٢٦٤٧/ في القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وشقاوته وسعادته.

والقسم الثالث هم أهل السنة والجماعة الذين سلكوا في ذلك مسلكاً وسطاً قائماً على الدليل الشرعي المستمد من الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة الصالح رضوان الله عليهم.

ومن أجل الدليل الشرعي والدليل العقلي في مسألة الجبر والاختيار، والصلاح والأصلح اعتزل أبو الحسن الأشعري[1] رحمه الله منهج الاعتزال القائم على تلك

---

(١) يذكر الشهرستاني في الملل والنحل ص ١١٨ و١١٩، المناظرة التي جرت بين أبي الحسن الأشعري وأستاذه الجبائي حول مسألة من مسائل الصلاح والأصلح، وكيف أدت إلى رجوع الأشعري إلى مذهب أهل السنة والجماعة.

ويذكر السبكي في طبقات الشافعية (٢/ ٢٤٥ و٢٤٦) الخلاف بين الأشعري وأستاذه فيقول: (سأل الشيخ أبو الحسن أستاذه يوماً عن ثلاثة: مؤمن وكافر وصبي قائلاً: ما عاقبتهم؟ فأجابه أستاذه قائلاً: المؤمن من أهل الدرجات، والكافر من الهلكات، والصبي من أهل النجاة.

فرد الأشعري: ولم؟ فرد الجبائي: لأنه يقال له: إنما المؤمن نال هذه الدرجة بالطاعة، وليس لك مثلها، فرد الأشعري قائلاً: فإن قال الصبي: لم أُقصر ولكني مت قبل أن أتمكن من عملها.

فأجاب الجبائي: إن الله يقول له: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت فكانت مصلحتك في الموت صغيراً.

فرد الأشعري: فإذا قال الكافر: ولِمَ يا رب لم تراع مصلحتي أنا الآخر فأموت صغيراً وأنت تعلم أني حين أكبر سأكون كافراً، فلم يحر الشيخ جواباً).

ويروي الأستاذ أحمد أمين في كتابه ظهر الإسلام ص ٦٨ و٦٩ رواية أخرى في تعليل ترك الأشعري منهج الاعتزال ملخصاً ذلك بقوله: (إن رجلاً سأل الجبائي: هل يجوز أن يسمى الله عاقلاً؟ فأجاب الجبائي: لا، لأن العقل مشتق من العقال، والعقال يعني المنع، والمنع على الله محال.

فقال الأشعري لأستاذه: فعلى قياسك هذا لا يسمى الله حكيماً، لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام، وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج، فإذا كان اللفظ مشتقاً من المنع، والمنع على الله محال، لزمك أن تمنع إطلاق لفظ حكيم عليه تعالى، فلم يحر الجبائي جواباً وسأل الأشعري: فما تقول أنت؟ قال: أجيز حكيما ولا أجيز عاقلاً، لأن طريقي في مأخذ اسماء الله للسماع الشرعي، لا القياس اللغوي، فأطلقت حكيماً لأن الشرع أطلقه، ومنعت عاقلاً لأن الشرع منعه، ولو أطلقه لأطلقته.

ولمزيد من التفصيل والمعرفة في تبرؤ الأشعري من الاعتزال وعودته إلى عقيدة السلف =

الأصول ورجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة المتمثل بعقيدته الصافية المستنبطة من الكتاب والسنة.

ومن أجل هذا البحث الهام صنف المصنفون الكتب الكثيرة كل يحاول جاهداً الانتصار لرأيه، وكان من بين هؤلاء الإمام العلامة ابن القيم الجوزية تلميذ شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله فألف كتابه القيم: (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) فكان بحق إسماً على مسمى، ففيه بحول الله شفاء لكل متردد في هذا البحث..

ومن أجل كل ذلك عزمت بحول الله على هذا التخريج النافع إن شاء الله عساني أقوم ببعض الواجب، سائلاً الله عزّ وجلّ أن يجعل عملي خالصاً، وأن ينفع فيه، وأن يجمع أمة الإسلام على كتابه وسنة نبيه.

* * *

هذا وقد سبق لهذا الكتاب القيم أن طبع عدة طبعات ومعظمها مصورة عن الطبعة الأولى التي تمت في المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٣ هـ وهي بتصحيح الأستاذ محمد بدر الدين ـ جزاه الله خيراً ـ وقد ذكر أنه راجع نصف الكتاب الأول على مخطوطتين: إحداهما وصلته من العراق، والأخرى من دار الكتب، ونصفه الثاني على نسخة دار الكتب فقط.

هذا وقد أهمل في هذه الطبعة المذكورة الترقيم والضبط، كما ظهرت فيها أخطاء كثيرة في نصوص الآيات والأحاديث.

ثم تلا هذه الطبعة طبعة أخرى من نشر مكتبة دار التراث في القاهرة وقد حررها الأستاذ الحساني حسن عبد الله ـ جزاه الله خيراً ـ فكانت أفضل من سابقتها بكثير، ومع ذلك ما زالت الأخطاء المطبعية كثيرة والترقيم والضبط لم يأخذ حظه الوافر، إلى جانب النقص في تخريج النصوص.

= وموته عليها، والرد على الأشاعرة الذين يزعمون أنه عاد بعد ذلك والتزم منهجاً وسطاً بين الحشوية المشبهة وبين الاعتزال الذي هو مذهبهم. لتفصيل كل ذلك راجع الكتاب القيم: (القضاء والقدر في الإسلام) لمؤلفه الدكتور الفاضل فاروق أحمد الدسوقي (٣٠٨/٢) وما بعدها.

وقد حرصت في هذه الطبعة على تحاشي المآخذ السابقة، آملاً من الله عزّ وجلّ أن يهيء لنا الحصول على المخطوطات الأصلية لنستطيع خدمة هذا الكتاب على الوجه الأكمل إن شاء الله تعالى، وأما في هذه الطبعة فينحصر عملي في الأمور التالية:

١ - تخريج الآيات القرآنية، وتصويرها من المصحف مباشرة لتحاشي ما وقعت به الطبعات السابقة من الأخطاء والنقص والزيادة.

٢ - تخريج الأحاديث النبوية وضبطها من كتب الحديث والإشارة إلى درجة الحديث من الصحة والضعف وذكر ما قيل في رجاله ممن تكلم فيهم مسترشداً بأقاويل أصحاب الباع في ذلك - جزاهم الله عنا كل خير.

٣ - تخريج الآثار والأقوال ما أمكنني ذلك.

٤ - شرح الكلمات الغامضة أو الغريبة في الكتاب أو في نص الأحاديث النبوية الشريفة.

٥ - ترجمة بعض الأعلام.

٦ - التعليق المختصر بما يفيد ويوضح المقصود.

٧ - تنظيم مادة نص الكتاب تنظيماً جديداً من حيث بداية الفقرات، ووضع النقاط والفواصل وإشارات التعجب والاستفهام.

٨ - ترجمة للمؤلف ابن القيم الجوزية رحمه الله.

ومن باب رد الفضل إلى أهله لا يفوتني أخيراً أن أتوجه بتقديم الشكر إلى الأخ الأستاذ محمد خليل السوادي القائم على إدارة شؤون مكتبة السوادي العامرة - والذي هيأ لي فرصة القيام بتخريج هذا الكتاب القيم.

كما أتوجه بالشكر إلى ولدي البار حسان مصطفى الشلبي والذي كان له جهد طيب في مساعدتي لإنجاز هذا التخريج بوقت قصير.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يسدد خطانا، ويغفر لنا خطايانا، ويخلص نوايانا، والحمد لله رب العالمين.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

مصطفى أبو النصر الشلبي

جدة في ٢٧ من شهر ربيع الثاني لعام ١٤١١ هـ.

ترجمة المؤلف رحمه الله

نسبه:

هو الإمام العلّامة الحافظ الأصولي المفسر الفقيه النحوي العارف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد حريز الزرعي. نسبة إلى (قرية من حوران بدمشق) ثم الدمشقي الحنبلي المشهور بابن قيم الجوزية نسبة إلى مدرسة كان أبوه قيماً عليها.

وهو أحد العلماء الأفذاذ المجاهدين الذين كانت لهم قدم راسخة وهمم بالغة وحجة ناصعة دامغة في محاربة الملحدين، والرد على الطوائف الشاذة والجماعات الضالة، وتطهير المجتمع من العقائد الفاسدة السائدة في عصره.

ولد رحمه الله سنة (٦٩١ هـ) ونشأ في أسرة كريمة مشهورة بالفضل والعلم. فجدّ في الطلب والتحصيل في شتى العلوم فبرع في كثير منها حتى بلغ رتبة التدريس والإفتاء والإمامة.

أساتذته:

تتلمذ رحمه الله على يد طائفة من العلماء الأفاضل فأخذ عن أبيه علم الفرائض، وقرأ العربية على مجد الدين أبي بكر بن محمد المرسي التونسي.

وتلقى الفقه وأصوله على يد الشيخ صفي الدين الهندي وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وسمع الحديث على زين الدين إبراهيم بن محمد أبي نصر ابن الشيرازي. وعلى أبي بكر بن أحمد بن عبد الدائم النابلسي، وعلى تقي الذين سليمان بن حمزة أبي الفضل المقدسي.

هذا وقد لازم شيخ الإسلام ابن تيمية ملازمة تامة من سنة (٧١٢ هـ) إلى سنة (٧٢٨ هـ) حيث توفي الشيخ رحمه الله. فنهل من علمه الواسع واستمع إلى آرائه السديدة. حتى أنه كان يأخذ بأكثر اجتهاداته ويتوسع في التدليل على صحتها.

وأهم ما استفاده من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الدعوة إلى الأخذ بالكتاب والسنة الصحيحة، والاعتصام بهما وفهمهما على النحو الذي فهمه السلف الصالح رضوان الله عليهم، وتنقية الدين مما ابتدعيه المتصوفة والتحذير من خرافاتهم وأفكارهم الزائفة الهدامة.

تلامذته:

وقد أخذ العلم عنه خلق كثير في حياة شيخه وإلى أن مات، وانتفعوا به.

وكان الفضلاء من العلماء يجلّونه ويحترمونه، ومن هؤلاء العلماء الذين تتلمذوا على يديه:

١ ـ الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير صاحب التآليف الكثيرة. وأعظمها تفسيره المعروف باسم (تفسير ابن كثير) و(البداية والنهاية).

٢ ـ الإمام الحافظ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي صاحب المؤلفات المفيدة في الحديث والفقه والتاريخ.

٣ ـ الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة المقدسي.

٤ ـ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن محيي الدين عثمان بن عبد الرحمن النابلسي.

وغيرهم خلق كثير أخذوا عنه وانتفعوا به.

أقوال العلماء فيه:

لقد اهتم به المؤرخون والعلماء قديماً وحديثاً فترجموا له وأثنوا عليه.

* قال الذهبي في المختصر: عني بالحديث ومتونه ورجاله وكان يشتغل بالفقه والنحو وتصدر لنشر العلم.

وقد حبس مدة لإنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل عليه السلام.

* وقال برهان الدين الزرعي: ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه، كان شديد المحبة للعلم وكتابته واقتناء كتبه.

* وقال الحافظ ابن رجب في ختام كتابه طبقات الحنابلة:

كان عارفاً بالتفسير وأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى، وبالفقه وأصوله وبالعربية وله فيها اليد الطولى وبعلم الكلام، وبكلام أهل التصوف واشاراتهم ودقائقهم.

* وقال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة: كان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف.

* وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: كان ملازماً للاشتغال ليلاً ونهاراً كثير الصلاة والتلاوة، حسن الخلق، كثير التودد. لا يحسد ولا يحقد، ولا أعرف في زماننا أكثر عبادة منه.

* وقال الشوكاني في البدر الطالع: كان متقيداً بالأدلة الصحيحة، معجباً بالعمل بها. غير معول على الرأي صادعاً في الحق لا يحابي فيه أحداً.

مؤلفاته:

كان ابن القيم رحمه الله من أبرز العلماء الذين رزقوا حظاً كبيراً في التأليف، فصنف تصانيف كثيرة جداً في شتى أنواع العلوم فاستفاد منها العام والخاص وأهم هذه الكتب وأشهرها ما يلي:

١ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية.
٢ ـ اعلام الموقعين عن رب العالمين.

٣ ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان.
٤ ـ التبيان في أقسام القرآن.
٥ ـ مدارج السالكين.
٦ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب.
٧ ـ تحفة المودود بأحكام المولود.
٨ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي.
٩ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.
١٠ ـ الروح.
١١ ـ بدائع الفوائد.
١٢ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد.
١٣ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.
١٤ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.
١٥ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين.
١٦ ـ روضة المحبين.
١٧ ـ مفتاح دار السعادة.
١٨ ـ الفوائد.
١٩ ـ جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام.
٢٠ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

محنته:

هذا وقد كان شأنه رحمه الله شأن كل الدعاة إلى الله المحتسبين الذين لا يخافون في الله لومة لائم، فلم يسلم من أيدي الظلمة فامتحن وأوذي مرات عديدة. وحبس مع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في المدة الأخيرة بالقلعة منفرداً عنه ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ رحمه الله.

وحبس أيضاً مدة بسبب إنكاره لشد الرحال لزيارة قبر الخليل عليه السلام.

وفاته:

قال ابن رجب رحمه الله: توفي رحمه الله وقت العشاء ليلة الخميس ثالث عشر

رجب سنة (٧٥٢ هـ) وصُلِّي عليه من الغد عقيب الظهر بجامع جراح، وشيعه خلق كثير، ودفن بمقبرة الباب الصغير، رحمه الله، وأفادنا بعلومه، وجزاه الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله ذي الإفضال والإنعام، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمدٍ وعلى آلـه وصحبه والأئمة الأعلام.

أما بعدُ فإن أهَمَّ ما يجب معرفته على المكلَّف النبيل، فضْـلاً عن الفاضـلِ الجليل، ما ورَدَ في القضاء والقدر والحكمة والتعليل، فهو من أسنَى المقاصد، والإيمانُ به قطْبُ رحَى التوحيدِ ونظامُه، ومبدأُ الدين المبين وختامُه، فهو أحـدُ أركان الإيمـان، وقاعـدةُ أساس الإحسان، التي يَرجع إليهـا، ويدور في جميـع تصاريفـه عليها، فـالعدلُ قِـوام الملك، والحكمةُ مظهر الحمد، والتوحيدُ متضمِّن لنهاية الحكمة وكمال النعمـة. ولا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد وهـو على كـل شيء قديـر، فبالقـدر والحكمةِ ظَهر خَلقه وشَرعه المبين ألا له الخَلْقُ والأمر، تبارك الله ربُّ العالمين.

وقد سَلك جماهيرُ العقلاء في هذا الباب في كل وادٍ، وأخذوا في كل طريق، وتولَّجوا كلَّ مَضيق، وركبوا كل صعب وذَلول، وقصدوا الوصول إلى معرفتـه، والوقـوفَ على حقيقته، وتكلَّمتْ فيه الأمم قديماً وحـديثاً، وسـاروا للوصول إلى مغـزاه سيراً حثيثـاً، وخاضت فيه الفِـرَقُ على تبـاينها واختـلافها، وصنَّف فيـه المصنِّفون الكتبَ عـلى تنوع أصنافها.

فـلا أحدَ إلا وهـو يُحدِّث نفسَـه بهذا الشـأن، ويـطلب الـوصـولَ فيـه إلى حقيقـة العرفان، فتراه إما متردداً فيه مع نفسه، أو مُناظراً لِبني جنسِه، وكلٌّ قـد اختار لنفسـه قولاً لا يعتقد الصوابَ في سواه، ولا يرتضي إلا إياه. وكلُّهم ـ إلاّ من تمسّك بالوحي ـ

عن طريق الصواب مردودٌ، وبابُ الهدَى في وجهه مسدودٌ، تحَسَّى علْماً غيرَ طائل، وارتوى مِن ماء آجِن، قد طاف على أبواب الأفكار، ففاز بأخَسِّ الآراء والمطالب، فرحَ بما عنده من العلم الذي لا يُسمن ولا يُغني من جوع، وقدَّم آراء من أحسنَ به الظنَّ على الوحي المنزل المشروع، والنصِّ المرفوع، حيرانُ يأتَمُّ بكل حيران، يحسب كلَّ سرابٍ ماءً، فهو طولَ عمره ظمآن، ينادَى إلى الصواب من مكان بعيد، أقْبل إلى الهدَى، فلا يستجيبُ إلى يوم الوعيد، قد فرح بما عنده من الضلال، وقنِع بأنواع الباطل وأصنافِ الْمُحال، منَعه الكفرُ الذي اعتقده هدًى وما هو ببالغه عن الهداة المهتدين، ولسانُ حالِه أو قالِه يقول: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

ولما كان الكلامُ في هذا الباب نفياً وإثباتاً موقوفاً على الخبرِ عن أسماء الله وصفاتِه وأفعالِه وخلْقِهِ وأمرِهِ، فأسعدُ الناس بالصواب فيه مَن تلقَّى ذلك مِن مِشكاة الوحي المبين، ورغب بعقله وفطرته وإيمانه عن آراءِ المتهوِّكين[2]، وتشكيكاتِ المشككين، وتكلفات المتنطعين[3]، واستمطرَ ديَمَ[4] الهدايةِ من كلماتِ أعلم الخلق برب العالمين، فإن كلماتِه الجوامعَ النوافعَ في هذا الباب وفي غيره كَفَتْ وشَفَتْ وجَمَعتْ وفرَّقَتْ وأوضَحتْ وبينتْ وحلَّتْ محلَّ التفسير والبيان لما تضمنه القرآنُ.

ثم تلاه أصحابُه من بعدِه على نهجه المستقيم، وطريقه القويم، فجاءت كلماتهم كافيةً شافيةً مختصرة نافعة، لِقُرب العهد ومباشرة التلقّي من تلك المِشكاة التي هي مَظهرُ كل نور، ومنبع كل خير، وأساس كل هدى.

ثم سلك آثارَهم التابعون لهم بإحسان، فاقتفوا طريقهم، وركبوا منهاجهم، واهتدَوْا بهداهم، ودعوا إلى ما دعوا إليهِ، ومَضَوا على ما كانوا عليه.

ثم نبغ في عهدهم وأواخرِ عهد الصحابة القدرية[5] مجوسُ هذه الأمة، الذين

---

(١) سورة الأنعام، الآية /٥٣/.

(٢) المتهوك: أي الأحمق الذي عنده بقية من عقل، ولكنه يتحير ويضطرب في أقواله.

(٣) التنطع في الشيء: أي المغالاة والتكلف في الشيء. و(النُّطع): المتشدقون في كلامهم.

(٤) استمطر دَيَمَ الهداية: أي طلب دوام هدايته واستمرارها والمواظبة عليها.

(٥) (القدرية) في إجماع أهل السنة والجماعة: هم الذين يقولون: الخير من الله والشر من الإنسان، وأن الله لا يريد أفعال العصاة، وسموا بذلك لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل =

يقولون لا قدر، وأن الأمر أُنُف[1]، فمن شاء هَدَى نفسَه، ومن شاء أضلَّها، ومن شاء بخسها حظَّها وأهملها، ومن شاء وفقها للخير وكملها، كلُّ ذلك مردودٌ إلى مشيئة العبد ومقتَطعٌ من مشيئة العزيز الحميد. فأثبتوا في مُلكه ما لا يشاءُ، وفي مشيئته ما لا يكون.

ثم جاء خلفُ هذا السلف فقرروا ما أسسه أولئك من نَفْي القدَر وسمّوه عدلاً، وزادوا عليه نِفْيَ صفاته سبحانه وحقائقِ أسمائه وسموه توحيداً.

فالعدلُ عندهم إخراجُ أفعال الملائكة والإنس والجن وحركاتِهم وأقوالهم وإراداتهم من قدرته ومشيئته وخَلْقه.

والتوحيدُ عند متأخريهم تعطيلُه عن صفات كماله ونعوت جلاله، وأنه لا سمعَ له ولا بصرَ ولا قدرةَ ولا حياةَ ولا إرادةَ تقوم به ولا كلام، ما تكلَّم ولا يتكلم، ولا أَمَر ولا يأمر، ولا قال ولا يقول، إنْ ذلك إلا أصواتٌ وحروف مخلوقة منه في الهواء أو في محلّ مخلوق، ولا استوى على عرشه فوق سماواته، ولا تُرفعُ إليه الأيدي، ولا تَعْرُجُ الملائكة والروح إليه، ولا ينزل الأمر والوحي من عنده، وليس فوق العرش إلٰه يُعبد ولا رب يُصَلَّى له ويُسجد، ما فوقه إلا العَدمُ المحض والنفي الصِّرف، فهذا توحيدُهم وذاك عدلُهم.

ثم نبغتْ طائفة أخرى من القدَرية فنفتْ فِعلَ العبد وقدرتَه واختيارَه، وزعمت أن حركته الاختياريةَ - ولا اختيارَ - كحركة الأشجار عند هبوب الرياح وكحركات الأمواج، وأنه على الطاعة والمعصية مجبورٌ، وأنه غير مُيَسَّر لما خُلق له، بل هو عليه مقسور ومجبور.

ثم تلاهم أتباعُهم على آثارهم مقتدين، ولمنهاجهم مقتفين، فقرّروا هذا المذهبَ وانتموا إليه وحققوه وزادوا عليه أن تكاليفَ الرب تعالى لعباده كلَّها تكليفُ ما لا يُطاق، وأنها في الحقية كتكليف المُقْعد أن يَرْقَى إلى السبع الطِّباق، فالتكليف بالإيمان

= بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه، وقد لقبوا بمجوس الأمة لمشابهتهم المجوس في مذهبهم وقولهم بالأصلين - النور والظلمة - حيث أثبتوا قادرين خالقين للأفعال.

(١) (أمر أنف) أي: جديد

وشرائِعه تكليفٌ بما ليس من فعل العبد ولا هو له بمقدور، وإنما هـو تكليفٌ بفعل مَن هو متفردٌ بالخَلْق وهو على كل شيء قدير، فكلَّف عبادَه بأفعاله وليسوا عليها قـادرين، ثم عاقَبهم عليها وليسوا في الحقيقة فاعلين.

ثم تلاهم على آثـارهم محققوهم من العبـاد فقالـوا ليس في الكون معصيـةٌ البتة إذِ الفاعلُ مطيع للإرادة موافقٌ للمراد كما قيل:

أصبحتُ منـفعـلاً لمـا يختـارهُ — مِـنِّي فـفِـعـلي كـلُّه طـاعـاتُ

ولامـوا بعضَ هؤلاء على فعله فقـال: إنْ كنتُ عصيتُ أمـره فقـد أطعتُ إرادتـه، ومطيعُ الإرادة غيرُ ملوم وهو في الحقيقة غيرُ مذموم. وقرر محققوهم من المتكلمـين هذا المذهبَ بأن الإرادةَ والمشيئـة والمحبة في حق الـرب سبحانـه هي واحدٌ، فمحبَّتُـه هي نفسُ مشيئته، وكلُّ ما في الكون فقد أراده وشاءه، وكلُّ ما شاءه فقد أحبه.

وأخبرني شيخُ الإسلام[1] قدَّس الله روحَه أنه لام بعضَ هـذه الطائفـة على محبـة ما يُبغِضـه الله ورسولـه فقال لـه الملومُ: « المحبـةُ نـار تحـرقُ من القلب مـا سـوى مُـراد المحبوب، وجميعُ ما في الكون مُرادُه، فأيُّ شيءٍ أُبغِض منـه؟ قال الشيـخ: فقلتُ له: إذا كـان قد سخِط عـلى أقـوام ولعنهم وغضب عليهم وذمهم فـواليتَهم أنتَ وأحببتَهم وأحببتَ أفعالَهم ورضِيتها تكـونُ مواليـاً له أو معـادياً؟ قـال: فبُهت الجبريّ ولم ينـطق بكلمة.

وزعمت هذه الفرقـةُ أنهم بذلـك للسنة نـاصرون، وللقدر مُثْبتـون، ولأقوال أهـل البدع مبطلون. هذا وقد طـووا بساطَ التكليف، وطفَّفـوا في الميزان غـايةَ التـطفيف، وحملوا ذنـوبَهم على الأقـدار، وبرّأوا أنفسَهم في الحقيقـة من فعل الـذنـوب والأوزار، وقالوا إنها في الحقيقة فعلُ الخلّاق العليم، وإذا سمع المنزّه لربـه هذا قـال: سبحانـك هذا بهتان عظيم، فالشر ليس إليك والخير كله في يديك.

---

(١) يقصد بذلك شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله فهو أحد أساتـذته وقـد لازمه مـلازمة تـامة من سنة /٧١٢ـ إلى ٧٢٨ هـ حيث توفي شيـخ الإسلام رحمـه الله. فنهل من علمـه الواسـع، وأهم مـا استفاده من شيخـه شيخ الإسلام الدعـوة إلى الأخـذ بـالكتـاب والسنـة الصحيحـة والاعتصـام بهما. وفهمهمـا على النحو الـذي فهمـه السلف الصـالـح رضـوان الله عليهم، ولمزيد من المعرفة راجع ما كتبته في النبذة عن حياة المؤلف رحمه الله.

• لقد ظنتْ هذه الطائفة بالله أسوأ الظن، ونسبَته إلى أقبح الظلم. وقالوا إن أوامر الرب ونواهيَهُ كتكليف العبد أن يرقى فوق السموات، وكتكليف الميت إحياء الأموات، والله يعذّب عبادَه أشد العذاب على فعلٍ ما لا يقدرون على تَرْكه وعلى تركِ ما لا يقدرون على فعله، بل يعاقبهم على نفسِ فعلِه الذي هو لهم غيرُ مقدور، وليس أحدٌ ميسَّر له بل هو عليه مقهور ونرى العارفَ منهم ينشد مترنماً، ومن ربه متشكياً ومتظلماً:

ألقاهُ في اليمِّ مكتوفاً وقال له إيـاكَ إيـاكَ أن تبتـلَّ بـالمـاءِ

وليس عند القوم في نفس الأمر سببٌ، ولا غاية، ولا حكمة، ولا قوة في الأجسام، ولا طبيعة ولا غريزة، فليس في الماء قوةُ التبريد، ولا في النار قوةُ التسخين، ولا في الأغذية قوةُ الغذاء، ولا في الأدوية قوةُ الدواء، ولا في العين قوةُ الإبصار، ولا في الأذن قوةُ السماع، ولا في الأنف قوةُ الشم، ولا في الحيوان قوة فاعلةٌ ولا جاذبة، ولا ممسكة ولا دافعة، والربُّ تعالى لم يفعلْ شيئاً بشيء ولا شيئاً لشيء، فليس في أفعاله باء تسبيب ولا لامُ تعليل، وما وَرَد من ذلك فمحمولٌ على باءِ المصاحبة ولامِ العاقبة.

وزادوا على ذلك أن الأفعالَ لا تنقسم في نفسها إلى حسن وقبيح، ولا فرقَ في نفس الأمر بين الصدق والكذب، والبِرِّ والفجور، والعدل والظلم، والسجود للرحمن والسجود للشيطان، والإحسان إلى الخلق والإساءة إليهم، ومَسَبَّةِ الخالق والثناء عليه، وإنما نعلم الحسَنَ من ذلك من القبيح بمجردِ الأمر والنهي، ولذلك يجوزُ النهيُ عن كل ما أُمِر به والأمرُ بكل ما نُهِيَ عنه، ولو فُعلِ ذلك لكان هذا قبيحاً وهذا حسناً.

وزاد بعضُ محققيهم على هذا أن الأجسامَ كلُّها متماثلةٌ فلا فرقَ في الحقيقة بين جسم النار وجسم الماء، ولا بين جسم الذهب وجسم الخشب، ولا بين المسك والرجيع، وإنما تفترق بصفاتها وأعراضها مع تماثلها في الحدِّ والحقيقة. وزادوا على ذلك بأنْ قالوا: الأعراضُ كلها لا تبقَى زمانين ولا تستقر وقتين.

فإذا جمَعْتَ بين قولهم بعدمِ بقاء الأعراض، وقولِهم بتماثل الأجسام وتساوي الأفعال، وأن العبدَ لا فعلَ له البتة، وإنه لا سبَبَ في الوجود، ولا قوةَ ولا غريزةَ ولا طبيعة، وقولِهم: إن الرب تعالى ليس له فعلٌ يقوم به، وفعلَه غيرُ مفعوله، وقولِهم:

إنـه ليس بمباينٍ لخلْقـه، ولا داخلَ العـالم ولا خارجَـه، ولا متصلاً بـه ولا منفصلاً عنه، وقولِهم: إنه لا يتكلم ولا يُكلِّم، ولا قال ولا يقولُ، ولا سمع أحد خطابـه ولا يسمعه، ولا يراه المؤمنون يوم القيامة جهرةً بأبصـارهم من فوقهم، أَنْتَجَتْ لـكَ هذه الأصولُ عقلاً يعارضُ السمعَ ويناقضَ الوحي، وقد أوصاكَ الأشيـاخ عند التعـارضِ بتقديم هذا المعقول على ما جاء به الرسول:

فـلو أنِّـي بُـليتُ بـهـاشـمـيٍّ ... خـؤُولَتُـهُ بنـو عبـدِ المـدَانِ
لَـهـانَ عليَّ مـا أَلـقَى ولـكـنْ ... تعـالَـوْا فـانـظروا بِمَن ابتـلانِي

ولما كانت معرفة الصواب في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليـل واقعةً في مرتبة الحـاجة، بـل في مرتبـة الضرورة، اجتهـدتُ في جمع هـذا الكتاب وتهـذيبه وتحريره وتقريبه، فجاء فرداً في معناه بديعاً في مغزاه، وسميتـه: (شفاء العليـل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) وجعلتُهُ أبواباً.

الباب الأول: في تقدير المقادير قبل خلق السموات والأرض.

الباب الثاني: في تقدير الـرب تعالى شقـاوةَ العباد وسعـادَتهم وأرزاقَهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم، وهو تقدير ثان بعد الأول.

الباب الثالث: في ذكر احتجاج آدمَ وموسى في ذلك وحُكْم النبي ﷺ لآدم.

الباب الرابع: في ذكر التقدير الثالث والجنينُ في بطنَ أمه.

الباب الخامس: في ذكر التقدير الرابع ليلةَ القدر.

الباب السادس: في ذكر التقدير الخامس اليومي.

الباب السابع: في أنّ سبْقَ المقادير بالسعـادة والشقاوة لا يقتضي تـركَ الأعمال، بل يُوجب الاجتهادَ والحرصَ لأنه تقدير بالأسباب.

الباب الثامن: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾(١)

الباب التاسع: في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾(٢).

---

(١) جزء من آية /١٠١/ من سورة الأنبياء.
(٢) سورة القمر، آية /٤٩/.

الباب العاشر: في مراتب القضاء والقدر التي مَنْ استكمل معرفتَها والإيمانَ بها فقد آمن بالقدر، وذِكْرِ المرتبة الأولى.

الباب الحادي عشر: في ذِكر المرتبة الثانية من مراتب القضاء والقدر وهي مرتبة الكتابة.

الباب الثاني عشر: في ذِكر المرتبة الثالثة وهي مرتبةُ المشيئة.

الباب الثالث عشر: في ذِكر المرتبة الرابعة وهي مرتبة خَلْق الأعمال.

الباب الرابع عشر: في الهدى والضلال ومراتبهما.

الباب الخامس عشر: في الطبعِ والختمِ والقُفل والغلّ والسدّ والغِشاوة ونحوِها وأنه مجعولٌ للرب.

الباب السادس عشر: في تفرد الرب بالخلق للذات والصفات والأفعال.

الباب السابع عشر: في الكسب والجبر ومعناهما لغةً واصطلاحاً، وإطلاقهما نفياً وإثباتاً.

الباب الثامن عشر: في فعَلَ وأفعَلَ في القضاء والقدر والكسب وذِكر الفعل والانفعال.

الباب التاسع عشر: في ذِكر مناظرة بين جبريّ وسُنّي.

الباب العشرون: في مناظرة بين قَدَري وسُني.

الباب الحادي والعشرون: في تنزيه القضاء الإلهي عن الشر ودخوله في المقْضِيّ.

الباب الثاني والعشرون: في طرق إثبات حكمة الرب تعالى في خَلْقه وأمره وإثبات الغاياتِ المطلوبة والعواقبِ الحميدة التي فَعَلَ وأمَرَ لأجلها. وهو من أجَلّ أبواب الكتاب[1].

---

(١) هذا الباب سقط من الأصل، وقد عنون الفصل الذي يليه بالرقم نفسه. وهو خطأ، والله أعلم.

الباب الثالثُ والعشرون: في استيفاءِ شَبَهِ نُفاةِ الحكمةِ وذِكر الأجوبة المفصَّلة عنها.

الباب الرابعُ والعشرون: في معنى قول السلف: من أصول الإيمان: الإيمان بالقدر خيرِه وشره وحُلوه ومره.

الباب الخامسُ والعشرون: في بيان بُطلان قول من قال إن الرب تعالى مريدٌ للشر وفاعل له، وامتناع إطلاقِ ذلك نفياً وإثباتاً.

الباب السادسُ والعشرون: فيما دَلَّ عليه قولُه ﷺ: «أعوذُ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»[1] مِنْ تحقيقِ القدر وإثباتِه وأسرارِ هذا الدعاء».

الباب السابعُ والعشرون: في دخول الإيمان بالقضاء والقدر والعدل والتوحيد والحكمة تحت قوله ﷺ: «ماض فِيَّ حُكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤُك»[2] وما تضمنه الحديثُ من قواعد الدين.

الباب الثامنُ والعشرون: في أحكام الرضا بالقضاء واختلافِ الناس في ذلك وتحقيقِ القول فيه.

الباب التاسعُ والعشرون: في انقسام القضاء والقدر، والإرادةِ والكتابةِ، والحُكمِ والأمر والإذْنِ والجعْلِ والكلماتِ، والبعثِ والإرسالِ، والتحريمِ والعطاء والمنع، إلى كونيّ يتعلق بخلقه، ودينيّ يتعلق بأمره، وما في تحقيق ذلك من إزالةِ اللّبس والإشكال.

الباب الموفي ثلاثين: في الفطرة الأولى التي فَطَر الله عباده عليها، وبيانِ أنها لا تنافي القضاء والعدلَ بل توافقه وتجامعه.

وهذا حين الشروع في المقصود، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، هو المانُّ به، وما كان فيه من خطأ فمنّي ومن الشيطان، والله بريء منه ورسولهُ.

فيا أيها المتأملُ له الواقفُ عليه لك غُنْمه، وعلى مؤلفه غُرْمه، ولك فائدتُه وعليه

---

(١) انظر تخريج الحديث في الباب السادس والعشرون

(٢) جزء من حديث. انظر الباب السابع والعشرون

عائدتُه، فلا تَعْجل بإنكار ما لم يتقدم لك أسبابُ معرفته، ولا يحْملنَّك شَنـآنُ مؤلفه وأصحابِه على أن تُحرَمَ ما فيه من الفوائد التي لعلّك لا تظفـر بها في كتـاب، ولعل أكثرَ مَنْ تُعَظّمهُ ماتوا بحسرتهـا ولم يصِلُوا إلى معرفتهـا. والله يقسم فضلَه بين خلقه بعلمه وحكمته وهو العليم الحكيم، والفضلُ بيـد الله يُؤتيه من يشـاء والله ذو الفضل العظيم.

الباب الأول

في تقدير المقادير قبل خلق السموات والأرض

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كتَبَ الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألف سنةٍ وعرشُه على الماء»[1] رواه مسلم في الصحيح.

وفيه دليل على أن خَلْق العرش سابقٌ على خلق القلم، وهذا أَصَحُّ القولين لِما رَوَى أبو داود في سُنَنه عن أبي حفصة الشامي قال: قال عُبادةُ بن الصامت لابنه: يا بني إنك لن تجدَ طعم [حقيقه][2] الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكُ لِيُخْطِئَكَ، وأمَّا أخطأك لم يكن لِيُصيبَك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن أوّل ما خَلَقَ الله القلَمَ، فقال له اكتب، فقال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال اكتبْ مقاديرَ كلِّ شيء حتى تقوم الساعة» يا بُني: [إني][3] سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ مات على غير هذا فليس مني»[4].

وكتابةُ القلمِ للقدر كان في الساعة التي خُلِقَ فيها لِما رواه الإمام أحمد في

---

(١) رواه مسلم برقم /٢٦٥٣/ في القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام. ورواه أيضاً الترمذي بلفظ قريب منه برقم /٢١٥٧/ في القدر، باب رقم (١٨).

(٢) هذه الزيادة من سنن أبي داود.

(٣) هذه الزيادة من أصل الحديث، كما في سنن أبي داود.

(٤) رواه أبو داود برقم /٤٧٠٠/ في السنة، باب القدر، وسنده صحيح، ورواه أيضاً الترمذي برواية أطول من هذه وفيها ذكر اسم ابن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو (الوليد) انظر سنن الترمذي برقم /٢١٥٦/ في القدر، باب رقم (١٧).

مسنده من حديثِ عبادةَ بنِ الصامت، قال: حدثني أبي قال: دخلتُ على عبادةَ وهو مريض أتخايلُ فيه الموتَ فقلت يا أبتاه أوْصِني واجتهدْ لي، فقـال أجلسوني، فلما أجلسـوه قال: يـا بني إنك لن تجـد طعم الإيمـان ولن تبلغ حقّ حقيقـةِ العلم بـالله تبارك وتعالى حتى تؤمنَ بالقدر خيـرِه وشرّه. قلتُ: يـا أبتاه، وكيفَ لي أن أعلم مـا خيـرُ القدر وشـرّه؟ قال: تعلُم أنَّ مـا أخطأك لم يكن ليصيبـك وما أصـابك لم يكن ليخـطئك، يـا بني إني سمعتُ رسـول الله ﷺ يقـول: «إنَّ أوّلَ مـا خَلَق الله تعـالى القلَمَ، ثم قال: اكتبْ، فجَرَى في تلك الساعةِ بما هو كائن إلى يوم القيامة، يا بني إنْ متَّ ولستَ على ذلك دخلتَ النار»[1].

وهذا الذي كتبه القلَمُ هو القدرُ لِما رواه ابنُ وَهْب[2]، أخبرني عمر بنُ محمـد أن سليمان بنَ مهران حدثه قال: قال عُبـادةُ بن الصامت ادعـوا لي ابني ـ وهو يمـوتُ ـ لعلّي أخبرهُ بما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقول: «إن أوّل شيء خلقـه الله من خلقه القلَمُ، فقال له اكتبْ، فقـال يا رب مـاذا أكتبُ؟ قال: القـدرَ» قال رسـول الله ﷺ: «فمَنْ لم يؤمن بالقدر خيرِه وشره أحرقه الله بالنار»[3].

وعن عبد الله بن عباسٍ قال: كنتُ خَلْفَ النبي ﷺ يوماً فقال لي: «يـا غلامُ إني أعلمـك كلمـاتٍ: احفظ الله يحفـظْك، احفظ الله تجـدْه تجـاهـك، إذا سـألتَ [فـاسأل][4] الله، وإذا استعنتَ فـاستعنْ بـالله، واعلَمْ أن الأمـة لـو اجتمعتْ على أن

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣١٧/٥) وهو حديث صحيح يشهد له ما قبله.

(٢) (ابن وهب): هـو الإمام الفقيـه، المحدث، الثقـة، الحافظ، المصنف، صـاحب مالـك بن أنس: عبـد الله بن وهب بن مسلم، أبو محمـد، المصري، القـرشي الفهري بـالولاء، ولـد بمصر في ذي العقدة سنة خمس وعشرين ومائة، وتوفي يوم الأحد، لأربع بقين من شعبـان، سنة سبع وتسعين ومائة بمصر. ولمزيد من المعرفة راجع كامل ترجمته للدكتـور عبد العـزيز عبد الرحمن محمد الهيثم على تحقيق كتاب القدر لابن وهب.

(٣) رواه ابن وهب في كتاب القدر ص ١٢١ وفي سنده إنقطاع إذ لم يذكر الواسطة بين سليمـان بن مهـران (وهو الأعمش) وبين عبـادة، ولكن الحديث أتى مـوصـولاً من طـريق ابن لهيعـة أخـرجه الإمـام أحمد في المسنـد (٣١٧/٥)، وابن أبي عـاصم في السنـة (٤٨/١ ـ ٥٠)، ورجاله ثقات غير ابن لهيعة وهو مدلس سيء الحفظ، ولكن للحديث روايات أخرى متعـددة ذكرها ابن أبي عاصم في السنة ترفعه لدرجة الحسن كما أشار إلى ذلـك الشيخ الألبـاني في تخريج السنة (٥٠/١).

(٤) الأصل: فَسَل. وقد تم تصحيحها من أصل الحديث عند الترمذي رحمه الله.

ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كَتَبه الله لـك، وإن اجتمعوا على أن يُضـروك لم يضـروك إلا بشيء قد كتبـه الله عليك، رُفعت الأقـلامُ وجَفَّت الصُّحف»[1]. رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح».

وعن أبي هريرة قال: قلتُ يا رسول الله إني رجل شاب، وأنا أخـاف على نفسي العَنتَ[2] ولا أجـدُ مـا أتـزوج بـه النسـاء، فسكتَ عنّي، ثم قلتُ مثـلَ ذلـك فقـال النبي ﷺ: يا أبا هـريرة جَفَّ القلم بما أنت لاقٍ[3] فاختص على ذلـك أو ذَرْ»[4] رواه البخاري في صحيحه قال: حدثنا أَصْبَغ حدثنا ابن وهب عن يونس عن الزُّهري عن أبي سَلَمـه بن عبد الـرحمن عن أبي هريـرة ورواه ابنُ وهب في كتاب القـدر. وقال فيه: «فائذنْ لي أن أختصي» قال: فسكت عني حتى قلت ذلك ثلاث مـرات فقال: «جفَّ القلم بما أنت لاق».

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا عبـد المؤمن هو ابن عبـد الله قال كنـا عند الحسن فأتاه يزيد بن أبي مريـم السلولي يتوكأ على عصا فقال: يا أبا سعيد أخبـرني عن قول الله عـزّ وجلّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٥١٦/ في صفة القيـامة، بـاب رقم (٥٩) وقال: هـذا حديث حسن صحيح. وهو كما قال، وقـد ذكر الحـافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله في (جـامع العلوم والحكم) هذا الحديث وقـال: روي هذا الحـديث عن ابن عباس من طـرق كثيرة من روايـة ابنه علي ومولاه عكـرمة وعـطاء بن أبي رباح وعمـرو بن دينار وعبيـد الله بن عبد الله، وعمـر مـولى عفرة، وابن أبي مليكـة وغيرهم أ. هـ. انـظر جامـع العلوم والحكم الحديث التـاسع عشر ص ١٦٠.

(٢) (العَنَت): الإثم والفجور والزنى، والعنت أيضاً: الوقوع في أمرٍ شاق.

(٣) (جف القلم بما أنت لاق): قال الحافظ في الفتح (١١٩/٩): أي نفذ المقدور بما كتب في اللوح المحفوظ، فبقي القلم الذي كتب فيه جافاً لا مداد فيه لفراغ ما كتب به.

(٤) رواه البخاري تعليقاً (١١٨/٦) في النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء. وقـال الحفاظ في الفتـح (١١٩/٩): كـذا في جميـع الـروايـات التي وقفت عليهـا. وكـلام أبي نعيم في المستخرج يشعر بأن قال فيه حدثنا، وقد وصله جعفر الغريـابي في كتاب القـدر. والجوزقي في الجمع بين الصحيحين، والاسماعيلي من طرق عن (أصبغ) وأخرجه أبـو نعيم من طريق حـرملة عن ابن وهب. وذكر مغلطاي أنـه وقع عنـد الطبـري: رواه البخـاري عن أصبـغ بن محمـد وهو غلط، وهـو أصبغ بن الفـرج ليس في آبائـه محمـد. ورواه ابن وهب أيضـاً في كتـاب القدر ص ٩٩، ولا يؤثـر في الحديث كـون يـونس بن يـزيـد يهم قليـلاً لأن النسـائي صححه من رواية يونس عن الزهري (٥٩/٦) في النكاح، باب النهي عن التبتل.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[1] فقال الحسن: نعم، والله إن الله ليقضي القضية في السَّماء ثم يضربُ لها أجلًا أنه كائنٌ في يوم كذا وكذا في ساعة كذا وكذا، في الخاصة والعامة، حتى إن الرجل ليأخذُ العصا ما يأخذُها إلا بقضاء وقدر. قال: يا أبا سعيد والله لقد أخذتُها وإني عنها لغني ثم لا صبرَ لي عنها، قال الحسن: أوَ لا تَرَى.

واختُلفَ في الضمير في قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ فقيلَ هو عائد على الأنفسِ لقربها منه، وقيل هو عائد على الأرض، وقيلَ عائدٌ على المصيبة.

والتحقيقُ أن يقال هو عائدٌ على البرية التي تعم هذا كلَّه، ودلَّ عليه السياقُ وقولُه «نبرأها» فينتظمَ التقاديرَ الثلاثةَ انتظاماً واحداً، والله أعلم.

قال ابن وهب أخبرني عمر بن محمد أن سليمان بن مهران حدثه، قال: قال عبد الله بن مسعود: إن أول شيء خلقه الله عزّ وجلّ من خلقه القلم، فقال له اكتبْ، فكتب كلّ شيء يكون في الدنيا إلى يوم القيامة، فيُجْمعُ بين الكتاب الأول وبين أعمال العباد فلا يخالف ألِفاً ولا واواً و [لا] ميماً[3].

وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إنَّ الله عزّ وجلّ خَلَق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره، فمنْ أصابه من ذلك النور شيء اهتدى، ومَنْ أخطأهُ ضل» قال عبد الله فلذلك أقول: «جف القلم بما هو كائن»[4] رواه الإمام أحمد.

وقال أبو داود حدثنا عباس بن الوليد بن مزيْد قال: أخبرني أبي قال: سمعتُ الأوزاعي قال: حدثني ربيعة بن يزيد ويحيى بن أبي عمرو الشيباني قال: حدثني عبد الله بن فيروز الديلمي قال: دخلتُ على عبد الله بن عمرو بن العاصْ وهو في حائط له بالطائف يُقال له الوَهْط فقلتُ خِصالٌ بَلَغتني عنكَ تُحدِّث بها عن

---

(١) سورة الحديد، آية /٢٢/.

(٢) انظر الرواية في تفسير ابن كثير (٤/٢٧٥).

(٣) حديث موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه، ولكن له حكم المرفوع لأنه من الأمور الغيبية التي لا تعرف إلا من طريق الوحي، رواه ابن وهب في كتاب القدر ص ١٣٥.

(٤) إسناده صحيح. رواه الإمام أحمد في المسند (٢/١٩٧). ورواه الترمذي أيضاً في الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة برقم /٢٦٤٤/. وقال الترمذي وإسناده حسن.

رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ شرب الخمرَ لم تُقبل توبتُه أربعينَ صباحاً، وإنّ الشقيّ من شقيَ في بطن أمه»، وقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور يومئذٍ اهتدى ومن أخطأه ضلّ، فلذلك أقولُ: «جفَّ القلم على علم الله»[1].

ورواه الإمام أحمد في مسنده أطولَ من هذا عن عبد الله بن فيروز الديلمي قال: دخلتُ على عبد الله بن عمرو وهو في حائط له بالطائف يقال له الوَهْط وهو مُخاصِرٌ فتًى من قريش يُزَنُّ[2] بشرب الخمر، فقلتُ: بلغني عنك حديثٌ أن من شرب شربة خمر لم تقبل توبته أربعين صباحاً، وأن الشقِيّ من شقي في بطن أمه، وأن من أتى بيتَ المقدس لا ينهزه إلا الصلاةُ فيه خَرَجَ من خطيئته مثلَ يومِ وَلَدته أمه، فلما سمع الفتى ذكر الخمرِ اجتذب يده من يده ثم انطلق، فقال عبد الله بن عمرو: إني لا أحل لأحد أن يقول عليَّ ما لم أقلْ، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: من شرب الخمر شَربة لم تُقبل له صلاةٌ أربعينَ صباحاً فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم تُقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد، قال: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيهُ من ردغه الخبال[3] يوم القيامة.

قال: وسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عزّ وجلّ خلَقَ خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمنْ أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضَلّ، فلذلك أقول جفّ القلمُ على علم الله».

وسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إن سليمان بن داود سأل الله عزّ وجلّ ثلاثاً فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة. سأل الله تعالى: حكماً يصادف حكمهُ فأعطاه الله إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيّما رجل خَرَجَ من بيته لا يريدُ إلا الصلاة في هذا المسجد خَرَجَ من خطيئته مثل يوم وَلَدَتْه

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده برقم (٢٢٩١/، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٠) وقال: هذا حديث صحيح قد تداوله الأئمة وقد احتجا بجميع رواته ثم لم يخرجاه ولا أعلم له علة، ووافقه الذهبي.

(٢) (يُزَنُّ): أي: يرمى به، ويعاب عليه به.

(٣) (ردغة الخبال) أي: طين ووحلٌ كثير. وقد سئل رسول الله ﷺ عن ردغه بالخبال فقال: عَرق أهل النار، أو عصارة أهل النار.

أمه. فنحن نرجو أن يكون الله تعالى عزّ وجلّ قد أعطانا إياه[1]. رواه الحاكم في صحيحه، وهو على شرط الشيخين ولا علة له.

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/١٧٦ و١٩٧). وإسناده صحيح. ورواه الحاكم في المستدرك (١/٣٠) وقال: هذا حديث صحيح قد تداوله الأئمة وقد احتجا بجميع رواته ثم لم يخرجاه ولا أعلم له علة، ووافقه الذهبي.

الباب الثاني

في تقدير الرب تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم، وهو تقدير ثانٍ بعد التقدير الأول

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغَرقد فأتى رسولُ الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة[٢]، فنكَّس، فجعل ينكُت[٣] بمخصرته، ثم قال: ما منكم من أحد، ما من نفسٍ منفوسةٍ[٤] إلا وقد كَتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كُتبتْ شقية أو سعيدة. قال: فقال رجلٌ: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندعِ العمل؟ فقال: فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منّا من أهل الشقاوة فسيصير إلى أهل الشقاوة؟ ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[٥] وفي لفظ: اعملوا فكلٌّ مُيسرٌ، أما أهل السعادة فُييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيُيسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ

---

(١) (بقيع الغرقد): أصل البقيع في اللغة: الموضع الذي فيه أروم الشجر، والغرقد: كبار العوسج وبقيع الغرقد: اسم مقبرة أهل المدينة، وهي داخل المدينة المنورة، معجم البلدان (١/٤٧٣).

(٢) (مخصرة) المخصرة: كالسوط ونحوه مما يمسكه الإنسان بيده من عصى ونحوها.

(٣) (ينكت) النكت: ضرب الشيء بالعصا واليد ليؤثر فيه.

(٤) (نفس منفوسة): أي: مولودة.

(٥) سورة الليل، الآيات /٥ ـ ١٠/.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1] [2].

وعن عمران بن حصين قال: قيل يا رسول الله أَعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: نعم: قيل ففيم يعمل العاملون؟ قال: «كل ميسر لما خُلق له» متفق عليه، وفي بعض طرق البخاري: كل يعمل لما خُلق له، أو لما يسِّر له[3].

وعن أبي الأسود الدؤلي[4] قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناسُ اليوم ويكدحون[5] فيه أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجةُ عليهم؟ فقلت: بل شيء قُضي عليهم ومضى عليهم، قال: فقال: أفلا يكون ظلماً؟ قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً وقلت: كلُّ شيء خَلْقُ الله وملكُ يده فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، قال: فقال لي يرحمك الله إني لم أرِدْ بما سألتك إلا لأحزرَ عقلك، إنّ رجلين من مُزَينة أتيا رسولَ الله ﷺ فقالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناسُ اليوم ويكدحون فيه أشيءٌ قُضي عليهم ومضى فيهم من قدرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون به، مما أتاهم به نبيهم وثبتت [به] الحجة عليهم. فقال: بل شيء قُضي عليهم ومضى فيهم وتصديقُ ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[6] رواه مسلم في صحيحه[7].

وعن شُفيّ الأصبحي عن عبد الله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي

---

(١) سورة الليل: الآيات (٥ ـ ١٠/.
(٢) رواه البخاري في التفسير (٦/٨٤) في تفسير سورة ﴿والليل إذا يغشى﴾، ومسلم برقم /٢٦٤٧/ في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، والترمذي برقم /٢١٣٧/ في القدر، باب ما جاء في الشقاء والسعادة، وأبو داود برقم (٤٦٩٤/ في السنة، باب في القدر. واللفظ للترمذي وأبي داود.
(٣) رواه البخاري (٧/٢١٠) في القدر، باب جفّ القلم على علم الله. ومسلم برقم /٢٦٤٩/ في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه.
(٤) خطأ، والصواب (الدِّيلي) كما في صحيح مسلم.
(٥) (يكدحون) الكدح: السعي والكسب والاجتهاد فيه، وكدُّ النفس في طلبه.
(٦) سورة الشمس، الآيات /٧ و٨/.
(٧) رواه مسلم برقم (٢٦٤٩/ في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه.

يـده كتابـان. فقال: أتـدرون ما هـذان الكتابـان؟ قال: قلنـا: لا، إلا أنْ تخبرنـا يا رسـول الله، قال للذي في يـده اليمنى: هذا كتابٌ من رب العـالمين تبـارك وتعـالى بـأسماء أهـل الجنة وأسمـاء آبائهم وقبـائلهم، ثم أجمـل عليهم فـلا يُـزاد فيهم ولا يُنقص أبداً، ثم قال للذي في يساره: هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبـائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم[1] فلا يواد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، فقال أصحاب رسـول الله ﷺ: فلأي شيء نعمـل إن كـان هـذا أمـراً قـد فُـرغ منـه؟ قـال رسـول الله ﷺ: سدِّدوا وقاربوا[2] فإنَّ صاحب الجنةِ يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يُختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيَّ عمل، ثم قال بيـده فقبضها ثم قال: فـرغ ربكم عزَّ وجـل من العباد، ثمّ قـال باليمنى فنبـذ بها فقـال: فريقٌ في الجنة، ونبذ باليسرى فقال: فـريقٌ في السعير[3]. رواه التـرمذي عن قتيبـة عن ليث أبي قبيـل عن شُفيٍّ، وعن قتيبة عن بكـر بن نصر عن أبي قبيـل به، وقـال حديث حسن صحيح غريب، ورواه النسائي والإمام أحمد، وهذا السياقُ له.

وفي صحيح الحاكم وغيره من حديث أبي جعفـر الرازي حـدثنا الـربيع بن أنس عن أبيِّ العالية عن أبي بن كعب في قوله تعـالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[4] قال: جمعهم له يومئذ جمعاً ما هو كائن إلى يوم القيـامة فجعلهم أزواجـاً ثم صـورهم واستنـطقهم فتكلمـوا وأخـذ عليهم العهـد والميثـاق ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ . . . إلى قوله: ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[5] قال: فـإني أشهد عليكم السمواتِ السبع والأرضين السبعَ وأشهد عليكم أبـاكم آدم أن تقولـوا يومَ القيـامة لم نعلم أو تقـولوا إنـا كنا عن هـذا غافلين، فـلا تشركـوا بي شيئاً، فـإني أرسل إليكم

(١) (أجمـل على آخرهم): أي جمعهم جميعـاً أهل الجنـة وأهل النـار عن آخرهم فـلا يزاد ولا ينقص.

(٢) (سددوا وقاربوا) السداد: الصواب في القول والعمل، والمقاربة: القصد فيهما.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/١٦٧) بإسناد حسن، والترمذي برقم /٢١٤٢/ في القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنـة وأهل النـار. وقال: هـذا حديث حسن صحيح غريب.

(٤) سورة الأعراف، الآية /١٧٢/.

(٥) جزء من الآية /١٧٢/ والآية ١٧٣/ من سورة الأعراف.

رُسلي يذكّرونكم عهدي وميثاقي، وأُنزل عليكم كتبي، فقالوا نشهدُ أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك. ورفع لهم أبوهم آدم فرأى فيهم الغنيَّ والفقير وحسن الصورة وغير ذلك فقال: ربِّ لو سويتَ بين عبادك، فقال: إني أحب أنْ أُشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثلَ السُّرجُ[1]، وذكر تمام الحديث.

وفي صحيحه وجامع الترمذي من حديث هشام بن يزيد عن يزيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لمّا خلق الله آدم مسحَ ظهره فسقط من ظهره كل نسمة[2] هو خالقها إلى يوم القيامة أمثال الذَّر، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً[3] من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: مَنْ هؤلاء يا رب؟ فقال: هؤلاء ذريتك، فرأى فيهم رجلًا أعجبه وبيصُ ما بن عينيه. فقال: يا رب من هذا؟ قال: ابنك داود، يكون في آخر الأمم، قال: كم جعلت له من العمر؟ قال: ستين سنة، قال: يا رب زده من عمري أربعين سنة، قال الله إذا يكتب ويختم فلا يبدِّل، فلما انقضى عمرُ آدمَ جاءه ملكُ الموت. قال: أو لم يبقَ من عمري أربعون سنة؟ قال له: إذا يكتب ويختم فلا يبدِّل، فلما انقضي عمر آدم جاءه ملك الموت. قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة قال له: أو لم تجعلها لابنك داود؟ قال: فجحد فجحدتْ ذريتهُ، ونَسي فنسيت ذريته وخطىءَ فخطِئتْ ذريته[4]، قال هذا على شرط مسلم.

وفي موطأ مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سُئل عن هذه الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[5] فقال عمر: سمعتُ رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال: إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك في التفسير (٢/٣٢٤ و٣٢٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) (نسمة) النسمة: النفس، وكل دابة فيها روح فهي نسمة.

(٣) (وبيصاً) الوبيص: البريق والبصيص.

(٤) رواه الترمذي برقم /٣٠٧٨/ في التفسير، باب ومن سورة الأعراف، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقد روي من غير وجه عن النبي ﷺ، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٢٥) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٥) جزء من آية (/١٧٢/ من سورة الأعراف.

فاستخرج منه ذريةً فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنـة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذريةً فقال: خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهـل النار يعملون، فقـال رجل يا رسول الله ففيم العمل؟ فقـال: إن الله إذا خلق العبدَ للجنـة استعمله بعمل أهـل الجنة حتى يمـوت على عملٍ من أعمـال أهل الجنـة فيدخله بـه الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمـل أهلِ النـار حتى يموت على عمـلٍ من أعمال أهـل النار فيدخله النار[1] .

قال الحاكم: هذا الحديث على شـرط مسلم، وليس كمـا قـاله بـل هو حـديث منقطع، قال أبـو عمر: هـو حديث منقـطع فإن مسلم بن يسـار هذا لم يلق عمـر بن الخطاب، بينهما نعيم بن ربيعة، هذا إن صـح أن الذي رواه عن زيـد ابن أبي أنيسة فذكر فيه نعيم بن ربيعة، إذ ليس هو بأحفظ من مـالك ولا ممن يُحتـج به إذا خـالفه مالك، ومع ذلك فإن نعيم بن ربيعة ومسلم بن يسار جميعاً مجهـولان غيرُ معـروفين بحمْل العلم ونقْل الحـديث، وليس هو مسلم بن يسـار العابـدَ البصريَّ، وإنمـا هو رجل مدني مجهول. ثم ذكر من تـاريخ ابن أبي خيثمـة قال: قـرأتُ على يحيى بن معين حديثَ مالك هذا فكتب بيده على مسلم بن يسار: لا يُعـرف. قال أبـو عمر: هذا الحديث وإن كان عليلَ الإسناد فإن معناه عن النبي ﷺ قد رُوي من وجوه كثيـرة من حـديث عمـر بن الخـطاب وغيـره، وممن رَوى عن النبي ﷺ معنــاه في القـدر عليُّ بن أبي طـالب، وأبيُّ بن كعب، وابنُ عباس، وابنُ عمـر، وأبو هـريـرة، وأبـو سعيد الخدْري، وأبو سريحة العبادي، وعبـدُ الله بن مسعود، وعبـد الله بن عمرو بن العـاص، وذو اللحية الكـلابي، وعمران بن حصين، وعـائشـة، وأنسُ بن مـالـك، وسراقة بن جعشم، وأبو موسى الأشعـري، وعبادة بن الصـامت، قلتُ: وحذيفـةُ بن اليمان، وزيدُ بن ثابت، وجابرُ بن عبد الله، وحـذيفة بن أُسيـد، وأبو ذر، ومعـاذ بن جبـل، وهشامُ بن حكيم، وأبـو عبد الله ـ رجـلٌ من الصحابـة روى عنه أبـو نضـر،

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٨٩٨ و٨٩٩) في القدر. باب النهي عن القول في القدر، وأبـو داود برقم /٤٧٠٣/ في السنة رباب في القدر، والترمذي برقم /٣٠٧٧/ في التفسير، بـاب ومن سـورة الأعراف. وأحمـد (١/٤٤) والحاكم في المستـدرك (١/٢٧). وقـال التـرمـذي حـديث حسن ومسلم بن يسـار لم يسمـع من عمـر وقـد ذكـر بعضهم في هـذا الإسنـاد بين مسلم بن يسـار وبين عمـر رجـلاً مجهـولاً قلت هـذا: وقـد تكلم المصنـف رحمــه الله على الحديث بما فيه الكفاية.

وعبدُ الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأبو الدرداء، وعمرو بن العاص، وعائشة أم المؤمنين، وعبدُ الله بن الزبير، وأبو أمامة الباهلي، وأبو الطفيل، وعبد الرحمن بن عوف ـ وبعضُ أحاديثهم موقوفة وستمر بك جمعياً متفرقةً في أبواب الكتاب إن شاء الله عزّ وجلّ.

وقال إسحاق بن راهُوية: أخَبرنا بقيّةُ بن الوليد قال: أخبرني الزبيدي محمد بن الوليد عن راشد بن سعد عن عبد الرحمن بن أبي قتادة عن أبيه عن هشام بن حكيم بن حزام أن رجلًا قال: يا رسول الله أتُبتدأ الأعمال أم قد مضى القضاء؟ فقال: إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه فقال: هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار، فأهلُ الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهلُ النار ميسرون لعمل أهل النار[1].

قال إسحاق: وأخبرنا عبدُ الصمد حدثنا حماد حدثنا الحريري عن أبي نصرة أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي فقالوا له: ما يُبكيك؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إن الله قبض قبضةً بيمينه وأخرى بيده الأخرى قال: هذه لهذه وهذه لهذه ولا أبالي، فلا أدري في أي القبضتين أنا[2].

أخبرنا عمرو بن محمد بن إسماعيل بن رافع عن المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن الله تعالى خلق آدم من تراب ثم جعله طيناً ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار كان إبليس يمر به فيقول: خُلقتَ لأمر عظيم، ثم نفخَ الله فيه من روحه قال: يا رب ما ذريتي؟ قال: اخترْ يا آدم، قال: اخترْت يمينَ ربي وكلتا يدَي ربي يمين، فبسط الله كفه فإذا كلُّ منْ هو كائن من ذريته في كف الرحمن[3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (١١١/٩)، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٠/٧) وقال: رواه البزار والطبراني، وفيه بقية بن الوليد وهو ضعيف، ويحسن حديثه بكثرة الشواهد واسناد الطبراني حسن، وقد حسنه شيخنا الألباني حفظه الله في تخريج السنة برقم /١٦٨/.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٦/٤ و١٧٧). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٩/٧). وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. وله شواهد كثيرة في المجمع.

(٣) جزء من حديث طويل ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٠/٨) وقال: رواه أبو يعلى وفيه =

أخبرنا النضر أخبرنا أبو معشر عن أبي سعيد المقبري ونافع مولى الزبير عن أبي هريرة قال: لما أراد الله أن يخلق آدم، فذكر خلق آدم، فقال له: يا آدمُ أيَّ يديَّ أحبُّ إليك أن أُريك ذريتك فيها؟ قال: يمينُ ربي وكلتا يديْ ربي يمين، فبسط يمينه وإذا فيها ذريتُه كلهم ما هو خالقٌ إلى يوم القيامة، الصحيح على هيئته والمُبتلى على هيئته والأنبياء على هيئاتهم، فقال: ألا أعفيتهم كلهم فقال: إني أحببتُ أن أشكر، وذكرَ الحديث.

وقال محمد بن نصر المروزي حدثنا محمد بن يحيى ثنا سعيد بن أبي مريم أنا الليث بن سعد حدثني ابن عجلان عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن عبد الله بن سلام قال: خَلَق الله آدمَ ثم قال بيده فقبضها فقال: اخترْ يا آدمُ، فقال: اخترت يمين ربي وكلتا يديك يمين، فبسطها فإذا فيها ذريته، فقال: من هؤلاء يا رب؟ قال: منْ قضيت أن أخلق من ذريتك من أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة.

قال: وثنا إسحاق بن راهويه أنا جعفر بن عون ثنا هشام بن سعد عن زيد بن سالم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كلُّ نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة[1]، وذكر الحديث.

وقال إسحاق بن الملاي ثنا المسعودي عن علي بن نديمة عن سعد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[2] قال: إن الله أخذَ على آدم ميثاقه أنه ربُّه،وكتب رزقه وأجله ومصيباته، ثم أخرج من ظهره ولدَه كهيئة الذَّر فأخذ عليهم الميثاق أنه ربهم وكتب رزقهم وأجلهم ومصيباتهم[3].

= إسماعيل بن رافع، قال البخاري: ثقة مقارب الحديث. وضعفه الجمهور، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي برقم /٣٠٧٨/ في التفسير، باب ومن سورة الأعراف، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد روى من غير وجه عن النبي ﷺ وأخرجه الحاكم (٢/٣٢٥) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) الآية /١٧٢/ من سورة الأعراف.

(٣) أخرجها الطبري (٩/١١١) في جامع البيان.

قال: وحدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن ابن عباس قال: مسح الله ظهر آدم فأخرج كلَّ طيبٍ في يمينه وفي يده الأخرى كل خبيث(١).

وقال محمد بن نصر حدثنا الحسن بن محمد الزعفراني وثنا حجاج عن ابن جريج عن الزبير بن موسى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إن الله ضرب منكبه الأيمن فخرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء نقية، فقال: هؤلاء أهل الجنة، ثم ضرب منكبه الأيسر فخرجت كل نفس مخلوقةٍ للنار سوداء فقال: هؤلاء أهل النار، ثم أخذ عهده على الإيمان والمعرفة به والتصديق له وبأمره من بني آدم كلّهم وأشهدهم على أنفسهم فآمنوا وصدقوا وعرفوا وأقرّوا(٢).

حدثنا إسحاق حدثنا روح بن عبادة بن محمد بن عبد الملك عن أبيه عن الزبير بن موسى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بهذا الحديث وزاد: قال ابن جريج وبلغني أنه أخرجهم على كفه أمثال الخردل(٣).

قال إسحاق وأخبرنا جرير عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ قال: أخذهم كما يُؤخذ بالمشط(٤).

وفي تفسير أسباط عن السدّي عن أصحابه أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الآية، قال: لما أخرج الله آدمَ من الجنة قبل أن يهبط من السماء مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذريةً بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذرّ فقال لهم: أدخلوا الجنة برحمتي، ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذريةً سوداء كهيئة الذر فقال: ادخلوا النار ولا أبالي، فذلك حين يقولُ أصحابُ اليمين وأصحابُ الشمال، ثم أخذ منهم الميثاق، فقال: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى، فأعطاه طائفةٌ طائعين، وطائفة كارهين على وجه التقية، فقال هو والملائكة: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ

---

(١) أخرجها الطبري (٩/١١١) في جامع البيان.
(٢) و(٣) أخرجها الطبري (٩/١١٥) في جامع البيان.
(٤) انظر ابن جرير الطبري في جامع البيان (٩/١١٣).

أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾[1] الآية، فلذلك ليس أحدٌ من ولدِ آدمَ إلا وهو يعرفُ أن الله ربه، ولا مشركٌ إلا وهو يقول: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[2] فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[3] وذلك حين يقول: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[4] وذلك حين يقول: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[5] قال: يعني يوْمَ أخذِ الميثاق[6].

وقال إسحاق حدثنا وكيع حدثنا مضر عن ابن سليط قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: خلق الله الخلق قبضتين، فقال لمن في يمينه: ادخلوا الجنة بسلام، وقال لمن في يده الأخرى: ادخلوا النار ولا أبالي.

وأخبرنا جرير عن الأعمش عن أبي ظبيان عن رجل من الأنصار من أصحاب محمد ﷺ قال: لما خلق الله الخلق قبَض قبضتين بيده فقال لمن في يمينه: أنتم أصحابُ اليمين، وقال لمن في اليد الأخرى: أنتم أصحاب الشمال فذهبت إلى يوم القيامة.

وقال عبد الله بن وهب في كتاب القدر: أخبرني جرير بن حازم عن أيوب السجستاني عن أبي قلابة قال: إن الله عز وجل لما خلقَ آدم أخرج ذريته، ثم نَشَرَهم في كفه، ثم أفاضهم، فألقى التي في يمينه عن يمينه، والتي في يده الأخرى عن شماله ثم قال: هؤلاء لهذه ولا أبالي، وهؤلاء لهذه ولا أبالي، وكُتِبَ أهلُ النار وما هم عاملون، وأهلُ الجنة وما هم عاملون، فطُويَ الكتابُ ورُفع القلم[7].

---

(١) الآية /٢٣/ من سورة الزخرف.
(٢) الآية /١٧٢ و١٧٣/ من سورة الأعراف.
(٣) الآية /١٧٢/ من سورة الأعراف.
(٤) الآية /٨٣/ من سورة آل عمران.
(٥) الآية /١٤٩/ من سورة الأنعام.
(٦) راجع تفسير الآية عند ابن جرير الطبري (١١٧/٩) في جامع البيان.
(٧) رواه ابن وهب في كتاب القدر ص ٨١ و٨٢، وهذا الأثر موقوف على أبي قلابة، وأبو قلابة لم يسمع من كثير من الصحابة، وجميع مروياته عن الصحابة مرسلة، إلا من ثلاثة: هم مالك بن الحويرث، وأنس بن مالك، وثابت بن الضحاك. انظر جامع التحصيل ٢٥٨، والمراسيل لابن أبي حاتم ١٠٩.

وقال أبو داود: حدثنا مسدد حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي صالح فذكره، قال ابن وهب: وأخبرني عمرو بن الحارث وحيوة بن سريح عن ابن أبي أسيد هكذا قال عن أبي فراس حدثه أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: إن الله عزّ وجلّ لما خلقَ آدم نفضه نَفْضَ المِرْود فأخرج من ظهره ذريته أمثالَ النَّغَفِ، فقبضهم قبضتين، ثم ألقاهما ثم قبضهما فقال: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

قال ابن وهب: وأخبرني يونس بن يزيد عن الأوزاعي[2] عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: مَنْ كان يزعم أن مع الله قاضياً أو رازقاً أو يملك لنفسه ضراً، أو نفعاً، أو موتاً، أو حياة، أو نشوراً، لقِيَ الله فأدحض[3] حجَّتَه وأخرقَ[4] لسانَه، وجعلَ صَلاتَه وصيامَه هباءً، وقطع به الأسبابَ وأكبَّة الله على وجهه في النار، وقال إن الله خلقَ الخَلْق فأخذَ منهم الميثاقَ وكان عرشُه على الماء[5].

وذكر ابن داود ثنا يحيى بن حبيب ثنا معتمر ثنا أبي عن أبي العالية في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[6] قال: صاروا فريقين، وقال لمن سَوَّد وجوهَهم وغيَّرهم: أكفرتم بعد إيمانكم، قال: هو الإيمانُ الذي كان حيث كانوا أمةً واحدةً مسلمين[7].

---

(١) الآية /٧/ من سورة الشورى. والأثر ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٦٠٦) وعزاه للبيهقي في الأسماء والصفات.

(٢) (الأوزاعي): هو عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو الأوزاعي، أبو عمرو الفقيه، ثقة جليل، إلا أنه تكلم في حديثه عن الزهري ويحيى بن أبي كثير، مات سنة سبع وخمسين ومائة وقد روى له أصحاب السنن الستة.

(٣) (أدحض): أي أزال وأبطل.

(٤) (أخرق لسانه): أي قطع لسانه.

(٥) رواه ابن وهب في كتاب القدر ص ١١٧، والأثر منقطع لم تذكر فيه الواسطة بين عبدالله بن عمرو وبين الأوزاعي.

(٦) الآية /١٠٦/ من سورة آل عمران.

(٧) رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٤/٤٠/)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/٢٩١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والجميع عن أبي العالية عن أبيّ بن كعب.

قال أبو داود وحدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد حدثنا أبو نعامة السعدي قال: كنا عند أبي عثمان النهدي فحمدنا الله عزّ وجلّ فذكرناه ودعوناه فقلت: لأنا بأول هذا الأمر أشدُّ فرحاً مني بآخره، فقال أبو عثمان: ثَبَّتَكَ الله كنا عند سلمان فحمدنا الله عزّ وجلّ وذكرناه ودعوناه فقلت، لأنا بأول هذا الأمر أشدَ فرحاً مني بآخره، فقال سلمان: ثَبَّتَكَ الله إن الله تبارك وتعالى لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج من ظهره ما هو ذارئ إلى يوم القيامة، فخلقَ الذكرَ والأنثى والشقاوةَ والسعادةَ والأرزاقَ والآجالَ والألوانَ، ومَن عَلِمَ السعادةَ فعَلَ الخيرَ ومجالسَ الخير، ومن علم الشقاوةَ فعَلَ الشرَّ ومجالسَ الشر[1].

وقال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد أخبرنا عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: مسح ربك تعالى ظهرَ آدم فأخرج منه ما هو ذارئ إلى يوم القيامة، أخذ عهودَهم ومواثيقهم، قال سعيد[2]: فيَرَوْن أن القلم جفّ يومئذ[3].

وقال الضحاك: خرجوا كأمثال الذر ثم أعادهم، فهذه وغيرها تدل على أن الله سبحانه قدّر أعمال بني آدم وأرزاقَهم وآجالَهم وسعادَتهم وشقاوَتهم عَقيب خلق أبيهم وأراهم لأبيهم آدمَ وصورهم وأشكالَهم وحِلاهم، وهذا ـ والله أعلم ـ أمثالُهم وصورُهم.

وأما تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[4] الآية، به ففيه ما فيه، وحديثُ عمَرَ لو صحَّ لم يكن تفسيراً للآية، وبيانَ أن ذلك هو المراد بها، فلا يدل الحديثُ عليه، ولكن الآية دلّت على أن هذا الأخذ من بني آدم لا من آدم، وأنه من ظهورهم لا من ظهره، وأنهم ذرياتهم أمةً بعد أمة، وأنه إشهاد تقوم به الحجة له سبحانه فلا يقول الكافر يوم القيامة كنتُ غافلاً عن هذا، ولا يقول الولدُ أشركَ أبي وتبعتُه، فإنّ ما فطَرَهم الله عليه من الإقرار بربوبيته وأنه ربهم وخالقُهم وفاطرهم حجةٌ عليهم، ثم دلّ حديثُ عمر وغيره على أمر آخر لم تدل عليه الآيةُ وهو القدَر السابقُ والميثاقُ الأول، وهو سبحانه لا يحتجُّ عليهم بذلك وإنما يحتجّ عليهم برُسله

---

(١) انظر الأثر في الدر المنثور للسيوطي (٣/٦٠٢).
(٢) (سعيد): أي سعيد بن جبير راوي الأثر عن ابن عباس.
(٣) انظر الأثر في جامع مع البيان للطبري (٩/١١٢).
(٤) الآية /١٧٢/ من سورة الأعراف.

وهو الذي دلت عليه الآية، فتضمنت الآيةُ والأحاديثُ إثباتَ القدَرِ والشرعِ وإقامةَ الحجة، والإيمانَ بالقدر، فأخبر النبيُّ ﷺ لما سُئل عنها بما يحتاج العبد إلى معرفته والإقرار به معها وبالله التوفيق.

الباب الثالث

في ذكر احتجاج آدمَ وموسى في ذلك
وحكم النبي ﷺ لآدم صلواتُ الله وسلامهُ عليهم

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: احتج[1] آدمُ وموسى فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خَيَّبْتَنَا وأخرجتَنَا من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخطَّ لك التوراةَ بيده، أتلومني على أمر قدّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فقال النبي ﷺ: «فحجَّ آدمُ موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى» وفي رواية «كتَبَ لك التوراةَ بيده».

وفي لفظٍ آخر: تحاجَّ آدمُ وموسى فحج آدمُ موسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أغويتَ الناسَ وأخرجتَهم من الجنة، فقال آدم: أنت موسى الذي أعطاه الله علْمَ كل شيءٍ واصطفاه على الناس برسالته؟ قال: نعم، قال أفتلومني على أمر قُدر عليَّ قبل أن أُخلق.

وفي لفظٍ آخر: احتج آدم وموسى عند ربهما فحجَّ آدمُ موسى، فقال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسْجدَ لك ملائكته وأسْكنك في جنته، ثم أهبطتَ الناسَ بخطيئتك إلى الأرض، قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاكَ الألواحَ فيها تبيانُ كل شيء وقرّبك نجِيّاً فبكمْ وجدتَ الله كتَبَ التوراةَ قبل أن أُخلق؟ قال موسى بأربعين عاماً، قال آدم:

---

(١) (احتج) من المحاجة: وهي المجادلة والمخاصمة، يُقال: حاججت فلاناً فحججته، أي: جادلته فغلبته.

هل وجدتَ فيها: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾[1]. قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملتُ عملاً كتبه الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى».

وفي لفظ آخر: احتج آدم فقال له موسى أنت الذي أخرجتنا خطيئتك من الجنة[2] وذكر الحديث وهو متفق على صحته.

وهذا التقدير بعد التقدير الأول السابق بخلق السموات بخمسين ألف سنة.

وقد ردّ هذا الحديثَ من لم يفهمه من المعتزلة كأبي علي الجبائي[3] ومَنْ وافقه على ذلك، وقال: لو صح لَبَطلت نبوّات الأنبياء، فإنّ القدرَ إذا كان حجةً للعاصي بَطَل الأمرُ والنهي، فإن العاصي بتَرك الأمرِ أو فعلِ النهي إذ صحّت له الحجة بالقدَر السابق ارتفع اللوم عنه.

وهذا من ضلال فريق الاعتزال وجهلهم بالله ورسوله وسنته، فإن هذا حديثٌ صحيح متفق على صحته، لم تزل الأمةُ تتلقاه بالقبول من عهد نبيها قرناً بعد قرن وتقابله بالتصديق والتسليم، ورواه أهلُ الحديث في كتبهم وشهدوا به على رسول الله ﷺ أنه قاله، وحكموا بصحته، فما لأجهلِ الناس بالسنة ومَنْ عُرف بعداوتها وعداوةِ حمَلَتها والشهادةِ عليهم بأنهم مُجسِّمةٌ ومُشبِّهة حَشْويةٌ وهذا الشأن؟

ولم يزلْ أهلُ الكلام الباطل المذموم موكّلين برد أحاديث رسول الله ﷺ التي تخالفُ قواعدَهم الباطلة وعقائدهم الفاسدة كما ردوا أحاديثَ الرؤية، وأحاديثَ عُلوّ الله على خلقه، وأحاديثَ صفاته القائمة به، وأحاديثَ الشفاعة، وأحاديث نزوله إلى سمائه ونزوله إلى الأرض للفصل بين عباده، وأحاديثَ تكلمه بالوحي كلاماً يسمعه مَن شاء من خلقه، حقيقةً، إلى أمثال ذلك. وكما رَدَّت الخوارجُ[4]

---

(١) سورة طه، آية /١٢١/.

(٢) هذه الروايات المتعددة رواها البخاري (٢١٤/٧) في القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، ومسلم برقم /٢٦٥٢/ في القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، والموطأ في القدر باب النهي عن القول في القدر (٨٩٨/٢)، وأبو داود برقم /٤٧٠١/ في السنة، باب في القدر، والترمذي برقم /٢١٣٥/ في القدر، باب رقم (٢).

(٣) (الجبائي): شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف، أبو علي، محمد بن عبد الوهاب البصري مات بالبصرة سنة ثلاث وثلاث مئة. أخذ عنه في الكلام أبو الحسن الأشعري، ثم خالفه ونابذه وتابع مذهب أهل السنة والجماعة. سير أعلام النبلاء (١٨٣/١٤).

(٤) (الخوارج): هم الذين خرجوا على الخليفة الراشد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه =

والمعتزلة[1] أحاديثَ خروجِ أهلِ الكبائر من النار بالشفاعة وغيرها.

وكما ردت الرافضةُ[2] أحاديثَ فضائل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة،

= يوم صفين، وهم الذين كان أولهم ذو الخويصرة، وأخرهم ذو الشدية، وهم الذين قال فيهم النبي الكريم ﷺ (تحقر صلاة أحدكم في جنب صلاتهم، وصوم أحدكم في جنب صيامهم، ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم)، وهم المارقة الذين قال فيهم النبي ﷺ (سيخرج من ضئضئي هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

ومن أبرز أفكارهم الضالة: قولهم بانحراف عثمان رضي الله عنه بآخر خلافته واستوجبوا له القتل أو العزل. وقولهم: بأن مرتكب الكبيرة كافر ما لم يتب منها، ولهم طريق في مصدر التشريع (السنة) يختلف تماماً عن مذهب أهل السنة والجماعة.

وللخوارج أسماء كثيرة، وكبار فرقهم ستة: الأزارقة والنجدات والصفرية والعجاردة والأباضية والثعالبة، والباقون فروعاً لهم. وعلى الرغم من اندثار هذه الجماعات المنحرفة الضالة فمن المؤسف له جداً أن نجد اليوم من جاء ليجدد تلك الأفكار الضالة، ويعيد مأساة الخوارج. ألا فلنتق الله ولنتذكر دوماً قول الرسول ﷺ (من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما).

أنظر الفصل في الملل والنحل (١/١٥٤ حتى ١٨٥)، والفرق بين الفرق (٧٢ حتى ١٠٩).

(١) (المعتزلة): نشأت هذه الفرقة في العصر الأموي، ولكنها شغلت الفكر الإسلامي في العصر العباسي ردحاً من الزمن، ويرى الأكثرون أن رأس المعتزلة هو واصل بن عطاء عندما اعتزل مجلس الحسن البصري عندما أثيرت مسألة مرتكب الكبيرة، ومن أهم معتقداتهم الضالة: القول بخلق القرآن، ونفي صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى، كما يقولون بأن الإنسان خالق أفعال نفسه.

ومن أصولهم أن لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، وكذلك قولهم: إن المسلم العاصي في منزلة بين المنزلتين (أي بين الإيمان والكفر).

هذا وقد تأثر المعتزلة بالفلسفة اليونانية وغيرها وأخذوا منها كثيراً في استدلالهم لأنهم وجدوا فيها ما يرضي نهمهم العقلي، وشغفهم الفكري. وطريقتهم في معرفة العقائد عقلية بحتة، فإذا ظهر خلاف في ظاهر النصوص وبين رأيهم أولوا النصوص لتناسب مقالتهم.

راجع الفرق بين الفرق (١١٤ ـ ٢٠٠) والمذاهب الإسلامية لأبي زهرة من ص (١٢٦ ـ ١٦٠).

(٢) (الرافضة): تطلق هذه التسمية على أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، حيث خرج على هشام بن عبد الملك، فطعن عسكره في أبي بكر فمنعهم من ذلك، فانحازوا عنه فقال لهم: رفضتموني قالوا: نعم. وقيل إن هذا الاسم أطلق عليهم لأنهم =

وكما ردت المعطِّلة[1] أحاديثَ الصفات والأفعال الاختيارية، وكما ردت القدَرية[2] المجوسيةُ أحاديثَ القضاء والقدر السابق.

وكلُّ من أصّل أصلاً لم يؤصله الله ورسولهُ قاده قسْراً إلى رد السنةِ وتحريفها عن مواضعها فلذلك لم يؤصِّل حزبُ الله ورسولِه أصلاً غيرَ ما جاء به الرسول، فهو أصلُهم الذي عليه يعوِّلون، وجُنتهم التي إليها يرجعون.

ثم اختلف الناسُ في فهم هذا الحديث ووجهِ الحجة التي توجهتْ لآدمَ على موسى. فقالت فرقة: إنما حَجَّة لأن آدم أبوه، فحجّة كما يحجّ الرجلُ ابنه، وهذا

= رفضوا زيد بن علي لما سألوا عن رأيه في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأثنى عليهما خيراً، انظر الفرق بين الفرق ص ٢١ وما بعد. ثم اطلقت الرافضة على فرق الشيعة.

وقد قاتل المسلمون الرافضة لأنهم يكفرون جماهير المسلمين ويزعمون أنهم هم المؤمنون ومن سواهم كافر، بل ويكفرون الخلفاء الثلاثة (أبو بكر وعمر وعثمان) ويكفرون من خالفهم في بدعهم التي هم عليها، وما أكثرها من بدع.

(١) (المعطلة): هم الذين يجحدون صفات الله سبحانه، وينكرون قيامها بذاته، وينفون ما دلت عليه من صفات الكمال، وأول من قال بالتعطيل الجعد بن درهمِ الذي ضحى به خالد القسري يوم الأضحى، وقد تلقى القول بالتعطيل ونفي الصفات عن الحق الجهم بن صفوان الذي تنسب إليه الجهمية.

(٢) (القدرية): اسم يطلق على الذين يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، ويقولون أن كل عبد خالق لأفعاله، وأن لا علم لله بذلك، وإنما يعلمه بعد وقوعه: وقد نسبوا إلى ضد ما يقولون، وقيل بأنهم سموا بذلك لأنهم نفوا القدر عن الله وأثبتوه للعبد، وقد وردت النصوص بتسميتهم مجوس هذه الأمة.

وأول من قال بالقدر: رجل من أهل العراق يقال له: (سوسن) وقيل: (سنسوية) كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصر، فأخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان الدمشقي عن معبد. ثم تبنت المعتزلة بدعة القدرية وفلسفوها بعقولهم، حتى أصبحوا يعرفوا بأحد أسمائهم (القدرية) وبذلك نجد أن القدرية فرقتان:

الأولى: هي التي تزعم أن الله لا يعلم الأشياء قبل وجودها، ولم يقدرها قبل وقوعها وإنما يعلمها بعد وقوعها ويقولون إنما الأمر أنف: أي مستأنف مبتدأ بقدرة الإنسان نفسه، وهذه شر الفرقتين.

الثانية: الذين أقروا بعلم الله وأنكروا خلقه لأفعال العباد وزعموا أن العباد هم الخالقون لأنفسهم، وهذا هو مذهب المعتزلة.

انظر الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٢٢/٣/ وما بعدها، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٥٣٤/٢) بالهامش.

الكـلامُ لا محصَّل فيـه البتةَ، فـإنّ حجةَ الله يجِبُ المصيرُ إليها مـع الأبِ كانت أو الابن أو العبدِ أو السيدِ، ولو حَجَّ الرجلُ أباه بحق وَجَب المصيرُ إلى الحجة.

وقالت فرقة: إنما حَجَة لأن الذنبَ كان في شريعةٍ، واللومَ في شريعةٍ. وهذا من جنس ما قبله، إذ لا تأثيرَ لهذا في الحجـة بوجـه، وهذه الأمـةُ تلوم الأممَ المخالفـة لرسلها المتقـدمةَ عليهـا وإنْ كان لم تجمعهم شـريعةٌ واحـدة، ويقبلُ الله شهـادتَهم عليهم وإن كانوا من غير أهل شريعتهم.

وقالت فرقة أخرى: إنما حجّة لأنـه كان قـد تاب من الـذنب والتائبُ من الـذنب كمن لا ذنب لـه ولا يجوز لـومه. وهـذا وإن كان أقـربَ مما قبله فـلا يصح لثـلاثـة أوجه: أحدها: أن آدَم لم يذكر ذلك الوجه، ولا جعَلَه حجة على موسى، ولم يقـل أتلومني على ذنب قد تُبت منه. الثاني: أن موسى أعرفُ بالله سبحانه وبـأمره ودينـه من أن يلومَ على ذنب قد أخبره سبحانه أنه قد تاب على فاعله واجتباه بعدَه وهَداه، فإن هذا لا يجوز لآحاد المؤمنين أن يفعله فَضْلاً عن كليم الرحمن. الثالثُ: أن هذا يستلزم إلغاء ما عَلَّق به النبيُّ ﷺ وَجْهَ الحجةِ واعتبارَ ما ألغاه فلا يُلتفت إليه.

وقالت فرقـة أخرى: إنمـا حجّة لأنـه لامه في غيـر دار التكليف ولو لامـه في دار التكليف لكانت الحُجة لموسى عليه، وهـذا أيضاً فـاسد من وجهين: أحدُهما: أن آدم لم يقل له لُمتني في غير دار التكليف وإنما قال أتلومني على أمر قُـدر عليّ قبل أن أُخلق، فلم يتعرض للدار وإنما احتج في القدر السابق. الثاني: أن الله سبحـانه يلوم الملومين من عبـاده في غيـر دار التكليف، فيلومهم بعـد المـوت ويلومُهم يـوم القيامة.

وقالت فرقة أخرى: إنما حَجّة لأن آدم شهد الحكمَ وجريانَه على الخليقـة وتفرُّدَ الرب سبحانه بربوبيته وأنه لا تُحَرّك ذرة إلا بمشيئته وعلمه، وأنه لا رادّ لقضائـه وقدره وأنـه ما شـاء كان ومـا لم يشأ لم يكن، قـالوا: ومشـاهدةُ العبـد الحكْمَ لا يـدع لـه استقباحَ سيئةٍ لأنه شهد نفسَه عدَمـاً مَحْضاً، والأحكـامُ جاريـة عليه معـروفةٌ لـه وهو مقهورٌ مربوبٌ مدَبَّر لا حيلةَ له ولا قوة له، قالوا: ومَنْ شهـد هذا المشهـدَ سقط عنه اللوم.

وهذا المسلكُ أبطلُ مسلكٍ سُلك في هذا الحديث، وهو شرٌّ من مسلكِ القـدَرية في ردّه، وهم إنمـا ردوه إبطالاً لهـذا القول وردًّا على قـائليـه، وأصـابـوا في ردهم

عليهم وإبطال قولهم، وأخطأوا في رد حديث رسول الله ﷺ، فإن هذا المسلكَ لو صح لبطلَتْ الدياناتُ جملةً وكان القدرُ حُجة لكل مشركٍ وكافر وظالم، ولم يبقَ للحدود معنى، ولا يلامُ جانٍ على جنايتِهِ ولا ظالمٌ على ظلمه، ولا يُنكر مُنكرٌ أبداً، ولهذا قال شيخُ الملحدين ابنُ سينا[1] في إشاراته: العارفُ لا ينكِر مُنكَراً لاستبصاره بسر الله تعالى في القدَر، وهذا كلامٌ منسلخ من الملل ومتابعة الرسل، وأعرَفُ خلْقِ الله به رسلُه وأنبياؤهُ، وهم أعظم الناس إنكاراً للْمُنكر، وإنما أُرسلوا لإنكار المنكر، فالعارفُ أعظمُ الناس إنكاراً للمنكر لبصرته بالأمر والقدر، فإن الأمرَ يُوجب عليه الإنكارَ، والقدرُ يُعينه عليه ويُنفذه له، فيقومُ في مقام: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2] وفي مقام: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[3] فنعبدُه بأمره وقدَره ونتوكل عليه في تنفيذ أمره بقدره، فهذا حقيقةُ المعرفةِ وصاحبُ هذا المقام هو العارفُ بالله، وعلى هذا أجمعت الرسلُ من أولهم إلى خاتمهم، وأما من يقول:

أصبحتُ منفعلاً لما يختارهُ ... مِنّي ففِعلي كلُّه طاعاتُ

ويقول: أنا وإن عصيتُ امرهُ فقد أطعتُ إرادته ومشيئته، ويقول: العارفُ لا ينكر منكراً لاستبصاره بسر الله في القدر فخارجٌ عما عليه الرسلُ قاطبةً وليس هو من أتباعهم. وإنما حكى اللهُ سبحانه الاحتجاجَ في القدر عن المشركين أعداءِ الرسل فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ إلى قوله: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن

(١) (ابن سينا): الفيلسوف أبو علي، الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي بن سينا، البلخي ثم البخاري، صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق، كان أبوه من دعاة الإسماعيلية، وابن سينا يُعد رأس الفلاسفة إذ لم يأت بعد الفارابي مثله، وقد كفره الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال، كما كفر الفارابي، وقد تتبع شيخ الإسلام رحمه الله سقطات ابن سينا وضلالاته، وبيّن ما فيها من زيف وانحراف بالحجة والبرهان في كتابه (درء تعارض العقل والنقل (٨/١).

انظر كامل ترجمته في سير أعلام النبلاء (٥٣١/١٩) وما بعدها.

(٢) سورة الفاتحة، آية /٥/.

(٣) سورة هود، الآية /١٢٣/.

(٤) سورة الأنعام، الآيتان/١٤٨ - ١٤٩/.

شَيۡءٖ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾[3].

فهذه أربعُ مواضعَ حكى فيها الاحتجاج بالقدر عن أعدائه، وشيخهم وإمامهم في ذلك عدوُّه الأحقر إبليس حيث احتج عليه بقضائه فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[4].

فإن قيل: قد عُلم بالنصوص والمعقول صحةُ قولهم: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا، ولو شاء الرحمن ما عبدناهم، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾[5]، وقال: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾[6] فكيف أكذبهم ونَفَى عنهم العلْمَ وأثبتَ لهم الخَرْصَ فيما هم فيه صادقون، وأهلُ السنةِ جميعاً يقولون: لو شاء الله ما أشرك به مشرك ولا كَفَر به كافر، ولا عصاه أحدٌ من خَلْقه، فكيف يُنكر عليهم ما هم فيه صادقون؟

قيل: أنكر سبحانه عليهم ما هم فيه أكذبُ الكاذبين وأفجرُ الفاجرين ولم ينكرْ عليهم صدقاً ولا حقاً، بل أنكر عليهم أبطلَ الباطل، فإنهم لم يذكروا ما ذكروه إثباتاً لقدره وربوبيته ووحدانيته وافتقاراً إليه وتوكلاً عليه واستعانةً به لأمره، ولو قالوا كذلك لكانوا مصيبين، وإنما قالوا معارضين لشرعه ودافعين به لأمره، فعارضوا

---

(١) سورة النحل /٣٥/.
(٢) سورة يسٓ، الآية /٤٧/.
(٣) سورة الزخرف، الآية /٢٠/.
(٤) سورة الحجر، الآية /٣٩/.
(٥) سورة الأنعام، الآية /١١٢/.
(٦) سورة السجدة، الآية /١٣/.

شرعه وأمرَه، ودفعوه بقضائه وقدره، ووافقهم على ذلك كلٌّ من عارض الأمرَ ودفعه بالقدر، وأيضاً فإنهمَ احتجوا بمشيئته العامة وقدرِهِ على محبته لما شاءه ورضاه به وإذْنِهِ فيه، فجَمعوا بين أنواع من الضلال، معارضةِ الأمر بالقدر ودفْعِهِ به والإخبار عن الله أنه يحب ذلك منهم ويرضاه حيث شاءه وقضاه، وأن لهم الحجةَ على الرسل بالقضاء والقدر.

وقد ورثهم في هذا الضلال وتبعهم عليه طوائفُ من الناس ممن يدعي التحقيقَ والمعرفة، أو يُدَّعي فيه ذلك، وقالوا: العارفُ إذا شاهد الحكمَ سقط عنه اللومُ، وقد وقع في كلام شيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري ما يُوهم ذلك، وقد أعاذه الله منه، فإنه قال في باب التوبة من «منازل السائرين»: «ولطائفُ التوبة ثلاثة أشياء:

أوُلها: أن ننظر في الجناية والقضيةِ فنعرف مُرادَ الله فيها إذْ خلَّاك وإتيانَها، فإن الله تعالى إنما يخلِّي العبدَ والذنبَ لأحد معنيين، أن يعرِفَ عِبرتَه في قضائه، وبِرَّه في ستره، وحِلْمَه في إمهال راكبه، وكرمَه في قبول العذر منه، وفضلَه في مغفرته، والثاني: ليقيم على العبد حجةَ عدلِه فيعاقبَه على ذنبه بحجته.

واللطيفةُ الثانية: أن يعلَم أن طَلَب البصير الصادق سنته لم تبق له حسنة بحال لأنه يسير بين مشاهدة المنة ويطلب عيب النفس والعمل[1].

واللطيفةُ الثالثة: أنّ مشاهدَة العبدِ الحكْمَ لم تدعْ له استحسانَ حسنةٍ ولا استقباحَ سيئةٍ، لصعوده من جميع المعاني إلى معنى الحكم».

فهذا الكلامُ الأخيرُ ظاهرُه يبطل استحسانَ الحسن واستقباحَ القبيح والشرائعُ كلُّها مبناها على استحسان هذا واستقباحِ هذا، بل مشاهدُة الحكمِ تزيد البصيرَ استحساناً للحسن واستقباحاً للقبيح، وكلما ازدادتْ معرفتُه بالله وبأسمائه وصفاته وأمره قَوِيَ استحسانُه واستقباحُه، فإنه يوافقُ في ذلك ربَّه ورسلَه ومقتضى الأسماءِ الحسنى والصفات العُلَى.

---

(١) في الكلام غموض، وفي (منازل السائرين): كلمة (النصير) بدل (البصير)، (بسيئة) بدل (سنته)، و(تطلب) بدل (يطلب). انظر مدارج السالكين للشيخ ابن القيم رحمه الله فإنه لم يشرح معنى هذا الكلام.

وقد كان شيخ الإسلام في ذلك موافقاً للأمر، وغضبُه لله ولحدوده ومحارمه، ومقاماته في ذلك شهيرةٌ عند الخاصة والعامة، وكلامُه المتقدمُ بيِّن في رسوخ قدمِه في استقباح ما قبَّحه الله واستحسان ما حسَّنه الله، وهو كالْمُحْكم فيه وهذا متشابهٌ فيُردُّ إلىَ محكمِ كلامه، والذي يليقُ به ما ذكره شيخنا أبو العباس أحمدُ بن إبراهيم الواسطي في شرحه، فذكر قاعدةً في الفناء والاصطلام فقال: «الفناء عبارةٌ عن اصطلام العبد لغلبةِ وجود الحق وقوة العلم به ـ في العبد ـ فيزيدُ بذلك يقينه به، ومعرفتَه به، وبصفاته ـ سبحانه، فيَذهل بذلك كما يذهل انسان في أمر عظيم دَهَمه، فإنه ربما غاب عن شعوره بما دَهمه من الأمور المهمة.

مثالُه رجلٌ وقفَ بين يدي سلطان عظيم قاهر من ملوك الأرض فأذهله ما يلاحظه من هيبته وسلطانه عن كثير مما يشعر به.

وهذا تقريبٌ، والأمرُ فوق ذلك، فكيف بمنْ أشهدَه الله عزّ وجلّ فردانيته حيث كان ولا شيء معه، فرآى الأشياء مَواتاً لا قِوام لها إلا بقُدرته فشهدها خيالاً كالهباء بالنسبة إلى وجود الحق تعالى، وذلك في البصائر القلبية بالكشف الصحيح بعد التصفية والتدريب في القيام بأعباء الشريعة وحَمْل أثقالها، والتخلق بأخلاقها ليصفي الله عبده من دَرَنه، ويكشف لقلبه فيرى حقائق الأشياء، فمتى تجلت على العبد أنوارُ المشاهدة الحقيقية الروحية الدالة على عظمة الفردانية تلاشى الوجودُ الذي للعبد واضمحل كما يتلاشى الليلُ إذا أسفرَ عليه الصباح، ويكونُ العبد في ذلك آكلاً شارباً فلا يظهرُ عليه شيء مغايرٌ لما اعتاده، لكنْ يزدادُ إيمانهُ ويقينُه، حتى ربما غطى إيمانُه عن قلبه كل شيء في أوقات سُكْره، ويبقى وجودُه كالخيال قائماً بالعبودية في حضرة ذي الجلال، وتعودُ عليه البصائرُ الصحيحة في معرفة الأشياء عند صحوه، ثم يزول عنه عدَم التمييزِ، ويقْوى على حاله فيتصرفُ.

وذلك هو البقاءُ بحيث يتصرفُ في الأشياء ولا يُحجب عنه ما وجده من الإيمان والإيقان في حال البقاء، بل يعودُ عليه شعورهُ الأولُ بوجودٍ آخرَ يتولاه الله عزّ وجلّ مشهده فيه وقيامه عليه بتدبيره، ويصلُ إلى مقام المراد بعد عبوره على مَقام المريد فيبصر به ويَسمع به ويَنطق. كما جاء في الحديث الصحيح[1].

---

(١) يشير المؤلف رحمه الله إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والذي رواه الإمام البخاري في صحيحه (١٩٠/٧) في الرقاق، باب التواضع، وانظر ما قاله الحافظ ابن رجب الحنبلي =

ووجه آخرُ وهو أن الفانَي في حال فنائه قبل أن يبلغ إلى مقام البقاء والصحو والتمييز يستتر من قلبه محل الزهد والصبر والورع، لا بمعنى أن تلك المقاماتِ ذهبتْ وارتفع عنها العبدُ، لكنْ بمعنى أن الشهودَ ستَرَ محلَّها من القلب، وانطوتْ واندرجتْ في ضمنِ ما وجده اندراجَ الحال النازل في الحال العالي، فصارت فيما وَجَدَه الواجدُ من وجود الحق ضِمناً وتَبعاً، وصارَ القلبُ مشتغلاً بالحال الأعلى عن الحال الأدنى، بحيث لو فتش قلب العبد لَوُجد فيه الزهدُ والورعُ وحقائق الخوف والرجاء مستوراً بأمثال الجبال من الأحوال الوجودية التي يضيق القلبُ عن الاتساع لمجموعها.

وفي حال البقاء والصحو والتمييز تعود عليه تلك المقاماتُ بالله لا بوجود نفسه.

إذا علمتَ ذلك انحلَّ إشكالُ قوله: «إن مشاهدةَ العبد لم تدعْ له استحسانَ حسنةٍ ولا استقباحَ سيئةٍ لصعوده إلى معنى الحكم» أي أن صفةَ حُكم الله حَشَتْ بصيرتَهُ وملأتْها فشهد قيامَ الله على الأشياء وتصرفَه فيها وحكمَه عليها، فرأى الأشياء كلَّها منه صادرةً عن نفاذ حكمه وتقديره وإرادته القدرية، فغاب بما لاحظ من الجمْعِ عن التمييز والفرْق.

ويُسمَّى هذا جَمْعاً، لأن العبدَ اجتمع نظرُه إلى مولاه في كل حُكم وقَع في الكون، وفي ملاحظة هذا الحكم الذي صدرت عنه التصرفاتُ اجتمع قلبُه، ولِضَعْفِ قلبه حين هذا الاجتماع لم يتسعْ للتمييز الشرعي بين الحسن والقبيح، بمعنى أنه انطوى حكمُ معرفته بالحسن والقبيح في طي هذه المعرفة الساترة له عن التمييز، لا بمعنى أنه ارتفع عن قلبه حُكم التحسين والتقبيح، بل اندرج في مشهده وانطوى بحيث لو فُتش لوُجد حُكم التحسين والتقبيح مستوراً في طي مشهده ذلك، وبالله التوفيق».

وتلخيصُ ما ذكره شيخُنا رحمه الله أن للفعل وجهين:

= رحمه الله في جامع العلوم والحكم حول هذا الحديث. ولفظ الحديث كالتالي (... ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. وإن سألني أعطيته... الحديث بطوله). لعل المصنف رحمه الله قد تأثر بالأحوال الصوفية في مسألة الفناء فقال بذلك، والحديث لا يدل على شيء من هذا راجع ما يقوله أهل العلم من أهل السنة والجماعة حول هذا الموضوع.

وجهٌ قائمٌ بالرب تعالى وهو قضاؤه وقدرُه له وعلمُه به.

[ووجهٌ قائمٌ بالعبد وهو ما يصدر عنه من أفعال]، والعبدُ له ملاحظتان، ملاحظةٌ للوجه الأول وملاحظةٌ للوجه الثاني، والكمالُ أن لا يغيبَ بأحد الملاحظتين عن الأخرى، بل يشهدَ قضاءَ الرب وقدرَه ومشيئَته، ويشهدَ مع ذلك فِعلَه وجنايتَه وطاعته ومعصيتَه، فيشهدَ الربوبيةَ والعبوديةَ، فيجتمعَ في قلبه معنى قوله: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴾(١) مع قوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾(٢) وقوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾(٣).

فمِن الناسِ مَنْ يتسعُ قلبُه لهذين الشهودين.

ومنهم مَن يضيق قلبُه عن اجتماعهما بقوة الوارد عليه وضعْفِ المحلِّ فيغيبُ بشهودِ العبوديةِ والكَسْبِ وجهةِ الطاعة والمعصيةِ عن شهود الحكم القائم بالرب تعالى من غير إنكار له، فلا يظهرُ عليه إلا أثرُ الفعل وحُكمه الشرعي، وهذا لا يضره إذا كان الإيمان بالحُكم قائماً في قلبه.

ومنهم مَنْ يغيبُ بشهود الحكم وسَبْقِه وأولية الرب تعالى وسَبقِه للأشياء عن جهة عبوديته وكَسْبه وطاعته ومعصيته فيغيبُ بشهود الحكم عن المحكوم به فضْلاً عن صفته، فإذا لم يشهد له فعلاً فكيف يشهد كونَه حسناً أو قبيحاً، وهذا أيضاً لا يضرّه إذا كان علمُه بحسن الفعل وقبحه قائماً في قلبه، وإنما توارى عنه لاستيلاء شُهود الحكم على قلبه، وبالله التوفيق.

فأين هذا من احتجاج أعداء الله بمشيئته وقدره على إبطال أمره ونهيه وعبادُ هؤلاء الكفرة يشهدون أفعالَهم كلَّها طاعاتٍ لموافقتها المشيئةَ السابقةَ، ولو أغضبهم غيرُهم وقصرً في حقوقهم لم يشهدوا فعلَه طاعةً مع أنه وافق فيه المشيئة، فما احتج بالقدر على إبطال الأمر والنهي إلا مَنْ هو مِن أجهل الناس وأظلمِهم وأتبعهم لهواه.

وتأملْ قولَه سبحانه بعد حكايته عن أعدائه واحتجاجهم بمشيئته وقدره على إبطال

---

(١) الآية /٢٨/ من سورة التكوير.
(٢) الآية /٣٠/ من سورة الإنسان.
(٣) الآية /٥٦/ من سورة المدثر.

ما أمرهم به رسولُه، وأنه لولا محبتهُ ورضاه به لما شاءه منهم: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1].

فأخبرَ سبحانه أن الحجة له عليهم برسله وكتبه، وبيان ما ينفعهم ويضرهم وتمكّنهم من الإيمان بمعرفة أوامره ونواهيه، وأعطاهم الأسماعَ والأبصارَ والعقولَ فثبتتْ حجتُه البالغةُ عليهم بذلك واضمحلتْ حجتهم الباطلةُ عليه بمشيئته وقضائه، ثم قرر تمام الحجة بقوله: فلو شاء لهداكم أجمعين، فإنّ هذا يتضمن أنه المتفردُ بالربوبية والملكِ والتصرفِ في خَلْقه، وأنه لا رب غيره ولا إله سواه، فكيف يعبدون معه إلهاً غيره؟!

فإثباتُ القدر والمشيئة من تمام حجته البالغة عليهم، وأن الأمرَ كلَّه لله وأن كلَّ شيء ما خلا الله باطل، فالقضاءُ والقدر والمشيئة النافذة من أعظم أدلة التوحيد فجعلَها الظالمون الجاحدون حجةً لهم على الشِّرك. فكانت حجةُ الله البالغةُ وحجتُهم الداحضة، وبالله التوفيق.

إذا عرفت هذا فموسى أعرفُ بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاعلهُ فاجتباه ربه بعده وهداه واصطفاه، وآدمُ أعرفُ بربه من أن يحتجَّ بقضائه وقدره على معصيته، بل إنما لام موسى آدمَ على المعصية التي نالت الذرية بخروجهم من الجنة ونزولهم إلى دار الابتلاء والمحنة بسبب خطيئة أبيهم، فذَكَر الخطيئة تنبيهاً على سبب المعصية والمحنة التي نالت الذرية، ولهذا قال له: «أخرجْتَنا ونفسَك من الجنة» وفي لفظٍ «خيّبتنا».

فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، وقال: إن هذه المصيبةَ التي نالت الذريةَ بسبب خطيئتي كانت مكتوبةً بقدره قبل خلقي، والقدرُ يحتج به في المصائب دون المعائب، أي أتلومني على مصيبةٍ قُدرتْ عليَّ وعليكم قبل خلقي بكذا وكذا سنة.

هذا جوابُ شيخنا رحمه الله. وقد يتوجهُ جوابٌ آخرُ، وهو أن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع، فينفعُ إذا احتُج به بعد وقوعه والتوبةِ منه وتَرْكِ معاودتِه كما فعل آدم، فيكونُ في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذِكْرها ما ينتفع به الذاكرُ والسامعُ، لأنه لا يدفعُ بالقدر

---

(١) الآية /١٤٩/ من سورة الأنعام.

أمراً ولا نهياً ولا يُبطلُ به شريعةً، بل يُخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءةِ من الحوْل والقوة. يوضحه أن آدم قال لموسى: أتلومني على أن عملت عملاً كان مكتوباً عليَّ قبل أن أُخلق؟ فإذا أذنب الرجلُ ذنباً ثم تاب منه توبةً وزال أمره حتى كأن لم يكن فأنّبه مؤنبٌ عليه ولامه حَسُن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك ويقولَ هذا أمرٌ كان قد قُدر عليَّ قبل أن أُخلق، فإنه لم يدفع بالقدرِ حقاً ولا ذَكره حجةً على باطل، ولا محذورَ في الاحتجاج به.

وأما الموضع الذي يضر الاحتجاجُ به ففي الحال والمستقبل، بأن يرتكبَ فِعلاً محرّماً أو يتركَ واجباً فيلومه عليه لائم فيحتجَّ بالقدر على إقامته عليه وإصراره، فيُبطلَ بالاحتجاج به حقاً ويرتكب باطلاً، كما احتج به المصرّون على شِركهم وعبادتهم غيرَ الله فقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[1]، ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾[2] فاحتجوا به مصوِّبين لما هم عليه وأنهم لم يندموا على فعله ولم يَعزموا على تركه ولم يقروا بفساده، فهذا ضدُّ احتجاجِ مَنْ تبين له خطأ نفسه ونَدمَ وعَزم كلَّ العزم على أن لا يعودَ، فإذا لامه لائم بعد ذلك قال: كان ما كان بقدر الله.

ونكتةُ المسألة أن اللومَ إذا ارتفع صَحّ الاحتجاجُ بالقدر، وإذا كان اللوم واقعاً فالاحتجاجُ بالقدر باطل.

فإن قيل: فقد احتجّ عليٌّ بالقدر في ترْك قيام الليل وأقرّه النبيُّ ﷺ كما في الصحيح عن عليّ أن رسول الله ﷺ طرَقه وفاطمةَ ليلاً فقال لهم: ألا تصلّون؟ قال: فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثها بعثها، فانصرف رسولُ الله ﷺ حين قلتُ له ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً، ثم سمعتُه وهو مدْبر يضربُ فخذَه وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[3].

---

(١) الآية/١٤٨/من سورة الأنعام.
(٢) الآية /٢٠/ من سورة الزخرف.
(٣) الآية /٥٤/ من سورة الكهف، والحديث رواه البخاري (٨/١٩٠) في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة وما تشاؤون إلا أن يشاء الله، ومسلم برقم /٧٧٥/ في صلاة المسافرين باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، والنسائي (٣/٢٠٥) في قيام الليل، باب الترغيب في قيام الليل.

قيل: عليٌّ لم يحتج بالقدر على تَرْك واجبٍ لا فِعل محرم، وإنما قال: إن نفسَه ونفسَ فاطمةَ بيد الله فإذا شاء أن يوقظهما ويبعثَ أنفسهما بعثهما، وهذا موافق لقول النبي ﷺ ليلَة ناموا في الوادي إن الله قبضَ أرواحنا حيث شاء وردَّها حيث شاء[1].

وهذا احتجاجٌ صاحبُه يُعذر فيه، فالنائمُ غيرُ مفرّط واحتجاج غير المفرّط بالقدر صحيح. وقد أرشد النبي ﷺ إلى الاحتجاج بالقدر في الموضع الذي ينفعُ العبدَ الاحتجاجُ به، . فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ القوي خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير، أحرص على ما ينفعُك، واستعنْ بالله ولا تعجَزْ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلتُ كذا وكذا ولكنْ قُلْ قَدَّر الله وما شاء فَعَل، فإن لو تفْتَحُ عملَ الشيطان»[2].

فتضمن هذا الحديثُ الشريف أصولاً عظيمةً من أصول الإيمان،

أحدها: أن الله سبحانه موصوفٌ بالمحبة، وأنه يحِبُّ حقيقةً. الثاني: أنه يحبُّ مُقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القويُّ ويحبّ المؤمنَ القويّ، وهو وِتْر يحبُّ الوِتر، وجميلٌ يحب الجمالَ، ، وعليم يحب العلماء، ونظيفٌ يحب النظافةَ، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين.

ومنها أن محبتَه للمؤمنين تتفاضلُ فيحبُّ بعضَهم أكثرَ من بعض.

ومنها أن سعادةَ الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومَعاده، والحرصُ هو بذلُ الجهد واستفراغُ الوُسْع، فإذا صادف ما يَنتفع به الحريصُ كان حرصه محموداً، وكمالُه كلُّه في مجموع هذين الأمرين أن يكون حريصاً وأن يكون حرصه على ما يَنتفِع به، فإن حرَصَ على مالا يَنفعه أو فَعَلَ ما ينفعه بغير حِرص فاتَهُ من الكمال بحسَب ما فاته من ذلك، فالخيرُ كله في الحرص على ما ينفع، ولما كان

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري (٨/ ١٩٠) في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، ومسلم برقم /٦٨١/ في المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة، وأبو داود برقم /٤٣٧/ في الصلاة، باب فين نام عن الصلاة أونسيها، والترمذي برقم /١٧٧/ في الصلاة باب ما جاء في النوم عن الصلاة والنسائي (١/ ٢٩٤) في المواقيت، باب فيمن نام عن صلاة.

(٢) رواه مسلم برقم /٢٦٦٤/ في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز.

حِرصُ الإنسان وفعلُه إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أَمَرَهُ أن يستعينَ به ليجتمعَ له مقامُ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[1] فإنّ حِرصَه على ماينفعه عبادةٌ لله، ولا تتم إلا بمعونته، فأمرَه بأن يعبدَه وأن يستعينَ به.

ثم قال: «ولا تعجَزْ» فإن العجزَ ينافي حرصَه على ما ينفعه ويُنافي استعانَته بالله، فالحريصُ على ما ينفعه المستعينُ بالله ضد العاجز، فهذا إرشادٌ له قبلَ رجوعِ المقدور إلى ما هو مِنْ أعظمِ أسباب حصوله، وهو الحرصُ عليه مع الاستعانة بمَنْ أزِمّةُ الأمورِ بيده ومصدرُها منه ومردُّها إليه، فإنْ فاته ما لم يقدَّر له فله حالتان:

حالة عجزٍ وهي مفتاحُ عملِ الشيطان فيُلقيه العجزُ إلى «لو» ولا فائدةَ في «لو» هنا، بل هي مفتاحُ اللومِ والجزَعِ والسخطِ والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان، فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا المفتاح.

وأمرَه بالحالة الثانية وهي النظر إلى القدر وملاحظتُه وأنه لو قُدر له لم يفته ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبقَ له ههنا أنفعُ من شهود القدر ومشيئةِ الرب النافذة التي تُوجب وجودَ المقدور، وإذا انتفت امتنع وجودُه، فلهذا قال: «فإن غلبك أمرٌ فلا تقلْ لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل» فأرشدَه إلى ما ينفعه في الحالتين حالةِ حصول مطلوبه، وحالةِ فواته.

فلهذا كان هذا الحديث مما لا يَستغني عنه العبدُ أبداً بل هو أشدُّ شيءٍ إليه ضرورةً، وهو يتضمن إثباتَ القدر والكَسْبِ والاختيار والقيامِ والعبوديةِ ظاهراً وباطناً في حالتي حصول المطلوب وعدَمِه، وبالله التوفيق.

(١) سورة الفاتحة، الآية /٥/.

البابُ الرّابع

في ذِكر التقديرِ الثالث والجنينُ في بطن أمه، وهو تقديرُ شقاوته وسعادته ورزقه وأجَله وسائرِ ما يلقاه، وذِكر الجمعِ بين الأحاديث الواردة في ذلك

عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدَكم ليُجمعُ خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك عَلَقةً مثلَ ذلك، ثم يكون في ذلك مُضْغةً مثلَ ذلك، ثم يُرْسلُ الله إليه الملك فينفخ فيه الروحَ ويُؤمر بأربع كلماتٍ، يكتَبُ رزقه وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيرُه إنّ أحدَكم لَيعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراع فَيسبِقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدَكم ليعملُ بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيسبقُ عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلُها»[1] متفقٌ عليه.

وعن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: «يدخل الملَكُ على النُّطْفة بعدما تستقر في الرحمن بأربعينٍ أو خمسٍ وأربعين ليلةً فيقول: يا ربِّ أشقيٌّ أم سعيد، فيكتبان، فيقول أي رب: أذَكَرٌ أم أنثى فيكتبان، ويَكتبُ عملَه وأثرَه وأجلَه ورزقَه، ثم تُطوَى الصحيفةُ فلا يُزاد فيها ولا يُنقص»[2] رواه مسلم.

---

(١) رواه البخاري (٧/٢١٠) في القدر، باب في القدر، ومسلم برقم /٢٦٤٣/ في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، وأبو داود برقم /٤٧٠٨/ في السنة، باب في القدر، والترمذي برقم /٢١٣٨/ في القدر، باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم.

(٢) رواه مسلم برقم /٢٦٤٤/ في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله، وعمله، وشقاوته وسعادته.

وعن عامر بن واثلة أنه سمع عبد الله بن مسعود يقول: الشقيُّ من شقيَ في بطن أمه والسعيدُ من وُعظ بغيره، فأتى رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له حُذَيفة بن أَسِيد الغفاري فحدثه بذلك من قول ابن مسعود فقال: وكيف يشقى رجلُ بغير عمل؟ فقال له الرجل: أتعجَبُ من ذلك؟ فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا مرّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلةً بعث الله إليها ملَكاً فصورها وخلَق سمعَها وبصرَها وجِلدها ولحمها وعظمها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيَقضي ربك ما يشاء ويَكتبُ الملك، ثم يقول: يا رب أجلُه؟ فيقضي ربك ما يشاء، ويَكتب الملَك، ثم يقول: يا رب رزقُه؟ فيَقضي ربك ما يشاء، ويكتب الملك، ثم يَخرجُ الملَكُ بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أُمر ولا يَنقص».

وفي لفظٍ آخرَ: سمعتُ رسول الله ﷺ بأذني هاتين يقول: «إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة، ثم يتسوَّرُ عليها الملك». قال زهير بن معاوية: أحسبه قال: «الذي يخلقها»، فيقول: يا رب أذَكر أم أنثى؟ فيجعلها الله ذكراً أو أنثى، ثم يقول: يا رب أسَوِيّ أم غيرُ سويّ؟، فيجعله الله سوياً أو غير سوي، ثم يقول: يا رب ما رزقُه وما أجلُه وما خُلقه؟ ثم يجعله الله شقياً أو سعيداً».

وفي لفظٍ آخرَ: «إن ملكاً موكَّلاً بالرحمن إذا أراد الله أن يخلق شيئاً بإذن الله ولِبِضْعٍ وأربعين ليلة» ثم ذكَر نحوه. وهذا الحديثُ بطُرقِه انفرد به مسلم[1].

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل وَكّل بالرحم ملكاً: فيقول: أي رب: نطفة؟ أي رب: علَقة؟ أي رب، مُضغه؟ وإذا أراد أن يقضيَ خَلْقاً قال الملك: أي رب ذَكر أو أنثى، شقي أو سعيد؟ فما الرزقُ؟ فما الأجَل؟ فيُكتبُ كذلك في بطن أمه» متفق عليه[2].

وقال ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب أن سعيد بن عبد الرحمن بن هنيدة حدثهم أن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يخلق النسمة

(١) الحديث برواياته الثلاث انفرد به الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه برقم /٢٦٤٥/ في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله، وعمله، وشقاوته وسعادته.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٢١٠) في القدر. في فاتحته، ومسلم برقم /٢٦٤٦/ في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه.

قال ملك الأرحام معها: يا رب أذَكر أم أنثى؟ فيقضي الله بأمره، ثم يقول: يا رب شقي أم سعيد؟ فيقضي الله أمره، ثم يَكتبُ بين عينيه ما هو لاق حتى النكبةَ[1] يُنكَبها»[2].

قال ابن وهب وأخبرني عبد الله بن لهيعة عن بكر بن سوادة الجدمي عن أبي تميم الجيشاني عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال: «إذا دخلتْ ـ يعني النطفةَ ـ في الرحم أربعين أتى ملكُ النفس فعرج إلى الرب فقال: يا رب عبدُك أذَكر أو أنثى؟ فيقضي الله بما هو قاضٍ، أشقي أم سعيد؟ فيكتب ما هو كائن»[3] وذَكَرَ بقيةَ الحديث.

وقال ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن كعب بن علقمة عن عيسى عن هلال عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: إذا مكَثت النطفةُ في رحم المرأة أربعين ليلة جاءها ملكٌ فاختلجها، ثم عرَج بها إلى الله تعالى: اخْلقْ يا أحسنَ الخالقين، فيقضي الله فيها بما يشاء من أمره، ثم تُدفع إلى الملَك فيسأل الملكُ عند ذلك فيقول: يا رب أسِقْط أم يَتم؟ فيبيِّنُ له، ثم يقول: يا رب أواحدٌ أم توأم؟ فيبيِّنُ له، ثم يقول: اقطع رزقَه مع خلقه فيقضيهما جميعاً، فوالذي نفسُ محمد بيده لا ينال إلا ما قُسِم له يومئذٍ إذا أَكَلَ رزقَه قُبض[4].

وقال عبد الله بن أحمد أنا العلاء ثنا أبو الأشعث ثنا أبو عامر عن الزبير بن عبد الله حدثني جعفر بن مصعب قال: سمعت عروة بن الزبير يحدث عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «إن الله سبحانه حين يريدُ أن يَخلق الخلقَ يبعثُ ملكاً فيدخلُ الرحم فيقول: أي رب ماذا؟ فيقول غلامٌ أو جارية أو ما شاء أن يخلق في الرحم،

---

(١) (النكبة): أي ما يصيب الإنسان من الحوادث.

(٢) رواه ابن وهب في القدر ص ١٣٧/وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٦/٧) وقال رواه أبو يعلى والبزار، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح. وابن حبان في صحيحه برقم /١٨١٠/ كما في الموارد.

(٣) ابن وهب في كتاب القدر ص ١٤٩/ابن لهيعة، صدوق خلط ويدلس بعد احتراق كتبه ورواية ابن المبارك وابن وهب عنه أعدل من غيرهما. التقريب ص ٣١٩/ والميزان (٤٧٦/٢)، ولكن للحديث شواهد صحيحة ترفعه إلى درجة الحسن. والله أعلم.

(٤) ابن وهب في كتاب القدر ص ١٦٤/ وسنده ضعيف، بسبب ابن لهيعة وهو صدوق خلط ويدلس، وقد رواه بالعنعنة. وروى هذا الحديث موقوفاً على عبد الله بن عمرو بن العاص كما ذكره اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ص ٦٧٥، وسنده ضعيف أيضاً.

فيقول: أي رب أشقي أم سعيد؟ فيقول شقي أو سعيد، فيقول أي ربِّ ما أجلُه؟ فيقول كذا وكذا، فيقول ما خَلْقه؟ ما خلائقُه؟ فيقول: كذا وكذا، فما شيءٌ إلا وهو يُخلق معه في الرحم[1].

وفي المسند من حديث إسماعيل بن عبيد الله وهو ابن أبي المهاجر أن أم الدرداء حدثته عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: فرغَ الله عزّ وجلّ إلى كل عبد من خمسٍ: من أجله، ورزقه، ومضجعِه، وأثرِه، وشقيٌّ أم سعيد»[2].

وقال ابن حميد ثنا يعقوب بن عبد الله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إذا وقعت النطفة في الرحم تلبث أربعةَ أشهر وعشراً ثم تُنفخ فيها الروح، ثم تلبث أربعين ليلةً ثم يُبعث إليها ملَك فنَقفها في نقرة القفا وكتب شقياً أو سعيداً»[3].

وروى ابن أبي خيثمة ثنا عبد الرحمن بن المبارك ثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «السعيدُ مَنْ سعِدَ في بطن أمه[4] رواه أبو داود في القدر عن عبد الرحمن عن حماد عن هشام بن حسان عن محمدٍ به.

وقال أحمد بن عبد أنبأنا علي بن عبد الله بن ميسرة ثنا عبد الحميد بن بيان ثنا خالد بن عبد الله عن يحيى عن عبيد الله عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الشقيُّ مَنْ شقي في بطن أمه، والسعيدُ مَنْ سعد في بطن أمه»[5].

---

(١) هذا الحديث سنده ضعيف، فيه جعفر بن مصعب قال الذهبي في الميزان: (٤١٧/١) لا يدرى من هو، وفيه أيضاً الزبير بن عبد الله بن عدي وأحاديثه منكرة المتن والإسناد. ومع هذا فقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٦/٧) وقال رواه البزار ورجاله ثقات.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (١٩٧/٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٨/٧) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، وأحد إسنادي أحمد رجاله ثقات. وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٨٣/١١) وعزاه لأحمد والفريابي.

(٣) سنده ضعيف. رواه اللالكائي في شرح السنة (٥٩٧/٤)، وعلة الضعف محمد بن حميد بن حيان الرازي ضعيف كما في التقريب ص ٤٧٥، وقال البخاري: فيه نظر. انظر الضعفاء للعقيلي برقم (١٦١٢/). وفيه أيضاً يعقوب بن عبدالله القحى له أوهام، كما في التقريب ص ٦٠٨.

(٤) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٣/٧) وقال: رواه البزار والطبراني في الصغير ورجال البزار رجال الصحيح.

(٥) اللالكائي في شرح السنة (٥٩٦/٤). وسنده ضعيف، لضعف يحيى بن عبدالله، فقد ضعفه جماعة، قال النسائي. (متروك). وقال أحمد وأبو حاتم. (منكر الحديث). انظر التهذيب =

وقال سعيد عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: «الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد مَنْ وعُظ بغيره»[1]. وقال شعبة عن مخارق عن طارق عن عبد الله بن مسعود قال: إن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنُ الهدى هدى محمد، وشرُّ الأمور مُحْدثاتُها، فاتّبعوا ولا تبتدعوا، فإن الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيدُ مَنْ وعُظ بغيره، وإن شرَّ الروايا روايا الكذب، وشرُّ الأمورِ مُحْدثاتها، وكلُّ ما هو آتٍ قريب» رواهن أبو داود في القدر.

وذكر الطبري من رواية أبي إسحاق عن أبي عبدة عنه أنه كان يجيء كلّ يوم خميس يقوم قائماً لا يجلسُ فيقول: إنما هما اثنتان، فأحسنُ الهدى هدى محمد، وأصدقُ الحديث كتابُ الله، وشرُّ الأمور محدثاتها وكلُّ مُحْدَثٍ ضلالة، إنّ الشقيّ مَنْ شقي في بطن أمه، وإن السعيدَ مَنْ وُعظ بغيره، ألَا فلا يطولن عليكم الأمدُ، ولا يُلْهِينكم الأملُ، فإن كلّ ما هو آتٍ قريب، وإنما البعيدُ ما ليس آتياً، وإن من شرار الناس بُطّالُ النهار جيفةُ الليل، وإن قتلَ المؤمن كُفر، وإن سِبابَه فسوقٌ، ولا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، ألَا إن شرَّ الروايا روايا الكذب، وإنه لا يَصلحُ من الكذب جد ولا هزْل ولا أن يَعِدَ الرجلُ صفِيَّه، ثم لا ينجزهُ، ألَا وإن الكذبَ يهدي إلى الفجور وإن الفجورَ يهدي إلى النار، وإن الصدقَ يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الصادقَ يقال له: صَدَقَ وبَرَّ، وإنّ الكاذبَ يُقال له: كَذَبَ وفَجَر، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن العبدَ لَيَصْدُقُ فيُكتب عند الله صِدّيقاً، وإنه ليكذبُ حتى يُكتب عند الله كذاباً، ألَا هَلْ تدرون ما العِضةُ؟ هي النميمةُ التي تفسدُ بين الناس» وهذا متواتر عن عبد الله.

وبلَغَ معاويةَ أن الوباء اشتد بأهل دارٍ فقال: لو حَوَّلناهم عن مكانهم، فقال له أبو الدرداء: وكيفَ لك يا معاويةُ بأنفسٍ قد حضرتْ آجالُها؟ فكأن معاويةَ وَجَدَ على أبي الدرداء، فقال له كعب: يا معاويةُ لا تجِدْ على أخيك، فإن الله سبحانه لم يدعْ نفساً حين تستقر نطفتُها في الرحم أربعين ليلة إلا كتَبَ خَلْقَها وخُلقها وأجلها

= (٢٥٢/١١ وما بعدها). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٦/٧) وعزاه للبزار والطبراني في الصغير، وقال رجال البزار رجال الصحيح.

(١) رُوي هذا الحديث مرفوعاً وموقوفاً. والصحيح وقفه، أخرجه مرفوعاً وموقوفاً ابن أبي عاصم في كتاب السنة، وقال الشيخ الألباني حفظه الله في الموقوف: إسناده جيد وهو على شرط مسلم. انظر السنة برقم /١٧٧/.

ورزقهـا، ثم لكل نفسٍ ورقـةٌ خضراء معلقـة بالعـرش فـإذا دنـا أجلهـا خَلِقتْ تلك الورقةُ حتى تيبسَ ثم تسقط، فإذا يبستْ سقطتْ تلك النفسُ وانقطع أجلُها ورِزقُها. ذكَره أبو داود عن محمود بن خالد ثنا مروان ثنا معاوية بن سلام حدثني أخي زيد بن سلام عن جده ابن سلام قال: بلَغ معاويةَ فذَكره.

وقـال أبو داود ثنـا واصـل بن عبـد الأعلى ثنـا ابن فضيـل عن الحسن بن عمـرو الفقيمي عن الحكم عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾[1] قال: ما مِنْ مولود يُولد إلا في عنقه ورقةٌ مكتوبٌ فيها شقيّ أو سعيد.

وفي الصحيحين عن أبيّ بن كعب قـال: قال رسـول الله ﷺ: «إن الغلامَ الـذي قتله الخضرُ طُبع يوم طُبع كافراً ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً»[2].

وفي صحيح مسلم عن عائشـة قالت: تُـوفي صبي من الأنصار فقلتُ: طـوبى له عصفـورٌ من عصافيـر الجنة لم يعمـل السوءَ ولم يـدركه. فقـال: «أو غيـر ذلـك يـا عائشة، إن الله خَلَقَ للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[3].

ولا ينـاقض هذا حـديث سمُرة بن جُندب الذي رواه البخـاري في صحيحه[4] من رؤيـا النبي ﷺ أطفالَ المشركين حول إبـراهيم الخليل في الـروضة، فـإن الأطفـال منقسمون إلى شقي وسعيد كالبالغين، فالذي رآه حـول إبراهيم السعـداء مِنْ أطفال المسلمين والمشركين، وأنكر على عـائشة شهـادتها للطفـل المعين أنه عصفـور من عصافير الجنة.

فاجتمعت هذه الأحاديثُ والآثارُ على تقدير رزق العبـد وأجله وشقاوتـه وسعادتـه وهو في بطن أمه، واختلفتْ في وقت هذا التقـدير، وهـذا تقديـرٌ بعد التقـدير الأول

---

(١) سورة الإسراء، الآية /١٣/.

(٢) رواه البخـاري (٥/٢٣٠) في تفسير سـورة الكهف، بـاب وإذ قـال مـوسى لفتـاه: لا أبـرح حتى أبلغ مجمع البحرين، ومسلم بـرقم /٢٣٨٠/ في الفضائـل باب فضـائل الخضـر عليه السـلام، والترمـذي برقم /٣١٤٨/ في التفسيـر بـاب ومن سـورة الكهف، وأبـو داود بـرقم /٤٧٠٥/.

(٣) رواه مسلم برقم /٢٦٦٢/ في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وأبو داود برقم /٤٧١٣/ في السنة، باب في ذراري المشركين، والنسائي (٤/٥٧) في الجنائز.

(٤) انظر تمام الحديث في صحيح البخاري (٢/١٠٤ و١٠٥) في الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين وبعده.

السابق على خلق السموات والأرض، وبعد التقدير الذي وقع يومَ استخراج الذرية بعد خلق أبيهم آدم.

ففي حديث ابن مسعود أن هذا التقدير يقع بعد مائة وعشرين يوماً من حصول النطفة في الرحم، وحديثُ أنس غير مؤقت، وأما حديثُ حذيفة بن أسيد فقد وقت فيه التقديرُ بأربعين يوماً، وفي لفظٍ بأربعين ليلة، وفي لفظٍ اثنتين وأربعين ليلة، وفي لفظٍ بثلاث وأربعين ليلة، وهو حديث تفرد به مسلم ولم يروه البخاري، وكثيرٌ من الناس يظن التعارض بين الحديثين ولا تعارض بينهما بحمد الله، وإن الملك الموكل بالنطفة يكتب ما يقدره الله سبحانه على رأس الأربعين الأولى حتى يأخذ في الطور الثاني وهو العلقة، وأما الملك الذي ينفخ فيه فإنما ينفخها بعد الأربعين الثالثة فيُؤمر عند نفخ الروح فيه بكتْب رزقِهِ وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

وهذا تقديرٌ آخرُ غير التقدير الذي كتبه الملك الموكل بالنطفة، ولهذا قال في حديث ابن مسعود (ثم يرُسل إليه الملك فيُؤمر بأربعِ كلمات). وأما الملك الموكل بالنطفة فذاك راتب معها ينقلها بإذن الله من حال إلى حال فيقدرُ الله سبحانه شأن النطفة حتى تأخذ في مبدأ التخليق وهو العَلَق، ويقدر شأن الروح حين تتعلق بالجسد بعد مائة وعشرين يوماً، فهي تقدير بعد تقدير فاتفقت أحاديث رسول الله ﷺ وصدَّقَ بعضُها بعضاً، ودلت كلها على إثبات القدر السابق ومراتب التقدير، وما يُؤتى أحدٌ إلا مِنْ غلَطِ الفهم أو غلطٍ في الرواية، متى صحت الرواية وفُهمت كما ينبغي تبين أن الأمر كله من مشكاةٍ واحدة صادقة متضمنة لنفس الحق، وبالله التوفيق.

الباب الخامس

في ذكر التقدير الرابع ليلة القدر

قال الله تعالى: ﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[1].

وهذه هي ليلةُ القدْر قطعاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[2] ومنْ زعمَ أنها ليلةُ النصف من شعبان فقد غلط.

قال سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ليلةُ القدْر ليلةُ الحُكم.

وقال سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير: يُؤذن للحجاج في ليلة القدر فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم فلا يُغادَرُ منهم أحدٌ ولا يُزاد فيهم ولا ينقص منهم.

وقال ابن علية: حدثنا ربيعة بن كلثوم قال: قال رجل للحسن وأنا أسمع: أرأيت ليلة القدر، في كلِّ رمضان هي؟ قال: نعم، والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي كلِّ رمضان، وإنها لليلة القدْر يُفرقُ فيها كلُّ أمر حكيم، فيها يقضي الله كلَّ أجلٍ وعملٍ ورزقٍ إلى مثْلِها.

وذَكر يوسفُ بن مهران عن ابن عباس قال: يكْتب مِنْ أمّ الكتاب في ليلة القدرِ

(١) سورة الدخان، الآيات (١ ـ ٥).
(٢) الآية /١/ من سورة القدر.

مـا يكون في السَّنـة من موت وحيـاة ورزق ومطر حتى الحُجَّـاج، يقال يحـجُّ فـلان ويحج فلان.

وذكر عن سعيد بن جبير في هذه الآية: إنك لترى الرجلَ يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى.

وقال مقاتل: يقدر الله في ليلة القدر أمر السنةِ في بلاده وعباده إلى السنة القابلة.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: يُقدر أمرُ السنة كلّها في ليلة القدر[1].

وهـذا هو الصحيـح. إن القدر مصـدرُ قدَرَ الشيء يقـدُرُهُ قدراً، فهي ليلة الحُكم والتقدير.

وقالت طائفة: ليلة القدْر ليلةُ الشرف والعظمة من قولهم «لفلان قدْر في الناس». فإنْ أراد صاحبُ هذا القول أن لهـا قدراً وشـرفاً مـع ما يكـون فيها من التقـدير فقـد أصاب، وإن أراد أن معنى القدْر فيها هو الشرفُ والخطَر فقد غلِط، إن الله سبحانـه أخبرَ أن فيها يفْرِق، أي يفصل، الله ويبينُ ويبرمُ كل أمر حكيم.

(١) راجع جميع الأقوال في ليلة القدر في تفسير الطبري جامع البيان (١٠٧/٢٥ ومـا بعدهـا)، وابن كثير (١٢٣/٤).

الباب السادس

في التقدير الخامس اليومي

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾(١)

ذَكر الحاكم في صحيحه من حديث أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنّ مما خلق الله لوحاً محفوظاً من دُرة بيضاء، دفتاه من ياقوته حمراء، قلمُه نور وكتابه نور، ينظر فيه كلّ يوم ثلاثمائة وستين نظرة أو مرةً، ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء، فذلك قوله: كل يوم هو في شأن(٢).

وقال مجاهد والكلبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل: من شأنه أنه يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر ويعز ويذل، ويفك عانياً، ويشفي مريضاً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويتوب على قوم، ويكشف كرباً، ويغفر ذنباً، ويضع أقواماً ويرفع آخرين(٣)، دَخَلَ كلامُ بعضهم في بعض(٤).

---

(١) سورة الرحمن، الآية /٢٩/.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٧٤/٢)، وأبو حمزة الثمالي، اسمة ثابت بن أبي صفية وهو ضعيف لا يحتج به، ضعفه أحمد، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال الجوزجاني واهي الحديث. وقال النسائي: ليس بثقة، وذكره ابن حيان في المجروحين، انظر الضعفاء للعقيلي (١٧٢/١) والتهذيب (٧/٢).

(٣) راجع قول مجاهد وغيره في جامع مع البيان للطبري (مج ١٣ جـ ٢٧ ص ٣٥) وابن كثير (٢٤٠/٤) والدر المنثور (٧٠٠/٧).

(٤) يقصد بذلك كلام مجاهد والكلبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل، فهو لم ينقل =

وقد ذكر الطبراني في المعجم، والستة، وعثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرد على المريسي عن عبد الله بن مسعود قال: إن ربكم عز وجل ليس عنده ليل ولا نهار، نورُ السموات والأرض من نورُ وجهه، وإن مقدار كل يوم من أيامكم عنده اثنتي عشرة ساعة، فتُعرضُ عليه أعمالكم [بالأمس أول النهار فينظر فيها ثلاث ساعات فيطلع][1] فيها على ما يكره فيغضبه ذلك،وأولُ من يعلم غضبه حمَلةُ العرش يجدونه يثقل عليهم فيسبحه حمَلَةُ العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائرُ الملائكة، ثم ينفخ جبريلُ في القرن فلا يبقى شيء إلا سَمع صوته، فيسبحون الرحمن ثلاثَ ساعات حتى يمتلىء الرحمن عز وجل رحمة، فتلك ستٌ ساعات، ثم يُؤتَى بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله في كتابه ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[2] وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[3] فتلك تسعُ ساعات، ثم يؤتي بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله في كتابه: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[4]، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[5] قال: هذا شأنكم وشأنُ ربكم تبارك وتعالى. قال الطبراني: ثنا بشر بن موسى، ثنا يحيى بن إسحاق، أن حماد بن سلمة عن أبي عبد السلام عن عبد الله أو عبيد الله بن مكرز، عن ابن مسعود فذكره[6].

وقال عثمان بن سعيد الدارمي: ثنا موسى بن إسماعيل ثنا حماد بن سلمة عن الزبير بن أبي عبد السلام عن أيوب بن عبيد الله الفهري أن ابن مسعود قال: إن

= كلام كل منهم على حدة، وإنما أدخل كلامهم مع بعضهم البعض في عبارة واحدة، أنظر المرجع السابق.

(١) سقط من الأصل. وقد استدركته من مجمع الزوائد (١/ ٩٠).

(٢) سورة آل عمران، الآية /٦/.

(٣) الآية /٤٩/ من سورة الشورى.

(٤) الآية /١٢/ من سورة الشورى.

(٥) الآية /٢٩/ من سورة الرحمن.

(٦) قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٠) وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه أبو عبد السلام، قال أبو حاتم مجهول، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وعبدالله بن مكرز أو عبيد الله على الشك لم أر من ذكره.

ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، فذكر الحديث إلى قوله: «فيسبحه حملة العرش، وسرادقات العرش، والملائكة المقربون، وسائر الملائكة». فهذا تقديرٌ يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عُمري عند تعلقِ النفْسِ به، والذي قبله كذلك عند أولِ تخليقه وكونِه مضغةً، والذي قبله تقدير سابق على خلق السموات والأرض بخمسين ألفَ سنةٍ. وكلٌّ واحدٍ من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق.

وفي ذلك دليل على كمال علْم الرب وقدرتِه وحكمته، وزيادةُ تعريفٍ لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فتستنسخ الملائكةُ ما يكون من أعمال بني آدم قبل أن يعملوها فيجدون ذلك موافقاً لما يعملونه، فيثبت الله تعالى منه ما فيه ثوابٌ أو عقاب ويطرحُ منه اللغو.

وذكر ابن مردويه في تفسيره من طرق إلى بقية عن أرطاة ابن المنذر عن مجاهد عن ابن عمر يرفعه: «إن أول ما خلق الله القلم فأخذه بيمينه وكلتا يديه يمين، فكتب الدنيا وما يكون فيها من عمل معمول من بر أو فجور، رطبٍ أو يابس، فأحصاه عند الذكر وقال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهل تكون النّسخة إلا من شيء قد فُرغ منه[2].

وقال آدم: ثنا ورقاء عن عطاء بن السائب عن مقسم عن ابن عباس ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال: تستنسخُ الحفظة من أمّ الكتاب ما يعملُ بنو آدم، فإنما يعمل الإنسانُ على ما استنسخ الملَكُ من أم الكتاب[3].

وفي تفسير الأشجع عن سفيان عن منصور عن مقسم عن ابن عباس قال: كتب في الذكر عنده كلَّ شيء هو كائن، ثم بَعَثَ الحفَظة على آدمَ وذريته وكل ملائكته

---

(١) الآية /٢٩/ من سورة الجاثية.
(٢) انظر الدر المنثور للسيوطي (٧/٤٣٠) عند تفسير الآية /٢٩/ من سورة الجاثية.
(٣) المصدر السابق نفسه.

ينسخون من الذكر ما يعمل العباد، ثم قرأ: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[1].

وفي تفسير الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال: هي أعمالُ أهل الدنيا، الحسناتُ والسيئاتُ تنزلُ من السماء كلَّ غداةٍ وعشيةٍ، ما يصيب الإنسانَ في ذلك اليوم أو الليلة، الذي يُقتلُ، والذي يغرقُ والذي يقعُ من فوق بيت، والذي يتردّى من جبلٍ، والذي يحرق بالنار، فيحفظون عليه ذلك كلّه، وإذا كان الشيء صعدوا به إلى السماء فيجدونه كما في السماء مكتوباً في الذكر الحكيم[2].

---

(١) انظر الدر المنثور (٧/ ٤٣١).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٣٠) وقال: أخرجه ابن مردودية بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنه ورفعه ثم ذكر الحديث.

الباب السابع

في أن سبْقَ المقادير بالشَّقاوة والسعادة لا يقتضي تركَ الأعمال بل يقتضي الاجتهاد والحرص

يسبقُ إلى أفهام كثير من الناس أن القضاء والقدر إذا كان قـد سبَقَ فلا فـائدة في الأعمال وأن ما قضاه الرب سبحانه وقدّره لا بد من وقوعه، فتوسط العمل لا فائدة فيه.

وقد سبق إيراد هذا السؤال من الصحابـة على النبي ﷺ فأجـابهم بما فيـه الشفاء والهـدى. ففي الصحيحين عن علي بن أبي طـالب قـال: كنـا في جنـازة في بقيـع الغرْقد فأتانا رسول الله ﷺ ومعه مخصرة فنكَّس فجعل ينكتُ بمخصرته ثم قال: «مـا منكم من أحدٍ، ما من نفس منفوسة إلا كُتب مكانُها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة، فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكلُ على كتابنا ونـدعُ العمل، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعـادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصيـر إلى عمـل أهل الشقـاوة، فقال: اعملوا فكـلٌّ ميسـر، أمـا أهـل السعـادة فييسـرون لعمل أهل السعادة، وأما أهلُ الشَّقاوة فيُيسرون لعمل أهـل الشقاوة» ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[1] .

وفي بعض طرق البخاري «أفلا نتكلُ على كتابنا وندعُ العملَ فمنْ كـان من أهل السعادة فسيصير إلى عمـل أهل السعـادة، ومن كان من أهـل الشقاوة فسيصيـر إلى عمل أهل الشقاوة»[2].

---

(١) سورة الليل الآيات /٥ ـ ٧/.

(٢) رواه البخاري (٧/٢١١) في القدر. باب وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ومسلم برقم /٢٦٤٧/ =

وعن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: جاء سُراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأننا خُلقنا الآن، ففيم العملُ اليومَ أفيما جفّت به الأقلامُ وجرتْ به المقادير أم فيما يستقبل؟ قال: لا بل فيما جفتْ به الأقلام وجرت به المقادير، قال: ففيم العملُ؟ فقال: اعملوا فكلٌّ ميسر. رواه مسلم[1].

وعن عمران بن حصين قال: قيل: يا رسول الله أعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: نعم، قيل: ففيم يعملُ العاملون؟ فقال: : كل ميسر لما خُلق له. متفق عليه. وفي بعض طرق البخاري «كل يعمل لما خُلق له، أو لما يُسر له»[2].

ورواه الإمام أحمد أطولَ من هذا فقال: ثنا صفوان بن عيسى ثنا عروة بن ثابت عن يحيى بن عقيل عن أبي نعيم عن أبي الأسود الديلي قال: غدوت على عمران بن حصين يوماً من الأيام فقال: إن رجلاً من جُهينة أو مُزينة أتى إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، شيء قُضي عليهم أو مضى عليهم في قدر قد سبق أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به نبيهم واتُّخذت عليهم الحجة؟ قال: بل شيء قُضي عليهم، قال: فلم يعملون إذاً يا رسول الله؟ قال: مَنْ كان الله عز وجل خَلَقه لواحدةٍ من المنزلتين فهيأه لعملها، وتصديقُ ذلك في كتاب الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[3][4].

وقال المحاملي: ثنا أحمد بن المقدام ثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعتُ أبا سفيان يحدِّث عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أنه قال: نزل: ﴿فَمِنْهُمْ

= في القدر، باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه، ورواه أيضاً أبو داود برقم /٤٦٩٤/ في السنة، باب في القدر، والترمذي برقم /٢١٣٧/ في القدر، باب ما جاء في الشقاء والسعادة.

(١) رواه مسلم برقم /٢٦٤٨/ في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٢١٠) في القدر، باب جف القلم على علم الله، ومسلم برقم /٢٦٤٩/ في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، وأبو داود برقم /٤٧٠٩/ في السنة، باب في القدر.

(٣) سورة الشمس، الآية /٧/.

(٤) حديث صحيح، أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٣٨).

شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[1] فقال عمر: يا نبي الله علام نعمل؟ على أمر قد فُرغ منه؟أم لم يُفرغ منه؟ قال: لا على أمر قد فُرغ منه قد جَرتْ به الأقلام، ولكن كل امرىء ميسر: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[2][3].

فاتفقتْ هذه الأحاديثُ ونظائرها على أن القدرَ السابقَ لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه، بل يُوجب الجد والاجتهاد. ولهذا لما سمع بعضُ الصحابة ذلك قال: ما كنتُ أشدَّ اجتهاداً مِني الآن. وهذا مما يدل على جلالة فِقْه الصحابة ودِقة أفهامهم وصحة علومهم، فإن النبي ﷺ أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب، فإن العبدَ ينالُ ما قُدر له بالسبب الذي أُقدرَ عليه ومُكِّن منه وهُيِّءَ له، فإذا أُتي بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبقَ له في أمِّ الكتاب، وكلما زاد اجتهاداً في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه.

وهذا كما إذا قُدر له أن يكون من أعلم أهل زمانه فإنه لا ينال ذلك إلا بالاجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه، وإذا قُدر له أن يرزق الولدَ لم ينل ذلك إلا بالنكاح أو التسرّي والوطْء، وإذا قُدر له أن يستغل من أرضه من المُغلِّ كذا وكذا لم ينله إلا بالبذْرِ وفعلِ أسباب الزرع، وإذا قُدر الشبع والريّ فذلك موقوف على الأسباب المحصِّلة لذلك من الأكل والشرب اللبس، وهذا شأن أمور المعاش والمعاد، فمن عطل العمل اتكالاً على القدر السابق فهو بمنزلة منْ عطل الأكل والشربَ والحركةَ في المعاش وسائر أسبابه اتكالاً على ما قُدر له.

وقد فطَرَ الله سبحانه عبادهُ على الحرص على الأسباب التي بها مرامُ معاشهم ومصالحهم الدنيوية، بل فطر الله على ذلك سائرَ الحيوانات، فهكذا الأسباب التي بها مصالحهم الأخرويةُ في مَعادهم فإنه سبحانه رب الدنيا والآخرة، وهو الحكيم

---

(١) الآية /١٠٥/ من سورة هود.

(٢) الآية /٥/ من سورة الليل.

(٣) الحديث رواه الطبري في جامع البيان (١٢/١١٧) عند تفسير قوله تعالى: ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾، وذكره ابن كثير (٢/٣٩٧) نقلاً عن الحافظ أبي يعلى في مسنده. وفي سنده (أبو سفيان) وهو سليمان بن سفيان التميمي، أنكر حديثه البخاري وأبو زرعه، انظر التهذيب (٤/١٩٤).

بما نصبَه من الأسباب في المعاش والمعـاد، وقد يسّـر كلاًّ من خلْقـه لما خلقـه له في الدنيا والآخرة فهو مُهيأ له ميسر له.

فـإذا علم العبدُ أن مصـالحَ آخـرته مـرتبطةٌ بـالأسباب المـوصلة إليها كـان أشـدَّ اجتهاداً في فعلها، من القيام بها، منه في أسباب معـاشه ومصـالح دنيـاه. وقد فقـهَ هذا كل الفقهِ منْ قال: «ما كنتُ أشدَّ اجتهاداً مني الآن».

فإن العبد إذا علم أن سلوكَ هذا الطريق يُفضي بـه إلى رياض مُـونقة، وبسـاتين معجبة، ومساكن طيبة، ولذة ونعيم لا يشوبه نكد ولا تعب كان حرصُه على سلوكها واجتهادهُ في المسير فيها بحسب علمه بما يفضي إليه.

ولهذا قال أبو عثمان النهدي لسلمان: «لأنا بأول هذا الأمر أشدُّ فرحاً مني بآخره» وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقـةٌ وهيأه ويسـره للوصول إليهـا كان فـرحُه بالسابقة التي سبقتْ له من الله أعظم من فرحه بالأسباب التي تأتي بها فإنهـا سبقتْ له من الله قبل الوسيلة منه وعلمها الله وشاءها وكتبها وقدرها وهيأ له أسبابها لتـوصله إليها، فالأمر كله من فضله وجُوده السابق؛ فسبقَ له من الله سابقةُ السعـادة ووسيلتها وغـايتها، فـالمؤمن أشد فـرحاً بـذلك منْ كـون أمره مجعـولاً إليه، كمـا قـال بعض السلف: «واللهِ ما أحبُّ أن يجعلَ أمري إليَّ، إنه إذا كـان بيد الله خيـرٌ من أن يكون بيدي».

فالقدرُ السابقُ معين على الأعمال وما يحثُّ عليها ومقتض لها، لا أنه منـافٍ لها وصادٌّ عنها. وهذاموضُع مزلِة قدمٍ، متى ثبتتْ قـدمُه فـاز بالنعيم المقيم، ومنْ زلت قدمُه عنه هوى إلى قرار الجحيم.

فالنبي ﷺ أرشد الأمة في القدر إلى أمرين هما سببـا السعادة: الإيمـان بالأقـدار فإنه نظامُ التوحيد، والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيـره وتحجز عن شـره وذلك نظامُ الشرع، فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر فأبى المنحرفـون إلا القدحَ بـإنكاره في أصل التوحيد، أو القدحَ بإثباته في أصل الشرع، ولم تتّسع عقولهم التي لم يلق الله عليها من نوره للجمع بين ما جمعت الـرسلُ جميعُهم بينـه، وهو القـدرُ والشرعُ والخْلقُ والأمر. ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] والنبي ﷺ شديدُ الحرص على جمْع هذين الأمرين للأمة، وقد تقدم قوله: «احرص على ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تعجز»[2] وإن العاجز منْ لم يتسع للأمرين، وبالله التوفيق.

(١) الآية /٢١٢/ من سورة البقرة.
(٢) حديث صحيح، وقد سبق تخريجه في ص ٣٠.

البَابُ الثامِنُ

في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾[1]

قد تقدمت الأحاديثُ بوقوع أهل السعادة في إحدى القبضتين وكتابتهم بأسمائهم وأسماءِ آبائهم في ديوان السعداء قبل خلْقهم. وفي صحيح الحاكم من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نَزَلَتْ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[2] قال المشركون: فالملائكةُ وعيسى وعزيرٌ يُعبدون من دون الله. [فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها.][3] قال: فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾[4] وهذا إسناد صحيح[5].

وقال علي بن المديني: ثنا يحيى بن آدم ثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم قال: أخبرني أبو رزين عن أبي يحيى عن ابن عباس أنه قال: آيةٌ لا يَسأل الناسُ عنها لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها، فقيل له: وما هي؟ فقال: لما نَزَلَتْ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا

---

(١) الآية /١٠١/ من سورة الأنبياء.
(٢) الآية /٩٨/ من سورة الأنبياء.
(٣) سقط من الأصل واستدركته من المستدرك للحاكم.
(٤) الآية /١٠١/ من سورة الأنبياء.
(٥) صحيح أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٨٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

﴿وَارِدُونَ﴾[1] شَق ذلك على قريش أو على أهل مكة وقالوا: يَشْتُم آلهتنا، فجاء ابن الزبعري فقال: ما لكم؟ قالوا يشتم آلهتنا. قال: وما قال؟ قـالوا: قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ قال: ادعوه لي، فلما دُعي النبي ﷺ قال: يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصةً أم لكل مَنْ عُبِدَ مِنْ دون الله؟ فقـال: لا بل لكـل من عُبد من دون الله، فقـال ابن الزبعـري: خُصِمْتَ وربِّ هذه البَنِيَّـة ـ يعني الكعبة ـ ألستَ تـزعمُ أن الملائكـةَ عبادٌ صـالحـون، وأن عيسى عبدٌ صالح، وأن عزيراً عبد صالح، وهذه بنو مليح تعبدُ الملائكةَ، وهذه النصـارى تعبدُ عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيراً. قال: فضجَّ أهلُ مكـةَ فأنـزلَ الله عزّ وجـلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[2]. قال: ونـزلَتْ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[3] قال: هو الضجيج[4]

وهـذا الإيـراد الـذي أورده ابن الـزِّبَعْـري لا يَـرِدُ على الآيـة، فـإنـه سبحـانـه قـال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[5] ولم يقل «ومن تعبـدون»، و«مـا» لمـا لا يَعْقِل فلا يدخلُ فيها الملائكـةُ والمسيحُ وعـزَير، وإنمـا ذلك لـلأحجار ونحوها التي لا تعقل،

وأيضاً فإن السورةَ مكية، والخطاب فيها لعُبَّاد الأصنام، فـإنه قـال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾، فلفظة «إنكم» ولفظة «ما» تبطلُ سؤالَه، وهو رجلٌ فصيـح من العرب لا

(١) الآية /٩٨/ من سورة الأنبياء.
(٢) الآية /١٠١/ من سورة الأنبياء.
(٣) الآية /٥٧/ من سورة الزخرف.
(٤) في الأصل الصجيج وفي الدر المنثور. وهو الصحيح والرواية في سبب نـزول الآية الكـريمة أخرجها الطبري في جامع البيان مج ١٠ جـ ١٧ ص ١٩٦ وذكرها أيضاً ابن كثير في التفسيـر (١٧٢/٣). والدر المنثور (٥/ ٦٨٠) وعزاه لابن مردويـه وابن المنذر والـطبراني، وذكـر ابن كثيـر رحمـه الله في التفسيـر أن عبدالله بن الـزبعـري أسلم بعد ذلـك وكـان من الشعـراء المشهورين، وقد كان يهاجي المسلمين أولاً ثم قال معتذراً:

يـا رسـول المـليـك إن لـسـانـي ... راتـق مـا فـتـقـت إذا أنـا بـور
إذا جـارى الشيـطان في سنن الغي ... ومـن مـال مـيـلـه مـثـبـور

(٥) الآية /٩٨/ من سورة الأنبياء.

يخفَى عليه ذلك، ولكن إيرادَه إنما كـان من جهة القيـاس والعموم المعنـوي الذي يعم الحكمُ فيـه بعموم علّتِـه، أي إن كـان كـونـهُ معبـوداً يـوجب أن يكـون حصَب جهنم، فهذا المعنى بعينه مـوجودٌ في المـلائكة وعـزيرٍ والمسيـح، فأُجيبَ بـالفارق وذلك من وجوه:

أحدُها: أن المـلائكة والمسيـح وعزيـراً ممن سبقتْ لهم من الله الحسنى، فهم سعـداء لم يفعلوا ما يُستـوجبون بـه النـارَ فـلا يُعـذَّبـون بعبـادة غيـرهم مـع بغضهم ومعـاداتهم لهم، فالتسـويةُ بينهم وبين الأصنـام أقبحُ من التسـوية بين البيـع والـربـا والميت الذَّكِيّ، وهذا شأنُ أهل الباطل، وإنمـا يسوّون بين مـا فَرَقَ الشـرعُ والعقلُ والفطرة بينه، ويفرقون بين ما سوَّي الله ورسولُه بينه.

الفـرقُ الثاني: أن الأوثـان حجارةٌ غيـرُ مكلَّفة ولا نـاطقةٍ فـإذا حُصبت بها جهنم إهـانةً لهـا ولعابـديها لم يكن في ذلـك مَنْ لا يستحق العذابَ، بخـلاف المـلائكـة والمسيـح وعُزَيـرٍ فإنهم أحيـاء ناطقـون، فلو حُصبت بهم الناس كـان ذلـك إيـلامـاً وتعذيباً لهم.

الثالث: أن مَنْ عَبَد هؤلاء بزعمه فإنه لم يعبـدهم في الحقيقة، فـإنهم لم يَدْعـوا إلى عبـادتهم، وإنما عَبَـدَ المشركـون الشياطينَ وتـوهموا أن العبـادةَ لهؤلاء، فـإنهم عبدوا بزعمهم من ادعى أنه معبودٌ مع الله وأنه معه إله، وقد برّأ الله سُبحانه مـلائكته والمسيحَ وعُزَيراً من ذلك، وإنما ادعى ذلك الشيـاطين وهم بزعمهم يعتقـدون أنهم يـرضَوْن بـأن يكونـوا معبودين مـع الله، ولا يرضى بذلك إلا الشيـاطينُ، ولهذا قـال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ

---

(١) الآية /٤٠/ من سورة سبأ.
(٢) الآية /٦٠/ من سورة يسن.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]

فما عبدَ غيرَ الله إلا الشيطان.

وهذه الأجوبةُ منتزعةٌ من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾[2] فتأمل الآية تجدها تلوحُ في صفحات ألفاظها، وبالله التوفيق. والمقصودُ ذِكْرُ الحسنى التي سبقتْ من الله لأهل السعادة قبل وجودهم.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: ثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد ثنا أبو عامر العقدي ثنا عروة بن ثابت الأنصاري ثنا الزهري عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أن عبد الرحمن بن عوف مرض مرضاً شديداً أغمي فيه عليه، فأفاق فقال: أغمي عليَّ؟ قالوا: نعم، قال: إنه أتاني رجلان غليظان فأخذا بيدي فقالا: انطلقْ نحاكمك إلى العزيز الأمين، فانطلقا بي فتلقاهما رجل وقال: أين تريدان به؟ قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين، فقال: دعاه فإن هذا ممن سبقتْ له السعادةُ وهو في بطن أمه.

وقال عبد الله بن محمد البغوي: ثنا داود بن رشيد ثنا ابن علية حدثني محمد بن محمد القرشي عن عامر بن سعد قال: أقبلَ سعدٌ مِنْ أرض له فإذا الناسُ عكوفٌ على رجل فاطلع فإذا هو رجل يسب طلحةَ والزبيرَ وعلياً فنهاه، فكأنما زاده إغراءً، فقال: ويلَكَ تريدُ أن تسبَّ أقواماً هم خيرٌ منك؟، ولتنتهينَّ أو لأدعوَنَّ عليك، فقال: كأنما يخوفني نبي من الأنبياء، فانطلقَ فدخل داراً فتوضأ ودخل المسجد ثم قال: اللهم إن كان هذا قد سب أقواماً قد سبقتْ لهم منك حُسنى، أسْخطك سبه إياهم، فأرني اليوم آية تكون للمؤمنين آيةً، وقال: تخرجُ بُخْتِيةٌ مِنْ دار بني فلان لا يردُّها شيء حتى تنتهي إليه ويتفرقَ الناس وتجعلَه بين قوائمها وتطأه حتى طفى[4]، قال: فأنا رأيت سعداً يتبعه الناس يقولون: استجاب الله لك يا أبا إسحاق، استجاب الله لك يا أبا إسحاق.

---

(١) الآية /٢٦/ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية /١٠١/ من سورة الأنبياء.

وقال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا ﴾[1] أي الله سماكم من قبلِ القرآن وفي القرآن،فسبقتْ تسميةُ الحق سبحانه لهم مسلمين قبل إسلامهم وقبلَ وجودهم.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾[2] وقال ابن عباس في رواية الوالبي عنه في قوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾[3] قال: سبقتْ لهم السعادةُ في الذكر الأول[4].

وهذا لا يخالفُ قولَ مَنْ قال إنه الأعمالُ الصالحةُ التي قدموها، ولا قولَ مَنْ قال: إنه محمد ﷺ، فإنه سبقَ لهم من الله في الذكر الأول السعادةُ بأعمالهم على يد محمد ﷺ، فهو خيرٌ تقدمَ لهم من الله، ثم قدّمه لهم على يد رسوله، ثم يقدّمهم عليه يوم لقائه، وقد قال تعالى: ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[5].

وقد اختلف السلفُ في هذا الكتاب السابق، فقال جمهورُ المفسرين من السلف ومَنْ بعدَهم: لولا قضاءٌ من الله سَبَقَ لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ أن الغنائم حلالٌ لكم لَعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتابٌ من الله سَبَقَ أنه لا يعذبُ أحداً إلا بعد الحجة لَعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتابٌ من الله سَبَقَ لأهلِ بدر أنه مغفورٌ لهم وإن عملوا ما شاؤوا لعاقبهم.

---

(١) سورة الحج، الآية /٧٨/.
(٢) سورة الصَّافات، الآية /١٧١/.
(٣) سورة يونس، الآية /٢/.
(٤) قول ابن عباس أخرجه ابن جرُير وابن المنذر، وابن أبي حاتم كما ذكر السيوطي في الدر المنثور(٣٤١). وذكر بقية الأقوال في معنى الآية الكريمة.
(٥) الآية /٦٨/ من سورة الأنفال.

وقـال آخرون، وهـو الصواب: لـولا كتـابٌ من الله سَبَقَ بهـذا كله لَمَسَّكم فيمـا أخذتم عذابٌ عظيم. والله أعلم[1].

---

(١) أقوال السلف رضوان الله عليهم في تفسير الكتاب السابق، أخرجها ابن جرير الطبـري في تفسيره جامع البيان مج ٦ جـ ١٠ ص ٤٥ وما بعدها.

البَابُ التاسِع

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾

قال سفيان عن زياد بن إسماعيل المخزومي: ثنا محمد بن عباد بن جعفر ثنا أبو هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى رسول الله ﷺ يخاصمون في القدر. فنزلتْ هذه الآيـة: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1] رواه مسلم[2].

وقد رَوى الدارقـطني من حديث حبيب بن عمـرو الأنصاري عن أبيـه قال: قـال رسول الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ أين خُصماء الله؟ وهم القدريةُ» ولكنْ حبيب هذا ـ قال الدارقطني ـ مجهول، والحديثُ مضطربُ الإسناد ولا يثبت[3].

والمخاصمون في القدر نوعان.

أحدهُما: مَنْ يُبطلُ أمرَ الله ونهيَه بقضائه وقدره، كـالذين قـالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[4].

---

(١) سورة القمر، الآيات (٤٧ ـ ٤٩).

(٢) رواه مسلم برقم /٢٦٥٦/ في القدر، باب كل شيء بقـدر، ورواه أيضاً الترمذي برقم /٣٢٨٦/ في التفسير، باب ومن سورة القمر. وابن جرير في التفسير (٢٧/١١١).

(٣) لم أعثر عليه عنـد الدارقـطني، وإنما هـو عند الـطبراني في الأوسط. كمـا ذكر الهيثمي في مجمـع الزوائـد (٧/٢٠٩). وقال: رواه الـطبراني في الأوسط من روايـة بقيـة وهـو مـدلس وحبيب بن عمر مجهول. وكذا أشار إليه الشيخ ناصر الدين الألباني في ضعيف الجامع برقم /٦٦٣/ وعزاه أيضاً للطبراني في الأوسط.

(٤) الآية /١٤٨/ من سورة الأنعام.

والثاني: مَنْ ينكر قضاءه وقدرَه السابقَ. والطائفتان خُصماء الله. قال عوف: مَنْ كذّب بالقدر فقد كذّب بالإسلام، إن الله تبارك وتعالى قدر أقداراً، وخلق الخْلق بقدر، وقسَّم الآجال بقدر، وقسّم الأرزاق بقدر، وقسّم البلاءَ بقدَر، وقسّم العافيةَ بقدر، وأمرَ ونَهَى.

قال الإمام أحمد: القدرُ قدرةُ الله. واستحسن ابنُ عقيل هذا الكلامَ جداً، وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين. وهو كما قال أبو الوفاء، فإن إنكارَ القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكِتابها وتقديرها، وسلَفُ القدرية كانوا ينكرون علمه بها، وهم الذين اتفق سلفُ الأمة على تكفيرهم، وسنذكرُ ذلك فيما بعدُ إن شاء الله.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾(1) قال: الذين يقولون(2) إن الله على كل شيء قدير. وهذا مِنْ فقه ابن عباس وعلمه بالتأويل ومعرفته بحقائق الأسماء والصفات، فإن أكثرَ أهل الكلام لا يوفون هذه الجملة حقَّها، ولو كانوا يقرّون بها، فمنكرو القدرِ وخلق أفعال العباد لا يقرّون بها على وجهها، ومنكرو أفعال الرب القائمة به لا يقرون بها على وجهها، بل يصرحون أنه لا يقدر على فعلٍ يقومُ به.

ومَنْ لا يقر بأن الله سبحانه كلَّ يوم هو في شأن يفعل ما يشاء لا يقر بأن الله على كل شيء قدير.

ومَنْ لا يقر بأن قلوبَ العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاءُ - وأنه سبحانه مقلّبُ القلوب حقيقةً وأنه إن شاء أن يقيم القلب أقامه وإن شاء أن يُزيغه أزاغه - لا يقرُّ بأن الله على كل شيء قدير.

ومَنْ لا يقر بأنه استوى على عرشه بعد أن خَلَق السمواتِ والأرض، وأنه يَنزلُ كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا يقول: مَنْ يسألني فأعطيَه، مَنْ يستغفرني فأغفر له، وأنه نزلَ إلى الشجرة فكلّم موسى كلمَه منها، وأنه يَنزل إلى الأرض قبل يوم القيامة حين

---

(١) الآية /٢٨/ من سورة فاطر، وانظر قول ابن عباس في تفسير ابن كثير (٣/٤٧٢) والدر المنثور (٧/٢٠)، والطبري في جامع البيان مج ١٢ جـ ٢٢ ص ١٣٢.

(٢) الصواب يعلمون، وقد استدركته من التفاسير الآنفة الذكر.

تخلو من سكـانها، وأنـه يجيءُ يـومَ القيـامـة فيفصـلُ بين عبـاده، وأنـه يتجلى لهم يضحكُ، وأنه يريهم نفسَه المقـدسةَ، وأنـه يضعُ رجله على النـار فيضيقُ بها أهلهـا وينزوي بعضُها إلى بعض. إلى غير ذلك من شؤونه وأفعالـه التي مَنْ لم يقرّ بهـا لم يقر بأنه على كل شيء قدير.

فيا لها كلمة من حبر الأمة وترجمـان القرآن. وقـد كان ابنُ عبـاسٍ شديـداً على القدَرية، وكذلك الصحابةُ، كما سنذكرُ ذلكَ إن شاء الله تعالى.

البَابُ العاشِر

في مراتب القضاء والقدر التي مَنْ لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر

وهي أربعُ مراتب:

(المرتبة الأولى) عِلْم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها،

(المرتبة الثانية) كتابتُه لها قبل كونها،

(المرتبة الثالثة) مشيئتهُ لها،

(الرابعة) خلْقه لها.

فأما المرتبةُ الأولى: وهي العلْم السابق فقد اتفق عليه الرسلُ من أولهم إلى خاتمهم، واتفق عليه جميع الصحابة ومَنْ تبعهم من الأمة، وخالفهم مجوسُ الأمة.

وكتابتهُ السابقة تدل على علمه بها قبل كونها. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]

قال مجاهد: عَلِمَ مِنْ إبليسَ المعصيةَ وخَلَقه لها. وقال قتادة: كان في علمه أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياءُ ورسلٌ وقوم صالحون، وساكنو الجنة. وقال ابن مسعود: أعلمُ ما لا يعلمون من إبليس. وقال مجاهد أيضاً: عَلِم مِنْ إبليس أنه لا يسجدُ لآدم[2].

---

(١) الآية /٣٠/ من سورة البقرة.

(٢) راجع أقوال الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في تفسير الآية الكريمة في جامع البيان للطبري مج ١ جـ ١ ص ١٩٥. والدر المنثور (١/١١٤)، وابن كثير (١/٦٤ وما بعدها).

وقـال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١).

وفي المسند من حديث لقيط بن عامر عن النبي ﷺ أنـه قال؛ يـا رسول الله: مـا عندكَ مِنْ عِلْم الغيب؟ فقال: «ضَنَ ربـك بمفاتيحَ خمسٍ من الغيب لا يعلمها إلا الله» وأشار بيده. فقلت: ما هن؟: قال: عِلْمُ المنيّةِ، قد عَلِمَ متى منيـةُ أحدِكم ولا تعلمونه، وعِلْم المنيِّ حين يكون في الرحِـمِ قـد علمَه ولا تعلمـونه، وعلِم مـا في غـدٍ، قد علمَ مـا أنتَ طاعمٍ ولا تعلمُـه، وعلُم يـوم الغيث يُشـرقُ عليكم مشفقين، فيـظل يضحـكُ قـد علمَ أنَّ غـوثَكم إلى قـريب» ـ قـال لقيط: «لن نعــدمَ مِنْ رب يضحكُ خيراً ـ وعلْمُ يـومِ الساعة»(٢).

وقـد تقدمَ حـديثُ عليّ المتفقُ على صحته: «مـا منكم من أحدٍ، مـا من نفسٍ منفوسة إلا وقد عُلم مكانها من الجنة أو النار؟»(٣).

وقال البزار: حـدثنا محمـد بن عمر بن هيـاج الكوفي ثنـا عبيد الله بن مـوسى ثنا فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أحسبه قال: يُؤتَى بالهـالكِ في الفترة والمعتوه والمولود، فيقـول الهالـكُ في الفترة، لم يـأتني كتاب ولا رسـول ويقول المعتوه: أي رب لم تجعل لي عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً، ويقول المولـود: أي رب لم أدرك العمـل، قـال: فيُـرفـع لهم نـار فيُقـال لهم: رِدُوهَـا ـ أو قـال: ادخلوها ـ فيرِدُها مَنْ كان في علم الله سعيداً أن لو أدرك العمل، قال: ويُمسِك عنها مَنْ كان في علم الله شقياً أن لو أدرك العمل، فيقـول تبارك وتعـالى: «إياي عصيتم فكيف رُسلي بالغيب»(٤).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما مِنْ مـولودٍ يـولدُ إلا على

---

(١) الآية /٣٤/ من سورة لقمان.

(٢) جزء من حديث طـويل أخرجه الإمـام أحمد في المسنـد (١٣/٤ و١٤)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤١/١٠ ـ ٣٤٦). وقال: رواه كله الطبراني من طرق رجال أحـدها رجـال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة.

(٣) حديث صحيح سبق تخريجه في ص ١٢.

(٤) الـحــديث ضـعيـف رواه الـبـزار فـي سنـده، عـطيـة وذكـره الـهيثمي في مـجـمـع الزوائد (٢١٩/٧) وقال: رواه البزار وفيه عطبه وهو ضعيف.

الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه كما تنتج البهيمة جمعاء[1]، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها»، قالوا: يا رسول الله أفرأيت مَنْ يموتُ منهم وهو صغير؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين»[2].

ومعنى الحديث: الله أعلم بما كانوا عاملين لو عاشوا.

وقد قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[3].

قال ابن عباس: عِلم ما يكون قبل أن يخلقه، وقال أيضاً: على علْمٍ قد سَبَق عنده، وقال أيضاً: يُريد الأمرَ الذي سَبَقَ له في أمِّ الكتاب، وقال سعيد بن جبير ومقاتل: على علمِه فيه.

وقال أبو إسحاق: أي على ما سَبَقَ في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه. وهذا الذي ذكَره جمهورُ المفسرين.

وقال الثعلبي: على علمٍ منه بعاقبة أمره، قال: وقيلَ: على ما سَبَقَ في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه. وكذلك ذَكر البغوي، وأبو الفرج بن الجوزي، قال: على علْمه السابق فيه أنه لا يَهتدي[4].

وذَكر طائفةٌ منهم المهدوي وغيرُه قولين في الآية هذا أحدُهما، قال المهدوي: فأضلّه الله على علْم عَلِمَه منه بأنه لا يستحقه، قال: وقيل: على علْمٍ مِنْ عابد الصنم أنه لا ينفعُ ولا يضرُّ. وعلى الأول يكون «على علم» حالاً من الفاعل، فالمعنى: أضلّه اللهُ عالماً بأنه من أهل الضلال في سابق علمه، وعلى الثاني حالاً من المفعول، أي أضلّه اللهُ في حال علم الكافر بأنه ضال.

قلتُ: وعلى الوجه الأولى فالمعنى: أضلّه الله عالماً به وبأقواله وما يناسبُه ويليق

---

(١) جمعاء: الجمعاء من البهائم التي لم يذهب من بدنها شيء. والجدعان: أي المقطوعة الأذن.

(٢) رواه البخاري (٢/١٠٤) في الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم برقم /٢٦٥٨/ في القدر، باب معنى كل مولود يولد عل الفطرة، وكذلك وافقهما الموطأ والترمذي وأبو داود بمعنى الحديث.

(٣) الآية /٢٣/ من سورة الجاثية

(٤) انظر أقوال المفسرين للآية في تفسير الطبري مج ١٣ حـ ٢٥ ص ١٥٠. وكذا ابن كثير والدر المنثور والبغوي في تفسيره، وابن الجوزي في تفسير (زاد المسير).

به ولا يصلح له غيره قبل خلقه وبعده، وأنه أهلٌ للضلال وليس أهلاً أن يُهدَى، وأنه لو هُدي لكان قد وضع الهدى في غير محله وعند مَنْ لا يستحقه، والرب تعالى حكيم إنما يضع الأشياءَ في محالّها اللائقة بها، فانتظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدرَ عليه الضلال. وذَكر العلم إذْ هو الكاشفُ المبين لحقائق الأمور ووَضْعِ الشيء في مواضعه وإعطاء الخير مَن يستحقه ومنْعِه مَن لا يستحقه، فإن هذا لا يحصلُ بدون العلم، فهو سبحانه أضلّه على علمه بأحواله التي تناسب ضلاله وتقتضيه وتستدعيه، وهو سبحانه كثيراً ما يذكر ذلك مع إخباره بأنه أضل الكافر كما قال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[3]، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[4]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[5]، ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[6] ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[7]، ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[8]، ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[9].

---

(١) الآية /١٢٥/ من سورة الأنعام.
(٢) الآية /٢٦/ من سورة البقرة.
(٣) الآية /٧٠/ من سورة الصف.
(٤) الآية /٥/ من سورة الصف.
(٥) الآية /٣/ من سورة الزمر.
(٦) الآية /٢٧/ من سورة إبراهيم
(٧) الآية /٣٤/ من سورة غافر.
(٨) الآية /٣٥/ من سورة غافر.
(٩) الآية /٥٩/ من سورة الروم.

وقد أخبر سبحانه أنه يفعل ذلك عقوبةً لأرباب هـذه الجرائم، وهـذا إضلال ثـان بعد الإضلال الأول كما قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[2].

وقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[3]

وقال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ ﴾[4]، وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[5] أي إن تركتم الاستجابة لله ورسوله عاقبكم بأن يحولَ بينكم وبين قلوبكم فلا تقدرُن على الاستجابة بعد ذلك.

ويشبه هذا إنْ لم يكن بعينه قولَه: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ ﴾[6] الآية.

وفي موضع آخر: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[7]. وفي هذه الآية ثلاثة أقوال.

أحدُها: قال أبو إسحاق: هذا إخبار عن قوم لا يؤمنون، كما قال عن نوح:

---

(١) الآية /١٥٥/ من سورة النساء.
(٢) الآية /١٠٩/ من سورة الأنعام.
(٣) الآية /٥/ من سورة الصف.
(٤) الآية /١٠/ من سورة البقرة.
(٥) الآية /٢٤/ من سورة الأنفال.
(٦) الآية /١٣/ من سورة يونس.
(٧) الآية /١٠١/ من سورة الأعراف.

﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾[1]. واحتجَّ على هذا بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2] قال: وهذا يدل على أنه قد طبع على قلوبهم.

وقال ابنُ عباس: فما كان أولئك الكفارُ ليؤمنوا عند إرسال الرسل لما كذبوا يوم أخذَ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرْهاً وأقروا باللسان وأضمروا التكذيب.

وقال مجاهد: فما كانوا لو أحييناهم بعد هلاكهم ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل هلاكِهم. قلتُ: وهو نظيرُ قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾[3].

وقال آخرون: لما جاءتهم رسلُهم بالآيات التي اقترحوها وطلبوها ما كانوا ليؤمنوا بعد رؤيتها ومعاينتها بما كذّبوا به من قبل رؤيتها ومعهاينتها فمنعَهم تكذيبُهم السابقُ بالحق لما عرفوه من الإيمان به بعد ذلك[4]،

وهذه عقوبة مَنْ ردّ الحق أو أعرضَ عنه فلم يقبله، فإنه يُصرف عنه ويُحال بينه وبينه، ويقلب قلبُه عنه، فهذا إضلالُ العقوبة وهو مِنْ عدْلِ الرب في عبده.

وأما الإضلالُ السابقُ الذي ضل به عن قبوله أولاً والاهتداء به فهو إضلال ناشىء عن علم الله السابق في عبده أنه لا يصلح للهدى ولا يليق به وأن محلَّه غيرُ قابلٍ له، فالله أعلمُ حيث يضعُ هداه وتوفيقَه كما هو أعلَمُ حيث يجعل رسالتَه، فهو أعلَمُ حيث يجعلها أصلاً وميراثاً، وكما أنه ليس كلّ محل أهلاً لتحمل الرسالة عنه وأدائها إلى الخلق فليس كل محل أهلاً لقبولها والتصديق بها، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[5]، أي ابتلَينا واختبرنا بعضَهم ببعض، فابتلى الرؤساء والسادة

---

(١) الآية /٣٦/ من سورة هود.
(٢) الآية /١٠١/ من سورة الأعراف.
(٣) الآية /٢٨/ من سورة الأنعام.
(٤) راجع الأقوال المختلفة في تفسير الآية الكريمة عند ابن جرير الطبري في جامع البيان مج ٦ جـ ٩ ص ١١ وابن كثير في التفسير (٢/ ٢٠٥)، والدر المنثور (٣/ ٥٠٨).
(٥) سورة الأنعام، الآية /٥٣/.

بالأتباع والموالي والضعفاء، فإذا نظرَ الرئيسُ والمطاع إلى المولى والضعيف أنف أن يسْلم، وقال: هذا يمن الله عليه بالهدى والسعادة دوني.

قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1] وهم الذين يعرفون النعمة وقدْرها ويشكرون الله عليها بالاعتراف والذل والخضوع والعبودية، فلو كانت قلوبكم مثلَ قلوبهم تعرفون قدْر نعمتي وتشكرونني عليها وتذكرونني بها وتخضعون لي كخضوعهم وتحبونني كحبهم لَمَننتُ عليكم كما مَننتُ عليهم، ولكِنْ لِمَنّي ونعمِي محالّ لا تليقُ إلا بها ولا تحسنُ إلا عندها.

ولهذا يَقرنُ كثيراً بين التخصيص والعلم كقوله ههنا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[2]، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[3]. أي سبحان المتفرد بالخلق والاختيار مما خلق وهو الاصطفاء والاجتباء.

ولهذا كان الوقفُ التام عند قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ثم نَفى عنهم الاختيارَ الذي اقترحوه بإرادتهم وأن ذلك ليس إليهم، بل إلى الخلاق العليم الذي هو أعلم بمحالّ الاختيار ومواضعه لا مَنْ قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[4].

فأخبر سبحانَه أنه لا يبعث الرسلَ باختيارهم وأن البشر ليس لهم أن يختاروا على الله بل هو الذي يخلق ما يشاء ويختار، ثم نَفى سبحانه أن تكون لهم الخيرة كما ليس لهم الخلْق.

ومنْ زعَمَ أن «ما» مفعول «يختار» فقد غلِط، إذْ لو كان هذا هو المراد لكانت الخيرةُ منصوبةً على أنها خبر كان، ولا يصح المعنى «ما كان لهم الخيرة فيه»

(١) سورة الأنعام، الآية /٥٣/.
(٢) سورة الأنعام، الآية /١٢٤/.
(٣) سورة القصص الآية /٦٨/.
(٤) سورة الزخرف، الآية /٣١/.

وحَذْفُ العائِد، فإن العائد ههنا مجرور بحرف لم يجر الموصول بمثله، فلو حُذِفَ مع الحرف لم يكن عليه دليل فلا يجوز حذْفُه.

وكذلك لم يَفهم معنى الآية مَنْ قال إن الاختيارَ ههنا هو الإرادةُ كما يقوله المتكلمون، أنه سبحانه فاعلٌ بالاختيار، فإن هذا الاصطلاحَ حادثٌ منهم لا يُحملُ عليه كلامُ الله، بل لفظُ الاختيار في القرآن مطابقٌ لمعناه في اللغة وهو اختيار الشيء على غيره، وهو يقتضي ترجيحَ ذلك المختار وتخصيصهِ وتقديمَه على غيره، وهذا أمر أخصُّ من مطلق الإرادة والمشيئة.

قال في الصحاح: «الخيرةُ» الاسمُ مِنْ قولك «خار الله لك في هذا الأمر» والخَيرةُ أيضاً: يقول محمد خِيرة الله من خلقه، وخيرة الله أيضاً بالتسكين، والاختيار الاصطفاء، وكذلك التخييرُ والاستخارةُ طلبُ الخيرة، يقال: استخر الله يخِرْ لك، وخيّرته بين الشيئين: فوّضتُ إليه الاختيار. انتهى».

فهذا هو الاختيارُ في اللغة وهو أخص مما اصطلح عليه أهلُ الكلام. ومن هذا قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾(٢) أي أختار منهم.

وبهذا يحصلُ جوابُ السؤال الذي تورده القدريةُ: يقولون في الكفر والمعاصي هل هي واقعةٌ باختيار الله أم بغير اختياره، فإن قلتم باختياره فكلُ مختارٍ مَرْضيٌّ مُصطفًى محبوب فتكون مرضيةً محبوبة له، وإن قلتم بغير اختياره لم يكن بمشيئته واختياره.

وجوابُه أن يقال: ما تعنون بالاختيار [أهو] العام في اصطلاح المتكلمين وهو المشيئة والإرادة؟ أم تعنون به الاختيارَ الخاص الواقع في القرآن والسنة وكلام العرب؟ وإن أردتم بالاختيار الأولَ فهي واقعةٌ باختياره بهذا الاعتبار، لكنْ لا يجوزُ أن يُطلَق ذلك عليها لما في لفظ الاختيار في معنى الاصطفاء والمحبة، بل يُقال واقعةٌ بمشيئته وقدرته.

(١) سورة الأحزاب، الآية /٣٦/.
(٢) سورة الأعراف، الآية /١٥٥/.

وإن أردتم بالاختيار معناه في القرآن ولغة العرب فهي غيرُ واقعة باختياره بهذا المعنى وإن كانت واقعة بمشيئته.

فإن قيل: فهل تقولون إنها واقعة بإرادته أم لا تطلقون ذلك؟ قيل: لفظُ الإرادة في كتاب الله نوعان:

إرادة كونية شاملة لجميع المخلوقات كقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[1] وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾[2] وقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[3] ونظائرَ ذلك.

وإرادةٌ دينية أمرية لا يجب وقوعُ مرادها، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾[4]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[5] فهي مرادةٌ بالمعنى الأول غيرُ مرادة بالمعنى الثاني.

وكذلك إن قيل: هل هي واقعة بإذنه أم لا؟ والإذنُ أيضاً نوعان: كوني كقوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[6] وديني أمري كقوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾[7] وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾[8].

ولفظُ الاختيار مشتق من الخير المخالف للشر، ولما كان الأصل في الحي أنه يريدُ ما ينفعه وما هو خير سميت الإرادة اختياراً، وهذا يتضمنُ أن الإرادة لا ترجِّح نوعاً على نوعٍ إلا لمرجحٍ رجّح ذلك النوعَ عند الفاعل.

والمقصودُ أنه يذكر العلم عند التخصيصات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[9] لا خلافَ بين الناس أن المعنى: على علْم منّا

---

(١) سورة البروج، الآية /١٦/.
(٢) سورة الإسراء، الآية /١٦/.
(٣) سورة هود، الآية /٣٤/.
(٤) سورة البقرة، الآية /١٨٥/.
(٥) سورة النساء، الآية /٢٧/.
(٦) سورة البقرة، الآية /١٠٢/.
(٧) سورة يونس، الآية /٥٩/.
(٨) سورة الحج، الآية /٣٩/.
(٩) سورة الدخان، الآية /٣٢/.

بأنهم أهلُ الاختيار، فالجملةُ في موضع نصب على الحال، أي اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم وما يقتضي اختيارُهم من قبل خَلْقهم. ذَكَر سبحانه اختيارَهم وحكمتَه في اختياره إياهم، وذكر عِلْمَه الدالّ على مواضع حكمته واختياره.

ومن هذا قولُه سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾(١)

وأصحّ الأقوال في الآية أن المعنى: من قبل نزول التوراة، فإنه سبحانه قال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٢)، وقال: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾(٣)، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾(٤). [أي من قبل] ذلك. ولهذا قُطعتْ «قبل» عن الإضافة وبُنيتْ لأن المضاف مَعْنويّ معلومٌ وإنْ كان غيرَ مذكور في اللفظ.

وذَكَر سبحانه هؤلاء الثلاثةَ وهم أئمةَ الرسل وأكرمُ الخلق عليه محمداً وإبراهيم وموسى.

وقد قيلَ: «من قبلُ» أي في حال صِغره قبل البلوغ. وليس في اللفظ ما يدلّ على هذا، والسياقُ إنما يقتضي «من قبل ما ذُكر».

وقيل المعنى بقوله: «من قبل» أي في سابق علمنا، وليس في الآية أيضاً ما يدل على ذلك، ولا هو أمرٌ مختص بإبراهيم، بل كلّ مؤمن فقد قدر الله هداه في سابق علمه، والمقصود قوله: ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾(٥)، وقال البغوي: أنه أهلٌ للهداية والنبوة. وقال أبو الفرج: أي عالمين بأنه موضع لإيتاء الرشد.

وقال صاحب الكشاف: المعنى علْمُه به أنه علم منه أحوالاً بديعة وأسراراً عجيبة وصفاتٍ قد رَضِيَها وحمِدَها حتى أهّله لمخالَّته ومخالصتِه، وهذا كقولك في حُر من الناس: أنا عالِمٌ بفلان، فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: /٤٨/.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: /٥٠/.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: /٥١/.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: /٥١/.

وهذا كقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(١) وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾(٢).

ونظيره قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٣).

وقريبٌ منه قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾(٤) حيث وضعنا هذا التخصيصَ في المحلّ الذي يليقُ به من الأماكن والأناسيّ.

فصل: وهو سبحانه كما هو العليمُ الحكيم في اختياره مَنْ يختارُه مِنْ خلقه، وإضلالِه مَنْ يضله منهم، فهو العليمُ الحكيم بما في أمره وشرعه من العواقب الحميدة والغايات العظيمة، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٥).

بيّن سبحانه أن ما أمرَهم به يَعلم ما فيه من المصلحة والمنفعة لهم التي اقتضت أن يختارَه ويأمرهم به، وهم قد يكرهونه إما لعدم العلم وإما لنفور الطبع، فهذا علمه بما في عواقب أمره مما لا يعلمونه، وذلك علْمُه بما في اختياره مِن خلقه بما لا يعلمونه.

فهذه الآية تضمنتْ الحَضَّ على التزام أمر الله وإنْ شقّ على النفوس، وعلى الرضا بقضائه وإنْ كرهتْه النفوسُ.

وفي حديث الاستخارة «اللهم إني أستخيرُك بعلمك، واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنك تقدِرُ ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علّام الغيوب،

---

(١) الآية /١٢٤/ من سورة الأنعام.
(٢) الآية /٣٢/ من سورة الدخان.
(٣) الآية /٣٣/ من سورة آل عمران.
(٤) الآية /٨١/ من سورة الأنبياء.
(٥) الآية /٢١٦/ من سورة البقرة.

اللهم إن كنتَ تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فأقْدره لي ويسِّره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنتَ تعلمه شرّاً لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري فاصرفْه عني واصرفني عنه واقدُر لي الخيرَ حيث كان ثم رضِّني به»[1].

ولما كان العبد يحتاج في فعل ما ينفعه في معاشه ومعاده إلى علم ما فيه من المصلحة وقدرته عليه وتيسره له وليس له من نفسه شيءٌ مِن ذلك، بل علمه ممن علّم الإنسانَ ما لم يعلم، وقدرتُه منه، فإنْ لم يقدره عليه وإلا فهو عاجز، وتيسيره منه، فإن لم ييسره عليه وإلا فهو متعسر عليه بعد إقداره ـ أرشده النبي ﷺ إلى محض العبودية وهو جلبُ الخيرة من العالم بعواقب الأمور وتفاصيلها وخيرها وشرها، وطلبُ القدرة منه فإنه إنْ لم يقدره وإلا فهو عاجز، وطلبُ فضله منه، فإنْ لم ييسره له ويهيئه له وإلا فهو متعذر عليه، ثم إذا اختاره له بعلمه وأعانه عليه بقدرته ويسره له من فضله فهو يحتاج إلى أن يبقيه عليه ويديمه بالبركة التي يضعها فيه، والبركةُ تتضمن ثبوتَه ونموه، وهذا قَدْر زائد على إقداره عليه وتيسيره له، ثم إذا فعل ذلك كلَّه فهو محتاج إلى أن يرضيه به فإنه قد يهيء له مايكرهه فيظل ساخطاً ويكونُ قد خار الله له فيه.

قال عبد الله بن عمر: «إن الرجل ليستخيرُ الله فيختار له فيسخطُ على ربه فلا يلبث أن ينظر في العاقبة فإذا هو قد خار له».

وفي المسندِ من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ: «مِنْ سعادةِ ابن آدم استخارتُه الله تعالى، ومِن سعادة ابن آدم رضاه بما قضاه الله، ومن شقوة ابن آدم تركه استخارةَ الله عز وجل، ومن شقوة ابن آدم سخطُه بما قضى الله»[2].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ١٦٢) في الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، وأبو داود برقم /١٥٣٨/ في الصلاة، باب في الاستخارة، والترمذي برقم /٤٨٠/ في الصلاة، باب ما جاء في صلاة الاستخارة، والنسائي في النكاح، باب كيفية الاستخارة. (٦/ ٨٠).

(٢) حديث ضعيف، أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ١٦٨)، والترمذي أيضاً برقم /٢١٥٢/ في القدر، باب ما جاء في الرضا بالقضاء، وفي سند الحديث محمد بن أبي حميد الأنصاري الزرقي لقبه (حماد) وهو ضعيف، ضعفه ابن معين وأبو زرعة، وأبو حاتم والنسائي وغيرهم، قال البخاري في الكبير (١/ ٧٠): منكر الحديث، وقال العقيلي في الضعفاء (١/ ٣٠٨): منكر الحديث، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن أبي حميد، ويقال له أيضاً حماد بن حميد، وهو أبو إبراهيم المدني، وليس بالقوي عند أهل الحديث.

فالمقدورُ يكتنفه أمران: الاستخارةُ قبله والرضا بعده، فمن توفيق الله لعبده وإسعاده إياه أن يختار قبل وقوعه ويرضى بعد وقوعه، ومِنْ خِذلانِه له أن لا يستخيرَهُ قبل وقوعه ولا يرضى به بعد وقوعه.

وقال عمر بن الخطاب: لا أبالي أصبحتُ على ما أحبُّ أو على ما أكره، لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره.

وقال الحسن: لا تكرهوا النقماتِ الواقعةَ والبلايا الحادثةَ، فلَربَّ أمر تكرهُه فيه نجاتُك، ولربَّ أمر تُؤثره فيه عَطَبُك.

فصل: ومما يناسب هذا قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[1].

بيَّنَ سبحانه حكمةَ ما كرهوه عام الحديبيَة مِنْ صدّ المشركين لهم حتى رجعوا ولم يعتمروا، وبيَّنَ لهم أن مطلوبَهم يحصلُ بعد هذا فحصل في العام القابل، وقال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[2] وهو صلح الحديبية، وهو أولَ الفتح المذكور في قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[3] فإن بسببه حصلَ من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك، ودخلَ الناسُ بعضهُم في بعض، وتكلم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهرةً لا يخافون، ودخلَ في ذلك الوقت في الإسلام قريبٌ ممن دخلَ فيه إلى ذلك الوقت، وظهرَ لكل أحد بغيُ المشركين وعداوتهم وعنادهُم.

وعلمَ الخاصُّ والعام أن محمداً وأصحابه أولو الحق والهدى، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلا العدوان والعناد، فإن البيتَ الحرام لم يُصد عنه حاج ولا معتمرٌ مِنْ زمن إبراهيم، فتحققتْ العربُ عنادَ قريشٍ وعداوتهم، وكان ذلك داعيةً لبشرٍ كثير إلى

(١) و(٢) الآية /٢٧/ من سورة الفتح.
(٣) الآية /١/ من سورة الفتح

الإسلام وزاد عنادُ القوم وطغيانهم، وذلك من أكبر العون على نفوسهم، وزاد صبرُ المؤمنين واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم، إلى غير ذلك من الأمور التي علمَها اللهُ ولم يعلمها الصحابةُ ولهذا سماه فتحاً، وسئل النبي ﷺ: أفتح هو؟ قال: نعم[1].

ويشبه هذا قولَ يوسفَ الصديق: ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2].

فأخبرَ أنه يلطُفُ لما يريده فيأتي به بطرقٍ خفية لا يعلمها الناس، واسمه اللطيفُ يتضمن علمَه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف كما قال أهل الكهف: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾[3] فكان ظاهرُ ما امتُحن به يوسف من مفارقةِ أبيه وإلقائِه في السجن وبيعِه رقيقاً ثم مراودةِ التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه وسجنه محناً ومصائبَ وباطنُها نعماً وفتحاً جعلها الله سبباً لسعادته في الدنيا والآخرة.

ومن هذا الباب ما يَبتلي به عبادَه من المصائب، ويأمرهُم به من المكاره، وينهاهم عنه من الشهوات، هي طرقٌ يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفَّت الجنةُ بالمكاره وحُفت النار بالشهوات[4].

وقد قال ﷺ: «لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا خيراً له، إنْ أصابته سراءُ شَكَرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبَرَ فكان خيراً له»[5].

(١) لمزيد من المعرفة راجع تفاصيل صلح الحديبية في صحيح البخاري (٥/٨٤) في المغازي، باب عمرة القضاء، ومسلم برقم /١٧٨٣/ في الجهاد، باب صلح الحديبية في الحديبية.

(٢) الآية /١٠٠/ من سورة يوسف.

(٣) الآية /١٩/ من سورة الكهف.

(٤) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه برقم /٢٨٢٢/ في صفة الجنة في فاتحته، والترمذي برقم /٢٥٦٢/ في صفة الجنة، باب حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، وكلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه برقم /٢٩٩٩/ في الزهد، باب المؤمن أمره كله خير.

وليس ذلك إلا للمؤمن، فالقضاءُ كله خيرٌ لمن أعطى الشكرَ والصبر جالياً ما جلَبَ، وكذلك ما فعلَه بآدم وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ من الأمور التي هي في الظاهر محن وابتلاء، وهي في الباطن طرقٌ خفية أدخلهم بها إلى غاية كمالهم وسعادتهم.

فتأمل قصةَ موسى وما لُطفَ له مِنْ إخراجه في وقتِ ذبحِ فرعون للأطفال، ووحيه إلى أمه أن تقليه في اليم، وسَوْقِه بلطفه إلى دارِ عدوه الذي قدر هلاكهُ على يديه وهو يذبحُ الأطفالَ في طلبه، فرماه في بيته وحجره على فراشه، ثم قَدر له سبباً أخرجه من مصر وأوصلَه به إلى موضعٍ لا حكمَ لفرعون عليه، ثم قدَر له سبباً أوصله به إلى النكاح والغنى بعد العزوبة والعَيْلة، ثم ساقه إلى بلد عدوه فأقام عليه به حجتَه، ثم أخرجه وقومَه في صورة الفارين منه وكان ذلك عينَ نُصرتهم على أعدائهم وإهلاكهم وهم ينظرون.

وهذا كله مما يُبينُ أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة والحكم العظيمة التي لا تدركها عقولُ الخلق مع ما في ضِمنها من الرحمة التامة والنعمة السابغة والتعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته، فكَمْ في أكلِ آدَم من الشجرة التي نُهي عنها وإخراجِه بسببها من الجنة مِنْ حكمةٍ بالغةٍ لا تهتدي العقولُ إلى تفاصيلها، وكذلك ما قدَّره لسيدِ ولدِه من الأمور التي أوصله بها إلى أشرفِ غاياته وأوصله بالطرق الخفية فيها إلى أحمدِ العواقب، وكذلك فعْلُه بعباده وأوليائه يوصل إليهم نعمَه ويسوقهم إلى كمالهم وسعادتهم في الطرق الخفية التي لا يهتدون إلى معرفتها إلا إذا لاحت لهم عواقبها.

وهذا أمر يضيق الجنَانُ عن معرفة تفاصيله، ويحصرُ اللسانُ عن التعبير عنه، وأعرَفُ خلْقِ الله به أنبياؤه ورسلُهُ، وأعرفُهم به خاتمهم وأفضلُهم، وأمتُه في العلم به على مراتبهم ودرجاتهم ومنازلهم من العلم بالله وبأسمائه وصفاته، وهو سبحانه قد أحاط علماً بذلك كلِّه قبل السموات والأرض وقَدَره وكَتَبه عنده، ثم يأمرُ ملائكتَه بكتابة ذلك من الكتاب الأول قبل خَلق العبد فيطابقُ حاله وشأنه لما كتَب في الكتاب ولما كَتبته الملائكةُ لا يزيد شيئاً ولا يَنقص مما كتبه سبحانه واثبته عنده، كان في علمه قبل أن يكتبه، ثم كتبه كما في علمه، ثم وُجد كما كتبه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى

كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1]

والله سبحانه قد علم قبل أن يُوجِد عبادَه أحوالَهم وما هم عاملون وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلى هذا الدار لِيُظهرَ معلومَه الذي عَلمه فيهم كما عَلمه، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه فاستحقوا المدحَ والذم والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلْم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك وهي في علمِه قبل أن يعلموها فأرسلَ رسلَه وأنزل كتبه وشرَع شرائعه إعذاراً إليهم واقامةً للحجة عليهم لئلايقولوا كيف تعاقبنا على عِلمك فينا وهذا لا يدخلُ تحت كسبنا وقدرتنا، فلما ظهر علمُه فيهم بأفعالهم حصل العقابُ على معلومه الذي أظهره الابتلاءُ والاختبار.

وكما ابتلاهم بأمره ونهيه ابتلاهم بما زَيَّنَ لهم من الدنيا وبما رَكَّب فيهم من الشهوات فذلك ابتلاء بشرعه وأمره، وهذا ابتلاء بقضائه وقدره. قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[2].

وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[3] فأخبر في هذه الآية أنه خلَق السمواتِ والأرض ليبتلي عباده بأمره ونهيه، وهذا من الحق الذي خَلَق به خلْقه.

وأخبرَ في الآية التي قبلها أنه خلق الموتَ والحياة ليبتليهم أيضاً فأحياهم ليبتليَهم بأمره ونَهْيه، وقدَّر عليهم الموتَ الذي ينالون به عاقبةَ ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب.

وأخبر في الآية الأولى أنه زين لهم ما على الأرض ليبتليهم به أيهم يؤثر ما عنده عليه، وابتلى بعضَهم ببعض، وابتلاهم بالنعم والمصائب، فأظهر هذا الابتلاءُ علمَه السابقَ فيهم موجوداً عِياناً بعد أن كان غيباً في علمه، فابتلى أبوي الإنس والجن كلًّا منهما بالآخر، فأظهر ابتلاء آدم ما عَلِمه منه، وأظهر ابتلاء إبليسَ ما عَلِمه منه، فلهذا قال للملائكة: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[4].

---

(١) الآية /٧٠/ من سورة الحج.

(٢) الآية /٧/ من سورة الكهف.

(٣) الآية /٧/ من سورة هود.

(٤) الآية /٣٠/ من سورة البقرة.

واستمر هذا الابتلاء في الذرية إلى يوم القيامة فابتلى الأنبياءَ بأممهم، وابتلى أممهم بهم، وقال لعبده ورسوله وخليله ﷺ إني مبتليك ومُبتلٍ بك، وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾[2].

وفي الحديث الصحيح أن ثلاثةَ أراد الله أن يبتليهم، أبرصَ وأقرعَ وأعمى[3]، فأظهر الابتلاءُ حقائقَهم التي كانت في علمه قبل أن يخلقهم، فأما الأعمى فاعترف بإنعام الله عليه وأنه كان أعمى فقيراً فأعطاه الله البصر والغِنى وبَذَل للسائل ما طلبه شكراً لله، وأما الأقرعُ والأبرصُ فكلاهما جَحد ما كان عليه من قبل ذلك من سوء الحال والفقر، وقال في الغنى: إنما أُوتيته كابراً عن كابر.

وهذا حالُ أكثرِ الناس لا يعترفُ بما كان عليه أولاً من نقص أو جهل وفقر وذنوب، وأن الله سبحانه نَقَله من ذلك إلى ضدّ ما كان عليه، وأنعم بذلك عليه، ولهذا ينبه سبحانه الإنسانَ على مبدأ خَلْقه الضعيف من الماء المهين ثم نقْلِه في أطباقِ خَلْقه وأطوارِه من حال إلى حال حتى جعلَه بشراً سوياً يسمع ويبصر ويقول وينطق ويبطش ويعلم فنسيَ مبدأه وأولَه وكيف كان، ولم يعترفْ بنعم ربه عليه كما قال تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾[4].

وأنت إذا تأملتَ ارتباطَ إحدى الجملتين بالأخرى وجدتَ تحتها كنزاً عظيماً من كنوز المعرفة والعلم، فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة والآيةِ الدالةِ على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسُنُ به مع ذلك أن يتركهم سُدىً لا يرسل إليهم رسولاً ولا ينزل عليهم كتاباً، وأنه لا يعجَزُ مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقاً جديداً، ويبعثهم إلى دار يوفيهم فيها أعمالَهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم

---

(١) الآية /٣٥/ من سورة الأنبياء.
(٢) الآية /٢٠/ من سورة الفرقان.
(٣) قصة الأقرع والأبرص والأعمى رواها الإمام البخاري في صحيحه (١٤٣/٤) في الأنبياء، باب ما ذكر عن نبي إسرائيل، ومسلم في صحيحه برقم /٢٩٦٤/ في الزهد في فاتحة الكتاب. وكلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) الآيات ٣٨ و٣٩ من سورة المعارج.

يكذبوني ويكذّبون رُسلي، ويعدلون بي خَلْقي وهم يعلمون من أيّ شيء خلقتهم.

ويشبه هذا قولَه: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾[1] وهم كانوا مصدِّقين بأنه خالقُهم ولكنْ احتجَّ عليهم بخلقه لهم على توحيده ومعرفته وصدق رسله، فدعاهم منهم ومِنْ خلقه إلى الإقرار بأسمائه وصفاته وتوحيدِه وصدق رسله والإيمان بالمعاد، وهو سبحانه يذكِّر عبادَه بنعمه عليهم ويدعُوهم بها إلى معرفته ومحبته وتصديق رسله والإيمان بلقائه كما تضمنته سورة النِّعم وهي سورةُ النحل من قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[2].

فذكَّرهم بأصول النعم وفروعها وعدّدَها عليهم نعمةً نعمةً، وأخبر أنه أنعم بذلك عليهم ليُسلموا له فتكملَ نعمةُ عليهم بالإسلام الذي هو رأسُ النعم، ثم أخبرَ عمن كَفَرَه ولم يشكر نعمَه بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[3].

قال مجاهد: المساكنُ والأنعامُ وسرابيلُ الثياب والحديد يعرفُه كفارُ قريش ثم ينكرونه بأن يقولوا هذا كان لآبائنا ورِثناه عنهم.

وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لكان كذا وكذا.

وقال الفراء وابن قتيبة: يعرفون أن النعمَ من الله ولكنْ يقولون هذه بشفاعة آلهتنا.

وقالت طائفةٌ: النعمةُ ههنا محمد ﷺ وإنكارُها جَحْدُهم نبوتَه[4]، وهذا يُروى عن مجاهد والسدّي، وهذا أقربُ إلى حقيقة الإنكار فإنه إنكار لما هو أجلُّ النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره، فإن الذي قال إنما كان هذا لآبائنا ورثناه كابراً عن كابر جاحداً لنعمة الله عليهم غير معترفٍ بها؛ وهو كالأبرص

---

(١) الآية /٥٧/ من سورة الواقعة.

(٢) الآيات /١ حتى /٨/ من سورة النحل.

(٣) الآية /٨٣/ من سورة النحل.

(٤) راجع جميع الأقوال في تفسير الآية الكريمة عند الطبري في جامع البيان مج ٨ جـ ١٤ ص ١٥٧ و١٥٨.

والأقرع اللذين ذكَّرهما المَلَكُ بنعم الله عليهما فأنكرا وقالا: إنما ورثنا هذا كابراً عن كابر، فقال: إن كنتما كاذبين فصيّركما الله إلى ما كنتما[1].

وكونُها موروثةً عن الآباء أبلغُ في إنعام الله عليهم إذ أنعم بها على آبائهم ثم ورَّثهم إياها فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمته.

وأما قولُ الآخرين: «لولا فلان لما كان كذا» فيتضمنُ قَطْعَ إضافة النعمة إلى مَنْ لولاه لم تكن، وإضافتَها إلى مَنْ لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، وغايتها أن تكون جزءاً من أجزاء السبب أجرى الله تعالى نعمته على يده، والسببُ لا يستقلُّ بالإيجاد وجَعْلُه سبباً هو من نعم الله عليه، وهم المنعمُ بتلك النعمة وهو المنعم بما جَعَلَه مِن أسبابها، فالسببُ والْمُسبَّبُ من إنعامه، وهو سبحانه قد يُنعم بذلك السبب وقد يُنعم بدونه فلا يكون له أثر، وقد يسلبه تسبيبَه، وقد يجعل لها معارضاً يقاومها، وقد يرتب على السبب ضدَّ مقتضاه، فهو وحده المنعم على الحقيقة.

وأما قولُ القائل: بشفاعة آلهتنا فتضمّنَ الشركَ مع إضافة النعمة إلى غير وليها، فالآلهةُ التي تُعبد من دون الله أحقرُ وأذل من أن تشفعَ عند الله وهي محضرة في الهوان والعذاب مع عابديها، وأقربُ الخلق إلى الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه[2].

فالشفاعةُ بإذنه مِنْ نعمه، فهو المنعمُ بالشفاعة وهو المنعم بقبولها وهو المنعم بتأهيل المشفوع له، إذْ ليس كلّ أحد أهلاً أن يُشفَع له، فمَن المنعمُ على الحقيقة سواه؟ قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[3].

فالعبدُ لا خروج له عن نعمته وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا ذم الله سبحانه من آتاه شيئاً من نعمة فقال: إنما أُوتيته على علم

---

(١) شطر من الحديث الصحيح الذي سبق تخريجه في ص ٦٤.
(٢) يشير بذلك إلى جزء من حديث سؤال المؤمنين الشفاعة حيث يقول فيه ﷺ... فيأتوني فاستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله، فيقال: يا محمد ارفع، قل يسمع، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فاحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم أشفع... الحديث بطوله أخرجه البخاري (٧/ ٢٠٠) في الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ومسلم برقم /١٩٣/ في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.
(٣) الآية /٥٣/ من سورة النحل.

عندي. وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[1].

قال البغوي: على علم من الله أني لـه أهل، وقـال مقاتـل: على خيرٍ عَلِمه اللهُ عندي. وقال آخرون: على عِلْم من الله أني له أهـل. ومضمونُ هـذا القول إن الله آتانيه على علمه بأني أهلُه. وقـال آخرون: بـل العلم له نفسـه، ومعناه أوتيتـهُ على علم مني بـوجوه المكـاسب. قالـه قتادة وغيـرُه.

وقيـل: المعنى قد علمتُ أني لمّـا أوتيتُ هـذا في الـدنيـا فلي عنـد الله منـزلـةٌ وشـرف. وهذا معنى قـول مجاهـد: أوتيتـه على شـرف، قـال تعـالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾[2] أي النعمُ التي أوتيهافتنـةٌ نختبره فيهـا ومحنةنمتحنـه بهـا،لا يـدل على اصطفائه واجتبائه وأنه محبوب لنا مقربٌ عندنا.

ولهـذا قـال في قصـة قـارون: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾[3].

فلو كان إعطاءُ المـال والقوة والجـاه يدل على رضـا الله سبحانـه عمن آتاه ذلـك وشرفِ قَدْره وعلو منزلته عنـده لما أهلك من آتـاه من ذلك أكثرَ ممـا آتى قـارون، فلمّا أهلكهم مع سَعة هذا العـطاء وبَسْطتـه عُلم أن عطاءه إنمـا كان ابتـلاءً وفتنة لا محبةً ورضاً واصـطفاءً لهم على غيـرهم، ولهذا قـال في الآية الأخـرى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي النعمة فتنة لا كرامةٌ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4].

ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾[5]، أي قد قال هذه المقالَة الذين مِنْ قبلهم لما آتيناهم نعمًنا.

وقال: قال ابن عباس: كانوا قد بطِروا نعمةَ الله إذ آتاهم الدنيا وفرحوا بها وطَغوا وقالوا هذه كرامةٌ من الله لنا.

---

(١) الآية /٤٩/ من سورة الزمر.
(٢) سورة الزمر، الآية /٤٩/.
(٣) سورة القصص، الآية /٧٨/.
(٤) سورة يونس، الآية /٥٥/.
(٥) سورة الزمر، الآية /٥٠/.

وقوله: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ المعنى أنهم ظنوا أن ما آتيناهم لكرامتهم علينا، ولم يكن كذلك، لأنهم وقعوا في العذاب ولم يُغْن عنهم ما كسَبوا شيئاً، وتبين أن تلك النعم لم تكن لكرامتهم علينا وهوانِ مَنْ منعناه إياها.

وقال أبو إسحاق: معنى الآية أن قولهم إنما آتانا الله ذلك لكرامتنا عليه وأنّا أهله، أحبط أعمالَهم، فكنَّى عن إحباط العمل بقوله: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ ثم أبطل سبحانه هذا الظن الكاذبَ منهم بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾(١).

والمقصودُ أن قولَه: ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾(٢) إنْ أُريدَ به علمُه نفسُه كان المعنى أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة والمعرفة التي توصلت بها إلى ذلك وحصَلته بها، وإن أُريد به علُم الله كان المعنى أُوتيتُه على ما عَلم الله عندي من الخير والاستحقاق وأني أهله وذلك من كرامتي عليه.

وقد يترجح هذا القولُ بقوله «أُوتيتُه» ولم يقل حصَّلته واكتسبتُه بعلمي ومعرفتي، فدلّ على اعترافه بأن غيره آتاه إياه، ويدل عليه قولُه تعالى: ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ أي محنة واختبار، والمعنى أنه لم يُؤت هذا لكرامته علينا بل أوتيَه امتحاناً منا وابتلاءً واختباراً هل يشكر فيه أم يكفر.

وأيضاً فهذا يوافقُ قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾(٣) فهو قد اعترف بأن ربه هو الذي آتاه ذلك ولكنْ ظن أنه لكرامته عليه.

فالآيةُ على التقدير الأول تتضمنُ ذمَّ مَنْ أضاف النعم إلى نفسه وعلمِه وقوتِه ولم يضفها إلى فضل الله وإحسانه، وذلك مَحْضُ الكفر بها، فإن رأسَ الشكر الاعترافُ بالنعمة وأنها من المنعم وحده، فإذا أضيفتْ إلى غيره كان جَحْداً لها، فإذا قال أُوتيته على ما عندي من العلم والخبرة التي حصَّلتُ بها ذلك فقد أضافها إلى نفسه

(١) سورة الزمر، الآية /٥٢/.
(٢) سورة القصص، الآية /٧٨/.
(٣) سورة الفجر، الآيتان /١٥ و١٦/.

وأُعجب بهـا كما أضـافها إلى قـدرته الـذين قالـوا مَنْ أشد منـا قوةً، فهؤلاء اغتـروا بقوتهم وهذا اغتر بعلمه، فما أغنى عن هؤلاء قوتُهم ولا عن هذا علمُه.

وعلى التقدير الثاني يتضمن ذمَّ مَنْ اعتقد أنَّ إنعام الله عليه لكونه أهـلًا ومستحقاً لها، فقد جَعَلَ سببَ النعمة ما قام به من الصفات التي يستحقُّ بها على الله أن يُنعم عليه وأن تلكَ النعمةَ جزاءٌ له على إحسانه وخيره فقد جَعَـلَ سببها مـا اتصف به هُـو لا مـا قام بـه ربه من الجـود والإحسان والفضـل والمنة، ولم يعلم أن ذلـك ابتـلاء واختبار له أيشكر أم يكفر، ليس ذلـك جزاءً على مـا هو منـه، ولو كـان ذلك جـزاءً على عمله أو خيراً قام به فالله سبحانه هـو المنعم عليه بـذلك السبب، فهـو المنعم بالمسبَّب والجزاء، والكلُّ محضُ مِنته وفضله وجوده وليس للعبد من نفسه مثقال ذرة من الخير.

وعلى التقديرين فهو لم يضف النعمةَ إلى الرب من كل وجه وإنْ أضافها إليه مِنْ وجهٍ دون وجه، وهو سبحانه وحده هو المنعم من جميع الوجوه على الحقيقـة بالنعم وأسبابها، فأسبابُها مِنْ نعمه على العبـد وإنْ حَصَلتْ بكَسْبه فكسبُـه مِنْ نعمه، فكـلّ نعمـةٍ فمن الله وحده حتى الشكـرُ فإنـه نعمة وهي منـه سبحانـه فلا يـطيق أحـدٌ أن يشكـره إلا بنعمته، وشكـرُه نعمـةٌ منـه عليـه كمـا قـال داود: يـا رب كيف أشكـرك وشكـري لك نعمـةٌ مِن نعمك عليّ تستـوجب شكراً آخـر؟ فقال: الآن شكـرتني يا داود. ذكره الإمام أحمد(١).

وذُكر أيضاً عن الحسن قال: قال داود: إلهي لو أن لكل شعرة من شعري لسانين يذكرانك بالليل والنهار والدهرَ كله لما أدّوا ما لك عليَّ من حق نعمةٍ واحدة(٢).

والمقصـودُ: أن حال الشـاكر ضـدُّ حال القـائل: «إنمـا أُوتيته على علم عنـدي» ونظيرُ ذلك قولُه: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى ﴾(٣)،

قـال ابن عباس: يـريدُ مِنْ عنـدي. وقـال مقـاتـل: يعني أنـا أحق بهـذا. وقـال

(١) رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد ص ٨٩.
(٢) رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد ص ٨٨.
(٣) الآية /٤٩/ من سورة فصلت.

مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به وقال الزجاج: هذا واجب بعملي استحققته.

فوصف الإنسانَ بأقبح صفتين: إن مسّه الشر صـار إلى حال القـانط ووجَم وجومَ الآيس، فإذا مسه الخير نسي أن الله هو المنعم عليه الْمُفْضل بمـا أعطاه فبـطِر وظن أنه هو المستحق لذلك، ثم أضاف إلى ذلك تكذيبَه بالبعث فقال: «وما أظن الساعة قائمة»، ثم أضاف إلى ذلك ظنَّـه الكاذبَ أنـه إن بُعـث كان لـه عند الله الحسنى، فلم يدعْ هذا للجهل والغرور موضعاً.

فصل: وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾[1] قولٌ آخر، أنـه على علم الضال، كما قيل على علمٍ منه أن معبودَه لا ينفع ولا يضـر، فيكونُ المعنى: أضلّه الله مع علمه الذي تقوم به عليه الحجة، لم يضله على جهل وعدم علم.

وهـذا يشبه قـوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]، وقـولـه: فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾[3]، وقـولـه: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾[4] وقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾[5]، وقـول مـوسى لفـرعـون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[7]، وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[8]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[9] ونـظائرُه كثيرة.

---

(١) الآية /٢٣/ من سورة الجاثية.
(٢) الآية /٢٢/ من سورة البقرة.
(٣) الآية /٣٨/ من سورة العنكبوت.
(٤) الآية /١٤/ من سورة النمل.
(٥) الآية /٥٩/ من سورة الإسراء.
(٦) الآية /١٠٢/ من سورة الإسراء.
(٧) الآية /٢٠/ من سورة الأنعام.
(٨) الآية /٣٢/ من سورة الأنعام.
(٩) الآية /١١٥/ من سورة التوبة.

وعلى هذا التقدير فهو ضال عن سلوك طريق رشده وهو يراها عِياناً كما في الحديث «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالِم لم ينفعه الله بعلمه»(١).

فإن الضالّ عن الطريق قد يكون متّبعاً لهواه عالماً بأن الرشد والهدى في خلاف ما يعمل، ولما كان الهدى هو معرفة الحق والعمل به كان له ضدان الجهلُ وتركُ العمل به، فالأولُ ضلال في العلم، والثاني ضلال في القصد والعمل.

فقد وقع قولهُ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾(١) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾(٢)،وفي قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾،وفي قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾(٣).

فالأولُ يَرجع العلْمُ فيه إلى الله قولاً واحداً، والثاني والثالث فيهما قولان، والراجحُ في قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾(٤) أن يكون كالأول وهو قولُ عامة السلف، والثالثُ فيه قولان محتملان، وقدذُكر توجههما، والله أعلم. والمقصودُ ذِكر مراتب القضاء والقدر علماً وكتابةً ومشيئة وخلقاً.

---

(١) حديث ضعيف، ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال: رواه الطبراني في الصغير، وفيه عثمان البري، قال الفلاس صدوق لكنه كثير الغلط صاحب بدعة، ضعفه أحمد والنسائي والدارقطني انظر كتاب الضعفاء للعقيلي (٢١٧/٣) وذكره شيخنا الألباني في السلسلة الضعيفة برقم /١٦٣٤/ وقال: ضعيف جدا.

(٢) الآية /٢٣/ من سورة الجاثية.

(٣) الآية /٣٢/ من سورة الدخان.

(٤) الآية /٧٨/ من سورة القصص.

(٥) الآية /٢٣/ من سورة الجاثية.

الباب الحادي عشر

في ذكر المرتبة الثانية وهي مرتبة الكتابة

وقد تقدم في أول الكتاب ما دل على ذلك من نصوص القرآن والسنة الصريحة فنذكر هنا بعضَ ما لم نذكره. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾[1].

فالزبورُ هنا جميعُ الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود، والذكرُ أم الكتاب الذي عند الله، والأرضُ الدنيا، وعبادُه الصالحون أمةُ محمد ﷺ.

هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي عَلم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ، فإنه أخبر بذلك بمكةَ وأهلُ الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه كَتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

والكتابُ قد أطلق عليه الذكر في قول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته «كان الله ولم يكن شيء غيرُه، وكان عرشهُ على الماء، وكَتب في الذكر كلَّ شيء»[2].

---

(١) الآية /١٠٥/ من سورة الأنبياء.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (٨/١٧٥) في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، وهو رب العرش العظيم. والترمذي برقم /٣٩٤٦/ في المناقب، باب في ثقيف=

فهذا هو الذكر الذي كتب فيه أن الدنيا تصير لأمة محمد ﷺ.

والكتبُ المنزلة قد أُطلق عليها الزُّبُر في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ﴾[1] أي أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتبِ التي فيها الهدى والنور.

والذكرُ ههنا الكتابان اللذان أُنزلا قبل رسول الله ﷺ وهما التوراةُ والإنجيل، والذكرُ في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[2] هو القرآنُ، ففي هذه الآية عِلْمُه بما كان قبل كونه وكتابتُه له بعد علمه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[3]، فجمَع بين الكتابين الكتابِ السابق لأعمالهم قبل وجودهم والكتابِ المقارِن لأعمالهم، فأخبر أنه يحييهم بعدما أماتَهُمْ للبعث ويجازيهم بأعمالهم، ونبّه بكتابه لها على ذلك، قال: نكتبُ ما قدموا من خير أو شر فعلوه في حياتهم «وآثارهم» ما سنّوا من سنّة خير أو شر فاقْتُدي بهم فيها بعد موتهم. وقال ابن عباس في رواية عطاء: «آثارهم» ما أثروا من خير أو شر، كقوله: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[4].

فإن قلتَ: قد استُفيد هذا من قوله: «قدموا» فما أفاد قولُه «آثارهم» على قوله؟ قلتُ: أفاد فائدةً جليلة وهو أنه سبحانه يكتب ما عملوه وما تولّد من أعمالهم فيكونُ المتولّد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر وهو أثرُ أعمالهم، فآثارُهم هي آثارُ أعمالهم المتولدة عنها وهذا القول أعمّ من قول مقاتل، وكأن مقاتلاً أراد التمثيلَ والبيان على عادة السلف في تفسير اللفظة العامة بنوعٍ أو فردٍ من أفراد مدلولها تقريباً وتمثيلاً لا حصراً وإحاطة.

= وبني حنيفة، وأحمد في المسند (٤/٤٢٦ و٤٣١ و٤٣٣ و٤٣٦)، وعند الجميع من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(١) الآية /٧/ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية /٤٤/ من سورة النحل.

(٣) الآية /١٢/ من سورة يس.

(٤) الآية /١٣/ من سورة القيامة.

وقال أنس وابن عباس في رواية عكرمة: نزلتْ هـذه الآية في بني سَلمـة، أرادوا أن ينتقلوا إلى قـرب المسجد وكـانت منازلُهم بعيـدة فلمـا نـزلتْ قالوا: بـل نمكثُ مكانَنا.

واحتج أربابُ هذا القول بما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخُدْري قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النُّقْلَة إلى قرب المسجد فنزلت هـذه الآيـة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾[1] فقـال رسـول الله ﷺ: «يا بني سلمة ديارَكم تكتب آثاركم»[2] وقـد روى مسلم في صحيحه نحـوه من حديث جابر وأنس.

وفي هذا القول نظرٌ، فإن سورةَ يس مكية وقصة بني سلمة بالمدينة، إلا أن يُقال هذه الآيةُ وحدها مـدنية، وأحسنُ من هـذا أن تكون ذُكـرت عند هـذه القصة ودلت عليها وذُكروا بها عندها إما من النبي ﷺ وإما من جبريل فأطلق على ذلك النزول.

ولعل هذا مرادُ من قال في نظائر ذلك: نزلتْ مرتين، والمقصود أن خـطاهم إلى المسـاجد من آثـارهم التي يكتبهـا الله لهم. قـال عمـر بن الخـطاب: لـو كـان الله سبحانه تاركاً لابن آدم شيئاً لتَرك ما عفَت عليه الرياح من أثر. وقال مسروق: ما خطا رجلٌ خطوةً إلا كتبت له حسنةً أو سيئةً.

والمقصـودُ أن قولـه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[3] وهـو اللوحُ المحفـوظ، وهو أم الكتـاب، وهو الـذكرُ الـذي كُتب فيه كـلُّ شيء ـ يتضمنُ كتابةَ أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصـاء في الكتاب يتضمن علْمَـه بها وحفـظَة لها والإحاطَة بعددها وإثباتَها فيه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم

(١) الآية /١٢/ من سورة يس.

(٢) روايـة ابي سعيد الخـدري رضي الله لم يخرجهـا البخـاري في صحيحـه، وإنمـا أخـرجهـا الترمذي برقم /٣٢٢٤/ في التفسير، بـاب ومن سورة يس. وإنمـا رواه البخاري (١/ ١٦٠) في الجماعة، باب احتساب الآثار، من حديث أنس رضي الله عنه، وأما روايـة جابـر رضي الله عنـه فقد أخـرجهـا الإمـام مسلم بـرقم /٦٦٥/ في المسـاجـد، بـاب كثـرة الخـطا إلى المساجد. ولم يرده من حديث أنس كما ذكر المؤلف رحمه الله.

(٣) الآية /١٢/ من سورة يس. وانظر الاقوال في تفسيـر الآية الكـريمة في جـامع البيـان مج ٢ جـ ٢٢ ص ١٥٣ وما بعدها.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1]، وقد اختُلف في الكتاب ههنا، هل هو القرآنُ أو اللوحُ المحفوظ على قولين:

فقالت طائفةٌ: المرادُ به القرآن، وهذا من العام المرادِ به الخاص، أي ما فرطنا فيه من شيء يحتاجون إلى ذكره وبيانه، كقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، ويجوز أن يكون من العام المرادِ به عمومُه، والمرادُ أن كلّ شيءٍ ذكر فيه مجملاً ومفصلاً، كما قال ابن مسعود وقد لَعن الواصلةَ والمستوصلة: ما لي لا ألعنُ مَن لعنه الله في كتابه؟ فقالت امرأة: لقد قرأت القرآنَ فما وجدتُه، فقال: إن كنتِ قرأته فقد وجدتِه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[3]. ولَعن رسولُ الله ﷺ الواصلةَ والمستوصلَة[4].

وقال الشافعي: ما نزَل بأحدٍ من المسلمين نازلةٌ إلا وفي كتاب الله سبيلُ الدّلالة عليها.

وقالت طائفة: المرادُ بالكتاب في الآية اللوحُ المحفوظ الذي كَتب الله فيه كل شيء، وهذا إحدى الروايتين عن ابن عباس، وكأن هذا القول أظهر في الآية، والسياقُ يدل عليه، فإنه قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام، الآية /٣٨/.
(٢) سورة النحل، الآية /٨٩/.
(٣) قول ابن مسعود رضي الله عنه في لعن الواصلة والمستوصلة أخرجه البخاري (٦/٥٨) في تفسير سورة الحشر، باب (وما أتاكم الرسول فخذوه)، ومسلم برقم /٢١٢٥/ في اللباس باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، وأبو داود برقم /٤١٦٩/ في الترجل، باب صلة الشعر، والترمذي برقم /٢٧٨٣/ في الأدب، باب ما جاء في كراهية اتخاذ القصة، والنسائي (٨/١٤٦) في الزينة، باب المستوصلة والمتنمصات
(٤) يشير بذلك إلى ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (أن رسول الله ﷺ لعن الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة) وقد أخرجه البخاري (٧/٦٢) في اللباس، باب وصل الشعر، ومسلم برقم /٢١٢٤/ في اللباس، باب تحريم فعلة الواصلة، وأبو داود برقم /٤١٦٨/ في الترجل باب صلة الشعر، والترمذي برقم /٢٧٨٤/ في الأدب، باب ما جاء في كراهية اتخاذ القصة، والنسائي (٨/١٤٥) في الزينة، باب المستوصلة.
(٥) الآية /٣٨/ من سورة الأنعام.

وهذا يتضمنُ أنها أمم أمثالنا في الخلْق والرزق والأكل والتقدير الأول، وأنها لم تُخلق سُدًى، بل هي معبّدة مذللة قد قدر خلقها وأجلها ورزقها وما تصير إليه، ثم ذكر عاقبتَها ومصيرها بعد فنائها، ثم قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1]. فذكر مبدأها ونهايتها، وأدخل بين هاتين الحالتين قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[2] أي كلُّها قد كتبت وقُدِّرت وأُحصيت قبل أن تُوجد، فلا يناسبُ هذا ذِكر كتاب الأمر والنهي وإنما يناسب ذِكر الكتاب الأول.

ولمن نَصَر القولَ الأول أن يجيب عن هذا بأن في ذِكر القرآن ههنا الإخبار عن تضمنه لذِكر ذلك والإخبار به، فلم نفرّط فيه من شيء بل أخبرناكم بكل ما كان وما هو كائن إجمالاً وتفصيلاً. ويرجّحه أمر آخر وهو أن هذا ذُكر عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

فنبّههم على أعظم الآيات وأدلها على صدق رسول الله ﷺ وهو الكتاب الذي يتضمن بيانَ كل شيء ولم يفرّط فيه من شيء، ثم نبّههم بأنهم أمة من جملة الأمم التي في السموات والأرض، وهذا يتضمن التعريفَ بوجود الخالق وكمال قدرته وعلمه وسعةِ ملكه وكثرة جنوده والأمم التي لا يحصيها غيرُه، وهذا يتضمن أنه لا إله غيره ولا ربَّ سواه وأنه رب العالمين، فهذا دليل على وحدانيته وصفات كماله من جهةِ خلقه وقدره، وإنزالُ الكتابِ الذي لم يفرّط فيه من شيء دليلٌ من جهة أمره وكلامه، فهذا استدلالٌ بأمره وذاك بخلْقه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

وشهد لهذا أيضاً قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[5]

(١و٢)الآية /٣٨/ من سورة الأنعام.
(٣) سورة الأنعام، الآية /٣٧/.
(٤) سورة الأعراف، الآية /٥٤/.
(٥) سورة العنكبوت، الآية /٥٠/.

ولِمن نَصَر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ أن يقول: لما سألوا آيةً أخبرهم سبحانه بأنه لم يترك إنزالها لعدم قدرته على ذلك ـ فإنه قادر على ذلك ـ وإنما لم ينزلها لحكمته ورحمته بهم وإحسانه إليهم إذْ لوْ أنزلها على وفق اقتراحهم لَعوجلوا بالعقوبة إن لم يؤمنوا.

ثم ذَكر ما يدل على كمال قدرته بخلق الأمم العظيمة التي لا يحصِي عددها إلا هو، فمن قدر على خلق هذه الأمم مع اختلاف أجناسها وأنواعها وصفاتها وهيئاتها كيف يعجز عن إنزال آية؟

ثم أخبر عن كمال قدرته وعلمه بأن هؤلاء الأمم قد أحصاهم وكَتبهم وقدّر أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم في كتاب لم يفرّط فيه من شيء ثم يُميتهم ثم يحشُرهم إليه، والذين كذّبوا بآياتنا صُم وبُكم في الظلمات عن النظر والاعتبار الذي يؤديهم إلى معرفة ربوبيته ووحدانيته وصدِق رسله.

ثم أخبر أن الآياتِ لا تستقل بالهدى ولو أنزلها على وَفق اقتراح البشر، بل الأمرُ كله له مَن يشأ يضلله ومن يشأ يجعلْه على صراط مستقيم، فهو أظهرُ القولين والله أعلم.

وقال: ﴿حمٓ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1] قال ابن عباس: في اللوح المحفوظ المقري[2] عندنا. قال مقاتل: إن نسخته في أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ، وأُمّ الكتاب أصلُ الكتاب، وأُمّ كل شيء أصله، والقرآنُ كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾[3].

وأجمع الصحابةُ والتابعون وجميعُ أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب.

---

(١) سورة الزخرف، الآية /٣/.

(٢) (المقري عندنا): أي في الكتاب الذي نقرأه عندنا، وهو القرآن الكريم. وقد ذكر قول ابن عباس رضي الله، وقول مقاتل، السيوطي في الدر المنثور (٧/٣٦٥)، وابن كثير في التفسير (٤/١٠٩).

(٣) الآية /٢٢/ من سورة البروج.

وقـد دلّ القـرآنُ على أن الرب تعـالى كتب في أم الكتاب مـا يفعله وما يقـوله فكتب في اللوح أفعاله وكلامه، فتبّت يـدا أبي لهبٍ في اللوح المحفوظ قبـل وجود أبي لهب. وقـولهُ «لـدينا»[1] يجـوزُ فيـه أن تكـون مِن صلةِ أم الكتـاب، أي أنـه في الكتاب الذي عندنا، وهذا اختيارُ ابن عباس، ويجوز أن يكون مِن صلة الخبر، إنـه عليّ حكيم عندنا ليس هو كما عند المكذّبين به، وإن كذبتم بـه وكفرتم فهـو عندنـا في غاية الارتفاع والشرف والإحكام.

وقـال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[2] قال سعيد بن جبير ومجـاهد وعـطية: أي مـا سَبَق لهم في الكتاب من الشقـاوة والسعادة، ثم قـرأ عـطيـة: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[3].

والمعنى أن هؤلاء أدركهم مـا كُتب لهم من الشقاوة، وهـذا قـولُ ابن عبـاس في روايـة عطاء، قـال: يريـدُ ما سَبق عليهم في علمي في اللوح المحفـوظ، فالكتـابُ على هذا القول الكتابُ الأول، ونصيبهم ما كُتب لهم من الشقاوة وأسبابها.

وقـال ابن زيـد والقـرطبي والربيـع بن أنس: ينـالُهم مــا كُتب لهم من الأرزاق والأعمال فإذا فني نصيبُهم واستكملوه جاءتهم رسلنا يتوفونهم. ورجّـح بعضُهم هذا القـولَ لمكان حتى التي هي للغـاية[4] يعني أنهم يستـوفـون أرزاقهم وأعمـارهم إلى الموت.

ولمن نَصر القولَ الأول أن يقـول: حتى في هذا المـوضع هي التي تـدخل على الجمل وينصرف الكلام فيها إلى الابتداء كما في قوله:

فيا عجباً حتى كُليبُ تسبُّني

والصحيـح أن نصيبهم من الكتـاب يتنـاول الأمـرين فهــو نصيبُهم من الشقـاوة، ونصيبهم من الأعمــال التي هي أسبـابهــا، ونصيبهم من الأعمــار التي هي مــدة

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ من الآية /٣/ من سورة الزخرف.
(٢) الآية /٣٧/ من سورة الأعراف.
(٣) الآية /٣٠/ من سورة الأعراف.
(٤) يعني قـوله تعـالى تماماً للآيـة: ﴿ . . . حتى إذا جاءتهم رسلنـا يتوفـونهم قالـوا أين مـا كنتم تدعون من دون الله، قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾.

اكتسابها، ونصيبهم من الأرزاق التي استعانوا بها على ذلك، فعمّت الآية هذا النصيبَ كلّه. وذَكر هؤلاء بعضَه وهؤلاء بعضَه. هذا على القول الصحيح وأن المرادَ ما سبَق لهم في أم الكتاب.

وقالت طائفة: المرادُ بالكتاب القرآن. قال الزجاج: معنى «نصيبُهم من الكتاب» ما أخبرَ الله من جزائهم نحو قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾[1]، وقوله: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[2]، قال أربابُ هذا القول: وهذا هو الظاهر، لأنه ذَكر عذابهم في القرآن في مواضعَ، ثم أخبر أنه ينالهم نصيبُهم منه، والصحيحُ القول الأولُ وهو نصيبهم الذي كتب لهم أن ينالوه قبل أن يُخلقوا.

ولهذا القول وجهٌ حسن وهو أن نصيب المؤمنين منه الرحمةُ والسعادة، ونصيبَ هؤلاء منه العذابُ والشقاء، فنصيبُ كلٍّ فريق منه ما اختاروه لأنفسهم وآثروه على غيره، كما أن حظَّ المؤمنين منه كان الهدى والرحمة، فحظّ هؤلاء منه الضلالُ والخيبة، فكان حظُّهم من هذه النعمة أن صارت نقمةً وحسرة عليهم.

وقريبٌ من هذا قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[3] أي تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتُكم التكذيبَ. قال الحسن: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذّبون. قال: وخسر عبدٌ لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيبَ به.

وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾[4] قال عطاء ومقاتل: كل شيء فعلوه مكتوب عليهم في اللوح المحفوظ. وروى حماد بن زيد عن داود بن أبي هند عن الشعبي «وكلُّ شيء فعلوه في الزُّبُر» قال: كُتب عليهم قبل أن يعملوه.

وقالت طائفةٌ: المعنى أنه يُحصَى عليهم في كُتب أعمالهم، وجمع أبو إسحاق بين القولين فقال: مكتوبٌ عليهم قبل أن يفعلوه ومكتوبٌ عليهم إذا فعلوه للجزاء، وهذا أصح. وبالله التوفيق.

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: ما رأيتُ شيئاً أشبهُ باللَّمم مما قال

(١) الآية /١٤/ من سورة الليل.
(٢) الآية /١٧/ من سورة الجن.
(٣) الآية /٨٢/ من سورة الواقعة.
(٤) الآية /٥٢/ من سورة القمر.

أبو هريرة إن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظرُ، وزنا اللسان النطقُ، والنفس تمنّى وتشتهي، والفرْج يصدِّق ذلك ويكذِّبه»(١).

وفي الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب على ابن آدم نصيبُه من الزنا مدركٌ ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظرُ، والأذنان زناهما الاستماع، واللسانُ زناه الكلامُ، واليدُ زناها البطشُ، والرِّجلُ زناها الخطا، والقلبُ يهوى ويتمنى، ويصدق الفرج ذلك كله ويكذِّبه»(٢).

وفي صحيح البخاري وغيرِه عن عمران بن حصين قال: «دخلتُ على النبي ﷺ وعقَلتُ ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: قد بشرتنا فأعطِنا، مرتين، ثم دخلَ عليه ناس من اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذْ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا جئنا لنسألك عن هذا الأمر، قال: كان الله ولم يكن شيء غيرُه وكان عرشُه على الماء وكتب في الذكر كلّ شيء، وخَلقَ السمواتِ والأرضَ، فنادى منادٍ: ذهبَتْ ناقتك يا بن الحصين، فانطلقتُ فإذا هي ينقطع دونَها السراب، فوالله لوددتُ أني كنتُ تركتُها»(٣).

فالرب سبحانه كَتب ما يقوله وما يفعله وما يكون بقوله وفعله، وكتب مقتضى أسمائه وصفاته وآثارها. كما في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخَلْق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غَلَبت غضبي»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٧/ ١٣٠) في الاستئذان، باب زنى الجوارح دون الفرج، ومسلم برقم /٢٦٥٧/ في القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا، وأبو داود أيضاً برقم /٢١٥٢/ في النكاح، باب ما يؤمر من غض البصر.

(٢) رواه الإمام مسلم برقم /٢٦٥٧/ في القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره.

(٣) رواه البخاري (٨/ ١٧٥) في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم، والترمذي أيضاً برقم /٣٩٤٦/ إلى قوله قبلنا يا رسول الله، وأحمد في المسند (٤/ ٤٢٦ و٤٣١ و٤٣٦).

(٤) رواه البخاري (٨/ ١٧١) في التوحيد، باب ويحذركم الله نفسه، ومسلم برقم /٢٧٥١/ في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه والترمذي أيضاً برقم /٣٥٣٧/ في الدعوات، باب رقم /١٠٩/.

الباب الثاني عشر

في ذكر المرتبة الثالثة من مراتب القضاءوالقدر وهي مرتبة المشيئة

وهذه المرتبة قد دلّ عليها إجماعُ الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميعُ الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله عليها خلْقه، وأدلةُ العقول والعِيان، وليس في الوجود مُوجِبٌ ومقتضٍ إلا مشيئةُ الله وحده فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

هذا عمومُ التوحيد الذي لا يقوم إلا به، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وخالفهم في ذلك منْ ليس منهم في هذا الموضع، وإنْ كان منهم في موضع آخر، فجوَّزوا أن يكون في الوجود ما لا يشاء الله وأن يشاء ما لا يكون، وخالفَ الرسل كلهم وأتباعهم منْ نفي مشيئة الله بالكلية ولم يثبتْ له سبحانه مشيئة واختياراً أوجدَ بها الخلق كما يقوله طوائف من أعداء الرسل من الفلاسفة وأتباعهم.

والقرآن والسنة مملوءان بتكذيب الطائفتين كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[2]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ

---

(١) سورة البقرة، الآية /٢٥٣/.

(٢) سورة آل عمران، الآية /٤٠/.

جعلنا لكل نبي عدوًا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون ﴾[1]،
وقال: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا﴾[2]، وقال: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾[3] وقال: ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾[4]، وقال: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾[5]، وقال: ﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾[6]، وقال: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾[7]، وقال: ﴿ فإن يشإ الله يختم على قلبك ﴾[8]، وقال: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا﴾[9]، وقال: ﴿لتدخلن المسجد إن شاء الله آمنين﴾[10].

وقال عن نوح إنه قال لقومه: ﴿ إنما يأتيكم به الله إن شاء ﴾[11].

وقال إمام الحنفاء وأبو الأنبياء لقومه ﴿ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئًا وسع ربي كل شيء علمًا﴾[12]. وقال الذبيح له: ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾[13].

وقال خطيبُ الأنبياء شُعيب: ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا

---

(١) سورة الأنعام، الآية /١١٢/.
(٢) سورة يونس، الآية /٩٩/.
(٣) سورة هود، الآية /١١٨/.
(٤) سورة الأنعام، الآية /٣٥/.
(٥) سورة السجدة، الآية /١٣/.
(٦) سورة محمد، الآية /٤/.
(٧) سورة الأسراء، الآية /٨٦/.
(٨) سورة الشورى، الآية /٢٤/.
(٩) سورة النساء، الآية /١٣٣/.
(١٠) سورة الفتح، الآية /٢٧/.
(١١) سورة هود، الآية /٣٣/.
(١٢) سورة الأنعام، الآية /٨٠/.
(١٣) سورة الصّافات، الآية /١٠٢/.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾[1].

وقال الصديق الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم[2]: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[3].

وقال حمو موسى[4]: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[5].

وقال كليم الرحمن للخضر: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾[6].

وقال قوم موسى له: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾[7].

وقال لسيد ولد آدم وأكرمهم عليه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[8]. وقال: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[9].

وقال عن أهل الجنة: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾[10]، وعن أهل النار كذلك ليبين أن الأمر راجع إلى مشيئته ولو شاء لكان غير ذلك، وقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ

---

(١) سورة الأعراف، الآية /٨٩/.

(٢) يقصد بذلك نبي الله يوسف عليه السلام كما روى البخاري من حديث عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما (قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم) أخرجه البخاري (٤/١٢١) في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾.

(٣) سورة يوسف، الآية /٩٩/.

(٤) أي أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى، وقد جعل صداق ابنته التي زوجها موسى رعي ماشيته ثماني حجج (أي سنون).

(٥) سورة القصص، الآية /٢٧/.

(٦) سورة الكهف، الآية /٦٩/.

(٧) سورة البقرة، الآية /٧٠/.

(٨) سورة الكهف، الآية /٢٤/.

(٩) سورة يونس، الآية /٤٩/.

(١٠) سورة هود، الآية /١٠٨/.

يُعَذِّبْكُمْ﴾(1)، وقال: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾(2)، وقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾(3)، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾(4)، وقال ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾(5) وقال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(6) وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(7) وقال: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾(8)، وقال: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(9)، وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(10)، وقال: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾(11)،وقال: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾(12)، وقال: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(13)، وفي الآية الأخرى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(14).

فأخبر أن مشيئتهم وفعلهم موقوفان على مشيئته لهم هذا وهذا.

---

(1) سورة الإسراء، الآية /54/.
(2) سورة البقرة، الآية /284/.
(3) سورة الشورى، الآية /27/.
(4) سورة الإسراء، الآية /30/.
(5) سورة الرعد، الآية /39/.
(6) سورة الأنعام، الآية /39/.
(7) سورة إبراهيم، الآية /4/.
(8) سورة إبراهيم، الآية /27/.
(9) سورة الشورى، الآية /52/.
(10) سورة البقرة، الآية /142/.
(11) سورة يونس، الآية /16/.
(12) سورة الإنسان، الآية /28/.
(13) سورة المدثر، الآية /56/.
(14) سورة الإنسان، الآية /30/.

وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾(١)، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢)، وقال: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾(٣)، وقوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾(٤)، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾(٥)، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾(٦)، وقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾(٧)، وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾(٨)، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾(٩)، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾(١٠)، وقوله: ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾(١١)، وقوله: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾(١٢)، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾(١٣)، وقوله: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾(١٤)، وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾(١٥)، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾(١٦)، وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾(١٧)،

(١) سورة آل عمران، الآية /٢٦/.
(٢) سورة يونس، الآية /٢٥/.
(٣) سورة الأحزاب، الآية /٢٤/.
(٤) سورة آل عمران، الآية /٧٤/.
(٥) سورة النور، الآية /٢١/.
(٦) سورة البقرة، الآية /٢٦١/.
(٧) سورة يوسف، الآية /٥٦/.
(٨) سورة الأنعام، الآية /٨٣/ ويوسف الآية /٧٦/.
(٩) سورة الجمعة، الآية /٤/.
(١٠) سورة إبراهيم، الآية /١١/.
(١١) سورة يوسف، الآية /١١٠/.
(١٢) سورة الروم، الآية /٤٨/.
(١٣) سورة يوسف، الآية /١٠٠/.
(١٤) سورة البقرة، الآية /٢٦٩/.
(١٥) سورة يس، الآية /٦٦/.
(١٦) سورة البقرة، الآية /٢٠/.
(١٧) سورة الشورى، الآية /٣٣/.

وقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾(1)، وقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾(2)، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾(3)، وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾(4)، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾(5) وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾(6)، وقوله عن كليمه موسى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾(7).

وهذه الآياتُ ونحوها تتضمن الردَّ على طائفتي الضلال نفاةِ المشيئة بالكلية، ونُفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتِهم وهُداهم وضلالِهم، وهو سبحانه تارةً يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته، وتارةً أنّ ما لم يشأ لم يكن، وتارةً أنه لو شاء لكان خلافُ الواقع، وأنه لو شاء لكان خلافُ القدرِ الذي قدره وكتبه، وأنه لو شاء ما عُصيَ، وأنه لو شاء لجمع خلْقه على الهدى وجعلهم أمةً واحدة، فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته، وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذا حقيقة الربوبية، وهو معنى كونه ربَّ العالمين وكونه القيوم القائم بتدبير عباده، فلا خلْق ولا رزق ولا عطاء ولا منْع ولا قبضَ ولا بسْطَ ولا موتَ ولا حياةَ ولا إضلال ولا هدًى ولا سعادة ولا شقاوة إلا بعد إذنه، وكلُّ ذلك بمشيئته وتكوينه إذْ لا مالك غيره ولا مدبر سواه ولا ربَّ غيره.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾(8)، وقال: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾(9)، وقال: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾(10)، وقال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ

(1) سورة الواقعة، الآية /٦٥/.
(2) سورة الواقعة، الآية /٧٠/.
(3) سورة التوبة، الآية /٢٨/.
(4) سورة الأنعام، الآية /١٣٣/.
(5) سورة البقرة، الآية /٢٢٠/.
(6) سورة الشورى، الآية /١٣/.
(7) سورة الأعراف، الآية /١٥٥/.
(8) سورة القصص، الآية /٦٨/.
(9) سورة الحج، الآية /٥/.
(10) سورة الانفطار، الآية /٨/.

عَقِيمًاۚ﴾ (١)، وقال: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ (٢).

وتقدم في حديث حذيفة بن أُسيد في صحيح مسلم في شأن الجنين «فيقضي ربُّك ما يشاء ويكتبُ الملك» (٣).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ «اشفعوا تُؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء» (٤).

وفي صحيح البخاري من حديث علي بن أبي طالب حين طرقه النبي ﷺ وفاطمة ليلاً فقال: «ألا تصلّيان»؟ فقال علي: إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا(٥).

وفي صحيحه أيضاً في قصة نومهم في الوادي عنه ﷺ «إن الله قبضَ أرواحكم حين شاء وردَّها حين شاء»(٦).

وفي حديث ابن مسعود الذي في المسند وغيره من قصة رجوعهم من الحديبيةِ ونومِهم عن صلاة الصبح، فقال النبي ﷺ: «إن الله لو شاء لم تناموا عنها ولكن أراد أن تكون لمن بعدكم، فهكذا لمن نام ونسي». وفي لفظ آخر: «إن الله سبحانه لو شاء أيقظنا ولكنه أراد أن يكون لمن بعدكم»(٧).

---

(١) سورة الشورى، الآية /٥٠/.

(٢) سورة النور، الآية /٣٥/.

(٣) صحيح سبق تخريجه برواياته الثلاث ص ٣٣.

(٤) رواه البخاري (٧/ ٨٠) في الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب فيها﴾ وكذا رواه ومسلم برقم /٢٦٢٧/ في البر، باب استحباب الشفاعة، وأيضاً أبو داود برقم /٥١٣١/ في الأدب، باب في الشفاعة، والترمذي برقم /٢٦٧٤/ في العلم، باب الدال على الخير كفاعله، والنسائي (٥/ ٧٨) في الزكاة، باب الشفاعة في الصدقة.

(٥) رواه البخاري (٨/ ١٩٠) في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، ومسلم برقم /٧٧٥/ في صلاة المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، والنسائي (٣/ ٢٠٥) في قيام الليل، باب الترغيب في قيام الليل.

(٦) جزء من حديث طويل رواه البخاري (٨/ ١٩٠) في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة وما تشاؤون إلا أن يشاء الله.

(٧) جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٩١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٢٤) وقال: رواه أحمد والبزاء والطبراني في الكبير وأبو يعلى باختصار عنهم، =

وفي مسند الإمام أحمد عن طفيل بن سخيرة أخي عائشة لأمها أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مّر برهط من اليهود فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن اليهود، قال: إنكم أنتم القومُ لولا أنكم تزعمون أن عزيراً ابنُ الله، فقالت اليهود: وأنتم القومُ لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد، ثم مرّ برهط من النصارى فقال: منْ أنتم؟ قالوا: نحن النصارى، قال: إنكم أنتم القومُ لولا أنكم تقولون المسيحُ ابنُ الله، قالوا: وأنتم القومُ لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبح أخبر بها من أخبر ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: أخبرت أحداً؟ قال: نعم، فلما صلوا خطبهم فحمد الله وأثنى عليه فقال: إن طفيلاً رأى رؤيا فأخبرَ بها منْ أخبرَ مِنكم وإنكم تقولون كلمة كان يمنعني الحياءُ منكم - زاد البيهقي - فلا تقولوها ولكنْ قولوا ما شاء وحده لا شريك له»[1].

وروى جعفر عن عون عن الأجلح عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يكلمه في بعض الأمر فقال الرجل لرسول الله: ما شاء الله وشئت، فقال رسول الله ﷺ: أجعلتني لله عدْلاً بل ما شاء الله وحده[2].

وروى سعيد عن منصور عن عبد الله بن يسار عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»[3].

قال الشافعي في رواية الربيع عنه: المشيئةُ إرادةُ الله عز وجل ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[4] فأعلم الله خلقه أن المشيئة له دون خلقه وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء الله، فيقال لرسول الله ﷺ ما شاء الله ثم شئت، ولا يقال ما شاء

= وفيه عبد الرحمن بن عبدالله المسعودي وقد اختلط في آخر عمره. وذكره السيوطي في الجامع الصغير، وقد أشار الشيخ الألباني إلى تضعيفه في ضعيف الجامع برقم /١٦٤٥/.
قلت: ولكن للحديث روايات بمعناه من وجوه أخر صحيحة يرتقي بها لدرجة الحسن، والله أعلم.

(١) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٧٢). والبيهقي (٣/٢١٦).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم /٧٨٧/، والبيهقي (٣/٢١٧)، وأحمد (١/٢١٤ و٢٢٤ و٢٨٣ و٣٤٧) وسنده صحيح كما ذكر ذلك شيخنا الألباني في السلسلة الصحيحة برقم /١٣٩/.

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٨٠/ في الأدب، باب لا يقال خبثت نفسي، وأخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٨٤ و٣٩٤ و٣٩٨). وإسناده صحيح، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني برقم /١٣٧/.

(٤) سورة الانسان، الآية/٣٠/.

الله وشئت، قال: ويقال: مَنْ يُطع الله ورسوله، فإن الله تعبد العباد بأن فرض عليهم طاعة رسوله. فإذا أطيع رسول الله فقد أطيع الله بطاعة رسوله.

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ «إن قلوبُ العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحد يصرّفها كيف يشاء، ثم قال رسول الله ﷺ: يا مصرّف القلوب صرّف قلوبنا على طاعتك»[1].

وفي حديث النواس بن سمعان سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من قلبٍ إلا بين إصبعين من أصابعِ الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه» وكان رسول الله ﷺ يقول: اللهم يا مقلّب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، والميزانُ بيد الرحمن يرفع أقواماً ويخفض آخرين إلى يوم القيامة[2].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر سمعتُ النبي ﷺ وهو قائم على المنبر يقول: «إنما بقاؤكم فيما سلف من الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس» وذكر الحديث وقال في آخره: فذلك فضلي أُوتيه منْ أشاء[3].

وفي صحيح البخاري مرفوعاً «مَثَل الكافرِ كمثل الأرزة[4] صمّاء[5] معتدلة حتى يقصمها[6] الله إذا شاء[7].

وقال عبد الرزاق عن معمر عن همام: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: لا يقل ابنُ آدم يا خيبةَ الدهر فإني أنا الدهرُ

---

(١) رواه مسلم برقم /٢٦٥٤/ في القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء.

(٢) إسناده صحيح، وقد أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٤٢/٤). وابن ماجة برقم /١٩٩/ في المقدمة، والحاكم في المستدرك (٤٢١/٤) وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في تخريج السنة برقم /٢١٩/.

(٣) جزء من حديث طويل رواه البخاري (١٩٠/٨) في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، وروى الترمذي نحوه برقم /٢٨٧٥/ في الأمثال، باب ما جاء في مثل ابن آدم وأجله وأمله ولم أجده عند مسلم كما أشار إلى ذلك المؤلف رحمه الله.

(٤) (الأَرَزة): بفتح الراء شجر الارزن، وهو خشب معروف، وأما بسكون الراء: فهو شجر الصنوبر، والصنوبر ثمرها.

(٥) (صماء): أي مكتنزة لا تخلخل فيها.

(٦) (يقصمها): قصم الشيء كسره حتى يبيّن وينفصل.

(٧) رواه البخاري (٢/٦) في المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ورواه أيضاً مسلم برقم /٢٨٠٩/ في صفات المنافقين، باب مثل المؤمن كالزرع.

أرسلُ الليلَ والنهار فإذا شئت قبضْتهما»[1].

قال الشافعي: تأويله والله أعلم أن العرب كان شأنُها أن تذم الدهرَ وتسبه عند المصائب التي تنزل بهم من موتٍ أو هرم أو تلف أو غير ذلك، فيقولون: إنما يهلكنا الدهرُ وهو الليلُ والنهارُ، ويقولون: أصابتهم قوارعُ الدهر وأبادهم الدهرُ، فيجعلون الليلَ والنهارَ يفعلان الأشياء فيذمون الدهرَ بأنه الذي يفنيهم ويفعل بهم، فقال رسول الله ﷺ: لا تسبوا الدهرَ على أنه الذي يفنيكم والذي يفعل بكم هذه الأشياء، فإنكم إذا سببتم فاعل هذه الأشياء فإنما تسبون الله تبارك وتعالى فإنه فاعل هذه الأشياء.

وفي حديث أنس برفعه: «اطلبوا الخيرَ دهركم كلَّه وتعرَّضوا لنفحات رحمة الله فإن لله عز وجل سحائب من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلُوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمِّن روعاتكم»[2].

وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا، فمن وفى مِنكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوُقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له[3].

وفيهما أيضاً من حديث احتجاجِ الجنة والنار قولُ الله للجنة: أنتِ رحمتي أرحمُ بكِ من أشاء ـ وللنار ـ أنتِ عذابي أعذّب بك من أشاء[4].

وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: لا يقلْ أحدكم اللهم اغفر لي إن

---

(١) رواه البخاري (٧/١١٥) في الأدب، باب لا تسبوا الدهر، ومسلم برقم /٢٢٤٦/ في الألفاظ باب النهي عن سبِّ الدهر، والموطأ (٢/٩٨٤) في الكلام، باب ما يكره من الكلام، وأبو داود برقم /٥٢٧٤/ في الأدب، باب في الرجل يسب الدهر.

(٢) حديث ضعيف كما ذكر الشيخ الألباني في ضعيف الجامع برقم /٩٠٢/ وعزاه للبيهقي في شعب الإيمان، والحلية لأبي نعيم.

(٣) رواه البخاري (١/١٠) في الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، ومسلم برقم /١٧٠٩/ في الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها.

(٤) جزء من حديث طويل رواه البخاري (٨/١٨٦) في التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ ومسلم برقم /٢٨٤٦/ في الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، والترمذي برقم /٢٥٦٤/ في صفة الجنة، باب ما جاء في احتجاج الجنة والنار.

شئت وارحمني إن شئت ـ وارزقني إن شئت ليعزمَ مسألته، إنه يفعلُ ما يشاء لا مُكره له»[1].

وفي صحيح مسلم عنه يرفعه: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرصْ على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلْتُ كذاوكذا، ولكن قلْ قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عملَ الشيطان»[2].

وفي حديث أبي ذر: «يا عبادي كلكم ضال إلامنْ هديته» الحديث، وفي آخره: «ذلك بأني جواد أفعلُ ما أشاء، عطائي كلام، فإذا أردتُ شيئاً فإنما أقولُ له كن فيكون»[3].

وفي حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ «ما أنعم الله على عبدٍ من نعمة من أهل وولد فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آية دون الموت»[4]. وهذا الحديث الصحيح مشتق من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[5].

وفي حديث الشفاعة «فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني»[6].

---

(١) رواه البخاري (١٥٣/٧) في الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، وكذا رواه مسلم برقم /٢٦٧٩/ في الذكر والدعاء، باب العزم في الدعاء ولا يقل: إن شئت.

(٢) رواه مسلم برقم /٢٦٦٤/ في القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز.

(٣) رواه مسلم رقم /٢٥٧٧/ في البر والصلة، باب تحريم الظلم، والترمذي برقم /٢٤٩٧/ في صفة القيامة، باب رقم (٤٩). وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام وقد اشتمل على قواعد عظيمة في أصول الدين، وهو من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، ولذا كان الإمام أحمد يقول: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث.

(٤) إسناده ضعيف، وقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٣/١٠) وقال: رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف، وذكر بعده عدة روايات أخرى بمعناه وكلها ضعيفة، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، وقد أشار الشيخ الألباني إلى تضعيفه، وقد عزاه أيضاً إلى مسند أبي يعلى، والبيهقي في شعب الإيمان، انظر ضعيف الجامع برقم /٥٠٢٦/ والكلم الطيب تخريج الألباني /١٣٨/.

(٥) الآية /٣٩/ من سورة الكهف.

(٦) جزء من حديث الشفاعة الطويل وقد رواه البخاري (٢٠٠/٨) في التوحيد، باب كلام =

وفي حديث آخر: «آخر أهل الجنة دخولاً إليها فيسكت ما شاء الله أن يسكت» وفيه قوله سبحانه: لا أهزأ بك ولكني على ما أشاء قدير[1]. والحديثان في الصحيحين،

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لكل نبي دعوة فأريد إن شاء الله أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»[2].

وقال: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحدٌ»[3].

وقال: «إني لأطمع أن يكون حوضي إن شاء الله أوسعَ ما بين أيلة إلى كذا»[4].

وقال في المدينة «لا يدخلها الطاعون ولا الدجالُ إن شاء الله»[5].

وقال في زيارة المقابر: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»[6].

= الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ومسلم برقم /١٩٣/ في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. وكلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري (١٧٩/٨) في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربهاناظرة﴾. ومسلم برقم /١٨٢/ في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية. وكلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٤٤/٧) في الدعوات، باب لكل نبي دعوة، ومسلم رقم /١٩٨/ في الإيمان باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته، ورواه أيضاً الموطأ (٢١٢/١) في القرآن، باب ما جاء في الدعاء، والترمذي برقم /٣٥٩٧/ في الدعوات، باب رقم (١٤١).

(٣) أخرجه مسلم برقم /٢٤٩٦/ في فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب الشجرة.

(٤) (آيلة) بفتح الهمزة وسكون الياء التحتية المثناة فلام مفتوحة بعدها.
هاء: كانت مدينة عامرة بطرف بحر القلزم (البحر الأحمر) من طرف الشام، وهي الآن خراب يمر بها الحاج من مصر وتكون عن شمالهم وإليها تنسب العقبة المشهودة عند أهل مصر (خليج العقبة) العقبة آيلة، والحديث رواه البخاري (٢٠٦/٧) في الرقاق، باب في الحوض، ومسلم برقم /٢٢٩٣/ في الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ.

(٥) رواه البخاري (١٠٣/٨) في الفتن، باب لا يدخل الدجال المدينة، والترمذي برقم /٢٢٤٣/ في الفتن، باب ما جاء في الدجال لا يدخل المدينة.

(٦) شطر من حديث ما يقوله الزائر للقبور. رواه مسلم برقم /٩٧٤/ في الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، والنسائي (٩٤/٤) في الجنائز، باب الأمر بالاستغفار للمؤمنين.

وقال لما حاصر الطائف: «إنا قافلون غداً إن شـاء الله»[1].

وقال لما قدم مكة: «منزلنا غداً إن شاء الله بخيفِ بني كنانة»[2].

وقال يوم بدر: «هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله»[3].

وقـال في بعض أسفاره: «إنكم تسيـرون عشيَّتكم وليلتكم ثم إنكم تأتـون المـاء غداً إن شاء الله»[4].

وقال للأعرابي الذي عاده من الحمى «لا بأس طهور إن شاء الله»[5].

وأخبر عن سليمان بن داود أنـه قال «لأطـوفن الليلة على سبعين امرأة كـل واحدة تأتي بفارس يقاتلُ في سبيل الله، فقال له الملك قل إن شاء الله، فلم يقل، فـطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشِقِّ رجل، وأيمُ الـذي نفسُ محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[6].

وقال «من حلف فقال: إن شاء الله، فإن شاء مضى وإن شاء رجع غير حنثٍ»[7].

---

(١) رواه البخاري (٨/١٩٤) في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، ومسلم برقم /١٧٧٨/ في الجهاد، باب غزوة الطائف.

(٢) رواه البخاري (٨/١٩٤) في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، ومسلم برقم /١٣١٤/ في الحج، باب استحباب النزول في المحصب يوم النفر والصلاة به.

(٣) جزء من حديث أنس بن مالك الذي رواه مسلم برقم /٢٨٧٣/ في الجنة وصفة نعيمها باب عرض مقعد المميت من الجنة أو النار عليه، والنسائي (٤/١٠٩) في الجنـائز، بـاب أرواح المؤمنين.

(٤) صـدر حديث رواه الإمـام مسلم في صحيحه من حديث أبي قتـادة الأنصـاري رضي الله عنـه بـرقم /٦٨١/ في المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة، وأبو داود برقم /٤٣٧/ في الصلاة، باب فيمن نام عن الصلاة أو نسيها.

(٥) رواه البخاري (٨/١٩٢) في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة. وفي المرض، بـاب عيادة الأعـراب، وباب مـا يقـال للمـريض ومـا يجيب، وفي الأنبيـاء، بـاب عـلامـات النبـوة في الإسلام.

(٦) رواه البخاري (٨/١٩١) في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، ومسلم برقم /١٦٥٤/ في الأيمان، باب الاستثناء، والنسائي (٧/٢٥) في الإيمان، باب الاستثناء، وفي هذا الحـديث دلالة على أن تعدد الزوجات كان مشروعاً في الأقوام السابقة للإسلام عنـد جميع الأمم، ألا فليعتبـر اليهود والنصـارى، وكل من يقف عثرة في وجه التعـدد الذي أبـاحـه الله سبحـانـه وتعالى. راجع بحث تعدد الزوجات في كتابنا (نساء حول الرسول).

(٧) رواه مالك في الموطأ (٢/٤٧٧) في الأيمان، باب مـا لا تجب فيه الكفـارة من اليمين، وأبو =

وقال: «لأغزونَّ قريشاً، ثم قال في الثالثة: إن شاء الله»[1].

وقال: «ألا مشمِّرٌ[2] للجنة؟ فقالت الصحابة: نحن المشمرون لها يا رسول الله، فقال: قولوا إن شاء الله»[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[4] قال الحسن: إذا نسيت أن تقول إن شاء الله. وهذا هو الاستثناء الذي كان يجوّزه ابنُ عباس متراخياً، ويتأولُ عليه الآية لا الاستثناء في الإقرار واليمين والطلاق والعتاق. وهذا من كمال علم ابن عباس وفقهه في القرآن.

وقد أجمع المسلمون على أن الحالف إذا استثنى في يمينه متصلاً بها فقال: لأفعلن كذا، أو لا أفعله إن شاء الله، أنه لا يحنث إذا خالف ما حلف عليه، لأن من أصل أهل الإسلام أنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله، فإذا علَّق الحالف الفعل أو الترك بالمشيئة لم يحنثْ عند عدم المشيئة ولا تجبُ عليه الكفارة.

ولو ذهبنا نذكر كل حديث أو أثرٍ جاء فيه لفظ المشيئة وتعليقُ فعل الرب بها لطال الكتبُ جداً.

وأما الإرادة فورودها في نصوص القرآن والسنة معلوم أيضاً كقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[5]، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾[6]، ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ

= داود برقم /٣٢٦١/ في الأيمان، باب الاستثناء في اليمين، والترمذي، برقم /١٥٣١/ في الأيمان، باب ما جاء في الاستثناء باليمين، والنسائي (١٢/٧) في الأيمان، باب من حلف واستثنى، وابن ماجه برقم /٢٠١٥/ في الكفارات، باب الاستثناء باليمين، والدارمي (١٨٥/٢) في النذور والأيمان، باب في الاستثناء في اليمين. وقال الترمذي: حديث حسن وهو كما قال فإن له شواهد صحيحة من طرق أخرى.

(١) رواه أبو داود برقم /٣٢٨٥/ في الأيمان، باب الاستثناء في اليمين، وقال أبو داود: وقد أسنده غير واحد عن عكرمة عن ابن عباس، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٥/٤) وقال رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى أيضاً.

(٢) التشمير: السعي بشدة غاية السعي.

(٣) سنده ضعيف، وقد رواه ابن ماجة برقم /٤٣٨٧/ في الزهد، باب صفة الجنة قال البوصيري في الزوائد ٢٦٨: هذا إسناد فيه مقال. أقول: في سنده الضحاك المعافري مجهول كما ذكر الذهبي في (المغني في الضعفاء) (٤٤٦/١)، وقد ضعفه شيخنا الألباني حفظه الله في ضعيف ابن ماجة برغم ٩٤٧، وعزا تخريجه للضعيفة برقم /٣٣٥٨/.

(٤) الآية /٢٤/ من سورة الكهف.

(٥) سورة هود، الآية /١٠٧/ والآية /١٦/ من سورة البروج.

(٦) سورة الكهف، الآية /٨٢/.

قَرْيَةً ﴾(1)، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾(2) ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(3) ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾(4). وقول نوح: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(5)،

وقوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾(6).

وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ ﴾(7).

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾(8)

وأخبر أنه إذا لم يرد تطهير قلوب عباده لم يكن لهم سبيلٌ إلى تطهيرها فقال: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(9).

وقال: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾(10).

وقال: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾(11)

---

(1) سورة الإسراء، الآية /16/.
(2) سورة البقرة، الآية /185/.
(3) سورة يس، الآية /82/.
(4) سورة المائدة، الآية /41/.
(5) سورة هود، الآية /34/.
(6) سورة الأنعام، الآية /125/.
(7) سورة الرعد، الآية /11/.
(8) سورة النساء، الآية /27/.
(9) سورة المائدة، الآية /41/.
(10) سورة الحج، الآية /16/.
(11) سورة المائدة، الآية /6/.

وقوله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[2].

وقوله: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾[3].

وقول صاحب يس: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾[4].

وقوله: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾[5].

وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[6].

وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[7].

والنصوص النبوية في إثبات إرادة الله أكثرُ من أن تُحصر، كقوله: «منْ يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[8].

«منْ يرد الله به خيراً يصب منه»[9].

---

(١) سورة المائدة، الآية /١٧/.
(٢) الآية /٣٣/ من سورة الأحزاب.
(٣) الآية /١٧/ من سورة الأحزاب.
(٤) الآية /٢٣/ من سورة يسٓ.
(٥) الآية /٣٨/ من سورة الزمر.
(٦) الآية /١٧٦/ من سورة آل عمران.
(٧) الآية /١٨/ من سورة الإسراء.
(٨) شطر من حديث رواه البخاري (١/٢٥) في العلم باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ومسلم برقم /١٠٣٧/ في الإمارة باب فضل الرمي والحس عليه وذم من علِمه ثم نسيه. ورواه الترمذي مختصراً على هذه الجملة برقم /٢٦٤٧/ في العلم، باب إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين.
(٩) رواه البخاري (٦/٢) في المرض، باب ما جاء في كفارة المرض، والموطأ (٢/٩٤١) في العين، باب ما جاء في أجر المريض.

«إذا أراد الله بالأمير خيراً جعلَ له وزيرَ صدق»[1].

«إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها» «وإذا أراد الله هلكة أمة عذبها ونبيُّها حي فأقرّ عينه بهلكتها»[2]،

«إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد الله بعبدٍ شراً أمسك عليه بذنبه حتى يوافي يوم القيامة كأنه عير»[3].

«إذا أراد الله قبض عبدٍ بأرض جعل له إليها حاجة»[4].

«إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أخدل عليهم باب الرفق»[5].

«وإذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم»[6].

والآثارُ النبوية في ذلك أكثر من أن نستوعبها.

فصل: وههنا أمرٌ يجبُ التنبيهُ عليه والتنبهُ له، وبمعرفته تزولُ إشكالاتٌ كثيرة

---

(١) إسناده صحيح. رواه أبو داود برقم /٢٩٣٢/ في الخراج والإمارة، باب في اتخاذ الوزير، والنسائي (١٥٩/٧) في البيعة، باب وزير الإمام.

(٢) أخرجه مسلم برقم /٢٢٨٨/ في الفضائل، باب إذا أراد الله رحمة أمته قبض نبيها قبلها.

(٣) إسناده حسن. رواه الترمذي برقم /٢٣٩٨/ في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء وقد اختصر على الشطر الأول، ورواه الإمام أحمد بتمامه في المسند (٨٧/٤) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٤/١٠) وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح وكذلك أحد إسنادي الطبراني، وذكره شيخنا الألباني في السلسلة الصحيحة برقم /١٢٢٠/.

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم /١٢٨٧/، وابن حبان في صحيحه برقم /١٨١٥/ وأحمد في المسند (٤٢٩/٣)، والحاكم في المستدرك (٤٢/١) وقال: هذا حديث صحيح رواته عن أخرهم ثقات ووافقه الذهبي. وذكره الألباني في الصحيحة برقم /١٢١/.

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند (٧١/٦)، والبخاري في التاريخ الكبير (٤١٦/١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢/٨) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وذكره أيضاً الألباني في السلسلة الصحيحة برقم /١٢١٩/ وقال: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٦) رواه البخاري (٩٨/٨) في الفتن، باب إذا أنزل الله بقوم عذاباً، ومسلم برقم /٢٨٧٩/ في الجنة وصفة نعيمها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت. وأحمد في المسند (٤٠/٢).

تعرِضُ لمن لم يحطْ به علماً، وهو أن الله سبحانه له الخلقُ والأمرُ. وأمـرُه سبحانـه نوعان: أمرُ كَوْني قدَري، وأمرُ ديني شرعي.

فمشيئتُـه سبحانـه متعلقةٌ بخلقـه وأمره الكـوني، وكذلـك تتعلق بمـا يحبّ وبمـا يكـرهه، كلُّه داخـلٌ تحت مشيئته، كمـا خَلَقَ إبليسَ وهـو يُبغضه، وخَلَقَ الشيـاطينَ والكفارَ والأعيانَ والأفعالَ المسخوطَة له وهو يُبغضها. فمشيئتُه سبحانه شاملةٌ لـذلك كلّه.

وأما محبتهُ ورضاه فمتعلقةٌ بأمره الديني وشَرْعـه الذي شَـرَعه على ألسنـة رسله، فما وُجد منه تعلقتْ به المحبـةُ والمشيئةُ جميعـاً فهو محبـوبٌ للرب واقعٌ بمشيئتـه، كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين.

وما لم يُوجدْ منه تعلقتْ به محبتُه وأمرُه الديني ولم تتعلْق به مشيئتهُ.

وما وُجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقتْ به مشيئتهُ ولم تتعلق به محبتُه ولا رضاه ولا أمْرُه الديني.

وما لم يُوجدَ منها لم تتعلق به مشيئتُه ولا محبته.

فلفظ المشيئـةِ كوني، ولفظ المحبـة ديني شـرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية فتكونُ هي المشيئة، وإرادة دينية فتكونُ هي المحبة.

إذا عـرفتَ هذا فقـولُه تعـالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾(١)، وقـولُـه: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾(٢)، وقولُه: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(٣)، لايناقضُ نصوصَ القـدرِ والمشيئةِ العاملة الدالة على وقـوع ذلك بمشيئتـه وقضائـه وقدره، فـإن المحبةَ غيـرُ المشيئة، والأمر غيرُ الخلق.

ونظيرُ هذا لفظُ الأمر فـإنه نـوعان: أمـرُ تكوين، وأمرُ تشريـع، والثاني قـد يُعصَى ويخـالف بخلاف الأول، فقـولُه تعـالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا

(١) سورة الزمر، الآية /٧/.
(٢) سورة البقرة، الآية /٢٠٥/.
(٣) سورة البقرة، الآية /١٨٥/.

﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾[1] لا يناقضُ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾[2] ولا حاجةَ إلى تكلّفِ تقدير أمَرْنا مترفيها بالطاعة فعصَوْنا وفسقوا فيها، بل الأمر ههنا أمرُ تكوينٍ وتقدير لا أمرُ تشريع، لوجوه:

أحدهُا: أن المستعملَ في مثل هذا التركيب أن يكون ما بعد الفاء هو المأمور به، كما تقول: أمرتُه فقام، وأمرتُه فأكل، كما لو صَرَّحَ بلفظه أفعلْ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾[3]، وهذا كما تقولُ دعوتُه فأقبلَ، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾[4].

والثاني: أن الأمرَ بالطاعة لا يخصُّ المترفين فلا يصحُّ حَمْلُ الآية عليه بل تسقطُ فائدةُ ذِكر المترفين، فإن جميعَ المبعوث إليهم مأمورون بالطاعة فلا يصح أن يكون أمرُ المترفين علةَ إهلاك جميعهم.

الثالثُ: أن هذا النسقَ العجيبَ والتركيبَ البديع مقتضٍ ترتّبَ ما بعد الفاء على ما قبلها ترتُبَ المسبَّبِ على سببه والمعلولِ على عِلّته. ألا تَرَى أن الفسقَ علةُ «حق القول عليهم»، و«حق القول عليهم» علةٌ لتدميرهم، فهكذا الأمرُ سببٌ لفسقهم ومقتضٍ له، وذلك هو أمرُ التكوين لا التشريع،

الرابعُ: أن إرادتَه سبحانه لإهلاكهم إنما كانت بعد معصيتهم ومخالفتهم لرسله، فمعصيتهم ومخالفتُهم قد تقدّمتْ فأراد الله إهلاكهم فعاقبهم بأن قدرَ عليهم الأعمالَ التي يتحتم معها هلاكهم، فإن قيل: فمعصيتُهم السابقةُ سببٌ لهلاكهم فما الفائدةُ في قوله: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾[5]، وقد تقدّمَ الفسقُ منهم؟ قيل: المعصيةُ السابقةُ وإن كانت سبباً للهلاك لكنْ يجوزُ تخلّفُ الهلاكِ عنها ولا يتحتمُ، كما هو عادةُ الرب تعالى المعلومةُ في خلْقه أنه لا يتحتمُ هلاكُهم بمعاصيهم.

فإذا أراد إهلاكَهم ولا بد أحدثَ سبباً آخر يتحتُم معه الهلاك، ألا تَرَى أن ثموداً لم يهلكهم بكفرهم السابق حتى أخرجَ لهم الناقَة فعقروها فأُهلكوا حينئذ.

---

(١) سورة الإسراء، الآية /١٦/.
(٢) سورة الأعراف، الآية /٢٨/.
(٣) سورة البقرة، الآية /٣٤/.
(٤) سورة الإسراء، الآية /٥٢/.
(٥) سورة الإسراء، الآية /١٦/.

وقوم فرعون لم يهلكهم بكفرهم السابق بموسى حتى أراهم الآياتِ المتتابعاتِ واستحكم بغيُهم وعنادُهم فحينئذٍ أُهلكوا.

وكذلك قوم لوط لما أراد هلاكهم أرسلَ الملائكة إلى لوط في صورة الأضياف فقصدوهم بالفاحشة ونالوا مِن لوط وتواعدوه.

وكذلك سائرُ الأمم إذا أراد اللهُ هلاكها أحدث لها بغياً وعدواناً يأخذها على أثره.

وهذا عادتُه مع عباده عموماً وخصوصاً، فيعصيه العبدُ وهو يحلم عنه ولا يعاجلُه حتى إذا أراد أَخْذَه قَيَّضَ له عملاً يأخذُه به مضافاً إلى أعماله الأولى فيظنّ الظانُّ أنه أخذه بذلك العمل وحده، وليس كذلك، بل حق عليه القول بذلك، وكان قبل ذلك لم يحقَّ عليه القول بأعماله الأولى حيث عمل ما يقتضي ثبوتَ الحق عليه ولكنْ لم يحكمْ به أحكمُ الحاكمين ولم يُمضِ الحُكمَ، فإذا عمِلَ بعد ذلك ما يقرر غضبَ الرب عليه أمضى حكمَه عليه وأنفذه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[1] وقد كانوا قبل ذلك أغضبوه بمعصية رسوله، ولكن لم يكن غضبُه سبحانه قد استقر واستحكم عليهم إذ كان بصدد أن يزول بإيمانهم، فلما أيِسَ مِن إيمانهم تقرر الغضبُ واستحكم فحلّت العقوبة.

فهذا الموضع من أسرار القرآن وأسرار التقدير الإلهي، وفِكرُ العبد فيه مِن أنفع الأمور له فإنه لا يدري أي المعاصي هي الموجبة التي يتحتم عندها عقوبته فلا يقال بعدها، والله المستعان.

وسنعقد لهذا الفصل باباً في الفَرْق بين القضاء الكوني والديني نشبع الكلامَ فيه إن شاء الله لشدة الحاجة إليه، إذ المقصودُ في هذا الباب مشيئة الرب وأنها الموجبةُ لكل موجود، كما أن عدمَ مشيئته موجبٌ لعدم وجود الشيء، فهما الموجِبتان، ما شاء الله وَجَبَ وجودُه، وما لم يشأ وَجَبَ عدمُه وامتناعُه.

وهذا أمر يعمّ كلَّ مقدورٍ من الأعيان والأفعال والحركات والسكنات، فسبحانه أن يكون في مملكته ما لا يشاء أو أن يشاء شيئاً فلا يكون، وإن كان فيها ما لا يحبه ولا يرضاه، وإن كان يحب الشيءَ فلا يكون لعدم مشيئته له، ولو شاءه لوُجد.

---

(١) الآية /٥٥/ من سورة الزخرف.

البَابُ الثالِث عشر

في ذِكر المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر
وهي مرتبة خَلْقِ اللهِ سبحانه الأعمالَ وتكوينهِ وإيجادِه لها

وهذا أمر متّفق عليه بين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وعليه اتفقت الكتبُ الإلهيةُ والفطرُ والعقولُ والاعتبارُ، وخالفَ في ذلك مجوسُ الأمة فأخرجتْ طاعاتِ ملائكتِه وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين - وهي أشرف، ما في العالم - عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته، بل جعلوهم هم الخالقين لها، ولا تعلَق لها بمشيئته، ولا تدخلُ تحت قدرته.

وكذلك قالوا في جميع أفعال الحيوانات الاختيارية. فعندهم أنه سبحانه لا يَقْدِرُ أن يهديَ ضالاً، ولا يضلّ مهتدياً، ولا يقْدر أن يجعلَ المسلمَ مسلماً، والكافرَ كافراً، والمصلّي مصلياً، وإنما ذلك بجَعْلهم أنفسَهم كذلك لا بجعْله تعالى.

وقد نادى القرآنُ بل الكتبُ السماوية كلها والسنةُ وأدلة التوحيد والعقولِ على بطلان قولهم، وصاح بهم أهلُ العلم والإيمان من أقطار الأرض، وصنَّفَ حزبُ الإسلام وعصابةُ الرسول وعسكره التصانيفَ في الرد عليهم، وهي أكثرُ من أن يحصيها إلا الله، ولم تزَل أيدي السلف وأئمة السنة في أقفيتهم، ونواصيهم تحت أرجلهم إذ كانوا يردّون باطلَهم بالحق المحض، وبِدْعتهم بالسنة، والسنةُ لا يقومُ لها شيء.

فكانوا معهم كالذِّمة مع المسلمين إلى أن نبغتْ نابغةٌ ردوا بدعتَهم ببدعةٍ تقابلُها، وقابلوا باطلهم بباطل مِن جنسه، وقالوا: العبدُ مجبورٌ على أفعاله مقهورٌ

عليها لا تأثير له في وجودها البتةَ وهي واقعةٌ بإرادته واختياره. وغلا غُلاتهم فقالـوا: بـل هي عين أفعالِ الله، ولا تُنسب إلى العبـد إلا على المجاز، والله سبحـانه يلومُ العبدَ ويعاقبه ويخلده في النار على ما لـم يكن للعبد فيه صنُع ولا هـو فِعلُه، بل هـو محضُ فِعلِ الله، وهذا قـولُ الجبريـة، وهو إن لم يكن شـراً من القدَريـة فليس هو بدونه في البطلان.

وإجماعُ الرسل واتفاقُ الكتب الإلهية وأدلةُ العقـولِ والفطرِ والعيـانِ يكذّبُ هـذا القولَ ويردّه. والطائفتان في عمى عن الحق القويم والصراط المستقيم.

ولمـا رأى القاضي أبو بكر الباقلاني وغيـرُه بطلانَ هـذا القول وتنـاقضَه للشـرائـع والعـدل والجِبلَّةِ قـالوا: قـدرةُ العبد وإن لم تؤثّـر في وجود الفعـل فهي مُؤثرةٌ في صفـةٍ من صفاتـه، وتلك الصفةُ تسمَّى كَسْباً وهي متعلَّقُ الأمـرِ والنهي والثواب والعقـاب، فإن الحـركةَ التي هي مِن طـاعته والحـركة التي هي مِن معصيتـه قد اشتـركا في نفـس الحركـة وامتازت إحداهما عن الأخرى بـالطاعـة والمعصية، فـذاتُ الحركـةِ ووجودُهـا واقعٌ بقدرة الله وإيجاده، وكونها طاعةً ومعصيةً واقعٌ بقدرة العبد وتأثيره.

وهذا وإن كان أقـربَ إلى الصواب فـالقائـلُ به لم يُـوفه حقّـه، فإن كـونَها طـاعةً ومعصيةً هو موافقة الأمر ومخالفتُه، فهذه الموافقةُ والمخالفةُ إما أن تكون فعلاً للعبد يتعلقُ بقدرته واختياره، وإن كان لم يكن للعبـد اختيارٌ ولا فِعـل ولا كَسب البتة فلم يثبتْ هؤلاء مِن الكسب أمراً معقولاً، ولهذا يقال: مُـحـالاتُ الكلامِ ثـلاثة: كَسْبُ الأشعري[1]

(١) (الأشعري): هو أبو الحسن بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، إمام الأشاعرة، ولـد بالبصرة سنة /٢٦٠/ وتوفي سنة /٣٢٤/. كان عجبا في الذكـاء، وقوة الفهم، أخذ عن أبي خليفة الجمحي، وأبي علي الجبائي، وغيرهم . ولما برع في معرفة الاعتزال كرهـه وتبرأ منه، وصعد المنبر وأعلن توبته إلى الله تعالى، والتزامه مذهب أهل السنة والجماعة، ثم أخـذ يرد على المعتـزلة، ويهتـك عوارهم، انـظر سير أعـلام النبـلاء (١٥/ ٨٥) ومـا بعـدهـا. وكـان الأشعري يقول بالكسب: أي لا تأثير للقدرة الحادثة في الأحداث، لأن جهة الحدوث قضية واحدة لا تختلف بالنسبة للجوهر والعرض... الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٨٨).

وأحوالُ أبي هاشم[١]، وطَفرةُ النظام[٢].

ولما رأى طَائفةٌ فسادَ هذا قالوا: المؤثِّرُ في وجود الفعل هو قدرةُ الرب على سبيل الاستقلال، قالوا: ولا يمتنعُ اجتماعُ المؤثرين على أثر واحد. ولم يستوحش هؤلاء مِن القول بوقوع مفعولٍ بين فاعلين ولا مقدور بين قادرين، قالوا: كما يمتنعُ وقوعُ معلومٍ بين عالِمين، ومرادٍ بين مُريدين، ومحبوب بين مُحبِّين، ومكروهٍ بين كارهين، قالوا: ونحن نشاهدُ قادرَيْنِ مستقلَيْنِ كلٌّ منهما يمكنه أن يستقلَّ بالفعل يقعُ بينهما مفعولٌ واحد يشتركان في فِعله والتأثير فيه، قالوا: وليس معكم ما يُبطلُ هذا إلا قولُكم إن إضافتَه إلى أحدِهما على سبيل الاستقلال يمنع إضافتَه إلى الآخر، واضافته إليهما.

وفي هذه الحجة إجمال لا بدَّ له مِن تفصيل، فيجوزُ وقوعُ مفعولٍ بين فاعلين لا يستقلُّ أحدُهما به، كالمتعاونَيْنِ على الأمر لا يَقْدرُ عليه أحدُهما وحده.

---

(١) (أبو هاشم) أي الجبائي: وهو عبد السلام بن الأستاذ أبي علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي، المعتزلي، من كبار الأذكياء أخذ عن والده، وأخذه الأشعري وغيره، وله كتاب (الجامع الكبير) (وكتاب العَرَض) وكتاب المسائل العسكرية، توفي سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة، انظر سير أعلام النبلاء (٦٣/١٥) وقد لخص الشهرستاني مذهب الأحوال الذي يقول به أبو هاشم في الملل والنحل (٧٥/١) كالآتي: وعند أبي هاشم: هو عالم لذاته، بمعنى أنه ذو حالة، هي صفة معلومة وراء كونه ذاتاً موجوداً، وإنما تعلم الصفة على الذات لا بانفرادها، فأثبت أحوالاً هي صفات لا موجودة ولا معلومة ولا مجهولة، أي هي على حيالها لا تعرف كذلك بل مع الذات.. فليس من عرف الذات عرف كونه عالماً، ولا من عرف الجوهر عرف كونه متميزاً قابلاً للعرض).

(٢) (النظام) هو شيخ المعتزلة، أبو إسحاق إبراهيم بن سيار مولى آل الحارث بن عباد الطبيعي البصري المتكلم. كان يقول: إن الله لا يقدر على الظلم ولا الشر، وصرح بأن الله لا يقدر على إخراج أحد من جهنم، وأنه ليس يقدر على أصلح مما خلق. ولم يكن النظام ممن نفعه العلم والفهم، وقد كفره جماعة، وقال بعضهم: كان على دين البراهمة المنكرين للبعث والنبوة، له تصانيف كثيرة منها (كتاب الطفرة) وكتاب (الجواهر والأعراض) وغيرها.

سقط من غرفة وهو سكران فمات في خلافة المعتصم سنة بضع وعشرين ومائتين انظر سير أعلام النبلاء (٥٤٢/١٠).

ولمزيد من المعرفة عن طفرة النظام راجع الملل والنحل (٥٧/١ وما بعدها). والفرق بين الفرق ص ٨٥.

ويجوزُ وقوعُ مفعـولٍ بين فاعلين يشتـركان فيـه كلٌّ منهمـا يستقل بـه على سبيل البَذَلِ، وهذا ظاهر أيضاً.

ويجـوزُ وقوعُ مفعـولٍ بين فاعلين يشتـركـان فيـه وكـلٌّ منهمـا يَقْـدر عليـه حـالَ الانفراد، كمحمولٍ يحملُه اثنان كلٌّ منهما يمكنه أن يستقلَّ بحَمْله وحده.

وكلٌّ هذه الأقسام ممكنةٌ بل واقعةٌ. بقيَ قسمٌ واحـد وهو مفعـولٌ بين فاعلين كـلٌّ منهما فَعَلَه على سبيل الاستقـلال فهذا محـال، فإن استقـلالَ كلٍّ منهمـا بفعله ينفي فعلَ الآخر له، فاستقلالُهما ينافي استقلالهما. وأكثرُ الطوائف يُقر بـوقوع مقـدورٍ بين قادرين وإن اختلفوا في كيفية وقوعه.

فقالت طائفة: الفعلُ يُضافُ إلى قدرة الله سبحانه على وجه الاستقلال بـالتأثيـر، ويُضاف إلى قدرة العبـد لكنها غيـرُ مستقلة، فإذا انضمتْ قـدرةُ الله إلى قدرة العبـد صارت قدرةُ العبد مؤثرةً على سبيل الاستقلال بتـوسط إعانـةِ قدرة الله وجَعْـلِ قدرةِ العبدِ مؤثرة.

والقائلُ بهذا لم يتخلصْ من الخطأ حيث زعم أن قدرة العبد مستقلةٌ بإعانـة قدرة الله لـه، فعاد الأمرُ إلى اجتماع مؤثـرين على أثرٍ واحـد لكن قدرةَ أحـدِهما وتـأثيرَه مستنـدٌ إلى قدرة الآخـر وتأثيـرِه، وكـأنـه ـ والله أعلم ـ أراد أنْ قـدرةَ الـرب مستقلةٌ بالتأثير في إيجاد الفعل. وهذا قد قاله طائفةٌ من العلماء.

وقائلُ هذا لم يتخلصْ من الخطأ حيث جعلَ قدرةَ العبد مستقلةً بالتأثير في إيجـاد المقـدور، وهذا بـاطلٌ إذْ غـايةُ قـدرة العبد أن تكـون سبباً، بـل جـزءاً من السبب، والسببُ لا يستقلُّ بحصول المسبَّب ولا يُوجبه، وليس في الـوجود مـا يُوجبُ حصـولَ المقدور إلا مشيئةُ الله وحده.

وأصحـابُ هذا القـول زعموا أن الله أعـطى العبدَ قـدرةً وإرادةً وفوَّضَ إليـه بهما الفعلَ والتَّركَ وخـلّاه وما يـريدُ، فهـو يفعلُ ويتـرك بقدرتـه وإرادته اللتين فُـوِّضَ إليه الفعلُ والتركُ بهما.

وقالت طائفة أخرى: مقدورُ العبد هو عينُ مقدور الرب بشرط أن يفعلَه العبـدُ إذا تـركَـه الـربُّ ولم يفعلهُ، لا على أنـه يفعله والـربُّ لـه فـاعـلٌ لاستحـالـةِ خلْقٍ بين خالقين، وهذا بعينه مذهبُ مَنْ يقولُ بوقوع مفعول بين فاعلين على سبيل [البدل].

وهذا مذهبُ كثيرٍ من القدَرية[1] منهم الشحّام وغيرُه.

وقالت طائفة يجوزُ وقوعُ فعل بين فاعلين بِنسبتين مختلفتين، بإحداهما يكون مُحدِثاً وبالأخرى يكون كاسباً. وهذا مذهبُ النجار وضرار بن عمرو ومحمد بن عيسى بن حفص، والفَرقُ بين هذا المذهب ومذهب الأشعريين مِن وجهين:

أحدُهما أن صاحبَ هذا المذهب يقول العبدُ فاعل حقيقةً وإنْ لم يكن محدِثاً مخترِعاً للفعل، والأشعري[2] يقول العبدُ ليس بفاعلٍ وإنْ نُسبِ إليه الفعلُ، إنما الفاعلُ في الحقيقة هو الله فلا فاعل سواه.

الثاني: أنهم يقولون: الربُّ هو المحدِثُ والعبدُ هو الفاعل.

وقالت فرقة: بلْ أفعالُ العباد فعلٌ لله على الحقيقية، وفعلُ العبد على المجاز. وهذا أحدُ قولَي الأشعري.

وقالت فرقة أخرى منهم القلانسي وأبو إسحاق في بعض كتبه: إنها فعلٌ لله على الحقيقة، وفعللُ الإنسانِ على الحقيقة، لا على معنى أنه أحدثها بل على معنى أنها كَسْب له.

وقالت طائفة أخرى وهم جَهْم[3] وأتباعهُ: إن القادرَ على الحقيقة هو الله وحده وهو الفاعلُ حقاً، ومَن سواه ليس بفاعل على الحقيقة ولا كاسبٍ أصلاً، بل هو مضطر إلى جميع ما فيه مِن حركة وسكون، وقولُ القائل: قامَ وقعدَ وأكلَ وشربَ مَجَازٌ بمنزلة ماتَ وكبرَ ووقعَ وطلعت الشمسُ وغربت، وهذا قولُ الجبرية الغُلاة.

وقابلَه طائفةٌ أخرى فقالوا: العبادُ مُوجِدون لأفعالهم مختـرِعون لها بقَدَرهم وإرادتهم، والربُّ لا يوصفُ بالقدرة على مقدور العبد، ولا تدخلُ أفعالُهم تحت

(١) سبق تعريف القدرية ص ٢٢.
(٢) سبقت ترجمته.
(٣) (جهم): هو جهم بن صفوان: أبومحرز السمرقندي مولى بني راسب المقتول سنة ١٢٨ وهو رأس فرقة الجهمية الموصوفين بالضلال والابتداع، كان يقول هو وأتباعه: إن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما حتى لا يبقى أحد سوى الله، ويزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، وأن الكفر هو الجهل بالله فقط، وكان يقول: إن الله تعالى لا يوصف بشيء مما يوصف به العباد فلا يجوز أن يقال في حقه تعالى: حي أو عالم أو مريد. انظر الملل والنحل (١٠٩/١) والفرق بين الفرق (٢١١/١).

قدرته، كما لا يوصفُ العبادُ بمقدور الـرب ولا تدخـلُ أفعالُـه تحت قدرَهم. وهـذا قولُ جمهورِ القدَرية[1]،

وكلُّهم متفقون على أن الله سبحانه غيرُ فاعل لأفعال العباد، واختلفوا هلْ يُوصف بأنه مخترعها ومُحدثِها وأنه قادر عليها وخالق لها، فجمهورُهم نفَوا ذلك ومَن يقـربُ منهم إلى السّنة أثبتَ كونَها مقدورةً لله وأن الله سبحانه قـادر على أعيانهـا وأن العبادَ أحدثوها بإقدار الله لهم على إحداثها. وليس معنى قدرة الله عليهـا عندهم أنـه قادر على فعلها، هذا عندهم عينُ المحال بل قُدرته عليها إقدارُهم على إحداثها، فإنمـا أحدثوها بقدرته وإقداره وتمكينه، وهؤلاء أقربُ القدَرية إلى السنة.

وأربابُ هذه المـذاهب مع كـل طائفـةٍ منهم خطأ وصـوابٌ، وبعضُهم أقربُ إلى الخـطأ. وأدلةُ كـل منهم وحججُه إنمـا تنهضُ على بُطلان خـطأ الطائفـة الأخرى لا على إبطال ما أصابوا فيه.

فكلُّ دليلٍ صحيحٍ للجبرية إنما يدل على إثبات قدرة الرب تعـالى ومشيئته وأنـه لا خـالق غيره وأنـه على كل شيء قـدير، لا يُستثنى من هـذا العموم فـردٌ واحد من أفـراد الممكِنات، وهـذا حق ولكنْ ليس معهم دليل صحيـح ينفي أن يكـون العبـد قادراً مريداً فاعلاً بمشيئته وقدرته وأنه هو الفاعل حقيقةً وأفعاله قائمةٌ به، وأنهـا فعلٌ له لا لله وأنها قائمةٌ به لا بالله.

وكلُّ دليلٍ صحيحٍ يقيمُه القدَرية فإنما يدل على أن أفعال العبـاد فِعلٌ لهم قـائم بهم واقــع بقـدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم وأنهم مختــارون لهـا غيــرُ مضــطرين ولا مجبورين. وليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون الله سبحـانه قـادراً على أفعالهم وهو الذي جعلَهم فاعلين.

فأدلة الجبرية متضافرة صحيحة على مَن نَفى قدرةَ الـرب سبحانـه على كل شيء من الأعيان والأفعال ونَفى عمومَ مشيئته وخَلْقه لكل مـوجود وأثبتَ في الـوجود شيئـاً بدون مشيئته وخَلقه.

وأدلـةُ القَـدَريـة متضـافـرةٌ صحيحـة على مَن نَفى فعـلَ العبـد وقـدرتـه ومشيئتَـه

---

(١) سبقت ترجمة القدرية ص ٢٢.

واختياره، وقال إنه ليس بفاعل شيئاً والله يعاقبه على ما لم يفعله ولا له قدرةٌ عليه بل هو مضطر إليه مجبورٌ عليه.

وأهلُ السنة وحزبُ الرسولِ وعسكرُ الإيمان لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، فكلُّ حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه، وهم براءٌ من باطلهم فمذهبُهم جَمْعُ حقّ الطوائفِ بعضِه إلى بعض، والقولُ به ونَصْرُه وموالاةُ أهله مِن ذلك الوجه، ونَفْيُ باطلِ كل طائفةٍ من الطوائف وكسْرُه ومعاداةُ أهله من هذا الوجه. فهُم حكامٌ بين الطوائف لا يتحيزون إلى فئةٍ منهم على الإطلاق، ولا يردّون حقَّ طائفة من الطوائف، ولا يقابلون بدعةً ببدعة، ولا يردّون باطلاً بباطل، ولا يحملهم شَنآنُ قوم يعادونهم ويكفّرونهم على أن لا يعدلوا فيهم، بل يقولون فيهم الحقَّ، ويحكمون في مقالاتهم بالعدل، واللهُ سبحانه وتعالى أمَر رسولَه أن يَعْدِلَ بين الطوائف فقال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾[1].

فأمرَه سبحانه أن يدعو إلى دينه وكتابه وأن يستقيمَ في نَفْسه كما أمره، وأن لا يتبع هوَى أحدٍ من الفِرق، وأن يؤمنَ بالحق جميعِهِ، ولا يؤمنَ ببعضه دون بعض، وأن يعدلَ بين أرباب المقالات والديانات.

وأنتَ إذا تأملت هذه الآية وجدتَ أهلَ الكلام الباطل، وأهلَ الأهواء والبدع من جميع الطوائف أبخسَ الناسِ منها حظاً وأقلَّهم نصيباً، ووجدتَ حزب الله ورسوله وأنصارَ سنته هم أحقَ بها وأهلها، وهم في هذه المسألة وغيرها من المسائل أسعدُ بالحق من جميع الطوائف، فإنهم يُثْبتون قدرةَ الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال، ومشيئته العامة، وينزهونه أن يكون في ملكه ما لا يقدرُ عليه ولا هو واقع تحت مشيئته، ويثبتون القدرَ السابقَ وأن العباد يعملون ما قدره الله وقضاه وفرَغَ منه، وأنهم لا يشاؤون إلا أن يشاء الله، ولا يفعلون إلا مِن بَعد مشيئته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ولا تخصيصَ عندهم في هاتين القضيتين بوجهٍ من الوجوه.

---

(١) الآية /١٥/ من سورة الشورى.

والقدرُ عندهم قدرةُ الله تعالى وعلمُه ومشيئتُه وخَلْقه؛ فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلاّ بمشيئته وعلمه وقدرته، فهم المؤمنون بلا حول ولا قوةٍ إلا بالله، على الحقيقة إذا قالها غيرُهم على المجاز إذْ العالَمِ عُلْويه وسفليه وكلُّ حي يفعل فعلاً فإن فعلَه بقوة فيه على الفعل، وهو في حَوْل مِنْ تَركٍ إلى فعلٍ ومن فعل إلى ترك، ومن فعل إلى فعل، وذلك كله بالله تعالى لا بالعبد.

ويؤمنون بأن من يَهْدِه الله فلا مضل له ومَن يضلل فلا هادي له. وأنه هو الذي يجعل المسلم مسلماً والكافر كافراً، والمصلَي مصلياً، والمتحرك متحركاً، وهو الذي يُسيِّر عبده في البر والبحر، وهو المسيِّر والعبدُ السائر، وهو المحرِّك والعبدُ المتحرك، وهو المقيمُ والعبدُ القائم، وهو الهادي والعبدُ المهتدي. وأنه المطعِمُ والعبدُ الطاعم، وهو المحيي المميتُ والعبدُ الذي يحيَى ويموتُ. ويثبتون مع ذلك قدرةَ العبد وإرادته واختيارَه وفعلَه حقيقةً لا مجازاً.

وهم متفقون على أن الفعلَ غير المفعول كما حكاه عنهم البغوي وغيرُه، فحركاتُهم واعتقاداتُهم أفعالٌ لهم حقيقةً وهي مفعولةٌ لله سبحانه مخلوقةٌ له حقيقةً، والذي قام بالرب عزّ وجلّ عِلمُه وقدرتُه ومشيئتُه وتكوينُه، والذي قام بهم هو فِعلُهم وكَسْبُهم وحركاتُهم وسكناتُهم، فهم المسلمون المصلّون القائمون القاعدون حقيقةً، وهو سبحانه هو المقدِرُ لهم على ذلك، القادرُ عليه، الذي شاءه منهم وخَلَقه لهم، ومشيئتهم وفعلهم بعد مشيئته، فما يشاؤون إلا أن يشاء الله، وما يفعلون إلا أن يشاء الله.

وإذا وازنتَ بين هذا المذهب وبين ما عداه من المذاهب وجدتَه هو المذهبَ الوسطَ والصراطَ المستقيم، ووجدتَ سائر المذاهب خطوطاً عن يمينه وعن شماله، فقريبٌ منه، وبعيدٌ، وبينَ ذلك.

وإذا أعطيتَ الفاتحةَ حقَّها وجدتَها من أولها إلى آخرها مناديةً على ذلك، دالةً عليه صريحةً فيه، وإنْ كان حمدُه لا يقتضي غير ذلك، وكذلك كمالُ ربوبيته للعالَمين لا يقتضي غيرَ ذلك، فكيف يكون الحمد كلّه لمن لا يقدِرُ على مقدور أهلِ سماواته وأرضِه من الملائكة والجن والإنس والطير والوحش، بل يفعلون ما لا يقدرُ عليه ولا يشاؤه، ويشاءُ ما لا يفعلُه كثيرٌ منهم فيشاءُ ما لا يكون ويكونُ ما لا يشاء، وهل يقتضي ذلك كمالُ حمدِه، وهل يقتضيه كمالُ ربوبيته؟!

ثم قولُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] مُبطلٌ لقول الطائفتين المنحرفتين عن قصد السبيل، فإنه يتضمنُ إثباتَ فعلِ العبد وقيامَ العبادةِ به حقيقةً، فهو العابدُ على الحقيقة، وإن ذلك لا يحصُلُ له إلا بإعانة رب العالمين عزّ وجلّ له، فإنْ لم يُعنه ولم يُقْدره ولم يشأ له العبادةَ لم يتمكن منها ولم يوجد منه البتة، فالفعلُ منه والإقدارُ والإعانةُ من الرب عزّ وجلّ.

ثم قولُه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2] يتضمنُ طلبَ الهداية ممن هو قادر عليها وهي بيده إنْ شاء أعطاها عبده، وإن شاء مَنَعه إياها.

والهدايةُ معرفةُ الحق والعملُ به، فمن لم يجعله الله تعالى عالماً بالحق عاملاً به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه المتفردُ بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يتخلفُ عنها، وهي جَعْلُ العبد مريداً للهدى مُحباً له مُؤثراً له عاملاً به، فهذه الهدايةُ ليست إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[3] مع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

فهذه هدايةُ الدعوة والتعليم والإرشاد وهي التي هدى بها ثمودَ فاستحبوا العمى عليها، وهي التي قال تعالى فيها: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[5]

فهداهم هدى البيان الذي تقوم به حجته عليهم ومنَعهم الهدايةَ الموجبة للاهتداء التي لا يضلّ من هداه بها، فذاك عدلُه فيهم وهذه حكمتُه، فأعطاهم ما تقومُ به الحجة عليهم، ومَنَعهم ما ليسوا له بأهل ولا يليقُ بهم. وسنذكرُ في الباب الذي بعدَ هذا إنْ شاء الله تعالى ذِكْرِ الهُدى والضلال ومراتبَهما وأقسامَهما، فإنه عليه مَدارُ مسائلِ القدر.

---

(١) الآية /٥/ من سورة الفاتحة.
(٢) الآية /٦/ من سورة الفاتحة
(٣) سورة القصص، الآية /٥٦/.
(٤) سورة الشورى، الآية /٥٢/.
(٥) سورة التوبة، الآية /١١٥/.

والمقصودُ ذِكرُ بعض ما يدل على إثبات هذه المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر، وهي خَلق الله تعالى لأفعال المكلّفين ودخولُها تحت قدرته ومشيئته كما دخلتْ تحت علمه وكتابه ـ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾(١).

وهذا عامّ محفوظٌ لا يَخرجُ عنه شيء من العالَم أعيانِه وأفعالِه وحركاتِه وسكناتِه، وليس مخصوصاً بذاته وصفاته، فإنه الخالقُ بذاته وصفاته وما سواه مخلوقٌ له، واللفظُ قد فرقَ بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخلةٌ في مسمَّى اسمه، فإنّ الله سبحانه اسم للإله الموصوفِ بكل صفةِ كمالٍ، المنزّه عن كل صفةِ نقص ومثال. والعالم قسمان: أعيانٌ وأفعال، وهو الخالقُ لأعيانه وما يصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالِمُ بتفاصيل ذلك، فلا يَخرجُ شيء منه عن علمه ولا عن قدرته ولا عن خلقه ومشيئته.

قالت القَدَريةُ: نحن نقول إن الله خالقُ أفعال العباد لا على أنه مُحدثها ومخترعها لكنْ على معنى أنه مُقَدِّرُهما فإن الخلْقَ التقديرُ كما قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾(٢) وقال الشاعر:

وَلأنتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبعضُ القوم يخلقُ ثم لا يفرِي

أي لأنتَ تُمضي ما قدرتَه وتُنفذه بعزمك وقدرتك، وبعضُ القوم يقدّر ثم لا قوةَ له ولا عزيمة على إنفاذ ما قدَّره وإمضائه. فالله تعالى مقدّرُ أفعالِ العباد وهم الذين أوجدوها وأحدثوها.

قال أهلُ السنة قدماؤكم ينكرون تقديرَ الله سبحانه لأعمال العباد البتة، فلا يمكنهم أن يجيبوا بذلك، ومَن اعترف منكم بالتقدير فهو تقدير لا يرجع إلى تأثير، وإنما هو مجردُ العلم بها والخبر عنها، وليس التقديرُ عندكم جَعْلَها على قدر كذا وكذا، فإنّ هذا عندكم غيرُ مقدور للرب ولا مصنوع له، وإنما هو صنعُ العبد وإحداثُه، فرجَع التقديرُ إلى مجرد العلم والخبر، وهذا لا يسمَّى خَلْقاً في لغة أمةٍ

(١) سورة الزمر، الآية /٦٢/.
(٢) سورة المؤمنون، الآية /١٤/.

من الأمم، ولو كان هذا خَلْقاً لكان مَن عَلمَ شيئاً وعَلِمَ أسماءه وصفاتِه وأخبرَ عنه بذلك خالقاً له، فالتقديرُ الذي أثبتموه إن كان متضمناً للتأثير في إيجاد الفعل فهو خلافُ مذهبكم، وإنْ لم يتضمن تأثيراً في إيجاده فهو راجعٌ إلى مَحْض العلم والخبر.

قالت القدريةُ قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(1) مِن العامّ المرادِ به الخاص، ولا سيما فإنكم قلتم إن القرآن لم يدخلْ في هذا العموم، وهو من أعظم الأشياء وأجلّها، فخصصنا منه أفعالَ العباد بالأدلة الدالة على كونها فعلَهم ومَنْعَهم.

قالت أهلُ السنة: القرآن كلامُ الله سبحانه، وكلامُه صفةٌ من صفاته، وصفاتُ الخالق وذاتُه لم تدخلْ في المخلوق، فإنّ الخالقَ غيرُ المخلوق، فليس ههنا تخصيصٌ البتة، بل الله سبحانه بذاته وصفاته الخالقُ وكل ما عداه مخلوق، وذلك عمومٌ لا تخصيصَ فيه بوجه، إذْ ليس إلا الخالق والمخلوق، والله وحدَه الخالقُ وما سواه كلُّه مخلوق.

وأما الأدلةُ الدالة على أن أفعالَ العباد صنُع لهم وإنما أفعالُهم القائمة بهم، وأنهم هم الذين فعلوها، فكلُّها حق نقولُ بموجبها، ولكنْ لا ينبغي أن تكون أفعالاً لهم ومخلوقةً مفعولةً لله، فإن الفعلَ غيرُ المفعول، ولا نقول إنها فعلٌ لله، والعبدُ مضطر مجبور عليها، ولا نقولُ إنها فعلٌ للعبد والله غيرُ قادر عليها ولا جاعلٍ العبدَ فاعلاً لها، ولا نقولُ إنها مخلوقةٌ بين مخلوقَين مستقلّين بالإيجاد والتأثير، وهذه الأقوال كلها باطلة.

قالت القدريةُ قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(1) يعني مما لا يقدر عليه غيرُه، وأما أفعال العباد التي يقدُر عليها العبادُ فإضافتُها إليهم ينفي إضافتها إليه، وإلّا لزمَ وقوعُ مفعولين بين فاعلين وهو محال.

قالت أهلُ السنة: إضافتُها إليهم فعلاً وكسْباً لا ينفي إضافتَها إليه سبحانه خَلْقاً ومشيئةً، فهو سبحانه الذي شاءها وخَلَقها وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقةً، فلو لم تكن مضافةً إلى مشيئته وقدرته وخَلْقه لاستحال وقوعُها منهم إذ العبادُ أعجزُ وأضعفُ مِن أن يفعلوا ما لم يشأه الله ولم يُقدرْ عليه ولا خَلَقه.

---

(1) الآية /٦٢/ من سورة الزمر.

فصل: ومما يدل على قدرته سبحانه على أفعالهم قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]. واعتراضُ القدرية على الاستدلال بذلك والجوابُ عنه نظيرُ الاعتراضِ على قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وجوابِه. ونزيدُه تقريراً أن أفعالهم أشياء ممكنةٌ، والله قادرٌ على كل ممكن، فهو الذي جَعَلهم فاعلين بقدرته ومشيئته، ولو شاء لحالَ بينهم وبين الفعل مع سلامة آلة الفعل منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[2]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾[3]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[4].

فهو سبحانه يحولُ بين المرء وقلبه، وبين الإنسان ونُطقه، وبين اليد وبطشِها، وبين الرِّجل ومَشْيها، فكيف يُظَنُّ به ظَنُّ السُّوْء ويُجعلُ له مَثلُ السوء، أنه لا يقدرُ على ما يَقدِرُ عليه عباده، ولا تدخلُ أفعالُهم تحت قدرته، تعالى اللهُ عما يقولُ الظالمون والجاحدون لقدرته علواً كبيراً.

نعمْ ولا نظنّ به ظنّ السوء ونجعلُ له مَثَل السوء، أنه يعاقبُ عبادَه على ما لم يفعله ولا قدرةَ لهم على فِعله، بل على ما فعلَه هو دونهم واضطرَّهم إليه وجَبَرهم عليه، وذلك بمنزلة عقوبةِ الزَّمن إذ لم يطِرْ إلى السماء، وعقوبةِ أشلّ اليدِ على تَرْكِ الكتابة، وعقوبةِ الأخرسِ على ترك الكلام، فتعالى الله عن هذين المذهبين الباطلين المنحرفين عن سواء السبيل.

فصل: ومن الدليل على خَلْق أعمال العباد قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾[5].

(١) سورة الحشر، الآية /٦/.
(٢) سورة البقرة، الآية /٢٥٣/.
(٣) سورة الأنعام، الآية /١٣٧/.
(٤) سورة يونس، الآية /٩٩/.
(٥) سورة النحل، الآية /٨١/.

فأخبرَ أنه هو الذي جعلَ السرابيلَ، وهي الدروعُ والثيابُ المصنوعةُ ومادتها لا تسمى سرابيل إلا بعد أن تحيلها صنعة الآدميين وعلمهم، فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجُملتها، صورتِها ومادتِها وهيئاتها.

ونظيرُ هذا قولهُ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾[1].

فأخبرَ سبحانه أن البيوتَ المصنوعةَ المستقرة والمنتقلة مجعولة له، وهي إنما صارت بيوتاً بالصنعة الآدمية.

ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾[2] فأخبرَ سبحانه أنه خالقُ الفلكِ المصنوع للعباد. وأبعدَ مَن قال إن المرادَ بمثله هو الإبل، فإنه إخراجُ المماثلِ حقيقةً واعتبارٌ لما هو بعيدٌ عن المماثلة.

ونظيرُ ذلك قولُه تعالى حكايةً عن خليله إنه قال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ، وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[3] فإنْ كانت «ما» مصدريةً كما قدّره بعضُهم فالاستدلالُ ظاهرٌ وليس بقويّ، إذْ لا تناسبَ بين إنكارِه عليهم عبادةَ ما ينحتونه بأيديهم وبين إخبارهم بأن الله خالقُ أعمالهم مِن عبادةِ تلك الآلهة ونحتِها وغير ذلك، فالأولى أن تكون «ما» موصولةً، أي والله خَلَقكم وخَلَق آلهتكم التي عملتوها بأيديكم، فهي مخلوقة له لا آلهةٌ شركاءُ معه، فأخبر أنه خلق معمولَهم وقد حَلَّه عملهم وصنْعُهُم، ولا يقالُ المرادُ مادتُه، فإنّ مادتَه غيرُ معمولة لهم، وإنما يصيرُ معمولاً بعدَ عملهم.

فصل: وقد أخبرَ سبحانه أنه هو الذي جعلَ أئمةَ الخير يدعون إلى الهدى وأئمةَ الشر يدعون إلى النار، فتلك الإمامةُ والدعوةُ بجَعْله، فهي مجعولةٌ له وفعلٌ لهم. قال تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[4] وقال عن

(١) سورة النحل، الآية /٨٠/.
(٢) سورة يس، الآية /٤١/.
(٣) سورة الصَّافات، الآيتان /٩٥ و٩٦).
(٤) سورة القصص، الآية /٤١/.

أئمة الهدى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[1] فأخبرَ أنهذاوهذابجَعْلهمع كونه كَسْباً وفِعلاً للائمة.

ونظيرُ ذلك قولُ الخليل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[2] فأخبرَ الخليلُ أنه سبحانه هو الذي يجعلُ المسلمَ مسلماً.

وعند القدريةِ هو الذي جعلَ نفسَه مسلماً، لا أنَّ الله جعلَه مسلماً، ولا جعلَه إماماً يَهْدِي بأمره، ولا جعلَ الآخرَ إماماً يدعو إلى النار على الحقيقة، بل هم الجاعلون لأنفسهم كذلك حقيقةً، ونسبة هذا الجعْل إلى الله مجاز بمعنى التسمية، أي سمَّنَا مسلمين لك،وكذلك:﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي سَمّيناهم كذلك. وهم جعلوا أنفسهم أئمةَ رُشدٍ وضلال، فمنهم الحقيقةُ ومنه المجازُ والتعبير.

فصل: ومِنْ ذلك إخبارُه سبحانه بأنه هو الذي يُلهم العبدَ فجورَه وتقواه. والإلهامُ: الإلقاءُ في القلب لا مجردُ البيان والتعليم، كما قاله طائفةٌ من المفسرين، إذْ لا يُقال لمن بيَّن لغيره شيئاً وعلّمه إياه إنه قد ألهمه ذلك، هذا لا يُعرف في اللغة البتة، بل الصوابُ ما قاله ابنُ زيد، قال: جَعَلَ فيها فجورَها وتقواها، وعليه حديثُ عمران بن حصين أن رجلاً من مُزينة أو جُهينة أتى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أرأيتَ ما يعملُ الناس فيه ويكدحون أشيءٌ قضي عليهم ومَضى عليهم مِن قدرٍ سابق أو فيما يِستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: بل شيء قُضي عليهم ومضى، قال: ففيم العملُ؟ قال: مَنْ خلقَه الله لإحدى المنزلتين استعملَه بعملِ أهلها، وتصديقُ ذلك في كتاب الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[3].

فقراءتُه هذه الآيةَ عقيبَ إخبارِه بتقديم القضاء والقدر السابق يدل على أن المراد بالإلهام استعمالُها فيما سبق لها لا مجردُ تعريفها، فإن التعريفَ والبيانَ لا يستلزمُ وقوعَ ما سبق به القضاءُ والقدرُ.

ومَنْ فسَّر الآية من السلف بالتعليم والتعريف فمرادُه تعريفٌ مستلزمٌ لحصول ذلك لا تعريفٌ مجردٌ عن الحصول، فإنه لا يُسمَّى إلهاماً، وبالله التوفيق.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية /٧٣/.

(٢) سورة البقرة، الآية /١٢٨/.

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم /٢٦٤٩/ في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، والآية من سورة الشمس ٧ و٨.

فصل: ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(1)، وذاتُ الصدورِ كلمةٌ لما يشتمل عليه الصدرُ من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض، أي صاحبةُ الصدور، فإنها لمّا كانت فيها قائمةً بها نُسبتْ إليها نسبةَ الصُّحبة والملازمة.

وقد اختُلفَ في إعراب «من خلق» هو النصبُ أو الرفع.

فإنْ كان مرفوعاً فهو استدلالٌ على علمه بذلك لخلقه له، والتقديرُ أنه يعلمُ ما تضمنته الصدورُ وكيف لا يعلم الخالقُ ما خَلقه. وهذا الاستدلالُ في غاية الظهور والصحة، فإن الخلقَ يستلزمُ حياةَ الخالق وقدرتَه وعلمَه ومشيئتَه.

وإنْ كان منصوباً فالمعنى: ألا يعلم مخلوقه، وذَكَرَ لفظَةَ «من» تغليباً ليتناولَ العلمَ العاقلَ وصفاته على التقديرين. فالآيةُ دالة على ما في الصدور كما هي دالة على علمه سبحانه به، وأيضاً فإنه سبحانه خلقه لما في الصدور دليلاً على علمه بها فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي كيف يخفى عليه ما في الصدور وهو الذي خَلَقه، فلو كان ذلك غيرَ مخلوقٍ له لَبطَلَ الاستدلال به على العلم، فخلقهُ سبحانه للشيء مِنْ أعظم الأدلة على علمه به، فإذا انتفَى الخلقُ انتفى دليلُ العلم، فلم يبقَ ما يدل على علمه بما ينطوي عليه الصدر إذا كان غيرَ خالق لذلك، وهذا مِن أعظم الكفر برب العالمين، وجَحْدٌ لما اتفقتْ عليه الرسلُ مِن أولهم إلى آخِرهم، وعلم بالضرورة أنهم ألقوه إلى الأمم كما ألقوا إليهم أنه إله واحد لا شريك له.

فصل: ومن ذلك قولُه تعالى حكايةً عن خليله إبراهيم أنه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾(2)،

وقولُه: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾(3).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾(4).

---

(1) سورة الملك، الآية /١٣/.
(2) سورة إبراهيم، الآية /٤٠/.
(3) سورة إبراهيم، الآية /٣٧/.
(4) سورة الحديد، الآية /٢٧/.

وقولُه حكايةً عن زكريا أنه قال عن ولده: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[1].

وقال في الطرف الآخر: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾[2].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[3].

وهذه الأكنةُ والوقْرُ هي شدةُ البغض والنفرةِ والإعراض التي لا يستطيعون معها سمعاً ولا عقْلاً. والتحقيقُ أن هذا ناشىء عن الأكِنّة والوقرِ، فهو مُوجبُ ذلك ومقتضاه. فمن فَسّر الأكنّةَ والوقرَ به فقد فسرهما بموجبهما ومقتضاهما، وبكل حال فتلك النفرةُ والإعراضُ والبغضُ من أفعالهم، وهي مجعولةٌ لله سبحانه، كما أن الرأفة والرحمةَ وميلَ الأفئدةِ إلى بيته هو مِن أفعالهم والله جاعلُه، فهو الجاعلُ للذوات وصفاتِها وأفعالِها وإرادتها واعتقاداتها، فذلك كلّه مجعولٌ مخلوقٌ له، وإنْ كان العبدُ فاعلاً له باختياره وإرادته. فإن قيلَ: هذا كلُّه معارَضٌ بقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[4].

والبحيرةُ والسائبة إنما صارت كذلك بجعل العبادِ لها، فأخبرَ سبحانه أن ذلك لم يكن بجعله، قيل: لا تعارضَ بحمد الله بين نصوص الكتاب بوجه ما، والجعلُ ههنا جعلٌ شرعي أمري، لا كوني قدري، فإنّ الجعلَ في كتاب الله ينقسم إلى هذين النوعين كما ينقسم إليهما الأمرُ والإذنُ والقضاء والكتابةُ والتحريم، كما سيأتي بيانه إن شاء الله. فنفى سبحانه عن البحيرة والسائبة جَعْلَه الدينيَّ الشرعيَّ، أي لم يشرعْ ذلك ولا أمرَ به، ولكنّ الذين كفروا افترَوْا عليه الكذبَ، وجعلوا ذلك ديناً له بلا علم.

ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[5] فأخبرَ سبحانه أن هذه الفتنةَ الحاصلةَ بما ألقى

---

(١) سورة مريم، الآية /٦/.
(٢) سورة المائدة، الآية /١٣/.
(٣) سورة الأنعام، الآية /٢٥/.
(٤) سورة المائدة، الآية /١٠٣/.
(٥) سورة الحج، الآية /٥٣/.

الشيطانُ هي بجعله سبحانه، وهذا جعلٌ كوني قدري.

ومِنْ هذا قولُه ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه: «اللهم اجعلني لك شكّاراً لك، ذكّاراً لك، رَهّاباً لك، مِطواعاً لك، مُخبتاً إليك أواهاً مُنيباً»[1].

فسأل ربَّه أن يجعلَه كذلك وهذه كلّها أفعالٌ اختيارية واقعة بإرادة العبد واختياره. وفي هذا الحديث: «وسدِّدْ لساني» وتسديدُ اللسان جَعْلُه ناطقاً بالسداد من القول.

ومثلُه قولُه في الحديث الآخر: «اللهم اجعلْني لك مخلصاً»[2].

ومثله قولُه: «اللهم اجعلْني أُعْظِم شكرَك وأُكْثر ذِكرك وأُتّبع نصيحتَك وأحفظُ وصيتَك»[3].

ومثلُه قولُ المؤمنين: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾[4]

فالصبرُ وثباتُ الأقدام فعلان اختياريان، ولكن التصبير والتثبيت فعلُ الربِّ تعالى، وهو المسؤولُ، والصبرُ والثباتُ فِعلُهم القائمُ بهم حقيقةً.

ومثله قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾[5]، وقال ابن عباس والمفسرون بَعْده: ألهمني. قال أبو

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣١٠) وابن حيان في صحيحه برقم /٢٤١٤/ موارد الظمآن، ورواه أيضاً الترمذي برقم /٣٥٤٦/ في الدعوات، باب من أدعية النبي ﷺ، وأبو داود برقم /١٥١٠/ في الصلاة باب يقول الرجل إذا سلم، وابن ماجة برقم /٣٨٣٠/ في الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ، وهو حديث صحيح الإسناد. وكلهم من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) جزء من حديث طويل رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٣٦٩)، وأبو داود برقم /١٥٠٨/ في الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم، وفي سند الحديث داود بن راشد الطفاوي، أبو بحر الكرماني وهو لين الحديث كما قال الحافظ في التقريب ص ١٩٨)، وفي مسنده أيضاً أبو مسلم البجلي لم يوثقه غير ابن حيان.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٣١١)، والترمذي برقم /٣٦٠١/ في الدعوات، باب من أدعية النبي ﷺ، وسند الحديث ضعيف بسبب الفرج بن فضالة في سنده، وهو ضعيف كما في التقريب ص ٤٤٤.

(٤) الآية /٢٥٠/ من سورة البقرة.

(٥) الآية /١٩/ من سورة النمل.

إسحاق: وتأويلُه في اللغة: كفَّني عن الأشياء إلا نفس شكر نعمتك.

ولهذا يُقال في تفسير الموزع المولع، ومنه الحديثُ: كان رسولُ الله ﷺ موزعاً بالسؤال أي مُولعاً به، كأنه كُفَّ ومُنِع إلا منه.

وقال في الصحاح: «وزعته أزعه وزعاً كففته» فانزع عنه أي كف، وأوزعتُه بالشيء أغريتُه به، فأوزع به فهو موزع به، واستوزعتُ الله شكرَه أوزعني، أي استهلمتُه فالهمني» فقد دار معنى اللفظةِ على معنى أَلهِمْني ذلك واجعلْني مُغرىً به وكُفّني عما سواه. وعند القدريةِ أن هذا غيرُ مقدورٍ للرب بل هو غيرُ مقدورِ العبد.

فصل: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[1] فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاءُ محبته في قلوبهم، وهذا لا يقدرُ عليه سواه،

وأما تحبيبُ العبد الشيء إلى غيره فإنما هو بتزيينه وذكر أوصافه وما يدعو إلى محبته. فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين: حبه وحسنه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وأن ذلك محضُ فضله ومنته عليهم، حيث لم يكلهم إلى أنفسهم بل تولَّى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده، فجاد عليهم به فضلاً منه ونعمة، والله عليمٌ بمواقع فضله ومن يصلح له ومن لا يصلح، حكيمٌ بجعله في مواضعه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2] ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[3].

---

(١) سورة الحجرات، الآية /٧/.

(٢) سورة الانفال، الآيتان، /٦٢ - ٦٣/.

(٣) سورة آل عمران، الآية/١٠٣/.

وتأليف القلوب جعل بعضها يألف بعضاً ويميلُ إليه ويحبه، وهو من أفعالها الاختيارية، وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره.

ومن ذلك قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾[1].

فأخبر سبحانه بفعلهم، وهو الهمُّ، وبفعله وهو كفّهم عما همّوا به.

ولا يصح أن يقال إنه سبحانه أشلَّ أيديهم وأماتهم وأنزل عليهم عذاباً حال بينهم وبين ما همُّوا به، بل كفَّ قدرهم وإرادتهم مع سلامة حواسهم وبنيتهم وصحة آلات الفعل منهم. وعند القدرية هذا محالٌ، بل هم الذين يكفون أنفسهم، والقرآن صريح في إبطال قولهم.

ومثله قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[2]. فهذا كفُّ أيدي الفريقين مع سلامتهما وصحتهما، وهو بأن حال بينهم وبين الفعل فكفَّ بعضهم عن بعض.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[3] والإيمان والطاعة من أجلِّ النعم بل هما أجل النعم على الإطلاق، فهما منهُ سبحانه تعليماً وإرشاداً وإلهاماً وتوفيقاً ومشيئةً وخلقاً.

ولا يصح أن يقال إنها أمراً وبياناً فقط، فإن ذلك حاصلٌ بالنسبة إلى الكفار والعصاة، فتكون منته على أكفر الخلق كنعمته على أهل الإيمان والطاعة والبرّ منهم، إذْ نعمة البيان والإرشاد مشتركة، وهذا قولُ القدرية وقد صرح به كثير منهم، ولم يجعلوا لله على العبد نعمة في مشيئته وخلْقهِ فعله وتوفيقه إياه حين فعله، وهذا من قولهم الذي باينوا به جميع الرسل والكتب، وطردوا ذلك حين لم يجعلوا لله على العبد منّةً في إعطائه الجزاء، بل قالوا ذلك محضُ حقه الذي لا منّة لله عليه فيه، واحتجوا بقوله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[4] قالوا أي غير ممنون به عليهم إذْ

---

(١) سورة المائدة، الآية/١١/.

(٢) سورة الفتح، الآية /٢٤/.

(٣) سورة النحل، الآية /٥٣/.

(٤) سورة الإنشقاق، الآية /٢٥/.

هو جزاءُ أعمالهم وأجورهـا، قالوا: والمنةُ تكـدرُ النعمة والعـطية، ولم يـدعوا هؤلاء للجهـل بالله مـوضعاً، وقـاسوا منّتـه على منّة المخلوق، فـإنهم مشبّهـةٌ في الأفعـال معطّلة في الصفات.

وليست المنةُ في الحقيقة إلا لله فهو المانّ بفضله، وأهل سمواته وأهل أرضه في محض منته عليهم .قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]،

وقال تعالى لكليمه موسى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾[2].

وقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾[3].

وقـال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[4].

ولما قال النبي ﷺ للأنصار: ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالـة فأغنـاكم الله بي، قالوا: الله ورسوله أمنُّ[5].

وقـال الرسـلُ لقومهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[6].

فمنّه سبحانه محضُ إحسانِـه وفضلِهِ ورحمتِهِ، ومـا طاب عيش أهـلِ الجنةِ فيهـا [إلا] بمنته عليهم، ولهذا قال أهلها وقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾[7].

---

(١) سورة الحجرات، الآية /١٧/.
(٢) سورة طه، الآية /٣٧/.
(٣) سورة الصّافات، الآية /١١٤/.
(٤) سورة القصص، الآية /٥/.
(٥) رواه البخاري (١٠٢/٥) في المغازي، باب غزوة الطائف، ومسلم برقم /١٠٦١/ في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام.
(٦) سورة إبراهيم، الآية /١١/.
(٧) سورة الطور، الآية /٢٦ و٢٧/.

فأخبروا لمعرفتهم بربهم وحقه عليهم أن نجاهم من عذاب السموم بمحض منته عليهم. وقد قال أعلم الخلق بالله وأحبهم إليه. وأقربهم منه وأطوعهم له: «لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل»[1].

وقال: «إن الله لو عذبَ أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم»[2]

والأول في الصحيح، والثاني في المسند والسنن، وصححه الحاكم وغيره: فأخبر سيدُ العاملين أنه لا يدخل الجنة بعمله.

---

(١) رواه البخاري (٧/١٠) في المرضى، باب تمني المريض الموت وفي الرقاق وباب القصد والمداومة على العمل. ومسلم برقم /٢٨١٦/ في صفات المنافقين، باب لن يدخل الجنة أحد بعمله. والنسائي (١٢١/٨) في الإيمان، باب الدين يسر. وعند الجميع من حديث أبي أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٢٥٣/١١) جواب ابن الجوزي رحمه الله في الجمع بين الحديث وقوله تعالى: ﴿وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ وذلك بأربعة أجوبة:

الأول: أن التوفيق للعمل من رحمة الله ولولا رحمة الله السابقة ما حصل الإيمان ولا الطاعة التي يحصل بها النجاة.

الثاني: إن منافع العبد لسيده، فعمله مستحق لمولاه، فمهما أنعم عليه من الجزاء فهو من فضله.

الثالث: جاء في بعض الأحاديث أن نفس دخول الجنة برحمة الله، واقتسام الدرجات بالأعمال.

الرابع: أن أعمال الطاعات كانت في زمن يسير، والثواب لا ينفد، فالانعام الذي لا ينفذ في جزاء ما ينفد بالفضل لا بمقابلة الأعمال. اهـ.

هذا وقد تكلم المؤلف رحمه الله بإسهاب حول هذا الحديث في كتاب مفتاح دار السعادة، وقد تم تخريج نصوصه والتعليق عليه من قبلي بفضل الله، وهو من منشورات مكتبة السوادي بجدة فليراجع.

(٢) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (١٨٥/٥) وأبو داود برقم /٤٦٩٩/ في السنة، باب القدر، وابن حبان في صحيحة برقم (١٨١٧/ كما في الموارد، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٨/٧) بطرق أخرى وقال: رواه الطبراني بإسنادين، ورجال ها الطريق ثقات، وصححه شيخنا الألباني في تخريج السنة برقم /٢٤٥/.

وقالت القدريةُ إنهم يدخلونها بأعمالهم لئلا يتكدر نعيمهم عليهم بمشيئة الله، بل يكون ذلك النعيم عوضاً. وما رمى السلفُ من الصحابة والتابعين ومن بعدهم القدرية عن قوسٍ واحدةٍ إلا لعظم بدعهم ومنافاتها لما بعث الله به أنبياءه ورسله، فلو أتى العبادُ بكلِ طاعة وكانت أنفاسهم كلها طاعاتٍ لله لكانوا في محض منته وفضله وكانت له المنة عليهم. وكلما عظمت طاعةُ العبد كانت منة الله عليه أعظم، فهو المانّ بفضله، فمن أنكر منته فقد أنكر إحسانه.

وأما قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(١) فلم يختلف أهلُ العلم بالله ورسوله وكتابه أن معناه «غيرُ مقطوع» ومنه ريبُ المنون، وهو الموت، لأنّه يقطعُ العمر.

فصل: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(٢) وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(٣).

وهذا الإغراء والإلقاء محضُ فعله سبحانه، والتعادي والتباغض أثره، وهو محضُ فعلهم، وأصلُ ضلال القدرية والجبرية مِنْ عدم اهتدائهم إلى الفرق بين فعله سبحانه وفعلِ العبد.

فالجبرية جعلوا التعادي والتباغض فعل الرب دون المتعادين والمتباغضين. والقدرية جعلوا ذلك محضَ فعلهم الذي لا صنع لله فيه ولا قدرة ولا مشيئة.

وأهل الصراط السويّ جعلوا ذلك فعلهم وهو أثرُ فعل الله وقدرته ومشيئته، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(٤) فالتسيير فعلُه، والسيرُ فعلُ العباد، وهو أثرُ التسيير. وكذلك الهدى والإضلال فعله، والاهتداءُ والضلال أثرُ فعله، وهما أفعالنا القائمة بنا، فهو الهادي، والعبدُ المهتدي، وهو الذي يضلُّ من يشاءُ، والعبدُ الضالُّ، وهذا حقيقةٌ، والطائفتان عن الصراط المستقيم ناكبتان.

---

(١) الآية /٢٥/ من سورة الإنشقاق.
(٢) الآية /١٤/ من سورة المائدة.
(٣) الآية /٦٤/ من سورة المائدة.
(٤) الآية /٢٢/ من سورة يونس.

فصل: ومن ذلك قوله تعالى عن خليله إبراهيم إنه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[1] فهاهنا أمران: تجنيب عبادتها واجتنابه، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم والتجنيب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

ونظيرُ ذلك قولُ يوسف الصديق: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2] وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن، وتلك أفعال اختيارية، وهو سبحانه الصارفُ لها، فالصرف فعله والانصراف أثرُ فعله وهو فعلُ النسوة.

ومن ذلك قوله سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[3] فالتثبيتُ فعله والثباتُ فعلُ رسوله، فهو سبحانه المثبتُ وعبدهُ الثابتُ.

ومثله قوله ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[4] فأخبر سبحانه أن تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين فعله، فإنه يفعلُ ما يشاء، وأما الثباتُ والضلالُ فمحض أفعالهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[5] فأخبر أنه هو الذي قسّى قلوبهم حتى صارت قاسية، فالقساوةُ وصفها وفعلُها، وهي أثرُ فعله وهو جعلها قاسية،

---

(١) الآية /٣٥/ من سورة إبراهيم.
(٢) الآية /٣٣/ من سورة يوسف.
(٣) الآية /٧٤/ من سورة الإسراء.
(٤) الآية /٢٧/ من سورة إبراهيم.
(٥) الآية /١٣/ من سورة المائدة.

وذلك أثرُ معاصيهم ونقضهم ميثاقهم وتركهم بعض ما ذُكروا به، فالآية مبطلة لقول القدرية والجبرية.

فصل: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾[1]

وهم إنما خرجوا باختيارهم، وقد أخبر أنه هو الذي أخرجهم، فالإخراج فعله حقيقةً، والخروج فعلهم حقيقةً، ولولا إخراجه لما خرجوا. وهذا بخلاف قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[2].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾[3].

وقوله: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾[4] فإن هذا إخراجٌ لا صنع لهم فيه، فإنه بغير اختيارهم وإرادتهم.

وأما قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾[5] فيحتمل أن يكون إخراجاً بقدره ومشيئته فيكون من الأول، ويحتمل أن يكون إخراجاً يوجبه بأمره فلا يكون من هذا. فيكونُ الإخراج في كتاب الله ثلاثة أنواعٍ:

أحدها: إخراج الخارج باختياره ومشيئته.

والثاني إخراجه قهراً أو كرهاً.

والثالثُ إخراجه أمراً وشرعاً.

فصل: وقد ظن طائفةٌ من الناس أنّ من هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَلَمْ

---

(١) سورة الشعراء، الآية /٥٧/.
(٢) سورة نوح، الآية /١٨/.
(٣) سورة الحشر، الآية /٢/.
(٤) سورة النحل، الآية /٧٨/.
(٥) سورة الأنفال، الآية /٥/.

﴿تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1]

وجعلوا ذلك من أدلتهم على القدرية، ولم يفهموا مراد الآية، وليست من هذا الباب، فإن هذا خطابٌ لهم في وقعة بدر حيث أنزل الله سبحانه ملائكته فقتلوا أعداءه، فلم يفْرَد المسلمون بقتلهم بل قتلتهم الملائكة، وأما رميُه ﷺ فمقدوره كان هو الحذف والإلقاء، وأما إيصال ما رمى به إلى وجوه العدو مع البعد وأيصال ذلك إلى وجوه جميعهم فلم يكن من فعله، ولكنه فعلُ الله وحده، فالرمي يُراد به الحذفُ والإيصال، فأثبت له الحذف بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ونفى عنه الإيصال بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾.

فصل: ومن ذلك قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[2] والضحكُ والبكاء فعلان اختياريان، فهو سبحانه المضحك المبكي حقيقةً، والعبدُ هو الضاحك الباكي حقيقة، وتأويلُ الآية بخلاف ذلك إخراجٌ للكلام عن ظاهره بغير موجب، ولا منافاة بين ما يذكر من تلك التأويلات وبين ظاهره، فإن إضحاك الأرض بالنبات وإبكاءَ السماء بالمطر، وإضحاك العبد وإبكاءه بخلق آلات الضحك والبكاء له، لا ينافي حقيقة اللفظ وموضوعه ومعناه من أنه جاعل الضحك والبكاء فيه، بل الجميعُ حق.

فصل: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[3] ورؤية البرق أمر واقع بإحساسهم، فالإرادة فعله والرؤية فعلنا، ولا يُقال إراءة البرق خلْقُه، فإن خلقه لا يسمّى إراءة ولا يستلزم رؤيتنا له، بل إراءتنا له جعْلنا نراه، وذلك فعلُه سبحانه.

ومن ذلك قولُ الخضِر لموسى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾[4] فبلوغُ الأشدّ ليس من فعلهما واستخراجُ الكنز من أفعالهما الاختيارية، وقد أخبر أن كليهما بإرادته سبحانه.

ومن ذلك قولهُ تعالى عن السحَرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ

---

(١) سورة الأنفال، الآية /١٧/.
(٢) سورة النجم، الآية /٤٣/.
(٣) سورة الرعد، الآية /١٢/.
(٤) سورة الكهف، الآية /٨٢/.

﴿اللَّهِ﴾(١) وليس إذنه هنا أمره وشرعه، بل قضاؤه وقدرُهُ ومشيئته، فهو إذاً كوني قدري لا ديني أمري.

فصل: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾(٢) وكلمة التقوى هي الكلمةالتي يُتقى اللهُ بها،وأعلى أنواع هذه الكلمة هي قولُ لا إله إلا الله، ثم كلّ كلمةٍ يُتقى اللهُ بها بعدها فهي من كلمة التقوى. وقد أخبرَ سبحانه أنه ألزمها عباده المؤمنين فجعلها لازمة لهم لا ينفكون عنها، فبإلزامه التزموها، ولولا إلزامه لهم إياها لما التزموها، والتزامها فعل اختياري تابع لإرادتهم واختيارهم فهو الملزم وهم الملتزمون.

فصل: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾(٣) وهدا تفسيرُ الهلوع، وهو شدةُ الحرص الذي يترتب عليه الجزع والمنع، فأخبر سبحانه أنه خلق الإنسان كذلك، وذلك صريح في أن هلعه مخلوق لله كما أن ذاته مخلوقة، فالإنسان بجملته ذاته وصفاته وأفعاله وأخلاقهِ مخلوق لله، ليس فيه شيءٌ خلق لله وشيء خُلق لغيره، بل الله خالقُ الإنسان بجملته وأحواله كلها، فالهلعُ فعله حقيقةً والله خالقٌ ذلك فيه حقيقةً، فليس الله سبحانه بهلوع ولا العبدُ هو الخالق لذلك.

فصل: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٤). وإذنه ها هنا قضاؤه وقدرُه لا مجردُ أمره وشرعه. كذلك قال السلفُ في تفسير هذه الآية، قال ابن المبارك عن الثوري: بقضاء الله.

وقال محمد بن جرير: يقول جل ذكره لنبيه: وما لنفس خَلقها من سبيل إلى أن تُصدقك إلا أن يأذن لها في ذلك، فلا تجهدن نفسك في طلب هداها وبلغها وعيد الله ثم خلّها فإن هداها بيد خالقها، وما قبل الآية وما بعدها لا يدل إلا على ذلك،

---

(١) سورة البقرة، الآية /١٠٢/.
(٢) سورة الفتح، الآية /٢٦/.
(٣) سورة المعارج، الآية /١٩/.
(٤) سورة يونس، الآية /١٠٠/.

فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾(١) [﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾] أي لا تكفي دعوتُك في حصول الإيمان حتى يأذن الله لمن دعوته أن يؤمن. ثم قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

قال ابن جرير: يقول تعالى: يا محمد قل لهؤلاء السائلينك الآياتِ على صحة ما تدعو إليه من توحيد الله وخلْعِ الأنداد والأوثان: انظروا أيها القومُ ماذا في السموات من الآيات الدالة على حقِّية ما أدعوكم إليه من توحيدِ الله، من شمسِها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها، وفي الأرض من جبالها وتصدّعها بنباتها وأقْواتِ أهلها وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إنْ عقلتم وتدبرتم عظةً ومُعتبراً ودلالةً على أن ذلك من فعل من لا يجوزُ أن يكون له في ملكه شريك؛ ولا له على حفظه وتدبيره ظهير، يُغنيكم عما سواها من الآيات وما يُغني عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء وقُضي عليهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار، فهم لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدقون به ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم.

فصل: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾(٣)

قال ابن جرير، وكلّ إنسان ألزمناه ما قضى له أنه عامله، وما هو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه. وهذا ما قاله الناسُ في الآية، وهو ما طار له من الشقاء والسعادة، وما طار عنه من العمل. ثم ذكر عن ابن عباس قال: ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾: عمله، وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان وزائلٌ معه أينما زال. وكذلك قال ابن جريج وقتادة ومجاهد هو عمله، زاد مجاهد: وما كُتب له، وقال قتادة أيضاً: سعادتُه وشقاوته بعمله.

قال ابن جرير: فإنْ قال قائل: فكيف قال ألزمناه طائره في عنقه، إن كان الأمر

---

(١) سورة يونس، الآية /١٠٠/. والمثبت (وما هم بضارين به من أحد...) سورة البقرة
(٢) سورة يونس، الآية /١٠١/.
(٣) سورة الإسراء، الآية /١٣/.

على ما وصفت، ولم يقل في يديه أو رجليه أو غير ذلك من أعضاء الجسد؟ قيل إن العنقَ هي موضعُ السمات وموضع القلائد والأطوقة وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلامُ العرب بنسبة الأشياء اللازمة سائرَ الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد فقالوا: ذلك بما كسبتْ يداه وإن كان الذي جرَّه عليه لسانُه أو فرجه، فكذلك قوله: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾[1].

وقال الفرّاء: الطائرُ معناه عندهم العملُ، قال الأزهري: والأصلُ في هذا أن الله سبحانه لَمَّا خَلَقَ آدمَ علم المطيعَ من ذريته والعاصيَ فكتب ما علِمَتْه منهم أجمعين، وقضى بسعادة من علمه مطيعاً وشقاوة من علمه عاصياً، فطار لكلّ ما هو صائر إليه عند خلْقه وإنائه.

وأما قوله: ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ فقال أبو إسحاق: إنما يقال للشيء اللازم هذا في عنق فلان، أي لزومُه له كلزوم القلادة من بين ما يُلبسُ في العنق. قال أبو علي: هذا مَثلُ قولهم طوقتك كذا وقلّدتك كذا، أي صرفته نحوك وألزمتك إياه، ومنه قلّده السلطانُ كذا، أي صارت الولايات في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق.

وقيل: إنما خُصّ العنقُ لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيراً أو شراً، وذلك مما يزين أو يشين كالحلي والغُل فأضيف إلى الأعناق.

قالت القدريةُ: إلزامهُ ذلك وسْمُه به وتعليمُهُ بعلامةٍ يعرف الملائكة [بها] أنه سعيد أو شقي والخبر عنه لا أنه ألزمه العملَ فجعله لازماً له.

قال أهل السنة: هذه طريقةٌ لكم معروفةٌ في تحريف الكلم عن مواضعه، سلكتموها في الجسم والطبع والعقل، وهذا لا يعرفه أهلُ اللغة، وهو خلافُ حقيقة اللفظ وما فسره به أعلم الأمة بالقرآن، ولا يُعرف ما قلتموه عن أحد من سلف الأمة البتة، ولا فسَّرَ الآية غيرُكم به، ولا يصحّ حملُ الآية عليه فإن الخبرَ عنه بذلك والعلامة أعلم بها إنما حصل بعد طائره اللازمِ له من عمله، فلما لزمه ذلك الطائرُ ولم ينفك عنه أخبرَ عنه بذلك وصارت عليه علامةً وسمةً، ونحن قد أريناكم أقوالَ أئمة الهدى وسلفِ الأمة في الطائر فأرونا قولكم عن واحد منهم قاله قبلكم. وكلٍّ طائفة من أهل البدع تجر القرآن إلى بدعها وضلالها وتفسره بمذاهبها وآرائها والقرآنُ بريء من ذلك، وبالله التوفيق.

---

(١) راجع أقوال ابن جرير في جامع البيان مج ٩ جـ ١٥ ص ٥١.

فصل: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾[1].

وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين هذا أحدهما، والثاني في سورة الشعراء في قوله: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾[2].

قال ابن عباس: سلك الشركَ في قلوب المكذبين كما سلك الخرزة في الخيط. وقاله أبو إسحاق: أي كما فعلَ بالمجرمين الذين استهزؤوا بمن تقدم من الرسل كذلك سلكَ الضلالَ في قلوب المجرمين.

واختلفوا في مفسِّر الضمير في قوله ﴿نَسْلُكُهُ﴾[3] فقال ابن عباس: سلكنا الشرك، وهو قولُ الحسن، وقال الزجاجُ وغيره: هو الضلالُ، وقال الربيع: يعني الاستهزاء، وقال الفراء: التكذيبُ. وهذه الأقوال ترجعُ إلى شيء واحد، والتكذيبُ والاستهزاء والشرك كلُّ ذلك فِعلُهم حقيقةً. وقد أخبرَ أنهُ سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم[3].

وعندي في هذه الأقوال شيء، فإن الظاهر أن الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ هو الضمير في قوله: ﴿سَلَكْنَاهُ﴾، فلا يصح أن يكون المعنى لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء، فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسِّر الضميرين، والظاهرُ اتحادُه، فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم، وهو القرآن.

فإنْ قيل: فما معنى سلكه إياه في قلوبهم وهم ينكرونه؟ قيل: سلكه في قلوبهم بهذه الحال، أي سلكناه غيرَ مؤمنين به فدخل في قلوبهم مكذَّباً به كما دخل في قلوب المؤمنين مصدَّقاً به، وهذا مُراد مَن قال إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيبُ والضلالُ، ولكن فسّر الآية بالمعنى، فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم.

---

(١) سورة الحجر، الآيات /١١ و١٢ و١٣/.

(٢) سورة الشعراء، الآيات /١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠ و ٢٠١.

(٣) راجع الأقوال عند الطبري في جامع البيان (١٤/٩) والدر المنثور للسيوطي (٥/٦٧).

فـإن قيل فمـا معنى إدخالـه في قلوبهم وهم لا يؤمنون بـه؟، قيل: لتقـوم عليهم بذلك حجةُ الله فدخلَ في قلوبهم وعلموا أنه حق وكذّبـوا به فلم يـدخلْ في قلوبهم دخول مصدَّق به مؤمن به مرضيّ به، وتكذيبهم به بعدَ دخوله في قلوبهم أعظمُ كفراً مِن تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم، فإن المكذِّبَ بالحق بعـد معرفتـه له شـرٌّ من المكذّب به ولـم يعرفه. فتأمله فإنه مِن فقه التفسير، والله الموفق للصواب.

فصل: ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾[1]

فـالإرسالُ هـا هنا إرسـال كوني قـدري، كإرسـال الريـاح، وليس بـإرسـال دينيٍ شـرعي، فهو إرسـالُ تسليطٍ بخلاف قـوله في المؤمنين: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾[2].

فهذا السلطانُ المنفى عنه على المؤمنين هو الذي أرسل به جندَه على الكافرين.

قال أبو أسحـاق: ومعنى الإرسال ههنـا التسليط، تقول: قـد أرسلت فلانـاً على فلان، إذا سلطته عليه، كما قال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَـاوِينَ ﴾[3]

فـاعلم أن مَن اتبعه هـو مسلّط عليـه. قلتُ: ويشهـدُ لـه قـولُـه تعـالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[4] وقولُـه: ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾.

فالأزُّ في اللغة التحريكُ والتهييج، ومنه يقال لغليان القـدر الأزيزُ، لتحـركِ الماء عند الغليان، وفي الحديث: كان لصدر رسول الله ﷺ أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء[5].

---

(١) الآية /٨٣/ من سورة مريم.
(٢) الآية /٤٢/ من سورة الحجر.
(٣) الآية /٤٢/ من سورة الحجر.
(٤) الآية /١٠٠/ من سورة النحل.
(٥) رواه الإمـام أحمـد في المسنـد (٤/٢٥ و٢٦) وأبو داود بـرقم /٩٠٤/ في الصـلاة، بـاب البكاء في الصلاة، والنسائي (١٣/٣) في السهو، باب البكاء في الصلاة، وعند الجميع من حديث مطرف بن عبـدالله بن الشخير عن أبيـه قال: رأيت رسـول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. وهو حديث صحيح.

وعبارات السلف تدورُ على هـذا المعنى، قال ابن عبـاس: تُغريهم إغـراءً، وفي روايةٍ أخرى عنه، تسلّهم سلاً، وفي رواية أخرى: تحرّضهم تحريضاً، وفي أخرى: تـزعجهم للمعاصي إزعـاجاً، وفي أخـرى: توقـدهم إيقاداً، أي كمـا يتحرك المـاء بالوَقْد تحتَه.

قال أبو عبيـدةَ: الأزيزُ الإلهـابُ والحركـةُ كالتهـاب النار في الحـطب، يقال: إز قدرَك أي ألهبْ تحتَها النارَ: وائتزت القِدرُ إذا اشتدّ غليانُها، وهذا اختيارُ الأخفش. والتحقيقُ أن اللفظة تَجمعُ المعنيين جميعاً.

قالت القدريةُ: معنى ﴿ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ خلّينا بينهم وبينهـا ليس معناه التسليط. قال أبو علي: الإرسال يُستعمل بمعنى التخلية بين المرسل وما يـريد، فمعنى الآيـة خلّينـا بين الشياطين وبين الكـافـرين، لم يمنعهم مِنهم، ولم يعـدَّهم بخلاف المؤمنين الـذين قيل فيهم: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان. قـال الـواحدي: وإلى هـذا الوجـه يذهبُ القـدَرية في معنى الآيـة، قال: وليس المعنى على مـا ذهبوا إليـه. وقال أبـو إسحاق: والمختـارُ أنهم أرسلوا عليهم، وقيّضوا لهم بكفرهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[1] وقال: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾[2] وإنما معنى الإرسال التسليطُ.

قلت: وهذا هو المفهومُ من معنى الإرسال كمـا في الحديث (إذا أرسلتَ كلبـك المعْلَم[3] ـ أي سلّطته ـ ولو خُلّي بينه وبين الصيد مِن غير إرسال منه لم يبحْ صيدهُ).

وكذلك قولُه: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾[4] أي سلطنـاها وسخرناها عليهم. وكذلك قولُه: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾[5].

---

(١) الآية /٣٦/ من سورة الزخرف.
(٢) الآية /٢٥/ من سورة فُصلت.
(٣) أول حديث طويل، رواه البخاري (٢١٧/٦) في الذبائح والصيد في فـاتحته، ومسلم بـرقم /١٩٢٩/ في الصيد، باب الصيد بالكلاب المعلمة» وأبـو داود برقم /٢٨٤٧/ في الصيـد، باب في اتخاذ الكلب للصيد، والترمذي برقم /١٤٦٥/ في الصيد، باب ما يؤكل من صيـد الكلب وما لا يؤكل، والنسائي (١٧٩/٧) في الصيد، باب الأمر بالتسمية عند الصيد.
(٤) الآية /٤١/ من سورة الذاريات.
(٥) الآية /٣/ من سورة الفيل.

وكذلك قوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾[1]. والتخلية بين المرسل وبين ما أرسِلَ عليه مِن لوازمِ هذا المعنى، ولا يتم التسليطُ إلا به فإذا أرسل الشيء الذي من طبعه وشأنه أن تفعل فعلاً ولم تمنعه من فعله فهذا هو التسليط.

ثم إن القدريةَ تناقضوا في هذا القول، فإنهم إنْ جَوَّزوا منعَهم منهم وعِصمتهم وإعادتَهم فقد نقضوا أصلَهم، فإنَّ منعَ المختارِ مِن فِعله الاختياري مع سلامةِ النية وصحةِ بنيته يدل على أن فِعله وتركَه مقدورٌ للرب، وهذا عينُ قولِ أهل السنة. وإن قالوا: لا يقدرُ على منعهم وعِصْمتهم منهم وإعادتهم فقد جعلوا قدرتها ومشيئتها بفعل ما لا يقدرُ الربُّ على المنعِ منه، وهذا أبطل الباطل.

ثم قال القدريةُ: ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾[2] تأمرُهم بالمعاصي أمراً، وحكوا ذلك عن الضحاك، وهذا لا يُلتفتُ إليه، إذْ لا يقال لمن أمرَ غيرَه بشيء قد أزَّه، ولا تساعدُ اللغةُ على ذلك، ولو كان ذلك صحيحاً لكان يؤزّ المؤمنين أيضاً، فإنه يأمرُهم بالمعاصي أكثرَ مِن أمر الكافرين فإن الكافرَ سريعُ الطاعة والقبول من الشيطان فلا يحتاجُ مِن أمره ما يحتاجُ إليه مِن أمر المؤمنين، بل يأمر الكافر مرةً ويأمر المؤمن مراتٍ، فلو كان الأزُّ الأمرَ لم يكن له اختصاص بالكافرين.

فصل: ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾[3]،

وقوله: ﴿ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾[4]

وقولُه: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[5].

ومن المعلوم أن الإعاذة من الشيطان الرجيم ليست بإماتته ولا تعطيل آلات كيده، وإنما هي بأن يعصم المستعيذ من أذاه له ويحولَ بينه وبين فِعله الاختياري

(١) الآية /٣١/ من سورة القمر.
(٢) الآية /٨٣/ من سورة مريم.
(٣) سورة الناس كاملة /١ ـ ٦/.
(٤) سورة المؤمنون، الآية /٩٧ و٩٨/.
(٥) سورة النحل، الآية /٩٨/.

له، فدلَّ على أن فعله مقدورٌ له سبحـانه إن شـاء سلّطه على العبد، وإن شـاء حال بينه وبينه.

وهـذا على أصول القـدرية بـاطلٌ، فـلا يثبتون حقيقـة الإعاذةِ وإنْ أثبتـوا حقيقـة الاستعاذة من العبد، وجعلوا الآية رداً على الجبرية، والجبريـة أثبتوا حقيقـة الإعاذة ولم يثبتوا حقيقةَ الاستعاذة من العبد، بل الاستعاذة فِعلُ الرب حقيقةً كما أن الإعاذةَ فِعله. وقد ضلَّ الطائفتان عن الصراط المستقيم وأصابت كلُّ طائفةٍ منهما فيما أثبتته من الحق.

فصل: ومن ذلك قـوله تعـالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾[1]، وقـول هودٍ: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾[2].

ومعلومٌ أن الصبرَ والتوفيقَ فِعلٌ اختياري للعبد، وقد أخبرَ أنه به لا بالعبـد، وهذا لا ينبغي أن يكون فِعلاً للعبـد حقيقةً ولهـذا أمر بـه، وهو لا يـأمرُ عبـدَه بفعل نفسِـه سبحانه وإنما يُؤمر العبدُ بفعله هو، ومع هذا فليس فِعلُه واقعاً به وإنمـا هو بـالخالق لكـل شيء، الذي مـا شاء كـان وما لم يشـأ لم يكن، فالتصبيـرُ منه سبحـانه، وهـو فِعله، والصبرُ هو القائمُ بالعبد وهو فعلُ العبد، ولهذا أثنى على مَن يسأله أن يُصبره فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[3] ففي الآية أربعةُ أدلةٍ.

أحدُها قولهم: ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ والصبرُ فعلهم الاختياري، فسألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.

الثـاني :قولهم :﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾،وثبـاتُ الأقـدام فِعـلٌ اختيـاري ،ولكن التثبيتَ فعلُه والثباتُ فعلهم، ولا سبيلَ إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم :﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾فسألوه النصرَ وذلك بأن يُقوي عـزائمهم ويشجعهم ويصبّـرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعـدائهم الخـورَ والخـوفَ والرعبَ فيحصلَ النصرُ، وأيضاً فـإن كونَ الإنسـان منصوراً على غيـره إما أن يكـون

---

(١) سورة النحل، الآية /١٢٧/.

(٢) سورة هود، الآية /٨٨/.

(٣) سورة البقرة، الآية / ٢٥٠ و٢٥١/.

بأفعال الجوارح وهو واقعٌ بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم وذلك أيضاً فِعلُ العبد. وقد أخبرَ سبحانه أن النصرَ بجملته من عنده، وأثنى على من طلبه منه. وعند القدرية لا يدخلُ تحت مقدور الرب.

الرابع: قولُه: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وإذنُه ها هنا هو الإذنُ الكوني القدَري، أي بمشيئته وقضائه وقدره، ليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر، فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة، بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني فإن المأمورَ المكونَ لا يتخلف عنه البتة.

فصل: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[1]

وفي الآية ردٌّ ظاهرٌ على الطائفتين وإبطالٌ لقولهما، فإنه سبحانه أغفلَ قلبَ العبد عن ذِكره فغفلَ هو، فالإغفالُ فِعل الله والغفلةُ فعلُ العبد. ثم أخبرَ عن اتباعه هواه، وذلك فِعلُ العبد حقيقةً.

والقدريةُ تحرّفُ هذا النصَّ وأمثالَه بالتسمية والعلم، فيقولون: معنى ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ سميناه غافلاً أو وجدناه غافلاً، أي عَلمناه كذلك. وهذا مِن تحريفهم، بل أغفلته مثلُ أقمتُه وأقعدتُه وأغنيتُه وأفقرتُه، أي جعلته كذلك، وأما أفعلتُه أو أوجدتُه كذلك كأحمدتُه وأجبنته وأبخلتُه وأعجزتُه فلا يقعُ في أفعال الله البتة، إنما يقعُ في أفعال العاجز أن يجعلَ جباناً وبخيلاً وعاجزاً فيكونَ معناه صادفْته كذلك. وهل يخطرُ بقلب الداعي: اللهم أقدرني أو أوزعني وألهمني أي سمِّني وأعلمني كذلك؟، وهل هذا إلا كذبٌ عليه وعلى المدعوّ سبحانه؟.

والعقلاء يعلمون عِلماً ضرورياً أن الداعي إنما سأل الله أن يخلقَ له ذلك ويشاءه له ويقدِّره عليه، حتى القدريُّ إذا غابت عنه بدعته وما تقلده عن أشياخه وأسلافه وبقي وفطرتَه لم يخطرْ بقلبه سوى ذلك.

وأيضاً فلا يمكنُ أن يكونَ العبدُ هو المغْفِلَ لنفسه عن الشيء، فإن إغفالَه لنفسه عنه مشروطٌ بشعوره به، وذلك مضادٌ لغفلته عنه، بخلاف إغفال الرب تعالى له فإنه لا يضاد علمَه بما يُغفلُ عنه العبدَ، وبخلاف غفلةِ العبد فإنها لا تكونُ إلا مع عدم

---

(١) الآية /٢٨/ من سورة الكهف.

شعوره بالمغفول عنه، وهذا ظاهرٌ جداً، فثبتَ أن الإغفالَ فِعل الله بعبده، والغفلة فِعلُ العبد.

فصل: ومن ذلك قولُه تعالى إخباراً عن نبيه شعيب أنه قال لقومه: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾(١)

وهذا يبطلُ تأويلَ القدريةِ المشيئةَ في مثل ذلك بمعنى الأمر، فقد علمتَ أنه من الممتنع على الله أن يأمرَ بالدخول في مِلّة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيئته التي يضلُّ بها مَن يشاء ويهدي من يشاء.

ثم قال شعيب: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾(٢)، فرد الأمرَ إلى مشيئته وعلمه، فإن له سبحانه في خَلْقه علماً محيطاً، ومشيئتُه نافذةٌ وراء ما يعلمه الخلائق، فامتناعُنا من العَوْد فيها هو مَبْلغُ علومِنا ومشيئتنا، ولله علمٌ آخرُ ومشيئة أخرى وراء علومنا ومشيئتنا، فلذلك رد اومر إليه. ومثله قولُ إبراهيم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾(٣)،

فأعادت الرسلُ بكمال معرفتها بالله أمورَها إلى مشيئة الرب وعلمه، ولهذا أمرَ الله رسولَه أن لا يقول لشيء إنه فاعلُه حتى يَستثني بمشيئة الله، فإنه إن شاء فعله وإن شاء لم يفعله، وقد تقدم تقريرُ هذا المعنى.

وبالجملة فكلُّ دليلٍ في القرآن على التوحيد فهو دليلٌ على القدر وخَلْق أفعال العباد، ولهذا كان إثباتُ القدر أساسَ التوحيد.

قال ابن عباس: الإيمانُ بالقدر نظامُ التوحيد منْ كذَّب بالقدر نقضَ تكذيبُه توحيدَه(٤).

---

(١) الآية /٨٩/ من سورة الأعراف.

(٢) الآية /٨٩/ من سورة الأعراف.

(٣) الآية /٨٠/ من سورة الأنعام.

(٤) هذا الأثر سنده ضعيف، فيه جهالة الراوي عن ابن عباس. والأثر رواه عبد الله بن أحمد في السنة (ص ١٢٣ و١٢٤)، والأجري في الشريعة ص ٢١٥، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٧/٧) وقال: رواه الطبراني في اووسط وفي سنده هاني بن المتوكل وهو ضعيف، ويبدو أن هذا سند آخر.

البَابُ الرّابع عَشر

في الهدى والضلالِ ومراتِبهما والمقدور مِنهما للخَلْق وغيرِ المقدور لهم

هذا المذهبُ هو قلبُ أبوابِ القدر ومسائله، فإنَ أفضلَ ما يقدرُ الله لعبده وأجلُّ ما يَقْسِمه له الهدى، وأعظمُ ما يبتليه به ويُقْدره عليه الضلالُ، وكلُّ نعمةٍ دون نعمة الهدى، وكلُّ مصيبةٍ دون مصيبة الضلال.

وقد اتفقتْ رسلُ الله مِن أولهم إلى آخرِهم وكتُبه المنزلةُ عليهم على أنه سبحانه يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه مَنْ يهدِه الله فلا مُضلّ له ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأن الهدى والإضلالَ بيده لا بيد العبد، وأن العبدَ هو الضال أو المهتدي، فالهدايةُ والإضلالُ فِعلُه سبحانه وقَدرُه، والاهتداءُ والضلالُ فِعلُ العبدِ وكَسْبه، ولا بدّ قبل الخوض في تقرير ذلك مِن ذِكر مراتب الهدى والضلال في القرآن.

فأما مراتبُ الهدى فأربعةٌ:[1]

إحداها: الهدى العام، وهو هدايةُ كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها، وهذا أعمّ مراتبه.

المرتبة الثانية: الهدى بمعنى البيان والدلالةِ والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في مَعاده، وهذا خاص بالمكلّفين، وهذه المرتبةُ أخصّ من المرتبة الأولى وأعمّ من الثالثة.

(١) لم يذكر المؤلف رحمه الله سوى ثلاث مراتب.

المرتبة الثالثةُ: الهدايةُ المستلزِمةُ للاهتداء، وهي هدايةُ التوفيق، ومشيئةُ الله لعبده الهدايةَ، وخلقُه دواعي الهدى، وإرادتهُ والقدرةُ يومَ المعاد إلى طريق الجنة والنار.

فصل: فأما المرتبةُ الأولى: فقد قال سبحانه: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[1].

فذكر سبحانه أربعةَ أمور عامة: الخْلقَ والتسويةَ والتقديرَ والهدايةَ، وجَعَل التسويةَ مِن تمام الخلق، والهدايةَ من تمام التقدير.

قال عطاء: خَلَق فسوَّى، أحسنَ ما خَلَقه، وشاهِدُه قولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[2].

فإحسانُ خلْقِه يتضمنُ تسويتَه وتناسبَ خَلْقه وأجزائه بحيث لم يحصلْ بينها تفاوتٌ يخلّ بالتناسب والاعتدال. فالخلقُ الإيجادُ، والتسويةُ إتقانه وأحسانُ خَلْقه.

وقال الكلبي: خَلَقَ كلَّ ذي روح فجمعَ خَلْقه وسوّاه باليدين والعينين والرجلين.

وقال مقاتل: خَلَق لكل دابة ما يصلحُ لها من الخلْق.

وقال أبو إسحاق: خَلق الإنسانَ مستوياً، وهذا تمثيلٌ، وإلا فالخلق والتسويةُ شامل للإنسان وغيره، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾[3]، وقال: ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾[4]. فالتسويةُ شاملةٌ لجميع مخلوقاته: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[5].

وما يوجدُ مِن التفاوت وعدم التسوية فهو راجعٌ إلى عدم إعطاء التسوية للمخلوق، فإن التسويةَ أمرٌ وجودي، تتعلقُ بالتأثير والإبداع، فما عُدِمَ منها فالعدم بإرادة الخالق للتسوية، وذلك أمرٌ عَدَمي يكفي فيه عدمُ الإبداع والتأثير، فتأملْ ذلك

---

(١) الآيات /١ ـ ٣/ من سورة الأعلى.
(٢) الآية /٧/ من سورة السجدة.
(٣) الآية /٧/ من سورة الشمس.
(٤) الآية /٢٩/ من سورة البقرة.
(٥) الآية /٣/ من سورة الملك.

فإنه يزيلُ عنك الإشكال في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾.

فالتفاوت حاصلٌ بسبب عدم مشيئة التسوية، كما أن الجهل والصممَ والعَمَى والخَرَس والبَكم يكفي فيها عدمُ مشيئة خَلْقها وإيجادها.

وتمامُ هذا يأتي إن شاء الله في باب دخول الشر في القضاء عند قول النبي ﷺ: «والشرُّ ليس إليك»[1]

والمقصودُ أن كلَّ مخلوقٍ فقد سوّاه خالقُه سبحانه في مرتبةِ خَلْقه، وإنْ فاتته التسويةُ مِن وجهٍ آخرَ لم يخْلق له.

فصل: وأما التقديرُ والهدايةُ فقال مقاتل: قَدَّرَ خَلْق الذَّكر والأنثى فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها. وقال ابن عباس والكلبي وكذلك قال عطاء: قَدَّرَ مِن النسل ما أراد ثم هَدَى الذكر للأنثى. واختار هذا القولَ صاحبُ النظم فقال: معنى «هدى» هدايةُ الذَّكر لإتيان الأنثى كيف يأتيها، لأن إتيانَ ذُكران الحيوان لإناثه مختلفٌ لاختلاف الصور والخلْق والهيئات، فلولا أنه سبحانه جَبَلَ كلَّ ذكر على معرفة كيف يأتي أنثى جِنْسه لما اهتدى لذلك. وقال مقاتل أيضاً: هداه لمعيشته ومَرعاه. وقال السّدي: قَدَّرَ مدةَ الجنين في الرحم ثم هداه للخروج. وقال مجاهد هَدَى الإنسانَ لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة وقال الفرّاء: التقديرُ فهدَى وأضلّ، فاكتفى مِن ذِكر أحدِهما بالآخر[2].

قلتُ: الآيةُ أعمُّ مِن هذا كله وأضعفُ الأقوال فيها قول الفراء، إذ المرادُ ها هنا الهدايةُ العامةُ لمصالح الحيوان في معاشه، ليس المرادُ هدايةَ الإيمانِ والضلال بمشيئته، وهو نظيرُ قوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3]، فإعطاءُ الخلْقِ إيجادُه في الخارج، والهدايةُ التعليمُ والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويُقيمه.

---

(1) جزء من حديث صحيح في دعاء الاستفتاح، وقد رواه الإمام مسلم برقم /٧٧١/ في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، والترمذي برقم /٣٤١٧/ في الدعوات، باب دعاء في أول الصلاة، والنسائي (٣/ ١٣٠) في الافتتاح، باب نوع آخر من الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة.

(2) راجع الأقوال في جامع البيان للطبري (١٥٢/٣٠).

(3) سورة طه الآية /٥٠/.

وما ذكر مجاهدٌ فهو تمثيلٌ منه لا تفسيرٌ مطابق للآية، فإن الآية شاملة لهداية الحيوان كله ناطقِه وبهيمِه، وطيرِه ودوابِه، فصيحِهِ وأعجمِهِ.

وكذلك قولُ من قال إنه هدايةُ الذكر لإتيان الأنثى تمثيلٌ أيضاً، وهو فردٌ واحدٌ مِن أفراد الهداية التي لا يحصيها إلا الله.

وكذلك قولُ مَن قال هَداه للمرعى. فإن ذلك مِن الهداية إلى التِقام الثدي عند خروجه مِن بطن أمه، والهداية إلى معرفته أمَّه دون غيرها حتى يتبعها أين ذهبتْ، والهدايَة إلى قصد ما ينفعُه مِن المرعى دون ما يضرّه منه، وهداية الطير والوحش والدواب إلى الأفعال العجيبة التي يعجزُ عنها الإنسان، كهداية النحل إلى سلوك السبل التي فيها مراعيها على تباينها، ثم عَوْدِها إلى بيوتها من الشجر والجبال وما يغرسُ بنو آدم.

وأمرُ النحل في هدايتها مِن أعجب العجب، وذلك أنّ لها أميراً ومدبراً وهو اليعسوبُ وهو أكبر جسماً من جميع النحل، وأحسنُ لوناً وشكلاً.

وإناثُ النحل تلدُ في إقبال الربيع، وأكثر أولادها يكنّ إناثاً، وإذا وقعَ فيها ذكرٌ لم تدعه بينها، بل إما أن تطرده وإما أن تقتله، إلا طائفة يسيرةً منها تكون حولَ الملك، وذلك أن الذكورَ منها لا تعمل شيئاً ولا تكسبُ.

ثم تجمعُ الأمهاتِ وفراخها عند الملك فيخرج بها إلى المرعى من المروج والرياض والبساتين والمراتع في أقصر الطرق وأقربها، فتجتني منها كفايتها فيرجعُ بها الملك،

فإذا انتهوا إلى الخلايات وقفَ على بابها ولم يدعْ ذكراً ولا نحلةً غريبة تدخلها.

فإذا تكامل دخولُها دخلَ بعدها وتواجدت النحلُ مقاعدَها وأماكنها، فيبتدىء الملكُ بالعمل كأنه يعلّمها إياه، فيأخذ النحلُ في العمل ويتسارعُ إليه، ويتركُ الملكُ العملَ ويجلس ناحيةً بحيث يشاهدُ النحلَ، فيأخذُ النحلُ في إيجاد الشمع من لزوجات الأوراق والأنوار.

ثم تقتسمُ النحلُ فرقاً، فمنها فرقةٌ تلزم الملك ولا تفارقه ولا تعمل ولا تكسب، وهم حاشيةُ الملكِ من الذكورة، ومنها فرقة تهيءُ الشمع وتصنعه، والشمعُ هو ثقلُ العسلِ وفيه حلاوة كحلاوة التين.

وللنحل فيه عنايةٌ شديدةٌ فوق عنايتها بالعسـل، فينظفُـه النحلُ ويصفيـه ويخلّصه من أبوالها وغيـرها، وفـرقةٌ تبني البيـوت، وفرقـةٌ تسقي الماء وتحمله على متـونها، وفـرقةٌ تكنسُ الخـلايا وتنـظفها من الأوسـاخ والجيفِ والزبـل، وإذا رأت بينها نحلة مهينـة بطالـة قطعتهـا وقتلتها حتى لا تفسـد عليهن بقية العمـال وتعـديهنّ ببـطالتهـا ومهانتها.

وأول مـا يبنى في الخلية مقعـدُ الملكِ وبيتُه، فيبنى لـه بيتاً مـربعاً يشبـه السريـرَ والتختَ، فيجلسُ عليـه ويستديـرُ حولـه طـائفـة من النحـلِ يشبـه الأمـراءَ والخـدمَ والخواصّ لا يفارقنه، ويجعلُ النحـلُ بين يديـه شيئاً يشبـه الحوض يصب فيـه من العسل أصفى ما يقدر عليه ويملأ منه الحوض يكون ذلك طعاماً للملك وخواصّه.

ثم يأخذن في ابتنـاء البيوت على خـطوط متساويـة كأنهـا سككٌ ومحـالٌ، وتبني بيـوتها مسـدسة متسـاوية الأضـلاع كأنهـا قـرأت كتـابَ إقليـدس حتى عـرفتْ أوفق الأشكال لبيوتها، لأن المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسَّعةُ.

والشكلُ المسدسُ دون سائر الأشكال إذا انضمتْ بعضُ أشكالـه إلى بعض صار شكلاً مستديـراً كاستـدارة الرَّحى، ولا يبقى فيـه فروجٌ ولا خللٌ ويشـدّ بعضه بعضـاً حتى يصير طبقاً واحداً محكماً لا يدخلُ بين بيوته رؤوس الإبر، فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هـذا البناءَ المحكم الـذي يعجزُ البشـر عن صنع مثله، فعلمتْ أنهـا محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين.

إحـداهما: أن لا تكـون زواياهـا ضيقـة حتى لا يبقى المـوضـعُ الضيق معـطلاً، الثانيةُ: أن تكـون تلك البيوتُ مشَكلة بـأشكال إذا انضم بعضهـا إلى بعض امتلأت العرْصة منهـا فلا يبقى منهـا [شيء] ضائعـاً،

ثم إنهـا علمتْ أن الشكلَ المـوصوف بهـاتين الصفتين هو المسـدُس فقط، فـإن المثلثاتِ والمربعاتِ وإنْ أمكن امتلاءُ العرصةِ منها إلا أن زواياها ضيقة، وأمـا سائـر الأشكال وإنْ كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلىء العرصةُ منها بل يبقى فيما بينها فروجٌ خالية ضائعة. وأما المسدسُ فهو موصوف بهـاتين الصفتين، فهداهـا سبحانـه إلى بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مسطرةٍ ولا آلة ولا مثال يُحتذى عليه.

وأصنْـعُ بني آدمَ لا يقدر على بنـاء البيت المسدس إلا بـالآلات الكبيرة، فتبـارك الذي هداهـا أن تسلك سبُل مـراعيها إلى قُـوتها وتـأتيها ذُلـلا لا تستعصي عليها ولا

تضل عنها، وأن تجتني أطيبَ ما في المرعى وألطفه، وأن تعود إلى بيوتهـا الخالية فتصب فيها شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس، إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون.

فـإذا فرغت من بنـاء البيوت خـرجت خمـاصـاً تسيـحُ سهـلاً وجبـلاً فـأكلت من الحلاواتِ المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار فترجعُ بطاناً، وجعلَ سبحانه في أفـواهها حـرارةً منضجة، تنضـج ما جنتـه فتعيدهُ حـلاوةً ونضجاً، ثم تمجّـه في البيوت حتى إذا امتلأت ختمتها وسدَّت رؤوسها بالشمع المصفى.

فإذا امتلأت تلك البيوتُ عمدت إلى مكان آخر إن صادفته فـاتخذت فيـه بيوتـاً، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى، فـإذا بردَ الهـواءُ وأخلف المرعى وحيـل بينها وبين الكسب لزمت بيوتها واغتذت بمـا ادخرتـه من العسل، وهي في أيـام الكسب والسعي تخـرج بكرةً وتسيحُ في المراتـع وتستعمل كـلَّ فرقـةٍ منها بمـا يخصها من العمل، فإذا أمستْ رجعت إلى بيوتها.

فإذا كان وقّتُ رجـوعها وقفَ على بـاب الخلية بـواب منها ومعهـا أعوان. فكـلُّ نحلةٍ تريدُ الدخول يشمها البوابُ ويتفقدها، فإن وجد منهـا رائحة منكـرة أو رأى بها لطخة من قذَر منعها من الدخول وعـزلها نـاحية إلى أن يـدخل الجميعُ فيرجـع إلى المعـزولات الممنوعـات من الدخـول فيتفقدهن ويكشف أحـوالهن مرة ثـانية، فمن وجده قد وقع على شيء منتنٍ أو نجس قده نصفين، ومن كانت جنايتـه خفيفةً تـركه خارج الخلية، هذا دأب البواب كل عشية.

وأمـا الملك فلا يكثـر الخروج من الخليـة إلا نادراً، إذا اشتهى التنـزه، فيخـرجُ ومعه أمراءُ النحل والخدم فيطوفُ في المروج والـرياض والبسـاتين ساعـةً من النهار ثم يعود إلى مكانه. ومن عجيب أمره أنه ربما لحقـه أذى مِن النحل أو من صـاحب الخلية أو من خدمه فيغضبُ ويخرجُ من الخليـة ويتباعـد عنها ويتبعـه جميعُ النحـل وتبقى الخلية خالية.

فإذا رأى صاحبُها ذلك وخاف أن يأخذ النحلَ ويذهبَ بها إلى مكـان آخر احتـال لاسترجاعه وطلب رضاه، فيتعرفُ موضعـه الذي صـار إليه النحـل فيعرفـه باجتمـاع النحل إليه فإنها لا تفارقه وتجتمعُ عليه حتى تصير عليه عنقوداً، وهو إذا خرج غضباً جلسَ على مكـان مرتفـع من الشجرة وطـافت به النحـلُ وانضمتْ إليـه حتى يصيـر كالكرة فيـأخذ صـاحبُ النحل رُمحـاً أو قصبة طـويلة، ويشدّ على رأسـه حزمـة من النبات الطيب الرائحة العطِر النظيف ويدنيه إلى محل الملك، ويكون معه إما مـزهر

أو يـراع أو شيء من آلات الطرب فيحـركه وقـد أدنى إليه ذلـك الحشيشٍ فلا يـزال كذلك إلى أن يرضى الملك، فإذا رضي وزال غضبه طفر ووقـع على الضِغث وتبعه خدمُه وسائرُ النحل، فيحمله صاحبه إلى الخلية فينزل ويدخلها هو وجنوده.

ولا يقـع النحل على جيفـة ولا حيوان ولا طعـام. ومن عجيب أمرهـا أنهـا تقتـلُ الملوك الظلمة المفسـدة، ولا تدين لطاعتها. والنحلُ الصغار المجتمعة الخلق هي العسّالة، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخراجها ونفيها عن الخلايا، وإذا فعلت ذلك جاد العسل، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتله خـارج الخلية صيـانة للخليـة عن جيفته.

ومنها صنف قليلُ النفع كبيرُ الجسم. وبينها وبين العسالـة حربٌ، فهي تقصـدها وتغتالها وتفتحُ عليها بيوتها وتقصدُ هلاكها، والعسالـة شديـدة التيقظ والتحفظ منها، فإذا هجمت عليها في بيوتها حـاورتها وألجأتها إلى أبواب البيوت فتتلطخُ بـالعسل فلا تقدرُ على الطيران ولا يفلتُ منهـا إلا كل طـويلِ العمـر، فإذا انقضتْ الحـربُ وبرد القتال عادت إلى القتلى فحملتها وألقتها خارج الخلية.

وقد ذكرنا أن الملك لا يخرجُ إلا في الأحـايين، وإذا خرج خـرج في جموع من الفراخ والشبان، وإذا عزم على الخروج ظـلّ قبل ذلـك اليوم أو يـومين يعلم الفراخَ وينزلها منازلها ويرتبها، فيخـرجُ ويخْرجن معـه على ترتيب ونـظام قد دبـره معهن لا يخْرجن عنه، وإذا تولدتْ عنده ذكرانٌ عـرف أنهم يتطلبن الملكَ فيجعـل كل واحـد منهم على طائفة من الفراخ، ولا يقتلُ ملكٌ منها ملكاً آخـر، لما في ذلـك من فساد الرعية وهلاكها وتفرقها.

وإذا رأى صـاحب الخلية الملوك قـد كثرت في الخليـة وخاف من تفـرق النحـل بسببهم احتـال عليهم وأخذ الملوك كلّهـا إلا واحداً، ويحبسُ البـاقي عنده في إنـاء ويـدع عندهم من العسـل مـا يكفيهم، حتى إذا حـدث بـالملك المنصـوب حـدثُ مرضٍ أو موتٍ أو كان مفسداً فقتلته النحلُ أخذ من هؤلاء المحبوسين واحداً وجعله مكانه لئلا يبقى النحلُ بلا ملك فيتشتت أمرها.

ومن عجيب أمرها أن الملك إذا خـرج متنزهـاً ومعه الأمـراء والجنود ربمـا لحقه إعياء فتحمله الفراخ،

وفي النحل كرامٌ عمـال لها سعي وهمـة واجتهاد، وفيهـا لئامٌ كسـالى قليلةُ النفع

مؤثرة للبطالة، فالكرامُ دائماً تطردها وتنفيها عن الخلية ولا تساكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها.

والنحلُ من ألطف الحيوان وأنقاه، ولذلك لا تلقي زبلها إلا حين تطير وتكرهُ النتن والروائح الحبيثة، وأبكارها وفراخها أحرصُ وأشدُّ اجتهاداً من الكبار، وأقل لسعاً وأجود عسلاً، ولسعها إذا لسعت أقل ضرراً من لسع الكبار.

ولما كانت النحلُ من أنفع الحيوان وأبركه ـ قد خُصت من وحي الرب تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها، وكان الخارجُ من بطونها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداةِ من الأنام ـ كان أكثرُ الحيوان أعداءها وكان أعداؤها من أقل الحيوان منفعةً وبركةً، وهذه سُنة الله في خلقه، وهو العزيز الحكيم.

فصل: وهذه النملُ من أهدَى الحيوانات، وهدايتُها من أعجب شيء، فإن النمَلة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلبُ قوتها وإنْ بعدتْ عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرقٍ معوجة بعيدة ذاتِ صعود وهبوط في غاية من التوعّر حتى تصل إلى بيوتها فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدتْ إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت، فإن كان ينبتُ مع فلْقِهِ باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بللٌ وخافت عليه العفن والفساد انتظرتْ به يوماً ذا شمسٍ فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته إليها، ولا تتغذى منها نملةٌ مما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1]

فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم اتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنوا من العسكر، ثم أخبرتْ عن سبب هذا الدخول وهو خشيةُ أن تصيبهم مضرةُ الحيش فيحطمهم سليمانُ وجنودهُ، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك.

---

(١) الآية /١٨/ من سورة النمل.

وهذا من أعجب الهداية، وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[1]، ثم قال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾[2].

فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودلّ على أن ذلك الوادي معروفٌ بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دلّ على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنملُ أنّ لكل طائفة منها مسكناً لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ فجمعت بين أسمه وعينه وعرفته بهما وعرَّفت جنوده وقائدها، ثم قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فكأنها جمعتْ بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوْمِ أمةِ النمل حيث لم يأخذوا حذْرهم ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكاً من قولها، وإنه لموضعُ تعجب وتبسم.

وقد روى الزّهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل [أربع من الدواب] النمل والنحلة والهدهد والصرد[4].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: نزلَ نبي من الأنبياء تحت شجرةٍ فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج وأمرَ بقريةِ النمل فأحرقتْ فأوحى الله إليه أمِن أجلِ أن قرصتك نملة أحرقت أمةً من الأمم تسبح فهلّا نملةً واحدةً»[5].

---

(١) الآية /١٧/ من سورة النمل.

(٢) الآية /١٨/ من سورة النمل.

(٣) سقطت من الأصل. وتم استدراكها من أصل الحديث.

(٤) إسناد صحيح، رواه الإمام أحمد في المسند (١/٣٤٧)، وأبو داود برقم /٥٢٦٧/ في الأدب، باب في قتل الذر.

قال الخطابي: أما نهيه عن قتل النمل: فإنما أراد نوعاً منه خاصاً، وهو الكبار ذوات الأرجل لأنها قليلة الأذى والضرر، وأما النحل: فلما فيها من المنفعة، وأما الهدهد والصرد: فإنما نهى عن قتلهما لتحريم لحمهما.

(٥) رواه البخاري (٤/٩٧) في بدء الخلق، باب قوله تعالى: ﴿وبث فيها من كل دابة)، ومسلم برقم /٢٢٤١/ في السلام، باب النهي عن قتل النمل، وأبو داود برقم /٥٢٦٥/ في الأدب، باب في قتل الذر، والنسائي (٧/٢١٠) في الصيد، باب قتل النمل.

وذكر هشامُ بن حسان أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدةً فأمر الأحنفُ بكرسي فوُضع عند تنورين فجلس عليه ثم تشهَّد ثم قال لتنتهن أو ليحرقن عليكن ونفعل ونفعل، قال: فذهبن.

وروى عوفُ بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادةً، حتى للنمل سادةً.

ومن عجيب هدايتها أنها تعرفُ ربها بأنه فوق سمواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمدُ في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون فإذا هم بنملة رافعةٍ قوائمها إلى السماء تدعو مستلقيةً على ظهرها فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم. ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره.

وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا مسعر[1] عن زيد العمي عن أبي الصديق الناجي قال: خرج سليمانُ بن داود يستسقي فرأى نملةً مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلْقٌ من خلقك ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم[2].

ولقد حدثني أن نملة خرجتْ من بيتها فصادفت شقَّ جرادةٍ فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال فرفعت ذلك من الأرض فطافت في مكانه فلم تجده فانصرفوا وتركوها. قال: فوضعته فعادتْ تحاولُ حمْلَهُ فلم تقدرْ فذهبتْ وجاءت بهم فرفعتهُ، فطافت فلم تجده فانصرفوا قال: فعلتْ ذلك مراراً، فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضواً عضواً، قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية فقال: هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب.

---

(١) هو مسعر بن كدام بن ظهير الهلالي العامري الرواسبي ـ أبو سلمة ـ من ثقات أهل الحديث كوفي كان يقال له (المصحف) لعظم الثقة بما يرويه، وكان مرجئاً وعنده نحو ألفا حديث وخرج له الستة، توفي بمكة سنة (١٥٢ هـ ـ ٧٦٩ م). انظر تهذيب التهذيب (١١٣/١٠) وانظر الحلية (٢٠٦/٧).

(٢) راجع الخبر في كتاب الزهد للإمام أحمد ص ١١٠

والنملُ من أحرص الحيوان، ويضرب بحرصه المثل، ويذكرُ أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرصَ النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورةٍ وسدَّ فم القارورة وجعلَ معها ثلاث حباتٍ حنطة وتركها سنة بعدما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبة فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات، فقالت: نعم ولكنْ لما رأيتك مشغولاً بمصالح أبناء جنسك حسبتُ الذي بقيَ من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة فاقتصرت على نصف القوت واستبقيتُ نصفه استبقاءً لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والعطية.

ومن حرصها أنها تكدّ طولَ الصيف وتجمع للشتاء، علماً منها بإعوازِ الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه. وهي على ضعفها شديدةُ القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجرّه إلى بيتها.

ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابساً فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيدٍ إليه، فإن عجزتْ عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه؟ فهي تدركُ بالشم من البعد ما يدركه غيرُها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان وبقي فيه فتاتٌ من الخبز أو غيره فتحمله وتذهب به وإن كان أكبر منها، وإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جُحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاؤوا كخيط أسود يتبع بعضُهم بعضاً حتى يتساعدوا على حمله ونقله. وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإنْ وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيراً فلا.

ولها صدقُ الشم وبعدُ الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها.

وليس للنمل قائدٌ ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائداً يطلب الرزق فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات. وكلٌّ نملة تجتهدُ في صلاح العامة منها غير مختلسةٍ من الحبّ شيئاً لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو

نحوه فإنه يحفرُ حفيرة ويجعلُ حولها ماء، أو يتخذ إناء كبيراً ويملأه ماء ثم يضعُ فيه ذلك الشيء، فيأتي الذي يُطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقى نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك.

وأحمى صانعٌ مرةً طوقاً بالنار ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهجُ النار فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزاً له وهو أبعد مكان من المحيط.

فصل: وهذا الهدهُد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض لا يراه غيره. ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، خاطبه خطاباً هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: أحطت بما لم تحط به، وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[1] والنبأهو الخبر الذي له شأنٌ والنفوسُ متطلعة إلى معرفته. ثم وصفه بأنه نبأ يقينٌ لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمةٌ بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المخبرِ لتلقي الخبر، وأوجبت له التشوق التامَّ إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج، ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأدلة التأكيد، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾[2].

ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجلّ الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك. ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلسُ عليه وأنه عرش عظيم، ثم أخبر بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[3].

---

(١) الآية /٢٢/ من سورة النمل.
(٢) الآية /٢٣/ من سورة النمل.
(٣) الآية /٢٤/ من سورة النمل.

وحذف أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلةً غير معطوفة على ما قبلها إيذاناً بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها، ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجودُ لله وحده.

ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السموات والأرض[1]، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض.

وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض.

قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء أمارةٌ على أنه من كلام الهدهد، لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض جلّت قدرته ولطف علمه. ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايلُ كلِ شخصٍ بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدميٌ عملاً إلا ألقى الله عليه رداءَ عمله.

فصل: وهذا الحمامُ من أعجب الحيوان هدايةً حتى قال الشافعي: أعقلُ الطير، وبُرُدُ الحمامِ هي التي تحملُ الرسائل والكتب، ربما زادت قيمةُ الطير منها على قيمة المملوك والعبد، فإن الغرضَ الذي يحصلُ به لا يحصلُ بمملوك ولا بحيوان غيره، لأنه يذهبُ ويرجعُ إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها. وتُنْهي الأخبارَ والأغراضَ والمقاصدَ التي تعلقُ بها مهماتُ الممالك والدول.

والقيّمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناءً عظيماً فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقتَ السِّفاد، وتُنقلُ الذكورُ عن إناثها إلى غيرها والإناث عن ذكورها، ويخافون عليها مِن فساد أنسابها وحملها مِن غيرها، ويتعرفون صحةَ طرقها ومحلِّها، لا يأمنون أن تُفسدَ الأنثى ذَكراً مِن عَرَض الحمام فتعتريها الهُجْنة.

---

(١) يشير بذلك إلى الآية /٢٥/ من سورة النمل ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبأ في السموات الأرض ويعلم ما تخفضون وما تعلنون﴾.

والقيّمون بأمرها لا يحفظون أرحامَ نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحامَ حمَامهم ويحتاطون لها.

والقيمون لهم في ذلك قواعدُ وطرقٌ يعتنون بها غايةَ الاعتناء بحيث إذا رأوا حماماً ساقطاً لم يخفَ عليهم حسبُها ونسبُها وبلدُها ويعظّمون صاحبَ التجربة والمعرفة، وتسمحُ أنفسُهم بالجُعْلِ الوافر له. ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكورَ منها، ويقولون هو أحنُّ إلى بيته لمكان أنثاه، وهو أشدّ متناً وأقوى بدناً وأحسن اهتداءً.

وطائفةٌ منهم تختارُ لذلك الإناثَ ويقولون الذكرُ إذا سافر وبعد عهدُه حنّ إلى الإناث وتاقت نفسه إليهن، فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا يصبرُ عنها فيتركُ المسير ومال إلى قضاء وطره منها. وهدايتُه على قدر التعليم والتوطين.

والحمامُ موصوف باليمن والإلفِ للناس، ويحب الناسَ ويحبونه، ويألفُ المكانَ ويثبتُ على العهد والوفاء لصاحبه وإن أساء إليه، ويعود إليه مِن مسافات بعيدةٍ، وربما صَدَّ فتركِ وطنَه عشر حِججٍ وهو ثابت على الوفاء حتى إذا وَجَدَ فرصةً واستطاعةً عاد إليه.

والحمامُ إذا أراد السِّفادَ[1] يلطفُ للأنثى غايةَ اللطف، فيبدأ بنشر ذَنَبه وإرخاء جناحه، ثم يدنو من الأنثى فيهدر لها ويقبلها ويزقّها وينتفش ويرفعُ صدره، ثم يعتريه ضَرْبٌ مِن الولَه، والأنثى في ذلك مرسلةٌ جناحَها وكتفها على الأرض، فإذا قضى حاجته منها رَكبتُه الأنثى، وليس ذلك في شيء من الحيوان سواء.

وإذا علم الذكرُ أنه أودع رحمَ الأنثى ما يكون منه الولد يقوم هو والأنثى بطلب القصب والحشيش وصغار العيدان فيعملان منه أفحوصةً وينسجانها نسجاً متداخلاً في الوضع الذي يكون بقدر حيمانِ الحمامة، ويجعلان حروفَها شاخصةً مرتفعةً لئلا يتدحرج عنها البيض ويكون حضناً للحاضن.

ثم يتعاودان ذلك المكانَ ويتعاقبان الأفحوصَ يسخِّنانه ويطيبانه وينفيان طباعه الأولى ويُحْدثان فيه طبعاً آخر مشتقاً ومستخرجاً مِن طباع أبدانهما ورائحتهما لكي

---

(١) (السِّفاد): من سَفد يقال: سَفد ذكر الحيوان أنثاه. وعلى أنثاه: إذا نزا عليها. وتسافد الحيوان: نزا بعضه على بعض، انظر المعجم الوسيط ص ٤٣٤.

تقع البيضة إذا وقعتْ في مكان هو أشبه المواضع بأرحام الحمام، ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة.

ثم إذا ضربها المخاضُ بادرتْ إلى ذلك المكان ووضعتْ فيه البيضَ، فإن أفزعها رعد قاصف رَمَتْ بالبيضة دون ذلك المكان الذي هيأته كالمرأة التي تُسقط من الفزع، فإذا وضعت البيضَ في ذلك المكان لم يزالا يتعاقبان الحَضنَ حتى إذا بلغ الحضنُ مداه وانتهت أيامُه انصدع عن الفرخ فأعاناه على خروجه فيبدآن أولاً بنفخ الريح في حلقه حتى تتسع حويصلته علماً منهما بأن الحويصلة تضيق عن الغذاء، فتتسع الحويصلةُ بعد التحامها وتتفتقُ بعد ارتتاقها.

ثم يعلمان أن الحويصلة وإنْ كانت قد اتسعت شيئاً فإنها في أول الأمر لا تحتملُ الغذاءَ فيزقّانه بلعابهما المختلط بالغذاء وفيه قُوى الطعم.

ثم يعلمان أن طبع الحويصلة يضعفُ عن استمرار الغذاء وأنها تحتاجُ إلى دفع وتقويةٍ لتكون لها بعضُ المتانة فيلقطان من الغيطان الحبَّ الليّنَ الرِّخو ويزقانه الفرخَ ثم يزقانه بعد ذلك الحَبَّ الذي هو أقوى وأشد، ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريج بحسبِ قوة الفرخ وهو يطلبُ ذلك منهما، حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعضَ المنع ليحتاج إلى اللقط ويعتاده.

وإذا علما أن رئته قد قويت ونمتْ، وأنهما إنْ فطماه فطماً تاماً قوي على اللقط وتبلّغ لنفسه ضرباه إذا سألهما الزقّ ومنعاه.

ثم تُنزعُ تلك الرحمةُ العجيبةُ منهما وينسيان ذلك العطفَ المتمكن حين يعلمان أنه قد أطاق القيامَ بنفسه والتكسبَ، ثم يبتدئان العملَ ابتداءً على ذلك النظام.

والحمامُ يشاكلُ الناسَ في أكثر طباعه ومذاهبه فإنّ مِن إناثه أنثى لا تريدُ إلا زوجَها، وفيه أخرى لا تردُّ يدَ لامسٍ، وأخرى لا تُنالُ إلا بعد الطلب الحثيث، وأخرى تُركب مِن أول وهلة وأول طلبٍ، وأخرى لها ذَكرٌ معروف بها وهي تمكّن ذكراً آخر منها، إذا غاب زوجها لم تمتنع ممن ركبها، وأخرى تمكن مَن يغنيها عن زوجها وهو يراهما ويشاهدهما ولا تبالي بحضوره، وأخرى تغري الذكرَ وتدعوه إلى نفسها، وأنثى تركب أنثى وتساحقها، وذكرٌ يركب ذكراً ويعسِفه.

وكلُّ حالةٍ توجدُ في الناس ذكورهم وإناثهم توجدُ في الحمام. وفيها من لا

تبيضُ وإنْ باضت أفسدت البيضةَ كالمرأة التي لا تريد الولدَ كيلا يشغلَها عن شأنها.

وفي إناثِ الحمام مَن إذا عَرَضَ لها ذكرٌ، أيُّ ذكرٍ كان، أسرعتْ هاربةً ولا تواتي غيرَ زوجها البتة، بمنزلة المرأة الحرة.

ومنها ما يأخذُ أنثى يتمتع بها ثم ينتقلُ عنها إلى غيرها، وكذلك الأنثى توافقُ ذكراً آخرَ غير زوجها وتنتقلُ عنه، وإنْ كانوا جميعاً في برج واحد.

ومنها ما يتصالح على الأنثى منها ذكرانِ أو أكثرُ فتعايرُهم كلَّهم حتى إذا غلبَ واحدٌ منهم رفيقه وقهره مالت إليه وأعرضت عن المغلوب.

وفي الحديث أن النبي ﷺ رأى حمامةً تتبع حمامةً فقال: شيطانٌ يتبع شيطانه(١).

ومنها ما يزقّ فراخَه خاصةً. ومنها ما فيه شفقةٌ ورحمة بالغة يزق فراخَه وغيرَها.

ومَن عجيب هُدَاها أنها إذا حملت الرسائلَ سلكت الطرقَ البعيدةَ عن القرى ومواضع الناس لئلا يعرضَ لها من يصدّها. ولا يرد مياهَهم بل يردُ المياهَ التي لا يردها الناس.

ومن هدايتها أيضاً أنه إذا رأى الناسَ في الهواء عرف أي صنف يريده وأي نوعٍ من الأنواع ضدّه فيخالف فعله ليسلم منه.

ومِن هدايته أنه في أول نهوضه يَغْفلُ ويمرّ بين النسر والعُقاب، وبين الرَّخَم والبازي، وبين الغراب والصقر، فيعرفُ مَن يقصدُه ومن لا يقصده. وإن رأى الشاهينَ فكأنه يرى السم الناقع، وتأخذه حيرةٌ كما يأخذ الشاةَ عند رؤية الذئب، والحمار عند مشاهدة الأسد.

ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمرَ الفراخ، فتكون الحضانةُ

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وإنما وجدته بلفظ: أن النبي ﷺ رأى رجلاً يتبع حمامة فقال: شيطان يتبع شيطان. وقد رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٣٤٥) وأبو داود برقم /٤٩٤٠/ في الأدب، باب اللعب بالحمام، وابن ماجة برقم /٣٠٣٢ و٣٠٣٣ و٣٠٣٤ و٣٠٣٥/ في الأدب، باب اللعب بالحمام، وإسناده الحديث حسن، وقد حسنه الألباني في تخريج المشكاة برقم /٤٥٠٦/.

والتـربيةُ والكفـالةُ على الأنثى، وجَلْبُ القـوت والرزق على الـذكر، فـإن الأبَ هـو صاحبُ العيال والكاسبُ لهم، والأم هي التي تحبل وتلد وتُرضع.

ومِن عجيب أمرها ما ذكَره الجاحظ أن رجلاً كان له زوجُ حمـام مقصوص وزوجٌ طيار، وللطيار فرخان، قال: ففتحتُ لهما في أعلى الغـرفة كـوّةً للدخول والخـروج وزقّ فـراخهما، قـال: فحبسني السلطانُ فجأةً فـاهتممت بشـأن المقصـوص غـايـةَ الاهتمـام، ولم أشكَّ في مـوتهما لأنهمـا لا يقدران على الخـروج من الكوة، وليس عندهما ما يأكلان ويشربان، قال: فلما خُلّيَ سبيلي لم يكن لي هَمّ غيرُهما ففتحتُ البيت فوجدتُ الفـراخ قد كبـرتْ ووجدتُ المقصـوصَ على أحسنِ حال، فعجبت، فلم ألبث أن جاء الزوجُ الطيار فدنا الـزوجُ المقصوصُ إلى أفـواههما يستطعمانهمـا كما يستطعمُ الفرخُ فزقاهما.

فانظر إلى هذه الهداية فإن المقصوصَيْن لما شاهدا تلطّفَ الفراخ للأبـوين وكيف يستطعمانهما إذا اشتد بهما الجوعُ والعـطش فَعَلا كفِعْـل الفرخين فـأدركتهما رحمـةُ الطيارَيْن فزقاهما كا يزقّان فرخيهما.

ونظيرُ ذلك ما ذكره الجاحظُ وغيره، قال الجاحظ، وهو أمر مشهور عندنا بالبصرة، إنه لما وقع الطاعونُ الجارف على أهل مَحلّة فلم يشكّ أهلُها أنه لم يبق منهم أحـدٌ فعمدوا إلى باب الدار فسدوه، وكان قد بقي صبي صغير يرضع ولم يفطنوا له.

فلما كان بعد ذلك بمدة تحول إليها بعضُ ورَثة القوم ففتَحَ البابَ فلما أفضىَ إلى عَرصةِ الدار إذا هو بصبي يلعب مع جراءٍ كلبـة قد كـانت لأهل الـدار فراعـه ذلك، فلم يلبث أن أقبلتْ كلبة قد كانت لاهل الدار فلما رآها الصبي حبا إليها فأمكنتْه من أطبائها فمصّها.

وذلك أن الصبي لما اشتد جوعُـه ورأى جِراء الكلبـة يرتضعـون من أطباء الكلبـة حَبَا إليها فعطفتْ عليه فلما سقته مرة أدامتْ له ذلك وأدام هـو الطلبَ. ولا تستبعـد هذا وما هو أعجبُ منه، فإن الذي هَدَى المولودإلى مص إبهامه ساعةَ يُولد ثم هداه إلى التقـام حَلَمة ثديٍ لم يتقـدم له بـه عادةٌ كـأنه قـد قيل لـه هذه خـزانةُ طعـامك وشرابك التي كأنك لم تزل بها عارفاً.

وفي هدايته للحيوان إلى مصالحه ما هو أعجبُ مِن ذلك. ومن ذلـك أن الديـك

الشاب إذا لقي حَبّاً لم يأكله حتى يفرقه فإذا هَرِمَ وشاخ أكله مِن غير تفريق، كما قال المدائني إن إياس بن معاوية مر بديك ينقر حَبّاً ولا يفرقه فقال: ينبغي أن يكون هرِماً فإن الديك الشاب يفرقُ الحبّ ليجتمع الدجاجُ حوله تصيبَ منه، والهرِمَ قد فنيتْ رغبتهُ فليس له همه إلا نفسُهُ. قال إياس: والديكُ يأخذ الحبة فهو يُريها الدجاجةَ حتى يلقيها من فيه، والهرمُ يبتلعها ولا يلقيها للدجاجة.

وذكر ابن الأعرابي قال: أكلت حيةٌ بيضَ مكاء فجعلَ المكاءُ يصوِّتُ ويطيرُ على رأسها ويدنو منها حتى إذا فتحتْ فاها وهمتْ به ألقى حَسَكةً فأخذتْ بحلقها حتى ماتت. وأنشد أبو عمر الشيباني في ذلك قول الأسدي.

إن كنتَ أبصرتني عَيْلًا ومصطلماً　　　فربما قتل المكّاءُ ثعبانا

وهدايةُ الحيوانات إلى مصالح معاشها كالبحر حدِّثْ عنه ولا حرج.

ومِن عجيب هدايتها أن الثعلب إذا امتلأ من البراغيث أخذَ صوفةً بفمه ثم عمد إلى ماءٍ رقيق فنزل فيه قليلاً قليلاً حتى ترتفع البراغيثُ إلى الصوفة فيلقيها في الماء ويخرج.

ومِن عجيب أمره أن ذئباً أكل أولادَه وكان للذئب أولادٌ وهناك زبيةٌ فعمد الثلعبُ وألقى نفسه فيها وحفر فيها سرداباً يخرج منه، ثم عمد إلى أولاد الذئب فقتلهم وجلس ناحية ينتظر الذئبَ، فلما أقبل وعرف أنها فَعْلتهُ هرب قدّامه وهو يتبعه فألقى نفسه في الزبية ثم خرج من السرداب فألقى الذئب نفسه وراءه فلم يجده ولم يُطق الخروج فقتله أهلُ الناحية.

ومن عجيب أمره أن رَجلًا كان معه دجاجتان فاختفى له وخطف إحداهما، وفرّ ثم أعملَ فكرَه في أخذ الأخرى فتراءى لصاحبها من بعيدٍ وفي فمه شيء شبيه بالطائر، وأطمعه في استعادتها بأنْ تركه وفرّ فظنّ الرجل أنها الدجاجةُ فأسرع نحوها وخالفه الثعلبُ إلى أختها فأخذها وذهب.

ومن عجيب أمره أنه أتى إلى جزيرة فيها طير فأعمل الحيلةَ كيف يأخذُ منها شيئاً فلم يُطقْ، فذهبَ وجاء بضِغْثٍ[1] من حشيش وألقاه في مجرى الماء الذي نحو الطير

(١) (الضغث): أي ضروب وأصناف مختلفة.

ففزع منه، فلما عرفتْ أنه حشيش رَجَعْتْ إلى أماكنها فعاد لـذلك مـرةً ثانيـةً وثالثـة ورابعة حتى تواظِبَ الطيرُ على ذلك، وألِفتْه، فعمد إلى جرزة أكبرَ من ذلك فـدخل فيها وعبرَ إلى الطير فلم يشكَّ الطيـر أنه مِن جنس مـا قبله فلم تنفرْ منـه فوثبَ على طائر منها وعدا به.

ومِن عجيب أمر الذئب أنه عَرَضَ لإنسان يريدُ قتله فرأى معه قوساً وسهماً فذهب وجاء بعظم رأس جمل في فيه وأقبل نحو الرجل فجعـل الـرجـل كلما رمـاه بسهم اتّقاه بذلك العظم حتى أعجزه وعاين نفادَ سهامـه فصادف مَن استعـان به على طـرد الذئب.

ومِن عجيب أمر القرد ما ذكره البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: رأيتُ في الجاهلية قرداً وقردةً زَنيا فاجتمع عليهما القرودُ فرجموهما حتى ماتا، فهؤلاء القرودُ أقاموا حدَّ الله حين عطّله بنو آدم[1].

وهذه البقرُ يُضرب ببلادتها المثلُ. «وقـد أخبر النبي ﷺ أن رجـلاً بينا هـو يسوق بقـرةً إذْ ركبها فقـالت لم أخلقْ لهذا فقـال الناسُ: سبحـان الله بقرةٌ تتكلم، فقـال: فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر، وما هما، ثم قال: وبينا رجـلٌ يرعى غنمـاً له إذْ عدا الذئبُ على شاة منها فاستنقذها منه فقال الذئب: هـذه استنقذتهـا مني فمن لها يـومَ السبع يـومَ لا راعيَ لها غيـري؟ فقال النـاس: سبحـان الله ذئبٌ يتكلم، فقـال رسولُ الله ﷺ إني أومنُ بهذا أنا وأبو بكر وعمر. وما هما»[2] تم.

ومن هداية الحمار الذي هـو من أبلد الحيوان أن الـرجل يسيـر به ويـأتي به إلى منـزله من البعـد في ليلة مظلمـة فيعرفُ المنـزلَ فـإذا خُلّي جـاء إليـه، ويفـرق بين الصوت الذي يُستوقفُ به والصوتِ الذي يُحثُّ به على السير.

---

(١) رواه البخـاري (١٨٨/٤) في فضائـل أصحاب النبي ﷺ، بـاب أيام الجـاهلية، وانـظر قول الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢٢/٧) في الرد على ما زعمه الحميدي بأن هذا الحديث من الأحاديث المقحمـة في كتاب البخاري.

(٢) رواه البخـاري (١٩٨/٤) في فضائـل أصحاب النبي ﷺ، بـاب مناقب عمـر بن الخـطاب، ومسلم برقم /٢٣٨٨/ في فضائـل الصحابـة، باب من فضـائل أبي بكـر الصديق رضي الله عنـه، والترمـذي برقم /٣٦٨١ و٣٦٩٦/ بـاب في المناقب، بـاب مناقب أبي بكـر، وبـاب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

ومِن عجيب أمر الفأر أنها إذا شربتْ من الزيت الذي في أعلى الجرة فنقصَ وعزّ عليهـا الوصـولُ إليه ذهبتْ وحملتْ في أفـواهها مـاء وصبته في الجـرة حتى يـرتفـع الزيتُ فتشربه.

والأطباء تزعم أن الحقنةَ أخذت مِن طائرٍ طويل المنقار إذا تعسّر عليه الذرْقُ جاء إلى البحر المالح وأخذ بمنقاره منه واحتقن به فيخرج الذرقُ بسرعة.

وهـذا الثعلبُ إذا اشتد بـه الجوع انتفـخ ورمى بنفسه في الصحـراء كأنـه جيفـةٌ فتتداوله الطير فلا يُظهرُ حركةً ولا نَفَساً فلا تشك أنه ميت حتى إذا نقر بمنقـاره وثب عليها فضمها ضمةَ الموت.

وهـذا ابنُ عرس والقنفـذُ إذا أكلا الأفـاعيَ والحياتِ عمـدا إلى الصَّعتـر النهـري فأكلاه كالترياق لذلك.

ومِن عجيب أمر الثعلب أنه إذا أصاب القنفذَ قلبَه لظهـره لأجل شـوكهِ فيجتمـعُ القنفذُ حتى يصير كَبةَ شوكٍ فيبولُ الثعلبُ على بطنه ما بين مغـرز عَجْبه إلى فكيـه، فإذا أصابه البولُ اعتراه الأسر فانبسط فيسلخه الثعلب مِن بطنه ويأكل مسلوخه.

وكثيـرٌ من العقلاء يتعلم من الحيـوانات البَهْم أمـوراً تنفعه في معـاشه وأخـلاقـه وصناعته وحربه وحزْمه وصبره. وهدايةُ الحيوان فوق هداية أكثر الناس، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

قال أبو جعفـر الباقـر: واللهُ ما اقتصـرَ على تشبيههم بالأنعـام حتى جعلهم أضلَّ سبيلاً منها.

فمِن هدى الأنثى من السباع إذا وضعتْ ولدَها أن ترفعه في الهواء أياماً تهرب بـه من الذرّ والنمل لأنها تضعه كقطعة من لحم، فهي تخاف عليه الذرّ والنمل فلا تزال ترفعه وتضعه وتحوّله مِن مكان إلى مكان حتى يشتد.

وقال ابن الأعرابي: قيل لشيخ من قريش: من علمك هذا كلّه وإنما يعـرفُ مثله

---

(١) سورة الفرقان، الآية /٤٤/.

أصحاب التجارب والتكسب، قال: علمني اللهُ ما علم الحمامة تقلبُ بيضها حتى تعطي الوجهين جميعاً نصيبهما من حضانتها، ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد.

وقيل لآخرَ: مَن عَلمك اللجاجَ في الحاجة والصبرَ عليها وإن استعصتْ حتى تظفر بها؟ قال: مَنْ علّم الخنفساءَ إذا صعدتْ في الحائطُ تسقط ثم تصعدُ ثم تسقط مراراً عديدة حتى تستمر صاعدةً.

وقيل لآخر: مَن علمك البكور في حوائجك أولَ النهار لا تخلُّ به، قال: مَن علم الطير تغدو خِماصاً كلّ بُكرةٍ في طلب أقواتها على قربها وبعدها لا تسأمُ ذلك ولا تخافُ ما يعرِضُ لها في الجو والأرض.

وقيل لآخر: مَن علمك السكونَ والتحفظَ والتماوتَ حتى تظفر بأربك فإذا ظفرتَ به وثبتَ وثوبَ الأسد على فريسته؟ فقال: الذي عَلّم الهرة أن ترصدَ حُجرَ الفأرة فلا تتحرك ولا تتلوى ولا تختلج كأنها ميتة، حتى إذا برزتْ لها الفأرةُ وثبتْ عليها كالأسد.

وقيل لآخر: مَن علمك الصبرَ والجلد والاحتمال وعدم السكون؟ قال: مَن علّم أبا أيوب صبره على الأثقال والأحمال الثقيلة، والمشي والتعب وغَلْظة الجمّالِ وضربه، فالثقلُ والكَلُّ على ظهره ومرارةُ الجوع والعطش في كبده وجهدُ التعب والمشقة ملء جوارحه ولا يعدلُ به ذلك عن الصبر.

وقيل لآخر: مَن علمك حسنَ الإيثار والسماحة بالبذل؟ قال: مَن علم الديكَ يصادفُ الحبة في الأرض وهو يحتاج إليها فلا يأكلها بل يستدعي الدجاجَ ويطلبهن طلباً حثيثاً حتى تجيء الواحدةُ منهن فتلقطَها وهو مسرور بذلك طيبُ النفس به، وإذا وُضع له الحبّ الكثير فرقه ها هنا وها هنا وإنْ لم يكن هناك دجاج لأن طبعه قد أَلِفَ البذلَ والجودَ فهو يرَى مِن اللؤم أن يستبدّ وحده بالطعام.

وقيل لآخر: مَن علمك هذا التحيّلَ في طلب الرزق ووجوهَ تحصيله؟ قال: مَن علم الثعلبَ تلك الحيلَ التي يعجز العقلاءُ عن علمها وعملها، وهي أكثر من أن تذكر، ومَن علم الأسدَ إذا مشى وخاف أن يُقتفى أثرُه ويُطلب عَفّى أثرَ مشيته بذنبه، ومَن علمه أن يأتي إلى شِبله في اليوم الثالث مِن وَضعه فينفخَ في منخريه لأن اللبؤة

تضعه جرواً كالميت فلا تزال تحرسُه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك، ومَنْ ألهمَ كـرامَ الأسود وأشرافَها أن لا تأكل إلا مِن فريستها، وإذا مر بفريسةِ غيـره لم يدنُ منهـا ولو جَهَده الجوعُ، ومَن علم الأسد أن يخضع للببـر ويذلّ لـه إذا اجتمعا حتى ينـال منه سُؤلَه.

ومِن عجيب أمره أنه إذا استعصى عليه شيء من السباع دعا الأسد فأجابـه إجابـةَ المملوك لمـالكه ثم أمـره فربضَ بين يـديه فيبـول في أذنيه فإذا رأت السبـاعُ ذلـك أذعنتْ له بالطاعة والخضوع.

ومَن علم الثعلبَ إذا اشتـد به الجـوعُ أن يستلقيَ على ظهره ويختلسَ نَفَسـه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ فيظنّ الظانّ أنـه مَيْتةٌ فيقـع عليه فيثب على من انقضى عمـره منهـا، ومَن علمه إذا أصـابه صـدع أو جرح أن يـأتي إلى صبغ معـروف فيأخـذ منه ويضعه على جرحه كالمرهم.

ومن علم الـدبّ إذا أصـابـه كَلْم أن يـأتيَ إلى نبت قـد عـرفــه وجهله صـاحبُ الحشائش فيتداوى به فيبرأ.

ومَن علم الأنثى مِن الفيلة إذا دنـا وقتُ ولادتها أن تـأتيَ إلى الماء فتلدَ فيـه لأنها دون الحيـوانات لا تلد إلا قـائمة لأن أوصـالها على خـلاف أوصال الحيـوان، وهي عاليةَ فتخـافُ أن تُسقطه على الأرض فينصـدعَ أو ينشقَّ فتأتي مـاءً وسَطاً تضعـه فيه يكون كالفِراش اللين والوِطاء الناعم.

ومن علم الـذبابَ إذا سقطَ في مـائـعٍ أن يتقي بـالجنـاح الـذي فيـه الـداءُ دون الآخر.

ومَن علم الكلبَ إذا عـاين الظبـاء أن يعرف المعتـلّ مِن غيره والـذكَر من الأنثى فيقصدَ الذكر مع عِلمه بأن عَـدْوَه أشدّ وأبعـدُ وثبةً ويـدعُ الأنثى على نقصان عَـدْوها لأنه قد علم أن الذكرَ إذا عدا شوطـاً أو شوطين حقن ببـوله، وكـلُّ حيوان إذا اشتـد فزعهُ فإنه يدركه الحقن، وإذا حقن الذكرُ لم يستطع البولَ مع شدة العدو فيقلّ عَدْوَه فيدركـه الكلبُ، وأمـا الأنثى فتحذفُ بَـوْلها لسَعـة القُبُل وسهـولـة المخـرج فيـدومُ عَدْوها.

ومَنْ علمه أنه إذا كسا الثلجُ الأرضَ أن يتأمل الموضـعَ الرقيق الـذي قد انخسف

فيعلمَ أن تحتـه جُحرَ الأرنب فينبشَـه ويصطادها عِلماً منه بـأن حرارة أنفـاسها تـذيب بعضَ الثلج فيرقّ.

ومَن علم الذئبَ إذا نام أن يجعلَ النومَ نُـوَباً بين عينيـه فينامَ بـإحداهمـا حتى إذا نعست الأخرى نام بها وفتح النائمة حتى قال بعضُ العرب:

ينـام بـإحـدى مقلتيــه ويتقي ... بأخرى المنـايا فهـو يقظانُ نـائمُ

ومَن علّم العصفورةَ إذا سقط فَرْخُها أن تستغيثَ فلا يبقى عصفورٌ بجوارهـا حتى يجيء فيطيرون حول الفرخ ويحركونه بأفعالهم ويُحدثون له قـوةً وهِمةً وحـركةً حتى يطير معهم.

قال بعض الصيادين: ربما رأيتُ العصفورَ على الحائط فأُومىء بيدي كأني أرميه فـلا يطيـرُ، وربما أهـويتُ إلى الأرض كأني أتنـاولُ شيئاً فـلا يتحركُ، فـإن مسستُ بيدي أدنى حصاةٍ أو حجرٍ أو نواة طار قبل أن تتمكن منها يدي.

ومَن علّم الحمامةَ إذا حملتْ أن تـأخذ هي والأب في بنـاءِ العش، وأن يقيما لـه حـروفاً تشبـه الحائط، ثم يسخنّـاه ويحدثـا فيه طبيعـةَ أخـرى، ثم يُقلّبـا البيضَ في الأيام، ومَن قسم بينهما الحضـانةَ والكـد فأكثـرُ ساعـات الحضانة على الأنثى وأكثرُ ساعاتِ جَلْب القوت على الأب، وإذا خرج الفرخُ عِلما ضيقَ حـوصلِته عن الـطعام فنفخا فيه نفْخاً متدارِكاً حتى تتسع حوصلته ثم يزقانـه اللعابَ أو شيئـاً قبل الـطعام، وهو كاللبَأ للطفل، ثم يعلمان احتياجَ الحوصلة إلى دباغ فيزقانـه من أصل الحيـطان مِن شيء بين الملح والتـراب تندبـغُ به الحـوصلةُ، فإذا انـدبغتْ زقّاه الحبّ، فـإذا علما أنه أطاق اللقطَ منعاه الزقّ على التدريج، فإذا تكاملتْ قوّته وسألهمـا الكَفالـة ضرباه.

ومَن علمهما إذا أراد السِّفاد أن يبتدىء الذكرُ بالدعاء فتتطاردَ له الأنثى قليلاً لتذيقَه حلاوةَ المواصلة ثـم تطيعَه في نفسها، ثم تمتنَع بعضَ التمنع ليشتد طلبه وحبه، ثم تتهـادى وتتكسلَ وتـريَه معـاطفها وتعـرضَ محاسنهـا، ثم يحدثَ بينهمـا من التغزل والعشق والتقبيل والرشف ما هو مُشاهدَ بالعِيان.

ومَن علّم المرسَلَة منها إذا سافرْت ليلاً أن تستدل ببـطون الأودية ومجـاري المياه

والجبال ومهاب الريح ومطلع الشمس ومغربها، فتستدلّ بذلك وبغيره إذا ضلتْ، فإذا عرفت الطريق مرّت كالريح.

ومَن علم اللبب وهو صنف من العناكب أن يلطأ بالأرض ويجمعَ نفسه فيُريَ الذبابةَ أنه لاهٍ عنها ثم يثب عليها وثوبَ الفهد.

ومَنْ علم العنكبوت أن تنسجَ تلك الشبكةَ الرفيعةَ المحكمةَ وتجعلَ في أعلاها خيطاً ثم تتعلقُ به فإذا تعرقلت البعوضةُ في الشبكة تدلت إليها فاصطادتها.

ومَن علم الظبي أنه لا يدخلُ كناسه إلا مستدبراً ليستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه وخِشْفه.

ومَن علم السِّنَوْرَ إذا رأى فأرةً في السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليها بالعود، ثم يشيرَ إليها بالرجوع، وإنما يريدُ أن يدهشها فتزلقَ فتسقطَ.

ومَن علّم اليربوعَ أن يحفرَ بيتَه في سفح الوادي حيث يرتفعُ عن مجرى السيل ليَسْلم من مَدَقّ الحافر ومجرى الماء، ويعمقَه ثم يتخذ في زواياه أبواباً عديدةً ويجعلَ بينها وبين وجه الأرض حاجزاً رقيقاً، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه. ولما كان كثيرَ النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمةٍ أو صخرة علامةً له على البيت إذا ضل عنه.

ومَنْ علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه حتى يذهب ذلك السِّمن ثم يظهر.

ومَن علم الأيْلَ إذا سقط قرنُه أن يتوارى لأنّ سلاحه قد ذهب فيسمنُ لذلك فإذا كمل نباتُ قرنه تعرّضَ للشمس وللريح وأكثرَ من الحركة ليشتد لحمه ويزول السِّمن المانع له من العدو.

وهذا باب واسع جداً ويكفي فيه قولُه سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

---

(١) سورة الأنعام، الآية /٣٨/.

وقد قال النبي ﷺ: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرتُ بقتلها»[1].

وهذا يحتملُ وجهين، أحدُهما: أن يكون إخباراً عن أمر غير ممكنٍ فعلُه، وهو أن الكلاب أمة لا يمكن إفناؤها لكثرتها في الأرض فلو أمكن إعدامها من الأرض لأمرتُ بقتلها.

والثاني: أن يكون مثلَ قوله: أمِنْ أجلِ أنْ قرصتكَ نملة أحرقتَ أمةً من الأمم تسبّح، فهي أمةٌ مخلوقة بحكمة ومصلحة فإعدامُها وإفناؤها يناقض ما خُلقتْ لأجله، والله أعلم بما أراد رسولُه.

قال ابن عباس في رواية عطاء: «إلا أمم أمثالكمْ» يريدُ يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[2]، ومثل قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾[3].

ويدل على هذا قولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾[4]، وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾[5] ويدل عليه قولُه تعالى: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾[6].

ويدل عليه قولُه: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾[7] وقولُه: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ

---

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود برقم /٢٨٤٥/ في الصيد، باب ما جاء في اتخاذ الكلب للصيد، والترمذي برقم /١٤٨٦ و١٤٨٩/ في الصيد، باب ما جاء في قتل الكلاب، وباب ما جاء من أمسك كلباً ما ينقص من أجره. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سورة الإسراء، الآية /٤٤/.

(٣) سورة النور، الآية /٤١/.

(٤) سورة الحج، الآية /١٨/.

(٥) سورة النحل، الآية /٤٩/.

(٦) سورة سبأ، الآية /١٠/.

(٧) سورة النحل، الآية /٦٨/.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾[1]، وقول سليمان: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾[2].

وقال مجاهد: «أمم أمثالكم» أصنافٌ مصنفة تُعرف بأسمائها.

وقال الزجاج «أمم أمثالكم» في أنها تُبعث. وقال ابن قتيبة: «أمم أمثالكم» في طلب الغذاء وابتغاء الرزق وتوقي المهالك.

وقال سفيان بن عيينة: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبهٌ من البهائم، فمنهم مَن يهتصر اهتصارَ الأسد، ومنهم مَن يعدو عَدْوَ الذئب، ومنهم مَن ينبَح نباحَ الكلب، ومنهم مَن يتطوسُ كفعل الطاووس، ومنهم مَن يشبه الخنازير التي لو أُلقي إليها الطعامُ الطيب عافته فإذا قام الرجلُ عن رجيعه وَلغتْ فيه، فلذلك تجدُ من الآدميين مَن لو سمع خمسين حكمةً لم يحفظ واحدةً منها وإن أخطأ رجلٌ تروَّاه وحفظه.

قال الخطابي: ما أحسنَ ما تأولَ سفيانُ هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمةَ، وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمهُ مطاوعاً لظاهره وَجب المصيرُ إلى باطنه، وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنعٌ مِن جهة الخلقة والصورة، منعدم مِن جهة النطق والمعرفة، فوجبَ أن يكون منصرفاً إلى المماثلة في الطباع والأخلاق. وإذا كان الأمر كذلك فأعلم أنك إنما تعاشرُ البهائمَ والسباعَ فليكن حذرُك منهم ومباعدتُك إياهم على حسب ذلك، انتهى كلامه.

والله سبحانه قد جعل بعضَ الدواب كسوباً محتالاً وبعضها متوكلاً غيرَ محتال. وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوتَ سَنته، وبعضها يتكلُ على الثقة بأن له في كل يوم قدرَ كفايته رزقاً مضموناً وأمراً مقطوعاً، وبعضها يدخر وبعضها لا تكسّبَ له، وبعضَ الذكورة يعولُ ولدَه وبعضها لا يعرف ولده البتة، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه وبعضها تضع ولدها وتكفلُ ولدَ غيرِها، وبعضها لا تعرفُ ولدَها إذا استغنى عنها وبعضها لا تزال تعرفُه وتعطفُ عليه.

وجعلَ بعضَ الحيوانات يُتْمُها مِن قِبل أمهاتها، وبعضها يتُمها من قل آبائها، وبعضَها لا يلتمس الولدَ وبعضَها يستفرغُ الهم في طلبه، وبعضَها يعرف الإحسانَ ويشكره وبعضَها ليس ذلك عنده شيئاً، وبعضها يؤثرُ على نفسه، وبعضَها إذا ظفر بما

---

(١) سورة النمل، الآية /١٨/.

(٢) سورة النمل، الآية /١٦/.

يكفي أمةً مِن جنسه لم يدع أحداً يدنو منه، وبعضَها يحب السِّفاد ويكثرُ منه وبعضَها لا يفعله في السنة إلا مرة، وبعضَها يقتصر على أنثاه وبعضَها لا يقف عل أنثى ولو كانت أمه أو أخته، وبعضَها لا تمكِّنُ غيرَ زوجها مِن نفسها وبعضَها لا تردّ يد لامس.

وبعضَها يألف بني آدم ويأنس بهم وبعضَها يستوحش منهم وينفر غايةَ النِّفار، وبعضَها لا يأكل إلا الطيِّبَ وبعضَها لا يأكُلُ إلا الخبائث، وبعضَها يجمع بين الأمرين، وبعضَها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها، وبعضَها يؤذي مَن لا يؤذيها، وبعضَها حقود لا ينسى الإساءة، وبعضَها لا يذكرها البتة، وبعضَها لا يغضبُ وبعضَها يشتد غضبُه فلا يزال يُسترضى حتى يرضَى.

وبعضَها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهْتدي إليها أكثرُ الناس، وبعضَها لا معرفةَ له بشيء من ذلك البتة، وبعضَها يستقبحُ القبيحَ وينفر منه وبعضَها الحسنُ والقبيحُ سواء عنده، وبعضَها يقبلُ التعليمَ بسرعة وبعضَها مع الطول وبعضَها لا يقبل ذلك بحالٍ.

وهذا كله مِنْ أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه وعلى إتقان صُنعه وعجيب تدبيره ولطيف حكمته، فإن فيما أودعَها من غرائب المعارفِ وغوامض الحيل وحُسن التدبير والتأتّي لما تريده ما يستنطقُ الأفواهَ بالتسبيح ويملأُ القلوبَ مِن معرفته ومعرفة حكمته وقدرته، وما يَعلمُ به كلّ عاقلٍ أنه لم يخْلَقْ عبثاً ولم يُترك سدىً، وأن له سبحانه في كل مخلوق حكمةً باهرةً وآيةً ظاهرة وبرهاناً قاطعاً يدلّ على أنه ربّ كل شيء ومليكُه، وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه وأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم.

فصل: فلنرجع إلى ما ساقنا إلى هذا الموضع وهو الكلامُ على الهداية العامة التي هي قرينةُ الخلق في الدلالة على الرب تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته وتوحيده.

قال تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]

قال مجاهد: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ لم يعطِ الإنسان خَلْق البهائم ولا

(١) سورة طه، الآية /٥٠/.

البهائمَ خلْق الإنسان. وأقوالُ أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى، قال عطية ومقاتل: أعطى كلَّ شيء ثورتَه، وقال الحسن وقتادة: أعطى كلَّ شيء صلاحَه.

والمعنى أعطاه مِن الخلق والتصوير ما يصلحُ به لما خُلقَ له ثم هداه لما خُلق له وهداه لما يُصلحه في معيشته ومَطعمه ومشربه ومنكحة وتقلبه وتصرفه. هذا هو القولُ الصحيح الذي عليه جمهورُ المفسرين، فيكونُ نظير قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[1] وقال الكلبي والسدّي: أعطى الرجلَ المرأة، والبعيرَ الناقة، والذكرَ الأنثى مِن جنسه. ولفظ السدّي: أعطى الذكر الأنثى مثلَ خَلْقه ثم هَدَى إلى الجماع.

وهذا القولُ اختيارُ ابن قتيبة والفراء. قال الفراء: أعطى الذكرَ من الناس امرأةً مثلَه، والشاةَ شاةً، والثورَ بقرةً، ثم ألهمَ الذكرَ كيف يأتيها. قال أبو إسحاق: وهذا التفسيرُ جائز لأنا نرى الذكرَ من الحيوان يأتي الأنثى ولم يرَ ذكراً قد أتى أنثى قبله، فألهمه الله ذلك وهداه إليه. قال: والقولُ الأولُ ينتظم هذا المعنى لأنه إذا هداه لمصلحته فهذا داخلٌ في المصلحة.

قلتُ: أربابُ هذا القول هضموا الآيةَ معناها، فإن معناها أجلُّ وأعظم مما ذكروه. وقوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يأبى هذا التفسيرَ فإنّ حمْلَ كلّ شيء على ذكور الحيوان وإناثه خاصةً ممتنعٌ لا وجهَ له، وكيف يَخرجُ مِن هذا اللفظ الملائكةُ والجنُّ ومَن لم يتزوجْ من بني آدم ومَن لم يسافدْ من الحيوان، وكيف يُسمَّى الحيوان الذي يأتيه الذكر خَلْقاً له، وأين نظيرُ هذا في القرآن وهو سبحانه لما أراد التعبيرَ عن هذا المعنى الذي ذكروه ذكره بأدلِّ عبارةٍ عليه وأوضحها فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾[2] فحملُ قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾[3] على هذا المعنى غيرُ صحيح، فتأمله.

وفي الآية قولٌ آخرُ قاله الضحاك قال: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أعطى اليدَ البطشَ، والرّجل المشي، واللسان النطقَ، والعينَ البصرَ، والأذنَ السمعَ.

ومعنى هذا القول: أعطى كلَّ عضو من الأعضاء ما خُلق له، والخلْق على هذا بمعنى المفعول، أي أعطى كلَّ عضو مخلوقَه الذي خَلقه له، فإن هذه المعاني كلّها

---

(١) سورة الأعلى، الآية /٣/.

(٢) سورة النجم، الآية /٤٥/.

(٣) سورة طه، الآية /٥١/.

مخلوقةٌ لله أودعها الأعضاء.

وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه لكن معنى الآية أعم - والقولُ هو الأولُ وأنه سبحانه أعطى كلّ شيء خلقه المختص به ثم هدَاه لما خُلق له ولا خالقَ سواه سبحانه ولا هاديَ غيره، فهذا الخلقُ وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته، فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون.

ولهذا لما عَلم فرعون أن هذه حجةٌ قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه عَدَل إلى سؤالٍ فاسدٍ غير وارد فقال: ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾(١) أي فما للقرون الأولى لم تقرّ بهذا الرب ولم تعبده بل عبدت الأوثان، والمعنى: لو كان ما تقولُه حقاً لم يَخْفَ على القرون الأولى ولم يهملوه، فاحتجّ بما يشاهده هو وغيرُه من آثار ربوبية ربّ العالمين، فعارضه عدوُّ الله بكفر الكافرين به وشِرك المشركين.

وهذا شأنُ كلِّ مبطل، ولهذا صار هذا ميزاناً في ورثته يعارضون نصوصَ الأنبياء بأقوال الزنادقة والملاحدة، وأفراخ الفلاسفة والصابئة والسَّحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم، فأجابه موسى عن معارضته بأحسنِ جواب فقال: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾(٢).

أي أعمالُ تلك القرون وكفرهُم وشِركهم معلوم لربي قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب فيجازيهم عليه يوم القيامة، ولم يُودعه في كتاب خَشْيَة النسيان والضلال فإنه سبحانه لا يضلّ ولا ينسى، وعلى هذا فالكتاب ها هنا كتابُ الأعمال. وقال الكلبي: يعني به اللوحَ المحفوظَ، وعلى هذا فهو كتابُ القدَر السابق، والمعنى على هذا: أنه سبحانه قد علم أعمالَهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها فيكون هذا مِن تمام قوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ فتأمله.

فصل: وهو سبحانه في القرآن كثيراً ما يجمعُ بين الخلق والهداية كقوله في أول سورةٍ أنزلها على رسوله: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(٣).

---

(١) سورة طه، الآية /٥١/.
(٢) سورة طه، الآية /٥٢/.
(٣) سورة العلق الآيات: /١ - ٥/.

وقوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾[1]،

وقوله: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴾[2].

وقوله: ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[3].

وقوله: ﴿ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ ﴾[4] الآيات، ثم قال: ﴿ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾[5].

فالخلقُ إعطاءُ الوجود العيني الخارجي، والهدى إعطاءُ الوجـود العلمي الذهني، فهذا خَلْقهُ وهذا هداه وتعليمهُ.

فصل: المرتبةُ الثانية من مراتب الهداية هدايةُ الإرشاد والبيان للمكلَّفين، وهـذه الهـدايةُ لا تستلزمُ حصـولَ التوفيق واتّبـاعَ الحق، وإنْ كـانت شـرطـاً فيـه، أو جـزءَ سببٍ، وذلك لا يستلزم حصولَ المشـروط والمسبَّب، بل قـد يتخلفُ عنه المقتضى إما لعدم كمال السبب أو لوجود مانع.

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾[6] وقـال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾[7]، فهداهم هدى البيانِ والدلالةِ فلم يهتدوا فأضلَّهم عقـوبةً لهم على تـرك الاهتداء أولاً بعد أن عَرَفوا الهدى فأعرضوا عنه فأعماهم عنه بعد أن أراهموه.

وهذا شأنه سبحانه في كلّ مَن أنعمَ عليه بنعمةٍ فكفَرها، فإنـه يسلبه إياها بعـد أن

---

(١) سورة الرحمن، الآيات /١ - ٤/.
(٢) سورة البلد، الآية /٨ - ١٠/.
(٣) سورة الإنسان، الآية /٢ - ٣/.
(٤) سورة النمل، الآية /٦٠/.
(٥) سورة النمل، الآية /٦٣/.
(٦) سورة فُصِّلت، الآية /١٧/.
(٧) سورة التوبة، الآية /١١٥/.

كان نصيبه وحظَّه، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾[1].

وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمًا وَعُلُوًّاۚ ﴾[2] أي جحدوا بآياتنا بعد أن تيقنوا صحتها،

وقال: ﴿ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمًا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

وهذه الهدايةُ هي التي أثبتها لرسوله حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[4] ونَفَى عنه تلك الهدايةالموجبة وهي هدايةُ التوفيق والإلهام بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾[5].

ولهذا قال ﷺ: بُعثتُ داعياً ومبلغاً وليس إليّ من الهداية شيء، وبُعث إبليسُ مُزيناً ومُغْوياً وليس إليه من الضلالة شيء[6].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[7] فجمعَ سبحانه بين الهدايتين العامة والخاصة فعمَّ بالدعوة حُجةً مشيئةً وعَدْلاً، وخصَّ بالهداية نعمةً مشيئةً وفضلاً.

وهذه المرتبةُ أخصُّ من التي قبلها فإنها هدايةٌ تخصّ المكلَّفين، وهي حجة الله على خَلْقه التي لا يعذب أحداً إلا بعد إقامتها عليه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾[8].

---

(١) سورة الأنفال، الآية /٥٣/.
(٢) سورة النمل، الآية /١٤/.
(٣) سورة آل عمران، الآية /٨٦/.
(٤) سورة الشورى، الآية /٥٣/.
(٥) سورة القصص، الآية /٥٦/.
(٦) حديث موضوع، رواه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٩) برقم /٤١٠/ وذكره السيوطي في الجامع الصغير، وقد أشار الشيخ الألباني إلى وضعه في ضعيف الجامع برقم /٢٣٣٨/ وعزاه للعقيلي وابن عدي في الكامل.
(٧) سورة يونس، الآية /٢٥/.
(٨) سورة الإسراء، الآية /١٥/.

وقال: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (١)،

وقال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

وقال: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ (٣).

فإنْ قيل: كيف تقوم حجته عليهم وقد مَنَعهم من الهدى وحال بينهم وبينه، قيل: حجتهُ قائمةٌ عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى وبيانِ الرسل لهم، وإراءتهم الصراطَ المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عِياناً، وأقام لهم أسبابَ الهداية ظاهراً وباطناً ولم يحلْ بينهم وبين تلك الأسباب، ومَن حال بينه وبينها منهم بزوالِ عقلٍ أو صغرٍ لا تمييز معه أو كَوْنِه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوةُ رسلهِ فإنه لا يعذبه حتى يقيمَ عليه حجته، فلم يمنعهم من هذا الهدى ولم يحلْ بينهم وبينه.

نعم، قطَع عنهم توفيقَه ولم يُرِدْ مِن نفسه إعانتهمُ والإقبالَ بقلوبهم إليه فلم يَحُل بينهم وبين ما هو مقدورٌ لهم وإنْ حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه وهو فِعْلهُ ومشيئتهُ وتوفيقهُ. فهذا غيرُ مقدورٍ لهم وهو الذي مُنِعُوه وحِيل بينهم وبينه. فتأمل هذا الموضع واعرفْ قَدْرَه، والله المستعان.

فصل: المرتبةُ الثالثةُ مِن مراتب الهداية هدايةُ التوفيق والإلهام وخَلْقِ المشيئة المستلزمةِ للفعل. وهذه المرتبةُ أخصُّ مِن التي قبلها، وهي التي ضلَّ جُهالُ القدَرية بإنكارها، وصاح عليهم سلفُ الأمة وأهل السنة منهم مِن نواحي الأرض عصراً بعد عصر إلى وقتنا هذا.

ولكنَّ الجبريةَ ظلمتهم ولم تنصفْهم كما ظلموا أنفسهم بإنكار الأسباب والقُوى وإنكار فعلِ العبد وقدرتِه وأن يكون له تأثيرٌ في الفعل البتة، فلم يهتدوا لقول هؤلاء

(١) سورة النساء، الآية /١٦٥/.
(٢) سورة الزمر، الآية /٥٦/.
(٣) سورة الملك، الآيتان /٨ - ٩/.

بل زادهم ضلالاً على ضلالهم وتمسكاً بما هم عليه.

وهذا شأنُ المبطل إذا دعا مبطلاً آخرَ إلى تَـرْكِ مذهبه لقولِه ومذهبِه الباطلِ، كالنصرانيّ إذا دعا اليهوديَّ إلى التثليث وعبادةِ الصليب وأن المسيح إله تامٌّ غيرُ مخلوق، إلى أمثالِ ذلك من الباطل الذي هو عليه.

وهذه المرتبة تستلزمُ أمرين: أحدهما فعل الرب تعالى وهو الهدى، والثاني فعل العبد وهو الاهتداء، وهو أثر فعله سبحانه فهو الهادي والعبدُ المهتدي، قال تعالى ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾[1] ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام، فإن لم يحصلْ فعلهُ لم يحصلْ فعلِ العبد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾[2].

وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له ﷺ ولو حرص عليه، ولا إلى أحدٍ غير الله، وأن الله سبحانه إذا أضلّ عبداً، لم يكن لأحد سبيلٌ إلى هدايته كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾[3].وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4]،

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[6].

---

(١) سورة الإسراء، الآية /٩٨/.
(٢) سورة النحل، الآية /٣٧/.
(٣) سورة الأعراف، الآية /١٨٦/.
(٤) سورة الأنعام، الآية /٣٩/.
(٥) سورة فاطر، الآية /٨/.
(٦) سورة الجاثية، الآية /٢٣/.

وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[1]

وقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[2].

وقال ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[3].

وقال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[4].

وقال أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[5].

ولم يريدوا أن بعضَ الهدى منه وبعضه منهم، بل الهدى كله منه ولولا هدايته لهم لما اهتدوا.

وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي ٱنتِقَامٍ ﴾[6].

وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[7].

وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[8].

وقال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

---

(١) سورة البقرة، الآية /٢٧٢/.
(٢) سورة السجدة، الآية /١٣/.
(٣) سورة الرعد، الآية /٣١/.
(٤) سورة الأنعام، الآية /١٢٥/.
(٥) سورة الأعراف، الآية /٤٣/.
(٦) سورة الزمر، الآية /٣٦/.
(٧) سورة إبراهيم، الآية /٤/.
(٨) سورة النحل، الآية /٣٦/.

وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾[2]

وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[3].

وقال: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4].

وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة في الصلوات الخمس، وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط والهداية فيه، كما أن الضلال نوعان: ضلالٌ عن الصراط فلا يهتدى إليه، وضلالٌ فيه، فالأول ضلالٌ عن معرفته، والثاني ضلال عن تفاصيله أو بعضها.

قال شيخنا: «ولما كان العبد في كل حال مفتقراً إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذرهُ ـ من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو محتاج إلى التوبة منها، وأمور هدي إلى أصلها دون تفصيلها أو هُدي إليها من وجهٍ دون وجه فهو محتاجٌ إلى تمام الهداية فيها ليزداد هدى. وأمورٍ هو محتاجٌ إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمورٍ هو خال عن اعتقادٍ فيها هو محتاجٌ إلى الهداية [فيها] وأمورٍ لم يفعلها فهو محتاجٌ إلى فعلها على وجه الهداية، إلى غير ذلك من أنواع الهدايات ـ فرض الله عليه أنْ يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله، وهي الصلاةُ، مراتٍ متعددةً في اليوم والليلة». انتهى كلامه.

ولا يتم المقصود إلا بالهداية إلى الطريق والهداية فيها، فإن العبد قد يهتدي إلى طريق تصده وتزيله عن غيرها ولا يهتدي إلى تفاصيل سيره فيها وأوقات السير من غيره وزاد المسير وآفات الطريق.

ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً

(١) سورة إبراهيم، الآية /٢٧/.
(٢) سورة المدثر، الآية /٣١/.
(٣) سورة البقرة، الآية /٢٦/.
(٤) الآية /١٦/ من سورة المائدة.

﴿وَمِنْهَاجًا﴾(١) قال: سبيلاً وسنةً. وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، فالسبيلُ الطريقُ وهي المناجُ، والسنةُ الشرعةُ وهي تفاصيلُ الطريق وحُزوناته وكيفيةُ المسير فيه وأوقات المسير، وعلى هذا فقوله «سبيلاً وسنة» يكون السبيلُ المنهاجُ والسنةُ الشرعة، فالمقدمُ في الآية للمؤخر في التفسير. وفي لفظ آخر، «سنة وسبيلاً» فيكون المقدمُ للمقدم والمؤخر للتالي.

فصل: ومن هذا إخبارهُ سبحانه بأنه طبعَ على قلوب الكافرين وختم عليها وأنه أصمَّها عن الحق وأعمى أبصارها عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾(٢)، والوقفُ التام هنا. ثم قال: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾(٣)- كقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾(٦)، ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾(٧)، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾(٨).

وأخبر سبحانه أن على بعض القلوب أقفالاً تمنعها من أن تنفتح لدخول الهدى إليها وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾(٩)

---

(١) الآية /٤٨/ من سورة المائدة. وانظر قول ابن عباس رضي الله عنه في تفسير الآية في جامع البيان للطبري (٦/ ٢٧٠).

(٢) الآية /٦/ من سورة البقرة.

(٣) الآية /٧/ من سورة البقرة.

(٤) سورة الجاثية، الآية /٢٣/.

(٥) سورة النساء، الآية /١٥٥/.

(٦) سورة الأعراف، الآية /١٠١/.

(٧) سورة يونس، الآية /٧٤/.

(٨) سورة الأعراف، الآية /١٠٠/.

(٩) سورة فصلت، الآية /٤٤/.

فهذا الوقرُ والعمى حال بينهم وبين أن يكون لهم هدى وشفاءً.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[1]،

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ﴾[2].

قرأها الكوفيون «وصـد» بضم الصاد حمـلا على (زُين) وقال تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾[3].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4] ومعلوم أنـه لم ينف هدى البيـان والدلالةِ الذي تقومُ به الحجة فإنه حجته على عباده.

والقدرية ترد هذا كله إلى المتشابه، وتجعله من متشابه القرآن، وتتأوله على غير تأويله، بل تتأوله بما يقطع ببطلانه وعدم إرادة المتكلم له، كقـول بعضهم: «المرادُ من ذلك تسميةُ الله العبدَ مهتدياً وضالاً»، فجعلوا هداه وإضلالهُ مجردَ تسميـة العبد بذلك، وهذا مما يعلم قطعاً أنه لا يصح حملُ هذه الآيـات عليه. وأنت إذا تـأملتها وجدتها لا تحتملُ ما ذكروه البتة.

وليس في لغـة أمة من الأمم فضـلاً عن أفصـح اللغـات وأكملهـا «هـداه» بمعنى سماه مهتديـاً، و«أضله» سماه ضـالاً، وهل يصـح أن يقال «علمـه» إذا سماه عـالماً و«فهمه» إذا سماه فهماً؟!

وكيف يصـح هذا في مثـل قـولـه تعـالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾[5] فهـل فهم أحدٌ غيـرُ القدريـة المحرفـة للقرآن من هـذا ليس عليك تسميتهم مهتدين ولكن الله يسمي من يشاء مهتدياً.

وهل فهم أحد قط من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[6] لا تسميه

---

(١) سورة الكهف، الآية /٥٧/.
(٢) سورة غافر الآية: /٣٧/.
(٣) سورة غافر، الآية /٢٨/.
(٤) سورة الأحقاف، الآية /١٠/.
(٥) سورة البقرة، الآية /٢٧٢/.
(٦) سورة القصص، الآية /٥٦/.

مهتدياً ولكن الله يسميه بهذا الاسم؟!

وهـل فهم أحد من قـول الـداعي: «اهـدنـا الصـراط المستقيم» وقـولـه: «اللهم اهدني من عندك» ونحوه اللهم سمني مهتدياً؟

وهذا من جناية القدرية على القرآن ومعنـاه نظيـرُ جنايـةِ إخوانهم من الجهميـة[1] على نصوص الصفات وتحريفها عن مواضعها. وفتحوا للزنادقـة والملاحـدة جنايتهم على نصـوص المعاد وتـأويلها بتـأويـلات إن لم تكن أقـوى من تـأويـلاتهم لم تكن دونها. وفتحوا للقرامطة والباطنية تأويل نصوص الأمر والنهي بنحو تأويلاتهم.

فتأويلُ التحريفِ الذي سلسلته هذه الطوائفُ أصلُ فسـادِ الدين وخـرابِ العالم. وسنفردُ إن شاء الله كتاباً نذكر فيه جناية المتأولين على الدنيا والدين.

وأنت إذا وازنت بين تأويلات القدرية[2] والجهمية والرافضة[4] لم تجد بينهـا وبين تأويلات الملاحدة والزنادقة من القرامطة والباطنية وأمثالهم كبير فرق.

والتأويل الباطلُ يتضمن تعطيل ما جاء به الرسول والكذبَ على المتكلم أنـه أراد ذلك المعنى، فتضمن إبطال الحق وتحقيق الباطل ونسبة المتكلم إلى ما لا يليق بـه من التلبيس والإلغاز مع القول عليه بلا علم إنه أراد هذا المعنى.

فالمتأوِّل عليه أن يبين صلاحية اللفظ للمعنى الذي ذكره أولاً، واستعمال المتكلم له في ذلك المعنى في أكثر المواضع حتى إذا استعمله فيما يحتمل غيره حمل على ما عهد منه استعماله فيه.

وعليه أن يقيم دليلاً سالماً عن المعارض على الموجب لصرف اللفظ عن ظاهـره وحقيقته إلى مجازه واستعارته، وإلا كان ذلك مجرد دعوى منه فلا تقبل.

وتأول بعضهم هذه النصوص على أن المراد بها هدايـة البيان والتعـريـف لا خلق الهـدى في القلب، فإن الله سبحـانه لا يقـدر على ذلك عنـد هذه الـطائفـة. وهـذا

(١) الجهمية: هم أصحاب جهم بن صفوان الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل أخـذاً ذلك عن الجعو بن درهم الذي ضحى به خالد القسري يوم الأضحى، ومما انفـرد به جهم قـولـه: إن الجنـة والنار تفنيـان، وأن ازيمان المعـرفة فقط، وإن الإنسـان مجبـور، وأن مـا تنسب إليـه الأفعال على سبيل المجاز فقط، قتله سالم بن أحوز بمرو في آخر ملك بني أمية.

(٢) القدرية: سبقت ترجمتها.

التأويل من أبطل الباطل، فإن الله سبحانه يخبر أنه قسم هدايته للعبد قسمين: قسماً لا يقدر عليه غيره، وقسماً مقدوراً للعباد، فقال في القسم المقدور للغير: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

وقال في غير المقدور للخير: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(٢) وقال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾(٣).

ومعلومٌ قطعاً أن البيانَ والدلالةَ قد تحصل له ولا تنفى عنه. وكذلك قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾(٤) لا يصح حملُه على هداية الدعوة والبيان، فإن هذا يهدي وإن أضله الله بالدعوة والبيان.

وكذا قولُه: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾(٥) هل يجوزُ حمْله على معنى فمن يدعوه إلى الهدى ويبيّن له ما تقوم به حجةُ الله عليه؟

وكيف يصنع هؤلاء بالنصوص التي فيها أنه سبحانه هو الذي أضلّهم؟ أيجوزُ لهم حملُها على أنه دعاهم إلى الضلال؟ فإن قالوا: ـ ليس ذلك معناها وإنما معناها ألفاهُم ووجدهم كذلك، أو أعلمَ ملائكتَه ورسلَه بضلالهم، أو جعلَ على قلوبهم علامةً يعرفُ الملائكةُ بها أنهم ضُلّال ـ قيل: هذا من جنس قولكم: إن هُداه سبحانه وإضلالَه بتسميتهم مهتدين وضالين.

فهذه أربعُ تحريفات لكم وهو أنه سماهم بذلك، وعلّمهم بعلامة يعرفهم بها الملائكة، وأخبر عنهم بذلك ووجدَهم كذلك. فالإخبار من جنس التسمية، وقد بينا أن اللغة لا تحتملُ ذلك، وأن النصوص إذا تأملها المتأملُ وجدَها أبعدَ شيء من هذا المعنى. وأما العلامةُ فيا عجبًا لفرقةِ التحريف وما جَنتْ على القرآن والإيمان.

---

(١) سورة الشورى، الآية /٥٢/.
(٢) سورة القصص، الآية /٥٦/.
(٣) سورة الأعراف، الآية /١٨٦/.
(٤) سورة النحل، الآية /٣٧/.
(٥) سورة الجاثية، الآية /٢٣/.

ففي أي لغة وأي لسان يدل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1] على معنى إنك لا تعلّمه بعلامة ولكن الله هو الذي يعلمه بها، وقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾[2]. من يعلمه الله بعلامة الضلال لم يعلمه غيره بعلامة الهدى، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[3] لعلمناها بعلامةِ الهدى الذي خلقتْه هي لنفسها وأعطته نفسها.

وفي أي لغةٍ يُفهم من قول الداعي: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[4] علّمنا بعلامة يعرفُ الملائكة بها أننا مهتدون، وقولُهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[5] لا تعلمها بعلامةِ أهل الزيغ.

وقولُه ﷺ: «يا مقلبَ القلوب ثبتْ قلبي على دينك»[6].

وقوله: «اللهم مصرّف القلوب صرفْ قلبي على طاعتك»[7].

وأمثالُ ذلك من النصوص، ففي أي لغة وأي لسان يُفهم من هذا علّمنا بعلامة الثبات والتصريف على طاعتك؟ وفي أي لغة يكون معنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾[8] علمناها بعلامة القسوة أو وجدناها كذلك؟ نعم لو نزلَ القرآنُ بلغة القدرية والجهمية وأهل البدع لأمكن حملُه على ذلك، أو كان الحق تبعاً لأهوائهم وكانت نصوصُه تبعاً لبدع المبتدعين وآراء المتحيرين.

وأنت تجدُ جميع هذه الطوائف تُنزل القرآنَ على مذاهبها وبدعها وآرائها، فالقرآن عند الجهمية جهمي، وعند المعتزلة معتزلي، وعند القدرية قدري، وعند الرافضة

---

(١) سورة القصص، الآية /٥٦/.
(٢) سورة الأعراف، الآية /١٨٦/.
(٣) سورة السجدة، الآية /١٣/.
(٤) سورة الفاتحة، الآية /٦/.
(٥) سورة آل عمران، الآية /٨/.
(٦) جزء من حديث صحيح، رواه الترمذي برقم /٢١٤١/ في القدر، باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
(٧) جزء من حديث رواه الإمام مسلم برقم /٢٦٥٤/ في القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
(٨) سورة المائدة، الآية /١٣/.

رافضي، وكذلك هو عند جميع أهل الباطل، وما كانوا أولياءه: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وأما تحريفهم هذه النصوصَ وأمثالَها بأن المعنى ألفاهم ووجدهم ففي أي لسان وأي لغة وجدتم «هديتُ» الرجلَ إذا وجدتَه مهتدياً، أو ختمَ الله على قلبه وسمعه وجعلَ على بصره غشاوةً: وجدَه كذلك؟ وهل هذا إلا افتراء محضٌ على القرآن واللغة.

فإن قالوا: نحن لم نقل هذا في نحو ذلك وإنما قلناه في نحو أضله الله أي وجده ضالاً، كما يقال أحمدتَ الرجلَ وإبخلتَه وأجننته، إذا وجدته كذلك أو نسبتَه إليه ـ فيقال لفرقة التحريف: هذا إنما وردَ في ألفاظ معدودة نادرة، وإلا فضع هذا البناءَ على أنك فعلتَ ذلك، به، ولا سيما إذا كانت الهمزةُ للتعدية من الثلاثي كقام وأقمته، وقعد وأقعدته، وذهب وأذهبته، وسمع وأسمعته، ونام وأنمته، وكذا ضل وأضله الله، وأسعده وأشقاه، وأعطاه وأخزاه، وأماته وأحياه، وأزاغ قلبه، وأقامه إلى طاعته، وأيقظه مِن غفلته، وأراه آياتِه، وأنزله منزلاً مباركاً وأسكنه جنته، إلى أضعاف ذلك، هل تجدُ فيها لفظاً واحداً معناه أنه وجده كذلك؟ تعالى الله عما يقول المحرِّفون.

ثم انظرْ في كتاب «فعل وأفعل» هل تظفرُفيه بأفعلته بمعنى وجدته مع سَعة الباب إلا في الحرفين أو الثلاثة نقلاً عن أهل اللغة؟.

ثم أنظرْ هل قال أحدٌ من الأولين والآخرين من أهل اللغة إن العرب وضعت أضله الله وهداه وختم على سمعه وقلبه وأزاغ قلبه وصرفه عن طاعته ونحو ذلك لمعنى وجده كذلك؟

ولما أراد سبحانه الإبانةَ عن هذا المعنى قال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[2] ولم يقل: وأضلك. وقال في حق مَن خالف الرسولَ وكفر بما جاء به: «وأضله على علم» ولم يقل: ووجده الله ضالاً.

---

(١) سورة الأنفال، الآية /٣٤/.
(٢) سورة الضحى، الآية /٧/.

ثم أي توحيدٍ وتمدّح وتعريفٍ للعباد أن الأمر كله لله وبيده وأنه ليس لأحد من أمره شيء من مجرد التسمية والعلامة ومصادفة الرب تعالى عبادَه كذلك ووجودِه لهم على هذه الصفات مِن غير أن يكون له فيها صنُع أو خلق أو مشيئة؟

وهل يعجزُ البشرُ عن التسمية والمصادفة والوجود كذلك؟ فأيُّ مدحٍ وأي ثناء يحسن على الربَ تعالى بمجرد ذلك؟!

فأنتم وإخوانكم من الجبرية لم تمدحوا الرب بما يستحق أن تُمدح به ولم تثنوا عليه بأوصاف كماله ولم تقدروه حقّ قدره.

وأتباعُ الرسول وحزبُه وخصاته بريئون منكم ومنهم في باطلكم وباطلهم، وهم معكم ومعهم فيما عندكم من الحق لا يتحيزون إلى غير ما بيّنه الرسولُ وجاء به ولا ينحرفون عنه نصرةً لآراء الرجال المختلفة وأهوائهم المتشتتة. و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(1).

قال ابن مسعود: علّمنا رسولُ الله ﷺ التشهدَ في الصلاة والتشهدَ في الحاجة، أن الحمدَ لله نستعينهُ ونستغفرهُ ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، مَن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله، ويقرأ ثلاث آيات: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾(2) الآية: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(3). ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾(4) الآية. قال الترمذي: هذا حديث صحيح(5).

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن خالد الحذاء عن عبد

---

(1) سورة الحديد، الآية /٢١/.
(2) سورة آل عمران، الآية /١٠٢/.
(3) سورة النساء، الآية /١/.
(4) سورة الأحزاب، الآية /٧٠ ـ ٧١/.
(5) رواه الترمذي برقم /١١٠٥/ في النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح، وأبو داود برقم /٢١١٨/ في النكاح، باب في خطبة النكاح، والنسائي (١٠٥/٣) في الجمعة، باب كيفية الخطبة، وهو حديث صحيح بطرقه، راجع تخريجه في رسالة خطبة الحاجة لشيخنا محمد ناصر الدين الألباني حفظه الله. وهذا الحديث بيان لخطبة الحاجة والتي تفتتح بها جميع الخطب سواء كانت خطبة نكاح، أو خطبة جمعة أو غيرها، وقد كان السلف الصالح يقدمونها بين يدي دروسهم وكتبهم ومختلف شؤونهم.

الأعلى عن عبد الله بن الحارث قال، خطبَ عمرُ بن الخطاب بالجابية فحمد الله وأثنى عليه وعنده جاثليق[1] يترجم له ما يقول فقال ـ مَن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، فنفض جبينه كالمنكرِ لما يقول، قال عمر: ما يقول؟ قالوا: يا أمير المؤمنين يزعمُ أن الله لا يضل أحداً، قال عمر: كذبتَ أي عدوَّ الله، بل الله خلقك وقد أضلك ثم يدخلك النار، أما والله لولا عهد لكَ لضربتُ عنقك، إن الله عز وجل خلقَ أهل الجنة وما هم عاملون، وخلقَ أهلَ النار وما هم عاملون فقال: هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه. قال: فتفرق الناسُ وما يختلفون في القدر[2].

فصل: المرتبةُ الرابعةُ من مراتب الهدايةِ الهدايةُ إلى الجنة والنار يومَ القيامة.

قال تعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾[4].

فهذه هدايةٌ بعد قتلهم. فقيل المعنى: سيهديهم إلى طريق الجنة ويصلحُ بالهم في الآخرة بإرادة خصومهم وقَبولِ أعمالهم.

وقال ابن عباس: سيهديهم إلى أرشدِ الأمور ويعصمهم أيامَ حياتهم في الدنيا. واستُشكلَ هذا القولُ، لأنه أخبرَ عن المقتولين في سبيله بأنه سيهديهم، واختاره الزجاجُ وقال: يصلحُ بالَهم في المعاش وأحكام الدنيا، قال: وأراد به: يجمعُ لهم خيرَ الدنيا والآخرة. وعلى هذا القول فلا بد مِن حملِ قوله: ﴿قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على معنىً يصحُّ معه إثباتُ الهداية وإصلاحُ البال.

---

(١) (الجاثليق)؛ رئيس النصارى في بلاد الإسلام، ويكون تحت يد بطريق إنطاكية، انظر المعجم الوسيط (١/١٠٧).

(٢) هذه القصة رواها عبد الله بن أحمد في السنة ص ١٢٤، والأجري في الشريعة ص ٢٠٠، واللالكائي (٤/٦٥٩ ـ ٦٦١) بثلاثة طرق عن عبد الله بن الحارث وظاهرها الصحة، والله أعلم.

(٣) سورة الصَّافات، الآية /٢٣/.

(٤) سورة محمد، الآية /٤/.

البَابُ الخامِس عشر

في الطبع والختم والقُفل والغُل والسد والغشاوة والحائل بين الكافر وبين الإيمان وأن ذلك مجعول للرب تعالى

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[3]،

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4]،

وقال: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[5].

وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية /٦/.
(٢) سورة الجاثية، الآية /٢٣/.
(٣) سورة النساء، الآية /١٥٥/.
(٤) سورة الأعراف، الآية /١٠١/.
(٥) سورة الأعراف، الآية /١٠٠/.
(٦) سورة محمد، الآية /٢٤/.

وقال: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(1).

وقد دخلَ هذه الآيات ونحوَها طائفتا القدرية والجبرية فحرفها القدريةُ بأنواع من التحريف المبطل لمعانيها وما أريدَ منها.

وزعمت الجبريةُ أن الله أكرهها على ذلك وقهرَها عليه وأجبرها مِن غير فعل منها ولا إرادة ولا اختيار ولا كسب البتة. بل حال بينها وبين الهدى ابتداءً من غير ذنب ولا سببٍ من العبد يقتضي ذلك، بل أمرَه وحالَ مع أمره بينه وبين الهدى، فلم ييسرْ إليه سبيلاً ولا أعطاه عليه قدرةً ولا مكّنه منه بوجه. وأراد بعضُهم: بل أحبَّ له الضلالَ والكفرَ والمعاصيَ ورضيه منه. فهدَى أهلَ السنة والحديث وأتباعَ الرسول لما اختلف فيه هاتان الطائفتان من الحق بإذنه والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

قالت القدريةُ: لا يجوزُ حملُ هذه الآيات على أنه منعَهم من الإيمان وحال بينهم وبينه إذْ يكون لهم الحجةُ على الله، ويقولون كيف يأمرنا بأمر ثم يحُولُ بيننا وبينه ويعاقبنا عليه وقد مَنعنا مِن فعله؟ وكيف يكلفنا بأمر لا قدرة لنا عليه؟ وهل هذا إلا بمثابةِ مَنْ أمرَ عبدَه بالدخول مِن باب ثم سد عليه الباب سداً محكماً لا يمكنه الدخولُ معه البتة ثم عاقبه أشدَّ العقوبة على عدم الدخول؟، وبمنزلة مَن أمرَه بالمشي إلى مكان ثم قيده بقيد لا يمكنه معه نقلُ قدمه ثم أخذ يعاقبه على ترك المشي؟.

وإذا كان هذه قبيحاً في حق المخلوق الفقير المحتاج فكيف يُنسب إلى الرب تعالى مع كمال غناه وعلمه وإحسانه ورحمته.

قالوا: وقد كذَّب الله سبحانه الذين قالوا قلوبُنا غلف وفي أكنّه وإنها قد طُبع عليها وذَمَّهم على هذا القول فكيف يُنسب إليه تعالى؟

ولكن القومَ لما أعرضوا وتركوا الاهتداءَ بهداه الذي بَعثَ به رسله حتى صار

(1) سورة يس، الآية /8/.

ذلك الإعراضُ والنّفار كالإلف والطبيعة والسجية أشبه حالُهم حالَ مَن مُنِع عن الشيء وصدّ عنه وصار هذا وقْراً في آذانهم، وخَتماً على قلوبهم، وغشاوةً على أعينهم، فلا يخلُصُ إليها الهدى.

وإنما أضاف الله تعالى ذلك إليه لأن هذه الصفة قد صارت في تمكنها وقوة ثباتها كالخلقة التي خُلق عليها العبد. قالوا: ولهذا قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1]

وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[2]، وقال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[3].

وقال: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[4].

ولعمرُ الله إن الذي قاله هؤلاء حقُّه أكثرُ مِن باطله، وصحيحهُ أكثر مِن سقيمه، ولكن لم يوفوه حقَّه، وعظموا الله مِن جهةٍ وأخلوا بتعظيمه مِن جهة، فعظموه بتنزيهه عن الظلم وخلاف الحكمة، وأخلّوا بتعظيمه مِن جهة التوحيد وكمال القدرة ونفوذِ المشيئة.

والقرآن يدلّ على صحة ما قالوه في الرانِ والطبع والختمِ من وجهٍ، وبطلانِه من وجه. وأما صحتُه فإنه سبحانه جعلَ ذلكَ عقوبةً لهم وجزاءً على كفرهم وإعراضهم عن الحق بعد أن عرفوه، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[5]،

وقال: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[6].

وقال: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ

---

(١) الآية /١٤/ من سورة المطففين.
(٢) الآية /١٥٥/ من سورة النساء.
(٣) الآية /٥/ من سورة الصف.
(٤) الآية /٧٧/ من سورة التوبة.
(٥) سورة الصف، الآية /٥/.
(٦) سورة المطففين، الآية /١٤/.

﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1].

وقال: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[2].

وقد اعترفَ بعضُ القدرية بأن ذلك خَلْق الله سبحانه ولكنه عقوبةٌ على كفرهم وإعراضهم السابق، فإنه سبحانه يعاقبُ على الضلال المقدورِ بإضلالٍ بعدَه ويثيبُ على الهدى بهدىً بعدَه، كما يعاقب على السيئة بسيئة مثلِها ويثيب على الحسنة بحسنةٍ مثلها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[3]،

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ﴾[5]. ومن الفرقان الهدى الذي يفرقُ به بين الحق والباطلُ.

قال في ضد ذلك: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾[6].

وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[7].

وقال: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[8].

وهذا الذي ذهب إليه هؤلاء حقّ، والقرآنُ دلَّ عليه وهو موجب العدل، والله سبحانه ماضٍ في العبد حكمُه، عدلٌ في عبده قضاؤه، فإنه إذا دعا عبدَه إلى معرفته ومحبته وذِكره وشكره فأبى العبدُ إلا إعراضاً وكفراً قضى عليه بأن أغفلَ قلبه عن ذكره، وصدّه عن الإيمان به، وحال بين قلبه وبين قبول الهدى، وذلك عدلٌ منه

---

(١) سورة الأنعام، الآية /١١٠/.
(٢) سورة التوبة، الآية /١٢٧/.
(٣) سورة محمد، الآية /١٧/.
(٤) سورة الأحزاب، الآية /٧٠/.
(٥) سورة الأنفال، الآية /٢٩/.
(٦) سورة النساء، الآية /٨٨/..
(٧) سورة البقرة، الآية /١٠/.
(٨) سورة التوبة، الآية /١٢٧/.

فيه، وتكون عقوبتهُ بالختم والطبع والصد عن الإيمان كعقوبته له بـذلك في الآخـرة مع دخول النار، كما قال: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾[1].

فحجابُه عنهم إضلال لهم وصدّ عن رؤيته وكمال معرفته، كما عاقب قلوبَهم في هذه الدار بصدّها عن الإيمان.

وكذلك عقوبتهُ لهم بصدّهم عن السجود له يومَ القيامـة مع السـاجدين هـو جزاءُ امتناعهم من السجود له في الدنيا.

وكذلك عمـاهم عن الهدى في الآخـرة عقوبـةً لهم على عماهم في الـدنيا. لكن أسبـابَ هـذه الجـرائِم في الـدنيـا كـانت مقـدورة لهم واقعـةً بـاختيـارهم وإرادتهم وفِعلهم، فإذا وقعتْ عقوبات لم تكن مقدورةً بل قضاءُ جارٍ ماضٍ عَدْلٌ فيهمٍ. وقال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[2].

ومن ههنا ينفتح للعبد بابٌ واسع عظيم النفع جداً في قضاء الله المعصيةَ والكفرَ والفسوقَ على العبد، وأن ذلك محضُ عدل فيه.

وليس المرادُ بالعدل ما يقوله الجبرية إنه الممكن، فكلّ ما يمكنُ فعلُه بالعبد فهو عندهم عدل، والظلمُ هو المتنع لذاتـه، فهؤلاء قد سـدوا على أنفسهم بابَ الكـلام في الأسباب والحكم.

ولا المرادُ به ما يقولُه القدريةُ النّفاةُ إنه إنكارُ عمومِ قدرةِ الله ومشيئته على أفعال عباده وهدايتهم وإضلالهم، وعموم مشيئته لذلك، وإن الأمر إليهم لا إليه.

وتأمل قولَ النبي ﷺ (ماضٍ فيّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك)[3]، كيف ذكر العدلَ

---

(١) سورة المطففين، الآية /١٥/.

(٢) سورة الإسراء، الآية /٧٢/.

(٣) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في المسنـد (١/٣٩١ و٤٥٢)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٣٦) وعزاه لأحمد وأبي يعلى والبزار، وقال: رجـال أحمد وأبي يعلى رجـال الصحيـح، غيـر أبي سلمـة الجهني وقد وثقـه ابن حيـان، ورواه الحـاكم في المستـدرك (١/٥٠٩ ـ ٥١٠) وقـال: حـديث صحيـح على شـرط مسلم إن سـلم من إرسـال عبـد الرحمن بن عبدالله عن أبيه فانه مختلف في سماعه عن أبيه وتعقبه الذهبي فقال: وأبو سلمة=

في القضاء مع الحكم النافذ، وفي ذلك ردّ لقول الطائفتين القدرية والجبرية، فإن العدلَ الذي أثبتته القدرية منافٍ للتوحيد، معطل لكمال قدرة الرب وعموم مشيئته، والعدلُ الذي أثبتته الجبريةُ منافٍ للحكمة والرحمة ولحقيقة العدل.

والعدلُ الذي هو اسمهُ وصفته ونَعْته سبحانه خارجٌ عن هذا وهذا، ولم يعرفه إلا الرسلُ وأتباعهُم. ولهذا قال هودُ عليه الصلاةُ والسلام لقومه: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾[1].

فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف شاء، ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم.

وقال أبو إسحاق: أي هو سبحانه وإن كانت قدرتهُ تنالهم بما شاء فإنه لا يشاء إلا العدلَ.

وقال ابن الأنباري: لما قال: ﴿هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ كان في معنى لا يخرج مِن قبضته وأنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابةٍ فأتبعه قولَه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ قال: وهذا نحوُ كلام العرب إذا وَصفوا بحسن السيرة والعدل والانصاف قالوا: فلان على طريقةٍ حسنة، وليس ثم طريق. ثم ذَكر وجهاً آخرَ فقال: لما ذَكر أن سلطانه قد قَهر كلَّ دابةٍ أتبع هذا قولَه إن ربي على صراط مستقيم، أي لا تخفى عليه مشيئةٌ، ولا يعدلُ عنه هارب، فذكرَ الصراطَ المستقيمَ وهو يعني به الطريقَ الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه، كما قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾[2].

- قلتُ: فعلى هذا القول الأول يكون المرادُ أنه في تصرفه في ملكه يتصرفُ بالعدل ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم مثقالَ ذرةٍ، ولا

= لا يدرى من هو، ولا رواية له في الكتب الستة. وكان الشيخ الألباني قد أشار إلى ضعفه في تخريج أحاديث العقيدة الطحاوية، ثم بدا له غير ذلك فأشار إلى صحته في صحيح الكلم الطيب ص ٧٤، الطبعة الرابعة من المكتب الإسلامي. والحديث من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأول الحديث: ما أصاب عبداً همٌّ ولا حزن فقال اللهم إني عبدك... إلخ الحديث.

(١) سورة هود، الآية /٥٦/.

يعاقبُ أحداً بما لم يجنه ولا يهضِمُه ثوابَ ما عمله، ولا يحملُ عليه ذنبَ غيره، ولا يأخذُ أحداً بجريرة أحد، ولا يكلّفُ نفساً ما لا تطيقه، فيكون من باب: ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾[1].

ومَن باب: «ماض فيّ حكمك عدل فِيّ قضاؤك»[2].

ومِن باب: «الحمد لله رب العالمين»[3] أي كما أنه ربّ العامين المتصرفُ فيهم بقدرته ومشيئته، فهو المحمودُ على هذا التصرف وله الحمدُ على جميعه.

وعلى القول الثاني المرادُ به التهديدُ والوعيدُ وأن مصير العباد إليه وطريقَهم عليه لا يفوته منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾[4].

قال الفراء: يقولُ مرجعُهم إليّ فأجازيهم، كقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾[5]. قال: وهذا كما تقول في الكلام: طريقُك عليّ وأنا على طريقك، لمنْ أوعدتَه. وكذلك قال الكلبي والكسائي، ومثلُ قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾[6] على أحد القولين في الآية.

وقال مجاهد: الحق يرجعُ إلى الله وعليه طريقُه. و«منها» أي ومن السبيل ما هو جائر عن الحق، ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ ﴾[7].

فأخبرَ عن عموم مشيئته وأن طريقَ الحق عليه مُوصلة إليه، فمن سَلكه فإليه يصل ومَن عدلَ عنها فإنه يضل عنه. والمقصودُ أن هذا الآياتِ تتضمنُ عدلَ الرب تعالى وتوحيدَه، والله يتصرفُ في خلقه بملكه وحمده وعدله وإحسانه فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وشرعه وقدره وثوابه وعقابه، يقول الحقَّ ويفعل العدل، «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

---

(١) الآية /١/ من سورة التغابن.
(٢) جزء من حديث صحيح سبق تخريجه في ص ١٥٧.
(٣) الآية /١/ من سورة الفاتحة.
(٤) الآية /٤١/ من سورة الحجر.
(٥) الآية /١٤/ من سورة الفجر.
(٦) الآية /٩/ من سورة النحل.
(٧) الآية /٩/ من سورة النحل.

فهذا العدلُ والتوحيدُ اللذان دل عليهما القرآن لا يتناقضان، وأما توحيدُ أهل القدر والجبر وعدلهم فكل منهما يبطلُ الآخرَ ويناقضُه. -

فصل: ومَن سلكَ من القدَرية هذه الطريقَ فقد توسط بين الطائفتين، لكنه يَلزمُه الرجوعُ إلى مُثبتي القدرِ قطعاً، وإلا تناقضَ أبينَ تناقضٍ، فإنه إذا زعمَ أن الضلالَ والطبعَ والختم والقفل والوقر وما يحولُ بين العبد وبين الإيمان مخلوق لله، وهو واقعٌ بقدرته ومشيئته، فقد أعطى أن أفعالَ العباد مخلوقةٌ وأنها واقعة بمشيئته، فلا فرقَ بين الفعل الابتدائي والفعل الجزائي إن كان هذا مقدوراً لله واقعاً بمشيئته والآخرُ كذلك، وإنْ لم يكن ذلك مقدوراً ولا يصحُّ دخولُه تحت المشيئة، فهذا كذلك.

والتفريقُ بين النوعين تناقضٌ محضٌ. وقد حَكى هذا التفريقَ عن بعض القدرية أبو القاسم الأنصاري في شرحه الإرشادَ فقال: ولقد اعترفَ بعضُ القدرية بأن الختم والطبع توابعُ غيرَ أنها عقوباتٌ من الله لأصحابِ الجرائم، قال: وممن صار إلى هذا المذهب عبدُ الواحد بن زيد البصري وبكر ابن أخته، قال: وسبيلُ المعاقَبين بذلك سبيل المعاقَبين بالنار، وهؤلاء قد بقي عليهم درجةٌ واحدة وقد تحيزوا إلى أهل السنة والحديث.

فصل: وقالت طائفة منهم: الكافرُ هو الذي طبع على قلبه بنفسه في الحقيقة وخَتم على قلبه، والشيطانُ أيضاً فعلَ ذلك، ولكنْ لما كان الله سبحانه هو الذي أقدر العبدَ والشيطانَ على ذلك نَسبَ الفعل إليه لإقداره للفاعل على ذلك [لا] لأنه هو الذي فعله.

قال أهلُ السنة والعدل: هذا الكلامُ فيه حق وباطل، فلا يقبلُ مطلقاً ولا يردّ مطلقاً. فقولكم: إن الله سبحانه أقدرَ الكافرَ والشيطانَ على الطبع والختم كلام باطل، فإنه لم يقدره إلا على التزيين والوسوسة والدعوة إلى الكفر، ولم يقدره على خلق ذلك في قلب العبد البتة، وهو أقلّ من ذلك وأعجز.

وقد قال النبي ﷺ: «بُعثتُ داعياً ومبلغاً وليس إليَّ من الهداية شيء، وخُلق إبليس مزيناً وليس إليه من الضلالة شيء»(١).

---

(١) حديث موضوع. رواه العقيلي في الضعفاء (٢/٩) برقم /٤١٠/، وذكره السيوطي في الجامع الصغير وقد أشار الشيخ الألباني إليه وضعفه في ضعيف الجامع برقم /٢٣٣٨/.

فمقدورُ الشيطان أن يدعو العبدَ إلى فِعل الأسباب التي إذا فعلَها خَتم الله على قلبه وسمعه وطَبع عليه كما يدعوه إلى الأسباب التي إذا فَعلها عاقبه الله بالنار، فعقابهُ بالنار كعقابه بالختم والطبع، وأسباب العقاب فِعلُه، وتزيينُها وتحسينُها فِعلُ الشيطان، والجميعُ مخلوق لله.

وأما ما في هذا الكلام من الحق فهو أن الله سبحانه أقدر العبدَ على الفعل الذي أوجبَ الطبعَ والختم على قلبه، فلولا إقدارُ الله على ذلك لم يفعله.

وهذا حق لكنّ القدريةَ لم تُوف هذا الموضعَ حقه. وقالت: أقدره قدرةً تصلحُ للضدين فكان فِعلُ أحدهما باختياره ومشيئته التي لا تدخلُ تحت مقدور الرب، وإنْ دخلتْ قدرتُه الصالحةُ لهما تحت مقدوره سبحانه، فمشيئتُه واختيارُه وفعلُه غيرُ واقعٍ تحت مقدور الرب. وهذا من أبطل الباطل، فإن كلّ ما سواه تعالى مخلوقٌ له داخلٌ تحت قدرته واقع بمشيئته ولو لم يشأ لم يكن.

قالت القدريةُ: لما أعرضوا عن التدبر ولم يُصغوا إلى التذكر وكان ذلك مقارناً لإيراد الله سبحانه حجّتَه عليهم أضيفتْ أفعالُهم إلى الله لأن حدوثَها إنما اتفق عند إيراد الحجة عليهم.

قال أهل السنة: هذا مِن أمحلِ المحال، أن يضيفَ الرب إلى نفسه أمراً لا يُضاف إليه البتة لمقارنته ما هو مِن فِعله.

ومن المعلوم أن الضد يقارنُ الضد، فالشر يقارن الخير، والحق يقارن الباطل، والصدق يقارن الكذب، وهل يقال إن الله يحب الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ لمقارنتها ما يحبه مِن الإيمان والطاعة، وإنه يحب إبليسَ لمقارنة وجودِه لوجودِ الملائكة؟ فإن قيل: قد يُنسب الشيء إلى الشيء لمقارنته له وإنْ لم يكن له فيه تأثير، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة، الآية /١٢٤/.

ومعلوم أن السورةَ لم تُحدثْ لهم زيادةَ رجس، بل قارنَ زيادةَ رجسِهم نزولها فنُسب إليها ـ قيل: لم ينحصرْ الأمرُ في هذين الأمرين اللذين ذكرتموهما، وهما إحداثُ السُّورةِ الرجسَ، والثاني مقارنتُه لنزولها، بل ههنا أمرٌ ثالثٌ، وهو أن السورةَ لما أنزلت اقتضى نزولُها الإيمانَ بها والتصديقَ والإذعان لأوامرها ونواهيها والعملَ بما فيها.

فوطّن المؤمنون أنفسَهم على ذلك فازدادوا إيماناً بسببها. فنُسبت زيادةُ الإيمان إليها إذْ هي السببُ في زيادته.

وكذّب بها الكافرون وجحدوها وكذّبوا مَن جاء بها ووطّنوا أنفسهَم على مخالفة ما تضمنته وإنكارِه فازدادوا بذلك رجساً فنُسب إليها إذْ كان نزولُها ووصولُها إليهم هو السبب في تلك الزيادة.

فأين هذا مِن نسبة الأفعال القبيحة عندكم التي لا تجوز نسبتُها إلى الله عند دعوتهم إلى الإيمان وتدبر آياته. على أن أفعالَهم القبيحةَ لا تُنسب إلى الله سبحانه، وإنما هي منسوبة إليهم، والمنسوبُ إليه سبحانه أفعالُه الحسنة الجميلة المتضمنة للغايات المحمودة والحِكم المطلوبة.

والختمُ والطبع والقفل والإضلال أفعالٌ حسنة مِن الله وَضَعها في أليق المواضع بها إذْ لا يليق بذلك المحل الخبيث غيرُها.

والشركُ والكفر والمعاصي والظلم أفعالُهم القبيحةُ التي لا تُنسب إلى الله فعلاً وإنْ نُسبت إليه خَلْقاً، فخلقُها غيرُها والخلقُ غيرُ المخلوق، والفعلُ غيرُ المفعول، والقضاءُ غيرُ المقضي، والقدرُ غيرُ المقدور.

وستمر بك هذه المسألةُ مستوفاةً إنْ شاء الله في باب اجتماع الرضا بالقضاء وسخط الكفر والفسوق والعصيان إن شاء الله.

قال القدريةُ: لما بلغوا في الكفر إلى حيث لم يَبْقَ طريقٌ إلى الإيمان لهم إلا بالقسر والإلجاء، ولم تقتضِ حكمتُه تعالى أن يقسرهم على الإيمان لئلا تزولَ حكمةُ التكليف عبر عن ترْك الإلجاء والقسْر بالختم والطبع إعلاماً لهم بأنهم انتهوا في الكفر والإعراض إلى حيث لا ينتهون عنه إلا بالقسر. وتلك الغايةُ في وصف لجَاجهم وتماديهم في الكفر.

قال أهل السنة: هذا كلام باطل فإنه سبحانه قادرٌ على أن يخلق فيهم مشيئةَ الإيمان وإرادتَه ومحبته فيؤمنون بغير قسر ولا إلجاء، بل إيمانَ اختيارٍ وطاعة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[1].

وإيمانَ القسر والإلجاء لا يسمى إيماناً، ولهذا يؤمنُ الناس كلّهم يومَ القيامة ولا يسمى ذلك إيماناً لأنه عن إلجاء واضطرار، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[2].

وما يحصلُ للنفوس من المعرفة والتصديق بطريق الإلجاء والاضطرار والقسر لا يُمسى هدى، وكذلك قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[3].

فقولكم لم يبق طريقٌ إلى الإيمان إلا بالقسر باطل، فإنه بقي إلى إيمانهم طريقٌ لم يُرهم الله إياه وهو مشيئتُهُ وتوفيقه وإلهامه وإمالةُ قلوبهم إلى الهدى وإقامتها على الصراط المستقيم، ذلك أمر لا يعجزُ عنه ربّ كل شيء ومليكهُ، بل هو القادرُ عليه كقدرته على خلقه ذواتهم وصفاتهم وذرياتهم، ولكن مَنَعهم ذلك لحكمته وعدله فيهم وعدم استحقاقهم وأهليتهم لبذْلِ ذلك لهم، كما مَنَع السفيلَ خصائصَ العلو، ومنع الحارَّ خصائصَ البارد، ومنع الخبيثَ خصائص الطيب.

ولا يُقال فلِم فَعَل هذا؟، فإن ذلك مِن لوازم مُلكه وربوبيته ومن مقتضيات أسمائه وصفاته، وهل يليق بحكمته أن يسوّيَ بين الطيب والخبيث والحسن والقبيح والجيد والرديء؟

ومِن لوازم الربوبية خلقُ الزوجين وتنويعُ المخلوقاتِ وأخلاقِها.

فقولُ القائلِ لِمَ خلَق الرديءَ والخبيثَ واللئيمَ؟ سؤالُ جاهلٍ بأسمائه وصفاته، وملكه وربوبيته.

---

(١) سورة يونس، الآية /٩٩/.
(٢) سورة السجدة، الآية /١٣/.
(٣) سورة الرعد، الآية /٣١/.

وهـو سبحانـه فَرّق بين خَلْقـه أعظمَ تفـريق، وذلك مِن كمـال قدرتـه وربوبيتـه، فجعلَ منه مـا يقبلُ جميـعَ الكمال الممكن، ومنـه ما لا يقبـل شيئاً منـه، وبيْن ذلك درجاتٌ متفاوتة لا يحصيها إلا الخلاق العليم. وهَدَى كل نفس إلى حصول مـا هي قابلةٌ له، والقابلُ والمقبولُ والقبول كلّه مفعوله ومخلوقه وأثرُ فِعله وخَلْقـه. وهذا هـو الذي ذَهَب عن الجبرية والقدرية، ولم يهتدوا إليه، وبالله التوفيق.

قالت القدريةُ: الختمُ والطبع هو شهادتُه سبحـانه عليهم بـأنهم لا يؤمنون، وعلى أسماعهم وعلى قلوبهم.

قـال أهل السنة: هذا هو قولكم بأن الختم والطبع هو الإخبارُ عنهم بذلـك، وقد تقدّم فساد هذا بما فيه كفايةٌ وأنه لا يقال في لغة من لغات الأمم لمن أخبرَ عن غيره بأنه مطبوع على قلبه، وإنّ عليه ختمـاً وإنه قـد طُبع على قلبـه وخُتم عليه، بـل هذا كـذب على اللغـات وعلى القـرآن.

وكذلك قول من قال إن خَتمه على قلوبهم إطلاعهُ على ما فيها من الكفر.

وكـذلك قـولُ من قال إنـه إحصاؤه عليهم حتى يجـازيهم به، وقـولُ من قال إنـه إعلامها بعلامةٍ تعرفُها بها الملائكة. وقد بينا بطلانَ ذلك بما فيه كفاية.

قالت القدريةُ: لا يلزمُ من الطبع والختم والقفل أن تكون مانعةً من الإيمان، بـل يجوزُ أن يجعلَ الله فيهم ذلك مِن غير أن يكون مَنعهم من الإيمان، بل يكون ذلـك مِن جنس الغفلة والبلادة والعشا في البصـر فيورثُ ذلـك إعراضـاً عن الحق وتعاميـاً عنه، ولو أنعمَ النظرَ وتفكرَ وتدبرَ لما آثر على الإيمان غيرَه.

وهذا الذي قـالوه يجـوزُ أن يكون في أول الأمـر فإذا تمكنَ واستحكم من القلب ورسخَ فيه امتنعَ معه الإيمان، ومع هذا فهو أثر فعله وإعراضِه وغفلته وإيثـار شهوتـه وكِبره على الحق والهدى، فلما تمكنَ فيه واستحكم صار صفةً راسخةً وطبعاً وختماً وقفـلاً ورانـاً، فكـان مبـدأه حـائـل بينهم وبين الإيمـان، والإيمـانُ ممكن معـه لـو شاؤوا لآمنوا مع مبادىء تلك الموانع فلما استحكمتْ لم يبقَ إلى الإيمان سبيل.

ونظيرُ هذا أن العبدَ يَستحسن ما يهواه فيميلُ إليه بعضَ الميـل، ففي هذه الحـال يمكنُ صرفُ الداعيـة له إذ الأسبـابُ لم تَستحكم، فإذا استمـر على ميله واستدعى أسبابَه واستمكنتْ لم يمكنه صرفُ قلبه عن الهوى والمحبة فيُطبـع على قلبه ويُختم

عليه فلا يبقى فيه محلّ لغير ما يهواه ويحبه، وكان الانصرافُ مقدوراً له في أول الأمر فلّما تمكّنتْ أسبابهُ لم يبقَ مقدوراً له كما قال الشاعر:

تولّع بالعِشق حتى عشِقْ فلما استقلّ به لم يُطِقْ
رأى لجةً ظنها موجةً فلما تمكّنَ منها غرقْ

فلو أنهم بادروا في مبدأ الأمر إلى مخالفةالأسبابالصادة عن الهدى لَسهُل عليهم ولَما استعصى عليهم، ولَقدروا عليه.

ونظيرُ ذلك المبادرةُ إلى إزالة العلة قبل استحكام أسبابها ولزومِها للبدن لزوماً لا ينفك منها، فإذا استحكمت العلةُ وصارت كالجزء من البدن عَز على الطبيب استنقاذُ العليل منها.

ونظيرُ ذلك المتوحلُ في حمأة، فإنه ما لم يدخل تحتها فهو قادر على التخلص، فإذا توسط معظمَها عزّ عليه وعلى غيره إنقاذُهُ، فمبادىءُ الأمور مقدورةٌ للعبد، فإذا استحكمتْ أسبابُها وتمكنتْ لم يبقَ الأمرُ مقدوراً له.

فتأملْ هذا الموضعَ حق التأمل فإنه مِن أنفع الأشياء في باب القدر، والله الموفق للصواب.

والله سبحانه جاعلٌ ذلك كلَّه وخالقُه فيهم بأسبابٍ منهم، وتلك الأسبابُ قد تكون أموراً عدمية يكفي فيها عدمُ مشيئة أضدادها، فلا يشاءُ سبحانه أنْ يخلق للعبد أسبابَ الهدى فيبقى على العدم الأصلي، وإن أراد من عبده الهدايةَ فهي لا تحصلُ حتى يريد من نفسه إعانتَه وتوفيقه، فإذا لم يردْ سبحانه مِن نفسه ذلك لم تحصلْ الهداية.

فصل: ومما ينبغي أن يُعلم أنه لا يمتنعُ مع الطبع والختم والقفل حصولُ الإيمان، بأن يَفكَّ الذي خَتم على القلب وطَبع عليه وضرَب عليه القفلَ ذلك الختمَ والطابعَ والقفلَ، ويهديَه بعد ضلاله ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيه، ويفتح قفلَ قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده، حتى لو كَتب على جبينه الشقاوةَ والكفرَ لم يمتنع أن يمحوَها ويكتبَ عليه السعادةَ والإيمان. وقرأ قارىء عند عمر بن الخطاب

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1] وعنده شابٌ فقال: اللهم عليها أقفالُها ومفاتيحُها بيدك لا يفتحُها سوَّاك؛ فعرَفها له عمرُ وزادته عنده خيراً[2].

وكان عمرُ يقول في دعائه: اللهم إن كنتَ كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيداً فإنك تمحو ما تشاء وتثبت[3].

فالرب تعالى فعّال لما يريدُ، لا حجْرَ عليه. وقد ضلّ ههنا فريقان:

القدريةُ حيث زعمتْ أن ذلك ليس مقدوراً للرب، ولا يدخلُ تحت فعله، إذ لو كان مقدوراً له ومَنَعه العبد لناقضَ جودَه ولطفه.

والجبريةُ حيث زعمتْ أنه سبحانه إذا قدّر أو علم شيئاً فإنه لا يغيره بعد هذا ولا يتصرفُ فيه بخلاف ما قدره وعَلمه.

والطائفتان حجرَتْ على من لا يدخل تحت حَجْرِ أحدٍ أصلاً وجميعُ خلْقِهِ تحتَ حجْره شرعاً وقدَراً. وهذه المسألةُ من أكبر مسائل القدر، وسيمر بك إن شاء الله في باب المحو والإثبات ما يَشفيك فيها. والمقصودُ أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرّضَ العبدُ أمكنه فكُّ ذلك الختم والطابع وفتحُ ذلك القفل، يفتحه مَن بيده مفاتيحُ كل شيء، وأسبابُ الفتح مقدورةُ للعبد غيرُ ممتنعة عليه، وإن كان فَك الختم وفتح القفل غيرَ مقدور له كما أن شربَ الدواء مقدور له، وزوالَ العلة وحصولَ العافية غيرُ مقدور، فإذا استحكم به المرضُ وصار صفةً لازمةً له لم يكن له عذر في تعاطي ما إليه من أسباب الشفاء وإن كان غيرَ مقدور له.

ولكنْ لما ألِفَ العلةَ وساكَنها ولم يحب زوالَها ولا آثر ضدّها عليها مع معرفته بما بينها وبين ضدها من التفاوت فقد سدّ على نفسه باب الشفاء بالكلية.

والله سبحانه يهدي عبدَه إذا كان ضالاً وهو يحسب أنه على هدى، فإذا تبين له الهدى لم يعدلْ عنه لمحبته وملاءمته لنفسه.

---

(١) سورة محمد، الآية /٢٤/.

(٢) انظر تمام الرواية عند ابن جرير الطبري في جامع البيان (٢٦/٥٨) ونقلها عنه ابن كثير رحمه الله في التفسير (٤/١٦٠).

(٣) رواه ابن بطة في الإبانة (٢/١٩٧)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/٦٦٤).

فإذا عَرف الهدى فلم يحبه ولم يرضَ به وآثر عليه الضلالَ مع تكرر تعريفه منفعةَ هذا وخيرَه ومضرةَ هذه وشره فقد سدّ على نفسه بابَ الهدى بالكلية، فلو أنه في هذه الحال تعرضَ وافتقر إلى من بيده هُداه، وعلم أنه ليس إليه هُدى نفسه، وأنه إنْ لم يهده الله فهو ضال، وسأل الله أن يُقيلَ قلبَه وأن يقيه شر نفسه وَفّقه وهَداه.

بل لو علَم الله منه كراهيةً لما هو عليه من الضلال، وأنه مرضٌ قاتلٌ إنْ لم يَشفه منه أهلكه، لكانت كراهتُه وبغضهُ إياه مع كونه مُبتلًى به من أسباب الشفاء والهداية.

ولكنْ مِن أعظم أسباب الشقاء والضلال محبتُه له ورضاه به وكراهتُه الهدى والحقَّ، فلو أن المطبوع على قلبه المختومَ عليه كره ذلك، ورغبَ إلى الله في فك ذلك عنه، وفعل مقدوره لكان هداه أقرب شيء إليه، ولكنْ إذا استحكم الطبعُ والختمُ حال بينه وبين كراهة ذلك وسؤال الرب فكّه وفتْحَ قلبه.

فصل: فإن قيل: فإذاً جوَّزْتم أن يكون الطبعُ والختم والقفل عقوبةً وجزاءً على الجرائم والإعراض والكفر السابق على فعل الجرائم ـ قيل: هذا موضعُ يغلَطُ فيه أكثرُ الناس، ويظنون بالله سبحانه خلافَ مُوجِب أسمائه وصفاته.

والقرآن مِن أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بيّنه له، وإنما فعلَه بعد تكرار الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البيان والإرشادِ وتكرارِ الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبعُ على قلوبهم ويختم عليها فلا تقبلُ الهدى بعد ذلك.

والإعراضُ والكفرُ الأولُ لم يكن مع ختم وطبع، بل كان اختياراً، فلما تكرر منهم صار طبيعةً وسجيةً،فتأمل هذا المعنى في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(١).

ومعلوم أن هذا ليس حُكماً يعم جميعَ الكفار، بل الذين آمنوا وصدّقوا الرسل

---

(١) الآية /٦/ من سورة البقرة.

كان أكثرُهم كفاراً قبل ذلك ولم يُختم على قلوبهم وعلى أسماعهم. فهذه الآياتُ في حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعلَ الله بهم ذلك عقوبةً منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردةً وخنازيرَ وبعضهم بالطمس على أعينهم.

فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقبُ بالضلال عن الحق عقوبةً دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقتٍ ثم يعافي عبدَه ويهديه كما يعاقبُ بالعذاب كذلك.

فصل: وهنا عدة أمور عاقبَ بها الكفارَ بمنعهم عن الإيمان، وهي الختمُ، والطبعُ، والأكنّةُ والغطاء، والغلافُ، والحجابُ، والوقرُ، والغشاوةُ، والرانَ، والغل، والسدّ، والقفلُ، والصممُ، والبَكم، والعمى، والصدّ، والصرْف، والشدّ على القلب، والضلالُ، والإغفالُ، والمرضُ، وتقليبُ الأفئدة، والحولُ بين المرء وقلبه، وإزاغةُ القلوب، والخذلانُ، والإركاسُ، والتثبيطُ، والتزيينُ، وعدمُ إرادة هداهم وتطهيرهم، وإماتةُ قلوبهم بعد خلق الحياة فيها فتبقى على الموت الأصلي، وإمساكُ النور عنها فتبقى في الظلمة الأصلية، وجعلُ القلب قلباً قاسياً لا ينطبعُ فيه مثالُ الهدى وصورته، وجعلُ الصدر ضيقاً حرجاً لا يقبلُ الإيمان.

وهذه الأمورُ منها ما يرجعُ إلى القلب كالختم والطبع والقفل والأكنة والإغفال والمرض ونحوها.

ومنها ما يرجعُ إلى رسوله الموصلِ إليه الهدى كالصمم والوقر،

ومنها ما يرجعُ إلى طليعته ورائده كالعمى والعَشا.

ومنها ما يرجع إلى ترجمانه ورسوله المبلغ عنه كالبَكم النطقي، وهو نتيجةُ البكم القلبي فإذا بكِمَ القلب بكِمَ اللسانُ.

ولا تُصغ إلى قول من يقول: إن هذه مجازات واستعارات، فإنه قال بحسب مبلغه من العلم والفهم عن الله ورسوله.

وكأن هذا القائلَ حقيقةُ القفلِ عنده أن يكون من حديد، والختم أن يكون بشمع أو طين، والمرض أن يكون حُمى بنافض أو قولنج أو غيرهما من أمراض البدن،

والموت هو مفارقة الروح للبدن ليس إلا، والعمى ذهاب ضوء العين الذي تبصر به.

وهذه الفِرقةُ مِن أغلظ الناس حجاباً، فإن هذه الأمورَ إذا أضيفتْ إلى محالّها كانت بحسب تلك المحالّ، فنسبةُ قفل القلب إلى القلب كنسبة قفل الباب إليه، وكذلك الختم والطابع الذي هو عليه هو بالنسبة إليه كالختم والطابع الذي على الباب والصندوق ونحوهما، وكذلك نسبةُ الصمم والعمى إلى الأذن والعين، وكذلك موتُه وحياتُه نظيرُ موت البدن وحياته، بل هذه الأمورُ ألزمُ للقلب منها للبدن.

فلو قيل إنها حقيقةٌ في ذلك مجازٌ في الأجسام المحسوسة لكان مثلَ قول هؤلاء وأقوى منه، وكلاهما باطل، فالعمى في الحقيقة والبَكم والموت والقفل للقلب، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1]

والمعنى أنه معظم العمى وأصلُه، وهذا كقوله ﷺ: «إنما الربا في النسيئة»[2].

وقوله: «إنما الماء من الماء»[3].

وقوله: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض[4] إنما الغنى غنى النفس»[5].

وقوله: «ليس المسكين الذي تردّه اللقمةُ واللقمتان والتمرةُ والتمرتان إنما

---

(١) سورة الحج، الآية /٤٦/.

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٣١) في البيوع، باب بيع الدينار بدينار نسأ، ومسلم برقم /١٥٩٦/ في المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل، والنسائي (٧/ ٢٨١) في البيوع، باب بيع الفضة بالذهب.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٥١) في الوضوء، باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين، ومسلم برقم /٣٤٣/ في الحيض، باب انما الماء من الماء، وأبو داود برقم /٢١٧/ في الطهارة، باب في الإكسال. وهو حديث منسوخ.

(٤) (العَرَض): هو ما يتموله الإنسان ويقتنيه من المال وغيره.

(٥) أخرجه البخاري (٧/ ١٧٨) في الرقاق، باب الغنى غنى النفس، ومسلم برقم /١٠٥١/ في الزكاة باب ليس الغنى عن كثرة العرض، والترمذي برقم /٢٣٧٤/ في الزهد، باب ما جاء أن الغنى غنى النفس.

المسكين الذي لا يجدُ ما يغنيه ولا يُفطنُ له فيُتصدق عليه»[1].

وقوله: «ليس الشديدُ بالصُّرعة إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسه عند الغضب»[2].

ولم يُردْ نفيَ الاسم عن هذه المسميات، إنما أراد أن هؤلاء أوْلى بهذه الأسماء وأحقُّ ممن يسمونه بها، فهكذا قوله: ﴿ لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾.

وقريبٌ مِن هذا قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[3]. الآية.

وعلى التقديرين فقد أثبتَ للقلب عمى حقيقةً، وهكذا جميعُ ما نسب إليه. ولما كان القلب مَلكَ الأعضاءِ وهي جنودُه وهو الذي يحركها ويستعملها، والإرادةُ والقوى والحركة الاختيارية تنبعثُ كانت هذه الأمثال أصلًا وللأعضاء تبعاً.

فلنذْكر هذه الأمورَ مفصلةً ومواقعَها في القرآن. فقد تقدم الختم. قال الأزهري: وأصله التغطية، وخَتم البذرَ في الأرض إذا غطاه. قال أبو إسحاق، معنى ختم وطبع في اللغة واحدة، وهو التغطية على الشيء والاستيثاقُ منه فلا يدخلُه شيء، كما قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[4] وكذلك قوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٢/١٣٠) في الزكاة، باب قول الله تعالى ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ ومسلم برقم /١٠٣٩/ في الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه، والموطأ (٢/٩٢٣)، وأبو داود برقم /١٦٣١/ في الزكاة، باب من يعطي من الصدقة وحد الغنى، والنسائي (٥/٨٥) في الزكاة باب تفسير المسكين.

(٢) أخرجه البخاري (٧/٩٩) في الأدب، باب الحذر من الغضب، ومسلم برقم /٢٦٠٩/ في البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، والموطأ (٢/٩٠٦) في حسن الخلق.

(٣) الآية /١٧٧/ من سورة البقرة.

(٤) سورة محمد، الآية /٢٤/.

(٥) سورة محمد، الآية /١٦/.

قلت: الختمُ والطبع يشتركان فيما ذُكر ويفترقان في معنى آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق.

وأما الأكنّة ففي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[1] وهي جمع كنان، كعنان وأعنة، وأصلُه من الستر والتغطية، ويقال كَنّة وأكنّه وليسا بمعنى واحد، بل بينهما فرق، فأكنّه إذا ستره وأخفاه، كقوله تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾[2] وكنّهُ إذا صانهُ وحفظه، كقوله: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[3] ويشتركان في الستر. والكنان ما أكن الشيء وستره وهو كالغلاف. وقد أقروا على أنفسهم بذلك فقالوا﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وَقْر ومن بيننا وبينك حجاب﴾، فذكروا غطاء القلب وهي الأكنة وغطاءَ الأذن وهو الوقر، وغطاءَ العين وهو الحجاب.

والمعنى: لا نفقه كلامك ولا نسمعه ولا نراك، والمعنى أنّا في ترْك القبول منك بمنزلة مَن لا يفقه ما تقول ولا يراك. قال ابن عباس: قلوبنا في أكنة مثل الكنانة التي فيها السهام. وقال مجاهد: كجعبة النبل. وقال مقاتل: عليها غطاء فلا نفقه ما تقول.

فصل: وأما الغطاءُ فقال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[4].

وهذا يتضمن معنيين: أحدُهما أن أعينهم في غطاءٍ عما تضمنه الذكرُ من آيات الله وأدلة توحيده وعجائب قدرته.

والثاني أن أعينَ قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولاً ثم يسري منه إلى العين.

---

(١) سورة الأنعام، الآية /٢٥/.
(٢) سورة البقرة، الآية /٢٣٥/.
(٣) سورة الصّافات، الآية /٤٩/.
(٤) سورة الكهف، الآية /١٠٠/.

فصـل: وأما الغـلافُ فقال تعـالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[1] وقد اختلف في معنى قولهم: **قلوبنا غلف** فقالت طائفـة: المعنى قلوبنا أوعية للحكمة والعلم، فما بالُها لا تفهمُ عنك ما أتيتَ به أو لا تحتاج إليك.

وعلى هـذا فيكـون غلف جمـع غـلاف، والصحيـحُ قـولُ أكثـر المفسـرين إن المعنى: قلوبنـا لا تفقه ولا تفهم مـا تقـول، وعلى هـذا فهـو جمـع أغلفُ كـأحمـر وحُمر.

قـال أبو عبيـدة: كل شيء في غـلاف فهو أغلف كمـا يقـال سيفٌ أغلف، وقوس أغلف، ورجل أغلفُ غيرُ مختون.

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد: على قلوبنا غشـاوة، فهي في أوعية فـلا تعي ولا تفقهُ ما تقول. وهذا هو الصواب في معنى الآيـة لتكررِ نـظائره في القـرآن كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾[3] ونظائر ذلك.

وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة فليس في اللفظ ما يدل عليه البتـة، وليس له في القرآن نـظير يُحمـل عليه، ولا يقـال مثلُ هـذا اللفظ في مدح الإنسـان نفسه بـالعلم والحكمة، فـأين وجدتم في الاستعمـال قولَ القـائل: قلبي غـلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف، أي أوعية للعلم؟

والغلافُ قد يكون وعاءً للجيد والرديء، فلا يلزمُ مِن كَوْن القلب غلافاً أن يكون داخله العلْمُ والحكمة. وهذا ظاهر جداً، فإن قيل: فالإضراب ببَلْ على هـذا القول الذي قويتموه ما معناه.

وأمـا على القول الآخـر فـظاهـرٌ، أي ليست قلوبكم محـلاً للعلم والحكمـة بـل مطبوعٌ عليها؟ قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور، وهو أنهم احتجوا بـأن الله لم

---

(١) سورة البقرة، الآية /٨٨/.
(٢) سورة فُصلت، الآية /٥/.
(٣) سورة الكهف، الآية /١٠١/.

يفتحْ لهم الطريقَ إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعلَ قلوبهم داخلةً في غلف فلا تفقهه، فكيف تقومُ به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خُلقت في غلف فهم معذورون في عدم الإيمان فكذبهم الله وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[1]، وفي الآية الأخرى ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[2].

فأخبرَ سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة، والمعنى: لم نَخْلق قلوبَهم غُلفاً لا تعي ولا تفقه ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالاً عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها.

فصل: وأما الحجابُ ففي قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[3].

وقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[4] على أصح القولين، والمعنى: جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجاباً يحولُ بينهم وبين فهمه وتدبره والإيمان به، ويبينُه قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[5].

وهذه الثلاثةُ المذكورة في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[6].

فأخبرَ سبحانه أن ذلك جعلُه، فالحجابُ يمنعُ رؤيةَ الحق، والأكنةُ تمنعُ من فهمه، والوقرُ يمنعُ من سماعه.

---

(١) سورة النساء، الآية /١٥٥/.
(٢) سورة البقرة، الآية /٨٨/.
(٣) سورة فصلت، الآية /٥/.
(٤) سورة الإسراء، الآية /٤٥/.
(٥) سورة الأنعام، الآية /٢٥/.
(٦) سورة فُصلت، الآية /٥/.

وقال الكلبي: الحجابُ ههنا مانع يمنعهم من الوصول إلى رسول الله بالأذى من الرعب ونحوه مما يصدهم عن الإقدام عليه، ووصفَه بكونه مستوراً، فقيل بمعنى ساتر، وقيل على النّسب، أي ذو ستر، والصحيحُ أنه على بابه، أي مستوراً عن الإبصار فلا يَرى. ومجيءُ مفعول بمعنى فاعل لا يَثبت، والنسبُ في مفعول لم يشتق مِن فعله، كمكان مهول، أي ذي هول، ورجل مرطوب أي ذي رطوبة، فأما مفعول فهو جارٍ على فعله فهو الذي وقع عليه الفعل كمضروب ومجروح ومستور.

فصل: وأما الران فقد قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

قال أبو عبيدة: غلبَ عليها، والخمرُ ترينُ على عقل السكران، والموت يرينُ على الميت فيذهب به، ومن هذا حديث أسيفع جهينة وقول عمر: «فأصبح قَدْ رِينَ به» أي غلب عليه وأحاط به الرينُ.

وقال أبو معاذ النحوي: الرينُ أن يسودَّ القلبُ من الذنوب، والطبعُ أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين، والإقفالُ أشد من الطبع وهو أن يُقفل على القلب.

وقال الفراء: كثرت الذنوبُ والمعاصي منهم فأحاطت بقلوبهم فذلك الرينُ عليها.

وقال أبو إسحاق: ران غطى، يقال: ران على قلبه الذنب يرين ريناً أي غشيه، قال: والرينُ كالغشاء يغشَى القلبَ ومثله الغين.

قلت: «أخطأ أبو إسحاق، فالغينُ ألطفُ شيء وأرقه، قال رسول الله ﷺ: «وإنه ليغان[2] على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[3].

---

(١) سورة المطففين، الآية /١٤/.

(٢) (ليغان على قلبي): قال ابن الأثير الجزري في جامع الأصول (٣٨٦/٤) أي: ليغطى ويغش، والمراد به: السهو، لأنه كان ﷺ لا يزال في مزيد من الذكر والقربة ودوام المراقبة، فإذا سها عن شيء منها في بعض الأوقات، أو نسي، عده ذنباً على نفسه، ففزع إلى الاستغفار. انتهى.

(٣) رواه مسلم برقم /٢٧٠٢/ في الذكر، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، وأبو داود برقم /١٥١٥/ في الصلاة، باب في الاستغفار.

وأما الرينُ والران فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها. وقال مجاهد: هو الذنبُ على الذنبِ حتى تحيط الذنوبُ بالقلب وتغشاه فيموت القلب. وقال مقاتل: غمرت القلوبَ أعمالُهم الخبيثةُ.

وفي سنن النسائي والترمذي من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: إن العبد إذا أخطأ خطيئةً نُكِتَتْ[1] في قلبه نكتةٌ سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتابَ صقِلَ قلبُه، وإن زاد زِيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران[2] الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[3] قال الترمذي: هذا حديث صحيح[4].

وقال عبد الله بن مسعود: كلما أذنبَ نُكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسودّ القلب كله. فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التي اكتسبوها أوجبت لهم ريناً على قلوبهم فكان سببُ الران منهم، وهو خلقُ الله فيهم، فهو خالقُ السبب ومسبّبه، لكنّ السببَ باختيار العبد والمسبب خارجٌ عن قدرته واختياره.

فصل: وأما الغلّ فقال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[5].

قال الفراء: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله.

---

(١) (النكت): الأثر في الشيء.

(٢) (الران) ران على قلبه، أي غطّى، وقيل غَلَبَ.

(٣) الآية /١٤/ من سورة المطففين.

(٤) الحديث رواه الترمذي برقم /٣٣٣١/ في التفسير، باب ومن سورة ويل للمطففين، وأخرجه ابن ماجة برقم /٤٢٤٤/ في الزهد، باب ذكر الذنوب، وأحمد في المسند (٢/٢٩٧). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه ابن حيان برقم /١٧٧١/، والحاكم في المستدرك (٢/٥١٧) ووافقه الذهبي.

(٥) سورة يس، الآية /٨/.

وقال أبو عبيدة: منعناهم عن الإيمان بموانع.

ولما كان الغل مانعاً للمغلول من التصرف والتقلب كان الغلُّ الذي على القلب مانعاً من الإيمان. فإن قيل: فالغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب فكيف ذَكَر الغلّ الذي في العنق؟ قيل: لما كان عادةُ الغل أن يوضع في العنق ناسبَ ذَكرَ محلّه والمرادُ به القلب، كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾[1].

ومن هذا قولهم، إثمي في عنقك، وهذا في عنقك.

ومن هذا قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾[2] شبّه الإمساكَ عن الإنفاق باليد إذا غُلّت إلى العنق.

ومن هذا قال الفراء: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً، حبسناهم عن الإنفاق. قال أبو إسحاق: وإنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي لزُومه كلزوم القلادة من بين ما يُلبس في العنق. قال أبو علي: هذا مثلُ قولهم: طوّقتك كذا وقلدتك كذا، ومنه: قلده السلطان كذا، أي صارت الولايةُ في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق.

قلت: ومِن هذا قولُهم: قلدت فلاناً حُكم كذا وكذا، كأنك جعلته طوقاً في عنقه.

وقد سمى الله التكاليفَ الشاقة أغلالاً في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[3]، فشبهها بالأغلال لشدتها وصعوبتها.

قال الحسن: هي الشدائدُ التي كانت في العبادة كقَطْع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم.

وقال ابن قتيبة: هي تحريم الله سبحانه عليهم كثيراً مما أطلقه لأمة محمد ﷺ، وجعَلَها أغلالاً لأن التحريم يَمنع كما يقضّ الغلُّ اليدَ.

---

(١) سورة الإسراء، الآية /١٣/.
(٢) سورة الإسراء، الآية /٢٩/.
(٣) سورة الأعراف، الآية /١٥٧/.

وقوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾، قالت طائفة: الضميرُ يعود إلى الأيدي وإنْ لم تُذكر، لدلالة السياق عليها قالوا: لأن الغل يكون في العنق فتجمعُ إليه اليد، ولذلك سمي جامعة، وعلى هذا فالمعنى: فأيديهم أو فأيمانهم مضمومة إلى أذقانهم. هذا قول الفراء والزجاج.

وقالت طائفة: الضميرُ يرجع إلى الأغلال، وهذا هو الظاهر، وقوله فهي إلى الأذقان أي واصلة وملزوزة إليها، فهو غلّ عريض قد أحاط بالعنق حتى وصل إلى الذقن.

وقوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ قال الفراء والزجاج: المقْمَح هو الغاضّ بصرَه بعد رفع رأسه، ومعنى الإقماح في اللغة رفعُ الرأس وغض البصر، يقال أقمح البعيرُ رأسَه وقمح.

وقال الأصمعي: بعير قامح إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب.

قال الأزهري: لما غُلت أيديهم إلى أعناقهم رَفعت الأغلالُ أذقانَهم ورؤوسهم صعداً، كالإبل الرافعة رؤوسها، انتهى.

فإن قيل: فما وجهُ التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان؟ قيل: أحسنُ وجه وأبينه، فإن الغل إذا كان في العنق واليدُ مجموعةٌ إليها مَنع اليَد عن التصرف والبطش، فإذا كان عريضاً قد ملأ العنق ووصلَ إلى الذقن منعَ الرأس من تصويبه وجَعلَ صاحبه شاخصَ الرأس منتصبَه لا يستطيع له حركة، ثم أكد هذا المنعَ والحبسَ بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾(١).

قال ابن عباس: مَنعهم من الهدى لِما سبق في علمه.

والسدّ الذي جُعل من بين أيديهم ومن خلفهم هو الذي سَدّ عليهم طريقَ الهدى. فأخبر سبحانه عن الموانع التي مَنعهم بها من الإيمان عقوبةً لهم، ومثّلها بأحسنِ تمثيلٍ وأبلغه. وذلك حالُ قوم قد وُضعت الأغلالُ العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم، وضُمت أيديهم إليها، وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذَ من بينهما، وأغشيت أبصارُهم فهم لا يرون شيئاً.

---

(١) سورة يس، الآية /٩/.

وإذا تأملتَ حالَ الكافر الذي عَرف الحق وتبين له ثم جحدَهُ وكفرَ به وعاداه أعظمَ معاداة وَجدتَ هذا المثلَ مطابقاً له أتم مطابقة، وأنه قد حِيل بينه وبين الإيمان كما حيل بين هذا وبين التصرف، والله المستعان.

فصل: وأما القفلُ فقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[1]

قال ابن عباس: يريدُ على قلوب هؤلاء أقفال. وقال مقاتل: يعني الطبع على القلب، وكأن القلب بمنزلة الباب المرتجِ الذي قد ضُرب عليه قفل، فإنه ما لم يُفتح القفلُ لا يمكن فتحُ الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يُرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمانُ والقرآنُ.

وتأملْ تنكيرَ القلب وتعريفَ الأقفال، فإن تنكيرَ القلوب يتضمنُ إرادةَ قلوب هؤلاء وقلوبِ من هم بهذه الصفة، ولو قال أم على القلوب أقفالها لم تدخلْ قلوب غيرهم في الجملة.

وفي قوله ﴿أقفالها﴾ بالتعريف نوعُ تأكيدٍ، فإنه لو قال: «أقفال» لذهب الوهمُ إلى ما يُعرف بهذا الاسم فلما أضافها إلى القلوب عُلم أن المراد بها ما هو للقلب منزلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصةَ بها التي لا تكونُ لغيرها، والله أعلم.

فصل: وأما الصممُ والوقر ففي قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾[2].

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[3].

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة محمد، الآية /٢٤/.
(٢) سورة البقرة، الآية /١٨ و١٧١/.
(٣) سورة محمد، الآية /٢٣/.
(٤) سورة الأعراف، الآية /١٧٩/.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾[1].

قال ابن عباس: في آذانهم صمم عن استماع القرآن، وهو عليهم عمى: أعمى الله قلوبهم فلا يفقهون، أولئك ينادَوْن من مكان بعيد مثلَ البهيمة التي لا تفهم إلا دعاءً ونداءً.

وقال مجاهد: بعيد من قلوبهم.

وقال الفراء: نقول للرجل الذي لا يفهم: كذلك أنت تُنادي من مكان بعيد. قال: وجاء في التفسير كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون، انتهى.

والمعنى أنهم لا يسمعون ولا يفهمون كما أن مَن دُعي مِن مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم.

فصل: وأما البَكم فقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[2] والبُكم جمع أبكم وهو الذي لا ينطق. والبَكمُ نوعان: بكم القلب وبَكم اللسان، كما أن النطقَ نطقان: نطقُ القلب ونطق اللسان، وأشدُّهما بكم القلب، كما أن عماه وصممه أشدُّ من عمى العين وصمم الأذن، فوَصَفهم سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق ولا تنطق به ألسنتهم.

والعلمُ يدخلُ إلى العبد من ثلاثة أبواب، من سمعه وبصره وقلبه، وقد سُدّت عليهم هذه الأبواب الثلاثة، فسدّ السمعُ بالصمم، والبصرُ بالعمى، والقلبُ بالبكم.

ونظيرُه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[3].

وقد جَمع سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[4].

---

(١) سورة فُصلت، الآية /٤٤/.
(٢) سورة البقرة، الآية /١٨، ١٧١/.
(٣) سورة الأعراف، الآية /١٧٩/.
(٤) سورة الأحقاف، الآية /٢٦/.

فإذا أراد الله سبحانه هدايةَ عبدٍ فتح قلبَه وسمعَه وبصرَه، وإذا أراد ضلاله أصمّه وأعماه وأبكمه، وبالله التوفيق.

فصل: وأما الغشاوةُ فهو غطاء العين كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[1]،

وهذا الغطاءُ سَرَى إليها من غطاء القلب، فإنّ ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآةُ القلب تُظهر ما فيه.

وأنت إذا أبغضتَ رجلاً بغضاً شديداً أو أبغضتَ كلامه ومجالسته تجدُ على عينك غشاوة عند رؤيته ومخالطته، فتلك أثر البغض والإعراض عنه. وغلظت على الكفار عقوبةً لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول.

وجَعْلُ الغشاوةِ عليها يُشعر بالإحاطة على ما تحته، كالعمامة، ولما عشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك العشا غشاوةً على أعينهم فلا تبصرُ مواقع الهدى.

فصل: وأما الصد فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2].

قرأ أهل الكوفة على البناء للمفعول حَمْلاً على زُيّن، وقرأ الباقون وصَدّ بفتح الصاد، ويحتملُ وجهين أحدُهما أعرضَ فيكون لازماً، والثاني صدّ غيرَه فيكون متعدياً. والقراءتان كالآيتين لا تتناقضان.

وأما الشدُّ على القلب ففي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[3]

فهذا الشدّ على القلب هو الصدّ والمنعُ. ولهذا قال ابن عباس: يريدا منعها،

---

(١) سورة الجاثية، الآية /٢٣/.
(٢) سورة غافر، الآية /٣٧/.
(٣) سورة يونس، الآية /٨٨/.

والمعنى قَسِّها واطبعْ عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان. وهذا مطابق لما في التوراة أن الله سبحانه قال لموسى: اذهبْ إلى فرعون فإني سأقسّي قلبه فلا يؤمنُ حتى تظهر آياتي وعجائبي بمصر.

وهذا الشدّ والتقسيةُ من كمال عدل الرب سبحانه في أعدائه، جعلَه عقوبةً لهم على كفرهم وإعراضهم كعقوبته لهم بالمصائب، ولهذا كان محموداً عليه فهو حسنٌ منه وأقبحُ شيء منهم، فإنه عدل منه وحكمة وهو ظلم منهم وسفَه. فالقضاءُ والقدر فعلُ عادلٍ حكيم غنيّ عليم يضعُ الخيرَ والشر في أليقِ المواضع بهما، والمقضيُّ المقدَّر يكون ظلماً وجوراً وسفهاً وهو فعلُ جاهلٍ ظالم سفيه.

فصل: وأما الصّرف فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾[1]،

فأخبر سبحانه عن فعلهم وهو الانصراف، وعن فعله فيهم وهو صرفُ قلوبهم عن القرآن وتدبره لأنهم ليسوا أهلاً له، فالمحلّ غيرُ صالح ولا قابل، فإنّ صلاحيةَ المحلّ بشيئين، حُسْنِ فهم وحُسن قصد، وهؤلاء قلوبُهم لا تفقهُ وقصودُهم سيئة.

وقد صرّح سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾[2].

فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم وأنهم لا خيرَ فيهم يدخلُ بسببه إلى قلوبهم فلم يُسمعهم سماعَ إفهام ينتفعون به وإنْ سمعوه سماعاً تقوم به عليهم حجتُه، فسماعُ الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصلْ لهم.

ثم أخبرَ سبحانه عن مانع آخرَ قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماعَ الخاص، وهو الكبرُ والتولّي والإعراض، فالأولُ مانع من الفهم، والثاني مانعٌ من الانقياد والإذعان، فأفهام سيئة وقصودٌ رديئة، وهذه نسخةُ الضلال وعَلَم

---

(١) سورة التوبة، الآية /١٢٧/.
(٢) سورة الأنفال، الآية /٢٣/.

الشقاء، كما أن نسخةَ الهدى وعَلم السعادة فهم صحيح وقصدٌ صالح. والله المستعان.

وتأمل قولَه سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾(١) كيف جعلَ هذه الجملَة الثانية سواء كانت خبراً أو إعادةَ عقوبةٍ لانصرافهم فعاقبهم عليه بصرفٍ آخرَ غير الصرف الأول، فإنّ انصرافَهم كان لعدَم إرادته سبحانه ومشيئته لإقبالهم، لأنه لا صلاحيةَ فيهم ولا قبولَ، فلم يُنلْهم الإقبالَ والإذعان فانصرفتْ قلوبُهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن، فجازاهم على ذلك صَرفاً آخرَ غيرَ الصرف الأول كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغةً غير الزيغ الأول كما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾(٢).

وهكذا إذا أعرضَ العبدُ عن ربه سبحانه جازاه بأن يُعرض عنه فلا يمكّنه من الإقبال عليه.

ولتكنْ قصةُ إبليس منك على ذكر تنتفع بها أتمّ انتفاع، فإنه لما عصى ربَّه تعالى ولم ينقَدْ لأمره وأصرّ على ذلك عاقبه بأنْ جعلَه داعياً إلى كل معصية، فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعياً إلى كل معصية وفروعها صغيرها وكبيرها. وصار هذا الإعراضُ والكفر منه عقوبةً لذلك الإعراض والكفر السابق. فمِن عقاب السيئةِ بعدَها، كما أنّ من عقاب الحسنة الحسنةُ بعدَها.

فإن قيل: فكيف يلتَئِم إنكارُه سبحانه عليهم الانصرافَ والإعراضَ عنه وقد قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾(٣). وقال: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾(٤) وقال: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾(٥) فإذا كان هو الذي صرفَهم وجعلَهم معرضين ومأفوكين فكيف يَنفي ذلك عليهم؟

قيل: هم دائرون بين عدله وحُجته عليهم، فمكّنهم وفتحَ لهم البابَ ونهجَ لهم الطريقَ وهيأ لهم الأسبابَ، فأرسل إليهم رسلَه وأنزل عليهم كُتبه ودعاهم على ألسنةِ

---

(١) سورة التوبة، الآية /١٢٧/.
(٢) سورة الصف، الآية /٥/.
(٣) سورة يونس، الآية /٣٢/.
(٤) سورة الأنعام، الآية /٩٥/.
(٥) سورة المدثر، الآية /٤٩/.

رُسله وجعلَ لِهم عقولاً تميزُ بين الخير والشـر، والنافـع والضار، وأسبـاب الردَى وأسبـاب الفلاح، وجعلَ لهم أسماعاً وأبصاراً، فآثـروا الهوى على التقـوى، واستحبوا العمى على الهـدى، وقالـوا معصيتـك آثـرُ عنـدنـا مِن طـاعتـك، والشـرك أحبُّ إلينـا مِن توحيدك، وعبادةُ سواك أنفعُ لنا في دنيانا من عبـادتك، فـأعرضَتْ قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم وانصرفتْ عن طاعته ومحبته.

فهذا عدلُه فيهم، وتلك حجتُه عليهم، فهم سدّوا على أنفسهم بابَ الهـدى إرادةً منهم واختيـاراً فسدّه عليهم اضـطراراً، فخلّاهـم ومـا اختاروا لأنفسهم، وولاهـم مـا تولّوه ومكّنهم فيما ارتضوْه، وأدخَلهم من الباب الذي استبقوا إليه، وأغلق عنهم البابَ الذي تولّوا عنه وهم معـرضون، فـلا أقبحَ مِن فعلهم ولا أحسنَ مِن فعله، ولـو شاء لَخُلَقَهم على غير هذه الصفة ولأنشأهم على غير هذه النشأة، ولكنه سبحـانه خـالقُ العلوّ والسِّفـل، والنورِ والـظلمة، والنـافع والضـار، والطيب والخبيث، والمـلائكـةِ والشياطين، والشاء والذئاب، ومُعطيها آلاتِها وصفاتِها، وقواها وأفعالَهـا، ومستعملُها فيما خُلقت له، فبعضُها بطباعها، وبعضُها بإرادتهـا ومشيئتها، وكـلُّ ذلك جـارٍ على وفق حكمته، وهو مُوجِب حمدِه ومقتضَى كماله المقدس ومُلكه التام، ولا نسبةَ لمـا علمـه الخلقُ من ذلك إلى مـا خفي عليهم بوجـه ما، إنْ هـو إلا كنقرةِ عصفـور من البحر.

فصـل: وأما الإغفـالُ فقال تعـالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾(١).

سُئل أبو العباس ثعلب عن قوله: ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾(٢) فقال: جعلنـاه غافلاً. قال: ويكون في الكلام «أغفلتُه سميتُه غافلاً، ووجدتُه غافلاً».

قلتُ: الغُفلُ الشيء الفارغُ، والأرضُ الغُفْلُ التي لا علامةَ بها، والكتـابُ الغُفلُ الذي لا شكلَ عليه، فأغفلناه تركناه غُفلاً عن الـذكر فـارغاً منـه، فهو إبقـاء له على العدم الأصلي لأنه سبحانه لم يشأ له الذكرَ فبقي غـافلاً، فـالغفلةُ وصفه، والإغفـالُ فعلُ الله فيه بمشيئته وعدم مشيئته لتذكره، فكلّ منهمـا مقتضٍ لغفلته، فـإذا لم يشأ

---

(١) سورة الكهف، الآية /٢٨/.
(٢) سورة الكهف، الآية /٢٨/.

له التذكرَ لم يتذكر وإذا شاء غفلتَه امتنع منه الذكرُ.

فإن قيل: فهل تُضاف الغفلةُ والكفرُ والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئة الرب أضدادَها أم إلى مشيئته لوقوعها؟

قيل: القرآنُ قد نطق بهذا وبهذا قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾[1]

وقال: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾[2].

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ ﴾[3]

فإن قيل: فكيف يكون عدم السببِ المقتضي مُوجباً للأثر؟

قيل: الأثرُ وإن كان وجودياً فلا بد له من مؤثر وجودي، وأما العدمُ فيكفي فيه عدمُ سببه ومُوجبه فيبقى على العدم الأصلي، فإذا أضيفَ إليه كان من باب إضافة الشيء إلى دليله، فعدمُ السبب دليلٌ على عدم المسبَّب، وإذا سُمي موجباً ومقتضياً بهذا الاعتبار فلا مشاحة في ذلك، وأما أن يكون العدَمُ أثراً ومؤثراً فلا.

وهذا الإغفالُ ترتب عليه اتباعُ هواه وتفريطُه في أمره. قال مجاهد: كان أمرُه فُرطاً أي ضيَاعاً. وقال قتادة: أضاع أكبرَ الضيعة. وقال السدي: هلاكاً. وقال أبو الهيثم: أمرٌ فُرط أي متهاوَنٌ به مضيَّع، والتفريطُ تقديمُ العجز. قال أبو إسحاق: من قدّم العجزَ في أمرٍ أضاعه وأهله. قال الليث: الفُرطُ الأمرُ الذي يُفرَّط فيه، يقال: كل أمر فلان فرط. قال الفراء فرطاً متروكاً يفرِّطُ فيما لا ينبغي التفريطُ فيه واتّبع ما لا ينبغي اتّباعُه وغَفلَ عما لا يحسنُ الغفلةُ عنه.

فصل: وأما المرض فقال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾[4]،

وقال: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾[5].

---

(١) سورة المائدة، الآية /٤١/.
(٢) سورة المائدة، الآية /٤١/.
(٣) سورة الأنعام، الآية/١٢٥/.
(٤) سورة البقرة، الآية /١٠/.
(٥) سورة الأحزاب، الآية /٣٢/.

وقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ﴾(1).

ومرضُ القلب خروجٌ عن صحته واعتداله، فإنّ صحته أن يكون عارفاً بالحق محباً له مُؤثراً له على غيره، فمرضهُ إما بالشك فيه وإما بإيثار غيره عليه، فمرضُ المنافقين مرضُ شك وريب، ومرضُ العُصاة مرضُ غَيّ وشهوة. وقد سمّى الله سبحانه كلاً منهما مرضاً.

قال ابن الأنباري: أصلُ المرض في اللغة الفسادُ. مَرض فلانٌ فسد جسمُه وتغيرّت حالُه. ومرضتْ الأرض تغيرْت وفسدتْ.

قالت ليلى الأخيلية:

إذا هبط الحجّاجُ أرضاً مريضةً تَتبع أقصى دائها فشَفاها

وقال آخر

ألم تَرَ أنّ الأرضَ أضحتْ مريضةً لفقدِ الحسين والبلادُ اقشعرّتِ

والمرضُ يدور على أربعة أشياء، فساد وضعف ونقصان وظلمة، ومنه مرضَ الرجلُ في الأمر إذا ضعفَ فيه ولم يبالغْ، وعينٌ مريضةُ النظرِ أي فاترةٌ ضعيفة، وريحٌ مريضة إذا هبَّ هَبوبُها، كما قال:

* راحت لأربعك الرياحُ مريضةً *

أي لينةً ضعيفة حتى لا يعفى أثرُها. وقال ابنُ الأعرابي: أصلُ المرض النقصانُ، ومنه بدنٌ مريض أي ناقصُ القوة، وقلبٌ مريض ناقصُ الدين، ومرضَ في حاجتي إذا نقصتْ حركتُه.

وقال الأزهري عن المنذري عن بعض أصحابه: المرضُ إظلامُ الطبيعة واضطرابُها بعد صفائها. قال: والمرضُ الظلمة، وأنشد:

وليلةٍ مرِضتْ مِن كل ناحيةٍ فيما يضيءُ لها شمسٌ ولا قمرُ

---

(1) سورة المدثر، الآية /31/.

هـذا أصلُه في اللغة، ثم الشـكُّ والجهلُ والحيـرة والضلالُ وإرادة الغي وشهـوةُ الفجور في القلب تعودُ إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبدُ أسبابَ المرض حتى يمرضَ فيعاقبه الله بزيادة المرض لإيثاره أسبابَه وتعاطيه لها.

فصل: وأما تقليبُ الأفئـدة فقال تعـالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[1]

وهذا عطفٌ على أنها إذا جاءت لا يؤمنـون، أي نحُولُ بينهم وبين الإيمـان، ولو جاءتهم تلك الآيةُ فلا يؤمنون.

واختُلف في قوله: ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[2] فقال كثير من المفسرين: المعنى نحولُ بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية كما حُلنـا بينهم وبين الإيمان أولَ مرة. قال ابن عباس، في رواية عطاء عنه: ونقلّب أفئدتهم وأبصارَهم حتى يـرجعوا إلى ما سبقَ عليهم من علمي. قال: وهذا كقوله: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾[3].

وقـال آخرون: المعنى: ونقلّب أفئـدتهم وأبصارَهم لتـركهم الإيمانَ بـه أولَ مرةٍ فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم. وهذا معنى حَسَن، فإنّ كـافَ التشبيه تتضمن نوعاً من التعليل كقولـه: ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[4]،

وقـوله: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾[5].

والذي حسَّن اجتماعَ التعليـل والتشبيه الإعـلامُ بأن الجـزاءَ من جنس العمل في الخير والشر.

والتقليبُ تحويلُ الشيء من وجه إلى وجه. وكان الواجبُ مِن مقتضى إنزال الآية

---

(١)و(٢) سورة الأنعام، الآية /١١٠/.
(٣) سورة الأنفال، الآية /٢٤/.
(٤) سورة القصص، الآية /٧٧/.
(٥) سورة البقرة، الآية /١٥١/.

ووصـولهم إليها كمـا سألـوا أن يؤمنوا إذا جاءتهم لأنهم رأوها عيـاناً وعـرفوا أدلتهـا وتحققوا صدقها، فإذا لم يؤمنوا كان ذلك تقليباً لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها الذي ينبغي أن تكون عليه.

وقـد روى مسلم في صحيحـه مِن حـديث عبـد الله بن عمـرو أنـه سمـع رسـول الله ﷺ يقول: إن قلوبَ بني آدم كلَّها بين إصبعين من أصابع الـرحمن كقلبٍ واحد يصرّفه كيف يشاء، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم مصرِّفَ القلوب صـرفْ قلوبنا على طاعتك[1].

وروَى التـرمذي مِن حـديث أنس قال: كـان رسـول الله ﷺ يُكثـر أن يقـول: يـا مقلِّبَ القلوب ثبتْ قلبي على دينـك، فقلت: يا رسولَ الله آمنا بـك وبمـا جئت بـه فهـل تخافُ علينـا. قال: نعم إن القلوب بين إصبعين من أصـابع الله يقلبهـا كيف يشاء[2]. قال: هذا حديثٌ حسن.

وروَى حمـاد عن أيوب وهشـام ويعلى بن زياد عن الحسن قـال: قـالت عـائشـة رضي الله تعالى عنها: دعوةٌ كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يدعو بها: يا مقلّب القلوب ثبتْ قلبي على دينك، فقلت: يا رسـول الله، دعوةٌ كثيـراً ما تـدعو بهـا، قال: إنـه ليس مِن عبدٍ إلا وقلبُه بين إصبعين من أصابع الله فإذا شاء أن يقيمـه أقامـه وإذا شاء أن يزيغه أزاغه[3].

وقـولـه: ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[4] قـال ابن عبـاس: أخـذلُهم وأدعهُم في ضلالهم يتمادَوْن.

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه بـرقم /٢٦٥٤/ في القدر، بـاب تصريف الله تعـالى القلوب كيف شاء.

(٢) رواه الترمذي برقم /٢١٤١/ في القدر، باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، قال: وفي الباب عن النواس بن سمعـان، وأم سلمة، وعائشة، وأبي ذر.

(٣) رواه الإمـام أحمد في المسنـد (٦/ ٩١)، ورجال إسنـاده ثقات رجـال مسلم لولا أن الحسن (وهو البصري) مدلس، والحديث ذكره الهيثمي بنحوه وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه العلاء بن الفضل، قال ابن عدي في بعض ما يرويه نكرة، وبقية رجاله وثقوا وفيهم خلاف. قلت: وللحديث شواهد يتقوى بها.

(٤) سورة الأنعام، الآية /١١٠/.

فصل: وأما إزاغةُ القلوب فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[1] وقال عن عباده المؤمنين إنهم سألوه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾[2].

وأصلُ الزيغ الميلُ، ومنه زاغت الشمسُ إذا مالت، فإزاغةُ القلب إمالتهُ، وزيغهُ ميلُه عن الهدى إلى الضلال. والزيغُ يوصف به القلبُ والبصرُ كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾[3] وقال قتادة ومقاتل: شَخَصتْ فَرقاً.

وهذا تقريبٌ للمعنى فإن الشخوصَ غيرُ الزيغ، وهو أن يَفتحَ عينيه ينظرُ إلى الشيء فلا يُطرق. ومنه شَخَصَ بصرُ الميت. ولما مالت الأبصارُ عن كل شيء فلم تنظرْ إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شيء آخرَ فمالت عنه وشخصت بالنظر إلى الأحزاب.

وقال الكلبي: مالت أبصارُهم إلا مِن النظر إليهم.

وقال الفراء: زاغت عن كل شيء فلم تلتفتْ إلا إلى عدوّها متحيرةً تنظرُ إليه.

قلت: القلْبُ إذا امتلأ رعباً شغَله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف فزاغ البصرُ عن الوقوع عليه وهو مقابلُه.

فصل: وأما الخذلان فقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾[4].

وأصلُ الخذلان التركُ والتخْلية. ويقال للبقرة والشاة إذا تخلفتْ مع ولدها في المرعى وتَرَكَت صواحباتِها: خَذول.

قال محمد بن إسحاق في هذه الآية: إن ينْصرْكَ الله فلا غالب لك من الناس ولن يضرك خذلانُ مَن خذلَك، وإن يخذلْك فلنْ ينصرَك الناسُ، أي لا تتركُ أمري للناس وارفضْ الناس لأمري.

---

(١) سورة الصف، الآية /٥/.
(٢) سورة آل عمران، الآية /٨/.
(٣) سورة الأحزاب، الآية /١٠/.
(٤) سورة آل عمران، الآية /١٦٠/.

والخذلانُ أن يخلّي الله تعالى بين العبد وبين نفسه ويكله إليها، والتوفيقُ ضدُّه أن لا يدعَه ونفسَهُ ولا يكله إليها بل يصنعُ له ويلطفُ به ويعينهُ ويدفع عنه ويكلأه كلاءةَ الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه، فمن خُلي بينه وبين نفسه فقد هلك كلّ الهلاك، ولهذا كان من دعائه ﷺ: «يا حيُّ يا قيومُ يا بديعَ السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيثُ، أصلحْ لي شأني كلّه، ولا تكِلْني إلى نفسي طَرْفَة عين ولا إلى أحد مِن خلقك»(١).

فالعبدُ مطروحٌ بين الله وبين عدوه إبليس، فإن تولاه الله لم يظفرْ به عدوه، وإن خَذله وأعرضَ عنه افترسه الشيطان كما يفترسُ الذئبُ الشاةَ.

فإن قيل: فما ذنب الشاة إذا خَلَّى الراعي بين الذئب وبينها، وهل يمكنها أن تقوَى على الذئب وتنجو منه؟

قيل: لعَمرُ الله إن الشيطان ذئبُ الإنسان(٢) كما قاله الصادقُ المصدوق، ولكنْ لم يجعل الله لهذا الذئب اللعين على هذه الشاة سلطاناً مع ضعفها، فإذا أعطت بيدها ـ وسالمت الذئبَ ودعاها فلبتْ دعوتَه وأجابت أمرَه ولم تتخلفْ، بل أقبلتْ نحوه سريعةً مطيعة وفارقت حِمى الراعي الذي ليس للذئاب عليه سبيل، ودخلتْ في محل الذئاب الذي مَن دخلَه كان صيداً لهم ـ فهل الذنبُ كل الذنب إلا [على] الشاة، فكيف والراعي يحذرُها ويخوفها وينذرها، وقد أراها مصارعَ الشاة التي انفردتْ عن الراعي ودخلت وادي الذئاب؟!

قال أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة: سمعتُ ابن أبي الدنيا يقول: إن لله سبحانه من العلوم ما لا يُحصَى، ويعطِي كلَّ واحد مِن ذلك ما لا يعطِي غيرَه.

لقد حدثنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن سعيد القطان ثنا عبيد الله بن بكر

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ متكاملاً، انما مفرقاً في عدة أحاديث.

(٢) حديث ضعيف، رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٢٣٣ و٢٤٣)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، بلفظ: (إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم، يأخذ الشاة القاصية والناحية فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد)، وفي السند العلاء بن زياد لم يسمع من معاذ، وكذا رواه الطبراني كما ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٢٢٢)، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، وأشار الشيخ الألباني إلى ضعفه برقم /١٤٧٧/.

السهمي عن أبيه أن قوماً كانوا في سَفَر فكان فيهم رجلٌ يمر بالطائر فيقول: أتدرون ما تقول هؤلاء، فيقولون لا، فيقول تقول كذا وكذا، فيحيلنا على شيء لا ندري أصادق فيه هو أم كاذب، إلى أن مروا على غنم وفيها شاة قد تخلّفت على سخلة لها فجعلتْ تحنو عنقَها إليها وتثغو، فقال: أتدرون ما تقول هذه الشاةُ؟ قلنا: لا، قال: تقول للسخلة إلْحقي لا يأكلْكِ الذئبُ كما أكل أخاك عامَ أول في هذا المكان.

قال: فانتهينا إلى الراعي فقلنا له: وَلَدتْ هذه الشاةُ قبل عامك هذا؟ قال نعم ولدتْ سخلةً عام أول فأكلها الذئبُ بهذا المكان.

ثم أتينا على قوم فيهم ظعينةٌ على جمل لها وهو يرغو ويحنو عنقَه إليها فقال: أتدرون ما يقولُ هذا البعير؟ قلنا لا، قال: فإنه يلعن راكبته ويزعم أنها رحلته على مخيط وهو في سنامه.

قال: فانتهينا إليهم فقلنا يا هؤلاء إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعن راكبته، ويزعم أنها رحلته على مخيط وأنه في سنامه، قال: فأناخوا البعيرَ وحطوا عنه فإذا هو كما قال.

فهذه شاةٌ قد حذرتْ سخلتَها من الذئب مرةً فحذِرتْ.

وقد حذّر الله سبحانه ابن آدم من ذئبه مرةً بعد مرة وهو يأبى إلا أن يستجيب له إذا دعاه، ويبيت معه ويصبح: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

(١) سورة إبراهيم، الآية /٢٢/.

فصل: وأما الإركاسُ فقال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[1].

قال الفراء: أركسهم، ردَّهم إلى الكفر. وقال أبو عبيدة: يقال ركسْتُ الشيءَ وأركسته، لغتان، إذا رددته. والرَّكس قلبُ الشيء على رأسه. أو ردّ أوله على آخره، والارتكاسُ الارتداد. قال أمية:

فأركسُوا في حميم النار إنهمُ　　　كانوا عصاةً وقالوا الإفكَ والزورا

ومِن هٰذا يقال للروث الرّكس لأنه رُدَّ إلى حال النجاسة، ولهذا المعنى سُمي رجيعاً، والرَّكسُ والنكسُ والمركوسُ والمنكوسُ بمعنى واحد. قال الزجاج: أركسهم نكسَهم وردَّهم. والمعنى أنّه ردَّهم إلى حُكم الكفر من الذل والصَّغار.

وأخبر سبحانه عن حكمه وقضائه فيهم وعدله، وإنْ كان إركاسُه كان بسبب كسبهم وأعمالهم، كما قال: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2] فهذا توحيدُه، وهذا عدله، لا ما تقوله القدريةُ المعطِّلةُ من أن التوحيد إنكارُ الصفاتِ والعدلِ والتكذيبُ بالقدر.

فصل: وأما التثبيطُ فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾[3].

والتثبيط رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله. قال ابن عباس: يريد خذلَهم وكسَّلهم عن الخروج. وقال في رواية أخرى: حبسَهم. قال مقاتل: وأوحَى إلى قلوبهم اقعدوا مع القاعدين.

وقد بين سبحانه حكمته في هذا التثبيط والخذلان قبلُ وبعدُ فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى

---

(١) سورة النساء، الآية /٨٨/.
(٢) سورة المطففين، الآية /١٤/.
(٣) سورة التوبة، الآية /٤٦/.

رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[1].

فلما تركوا الإيمانَ به وبلقائه وارتابوا بما لا ريبَ فيه ولم يريدوا الخروج في طاعة الله ولم يستعدوا له ولا أخذوا أهبةَ ذلك كره سبحانه انبعاثَ مَن هذا شأنه، فإنّ مَن لم يَرفعْ به وبرسوله أو كتابه رأساً، ولم يقبلْ هديته التي أهداها إليه على يدِ أحبِّ خَلقه إليه وأكرمهم عليه، ولم يعرفْ قدرَ هذه النعمة ولا شَكرها، بل بدَّلها كفراً، فإن طاعةَ هذا وخروجَه مع رسوله يكرهُه الله سبحانه فثبطه لئلا يقعَ ما يكره مِن خروجه، وأوحى إلى قلبه قَدَراً وكَوْناً أن يقعدَ مع القاعدين.

ثم أخبر سبحانه عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء عنهم فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا﴾[2].

والخبالُ الفساد والاضطراب، فلو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا عليهم أمرَهم فأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلاف. قال ابن عباس: ما زادوكم إلا خبالاً، وعجزاً وجبناً، يعني يُجبنوهم عن لقاء العدو بتهويل أمرهم وتعظيمهم في صدورهم. ثم قال: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد. قال ابن عباس: يريد ضعَّفوا شجاعتكم، يعني بالتفريق بينهم لتفرق الكلمة فيجبنوا عن العدو. وقال الحسن: لأوضَعوا خلالَكم بالنميمة لإفساد ذات البين. وقال الكلبي: ساروا بينكم يبغونكم العيبَ، قال امرؤُ القيس:

آرانا موضعين لحتم غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

أي مسرعين، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

تَبالَهْنَ بالعِرفان لما عَرَفْنني وقلن امرؤٌ باغٍ أكلَّ وأوضعا

أي أسرع حتى كلّت مطيتُهُ: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾[3]

---

(١) سورة التوبة، الآية /٤٥/.
(٢) سورة التوبة، الآية /٤٧/.
(٣) سورة التوبة، الآية /٤٧/.

قال قتادة: وفيكم مَن يسمع كلامَهم ويطيعهم. وقال ابن إسحاق: وفيكم قوم أهلُ محبةٍ لهم وطاعةٍ فيما يدعونهم إليه لِشرفهم فيهم.

ومعناه على هذا القول: وفيكم أهل سمع وطاعة لهم لو صحبهم هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم.

قلت: فتضمَّنَ «سمَّاعين» معنى «مستجيبين».

وقال مجاهد وابن زيد والكلبي: المعنى، وفيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم، أي جواسيسُ. والقولُ هو الأول، كما قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾[1] أي قابلون له، ولم يكن في المؤمنين جواسيسُ للمنافقين، فإن المنافقين، كانوا مختلطين بالمؤمنين، ينزلون معهم ويرحلون ويصلّون معهم ويجالسونهم، ولم يكونوا متحيزين عنهم قد أرسلوا فيهم العيونَ ينقلون إليهم أخبارَهم، فإن هذا إنما يفعله مَن انحاز عن طائفة ولم يخالطها وأرصدَ بينهم عيوناً له. فالقولُ قولُ قتادة وابن إسحاق. والله أعلم.

فإن قيل: انبعاثهم إلى طاعته طاعةٌ له فكيف يكرهُها؟ وإذا كان سبحانه يكرهها فهو يحبُّ ضدّها لا محالةَ إذ كراهةُ أحدِ الضدين تستلزم محبةَ الضد الآخر، فيكون قعودُهم محبوباً له فكيف يعاقبهم عليه؟

قيل: هذا سؤالٌ له شأن، وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب. وأجوبةُ الطوائف على حسب أصولهم.

فالجبريةُ تجيبُ عنه بأن أفعاله لا تُعلل بالحِكم والمصالح، وكلُّ ممكن فهو جائز عليه، ويجوزُ أن يعذبهم على فعل ما يحبه ويرضاه وتَرْكِ ما يبغضه ويسخطه، والجميعُ بالنسبة إليه سواء. وهذه الفرقةُ قد سدّتْ على نفسها بابَ الحكمة والتعليل.

والقدريةُ تجيبُ عنه على أصولها بأنه سبحانه لم يثبطهم حقيقةً ولم يمنعهم بل هم منعوا أنفسهم وثبطوها عن الخروج وفعلوا ما لا يريد، ولما كان في خروجهم المفسَدة التي ذَكرها اللهُ سبحانه ألقَى في نفوسهم كراهةَ الخروج مع رسوله.

---

(١) سورة المائدة الآية /٤١/.

قالوا: وجعلَ سبحانه إلقاءَ كراهةِ الانبعاث في قلوبهم كراهةً مشيئة من غير أن يَكرهَ هو سبحانه انبعاثهم، فإنه أمرَهم به، قالوا: وكيف يأمرهم بما يكرهُه.

ولا يخفي على مَن نوَّرَ اللهُ بصيرته فسادُ هذين الجوابين وبُعدهُما مِن دلالة القرآن، فالجوابُ الصحيحُ أنه سبحانه أمرَهم بالخروج طاعةً له ولأمره واتباعاً لرسوله ﷺ ونصرةً له وللمؤمنين، وأحبَّ ذلك منهم ورضيَه لهم دِيناً وعلِمَ سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقعْ على هذا الوجه، بل يكون خروجُهم خروجَ خذلان لرسوله وللمؤمنين، فكان خروجاً يتضمنُ خلافَ ما يحبه ويرضاه، ويستلزمُ وقوعَ ما يكرهه ويبغضه، فكان مكروهاً مِن هذا الوجه ومحبوباً له مِن الوجه الذي خرجَ عليه أولياؤه. وهو يعلم أنه لا يقعُ منهم إلا على الوجه المكروه إليه فكرهَه وعاقبَهم على تركِ الخروج الذي يحبه ويرضاه، لا على تركِ الخروج الذي يبغضه ويسخطه.

وعلى هذا فليس الخروجُ الذي كرهه منهم طاعةً حتى لو فعلوه لم يَثْبْهم عليه ولم يَرْضَه منهم. وهذا الخروجُ المكروهُ له ضدان: أحدُهما الخروجُ المرْضيّ المحبوبُ، وهذا الضدُّ هو الذي يحبه، والثاني التخلفُ عن رسوله والقعودُ عن الغزو معه. وهذا الضدُّ يبغضُهُ ويكرهه أيضاً. وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا يُنافي كراهته لهذا الضد.

فنقول للسائل: قعودهمْ مبغوضٌ له ولكنْ ههنا أمران مكروهان له سبحانه، وأحدُهما أكْرهُ له من الآخر لأنه أعظمُ مفسدةً. فإنّ قعودهم مكروه له، وخروجَهم على الوجه الذي ذكره أكْرَهُ إليه، ولم يكنْ لهم بدّ مِن أحد المكروهين إليه سبحانه، فدفعَ المكروهَ الأعلى بالمكروه الأدنى، فإن مفسدةَ قعودهم عنه أصغرُ من مَفسدة خروجهم معه، فإن مفسدةَ قعودهم تختصُّ بهم، ومفسدةَ خروجهم تعودُ على المؤمنين، فتأمل هذا الموضع.

فإن قلتَ: فهلا وفّقهم للخروج الذي يحبه ويرضاه وهو الذي خرج عليه المؤمنون؟

قلت: قد تقدم جوابُ مثل هذا السؤالِ مراراً. وإنَ حكمتَه سبحانه تأبى أن يضعَ التوفيقَ في غير محله وعند غير أهله، فالله أعلَمُ حيثُ يجعلُ هداه وتوفيقه وفضله. وليس كل محل يصلح لذلك، ووضع الشيء في غير محله لا يليق بحكمته.

فإن قلت: وعلى ذلك فهلاّ جعل المحالّ كلها صالحة؟

قلت: يأباه كمالُ ربوبيته وملكه، وظهورُ أسمائه وصفاته وفي الخلق والأمر. وهو سبحانه لو فعلَ ذلك لكان محبوباً له، فإنه يحب أن يُذكر ويُشكر ويُطاع ويُوحّد ويُعبد، ولكن كان ذلك يستلزمُ فوات ما هو أحبُّ إليه من استواء أقدام الخلائق في الطاعة والإيمان، وهو محبتهُ لجهاد أعدائه، والانتقام منهم، وإظهار قَدْرِ أوليائه وشرفهم، وتخصيصهم بفضله وبذلِ نفوسِهم له في معاداة مَن عاداه، وظهور عزته وقدرته وسطوته وشدة أخذه وأليم عقابه، وأضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيلَ للخلق ولو تناهَوْا في العلم والمعرفة إلى الإحاطة بها، ونسبةُ ما عقَلوه منها إلى ما خفيَ عليهم كنقرة عصفورٍ في بحر.

فصل: وأما التزيينُ فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾(١)

وقال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(٢)..

وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

أضاف التزيينَ إليه منه سبحانه خلقاً ومشيئةً وحَذَفَ فاعله تارة ونسبه إلى سببه ومن أجراه على يده تارة.

وهذا التزيين [منه] سبحانه حَسَنٌ إذْ هو ابتلاءٌ واختبار بعيد ليتميز المطيعُ منهم من العاصي والمؤمنُ من الكافر كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(٤)

وهو من الشيطان قبيحٌ، وأيضاً فتزيينه سبحانه للعبد عملَه السيء عقوبةٌ منه له على إعراضِه عن توحيده وعبوديته وإيثار سيء العمل على حسنه، فإنه لا بدّ أن يعرفه سبحانه السيء من الحسن، فإذا آثر القبيحَ واختاره وأحبه ورضيه لنفسه زَينه

---

(١) سورة الأنعام، الآية /١٠٨/.

(٢) سورة فاطر، الآية /٨/.

(٣) سورة الأنعام، الآية /٤٣/.

(٤) سورة الكهف، الآية /٧/.

الله له وأعماه عن رؤية قبحه بعدَ أن رآه قبيحاً.

وكلُّ ظالم وفاجر وفاسق لا بد أن يـريَه الله تعـالى ظلمه وفجـورَه وفسقه قبيحـاً، فإذا تمادى عليه ارتفعتْ رؤية قبحـه من قلبه فـربما رآه حَسناً عقوبـةً له، فـإنه إنّما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه وهـو حجة الله عليـه، فإذا تمـادى في غيّه وظلمه ذهبَ ذلك النور فلم يَر قبحَه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم.

ومع هذا فحجة الله قائمةٌ عليه بالرسالة وبـالتعريف الأول، فتـزيينُ الرب تعـالى عدلٌ وعقوبته حكمة، وتزيينُ الشيطان إغواء وظلم، وهو السببُ الخارجُ عن العبد، والسببُ الداخلُ فيه حبُّه وبغضُهُ وإعراضهُ.

والربُّ سبحانه خالقُ الجميع، والجميعُ واقعٌ بمشيئته وقدرته ولو شاء لهدى خلقَه أجمعين. والمعصـومُ من عَصَمه الله والمخـذولُ من خـذلـه الله ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

فصل: وبما عدمُ مشيئته سبحانه وإرادته فكما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾[2]

وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾[3]. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ ﴾[4].

وعـدمُ مشيئته للشيء مستلزمٌ لعـدم وجوده، كمـا أن مشيئته تستلزمُ وجـودَه. فما شاء الله وجَبَ وجودُهُ، وما لم يشأ امتنع وجودهُ.

وقد أخبر سبحـانه أن العبـادَ لا يشاؤون إلا بعـدَ مشيئته ولا يفعلون شيئـاً إلا بعدَ مشيئته. فقال: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[5]، ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف، الآية /٥٤/.
(٢) سورة المائدة، الآية /٤١/.
(٣) سورة السجدة، الآية /١٣/.
(٤) سورة يونس، الآية /٩٩/.
(٥) سورة الإنسان، الآية /٣٠/.
(٦) سورة المدثر، الآية /٥٦/.

فإن قيل: فهل يكون الفعلُ مقدوراً للعبد في حال عدم مشيئة الله له أن يفعله؟

قيل: إن أريدَ بكونه مقدوراً سلامـةُ آلةِ العبـد التي يتمكنُ بها من الفعـل وصحة أعضائه ووجـودُ قواه وتمكينُـه من أسباب الفعـل وتهيئةُ طـريقِ فعله وفتحُ الـطريق له فنَعَمْ هو مقدورٌ بهذا الاعتبار.

وإنْ أريدَ بكونه مقدوراً القدرةُ المقارنـةُ للفعل وهي المـوجبةُ لـه التي إذا وُجدتْ لم يتخلف عنها الفعل فليس بمقدور بهذا الاعتبار.

وتقريرُ ذلك أن القدرة نوعان:

قدرةٌ مصحِّحةٌ وهي قدرة الأسباب والشروط وسلامـةِ الآلة وهي منـاط التكليف، وهذه متقدمةٌ على الفعل غير موجبة له.

وقدرةٌ مقارِنةٌ للفعل مستلزِمـةٌ له لا يتخلف الفعـلُ عنها، وهـذه ليست شرطـاً في التكليف فلا يتوقف صحته وحُسنه عليها، فإيمانُ مَن لم يشأ الله إيمانَه وطاعـةُ مَن لم يشأ الله طاعتَه مقدورٌبالاعتبار الأول غيرُ مقدور بالاعتبار الثاني.

وبهذا التحقيق تزولُ الشبهةُ في تكليف ما لا يطاق، كما يـأتي بيانـه في موضعـه إن شاء الله تعالى.

فـإذا قيل: هـل خَلَق لمن علم أنـه لا يؤمن قـدرةً على الإيمـان أم لم يخلقْ لـه قدرةً؟

قيـل: خَلق له قـدرةً مصحّحة متقـدمة على الفعـل هي مناطُ الأمـر والنهي، ولم يخلقْ له قدرةً موجبة للفعل مستلزمةً له لا يتخلف عنها، فهذه فضلهُ يؤتيه من يشاء، وتلك عدلُه التي تقوم بها حجتُه على عبده.

فإن قيل: فهل يمكنه الفعلُ ولم يَخلقْ له هذه القدرةَ؟

قيل: هذا هو السؤالُ السابق بعينه وقد عرفتَ جوابَه، وبالله التوفيق.

فصل: وأما إماتةُ قلوبهم ففي قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1]، وقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ

---

(١) سورة النمل، الآية /٨٠/.

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾[1].

وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾[2].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[3].

فوصفَ الكافرَ بأنه ميت وأنه بمنزلة أصحاب القبور، وذلك أن القلب الحي هو الذي يعرف الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلبُ لم يبقَ فيه إحساسٌ ولا تمييز بين الحق والباطل ولا إرادةٌ للحق وكراهةٌ للباطل، بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما.

وكذلك وصفَ سبحانه كتابه ووحيه بأنه روحٌ، لحصول حياة القلب به، فيكون القلبُ حياً ويزداد حياةً بروح الوحي، فيحصلُ له حياةٌ على حياة ونورٌ على نور، نورُ الوحي على نور الفطرة. قال: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾[4].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾[5].

فجعله رُوحاً لما يحصل به من الحياة ونوراً لما يحصلُ به من الهدى والإضاءة، وذلك نور وحياة زائدة على نور الفطرة وحياتها، فهو نورٌ على نور وحياةٌ على حياة.

ولهذا يَضربُ سبحانه لمن عَدِم ذلك مثلاً بمستوقِدِ النار التي ذهب عنه ضوؤها، وبصاحب الصيِّب الذي كان حظه منه الصواعقَ والظلماتِ والرعدَ والبرقَ، فلا استنار بما أوقد من النار ولا حيي بما في الصيِّب من الماء.

ولذلك ضرب هذين المثلين في سورة الرعد لمن استجاب له فحصل على الحياة والنور، ولمن لم يستجب له وكان حظه الموتَ والظلمة، فأخبر عمن أمسك

---

(١) سورة الأنعام، الآية /١٢٢/.

(٢) سورة يس، الآية /٧٠/.

(٣) سورة فاطر، الآية /٢٢/.

(٤) سورة غافر، الآية /١٥/.

(٥) سورة الشورى، الآية /٥٢/.

عنه نورَه بأنه في الظلمة ليس له مِن نفسه نور، فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾(١).

ثم ذَكَرَ من أمسك عنه هذا النورَ ولم يجعله له فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾(٢).

وفي المسند من حديث عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلقَ خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومَن أخطأه ضلّ، فلذلك أقولُ جف القلم على علم الله»(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٤)

وهذه الظلماتُ ضد الأنوار التي يتقلب فيها المؤمن فإن نور الإيمان في قلبه، ومدخله نور، ومخرجه نور، وعلمه نور، ومشيئته في الناس نور، وكلامه نور،

---

(١) سورة النور، الآية /٣٥/.
(٢) سورة النور، الآية /٣٩/.
(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/١٧٦) وأبو داود الطيالسي في مسنده برقم /٢٢٩١/، والحاكم في المستدرك (١/٣٠) وقال: هذا حديث صحيح قد تداوله الأئمة، وقد احتجا بجميع رواته ثم لم يخرجاه، ولا أعلم له علة، ووافقه الذهبي..وصححه ابن حيان برقم /١٨١٢/ كما في الموارد.
(٤) سورة الأنعام، الآية /٣٩/.

ومصيره إلى نور، والكافرُ بالضد.

ولما كان النور من أسمائه الحسنى وصفاته كان دينه نوراً، ورسولُه نوراً، وكلامه نوراً، وداره نوراً يتلألأ، والنورُ يتوقد في قلوب عباده المؤمنين، ويجري على ألسنتهم، ويظهر على وجوههم.

وكذلك لَمّا كان الإيمان [صفته] واسمه المؤمنَ لم يعطه إلا أحبَّ خلقِه إليه.

وكذلك الإحسانُ صفتهُ وهو المحسن ويحب المحسنين، وهو صابر يحب الصابرين، شاكر يحب الشاكرين، عَفُوّ يحب أهل العفو، حييّ يحب أهلَ الحَياء، ستير يحب أهل الستر، قوي يحب أهل القوة من المؤمنين، عليم يحب أهل العلم من عباده، جواد يحب أهل الجود، جميل يحب المتجملين، برّ يحب الأبرار، رحيم يحب الرحماء، عَدْل يحب أهل العدل، رشيد يحب أهل الرشد، وهو الذي جعل من يحبه مِن خلقه كذلك، وأعطاه من الصفات ما شاء، وأمسكها عمن يبغضه وجعله على أضدادها، فهذا عدلُه، وذاك فضلُه، والله ذو الفضل العظيم.

فصل: وأما جَعْلهُ القلبَ قاسياً فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾[1].

والقسوةُ الشدة والصلابة في كل شيء، يقال حجرٌ قاس، وأرض قاسية لا تنبت شيئاً قال ابن عباس: قاسيةٌ عن الإيمان. وقال الحسن: طُبع عليها.

والقلوبُ ثلاثة[2] قلب قاس وهو اليابس الصلب الذي لا يقبلُ صورةَ الحق ولا تنطبع فيه، وضدُّه القلبُ اللين المتماسك، وهو السليم من المرض الذي يقبلُ

(١) سورة المائدة، الآية /١٣/.

(٢) في الحديث الصحيح الموقوف على حذيفة رضي الله عنه: (القلوب أربعة: قلب مصفح فذلك قلب المنافق، وقلب أغلف فذاك قلب الكافر، وقلب أجرد كأن فيه سراج يزهر فذاك قلب المؤمن، وقلب فيه نفاق وإيمان، فمثله مثل قرحة يحدها قيح ودم، ومثله شجرة يسقيها ماء خبث وطيب، فأيما غلب عليها غلب)، وروى مرفوعاً إلى النبي ﷺ، ولكن المرفوع ضعيف.

صورةَ الحق بلينه ويحفظه بتماسكه، بخلاف المريض الذي لا يحفظ ما ينطبع فيه لميعانه ورخاوته كالمائع الذي إذا طَبعتَ فيه الشيءَ قَبِلَ صورتَه بما فيه من اللين ولكنَ رخاوتَه تمنعه من حفظها، فخيرُ القلوب القلبُ الصُّلب الصافي اللين، فهو يَرَى الحق بصفائه ويقبله بلينه ويحفظه بصلابته.

وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ: «القلوبُ آنيةُ الله في أرضه، فأحبُّها إليه أصلبُها وأرقّها وأصفاها»(١).

وقد ذَكر سبحانه أنواعَ القلوب في قوله: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾(٢).

فذكَر القلبَ المريض، وهو الضعيفُ المنحلّ الذي لا تثبتُ فيه صورةُ الحق، والقلبَ القاسيَ اليابسَ الذي لا يقبلُها ولا تنطبع فيه، فهذان القلبان شقيان معذبان.

ثم ذَكر القلبَ المخبتَ المطمئن إليه، وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به. قال الكلبي: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ فترقّ للقرآن قلوبُهم.

وقد بيّن سبحانه حقيقةَ الإخبات ووَصَف المخبتين في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٣)

فذكرَ للمخبتين أربعَ علاماتٍ، وَجَلَ قلوبهم عند ذكره، والوجلُ خوف مقرون بهيبة ومحبة، وصبرَهم على أقداره، وإتيانَهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهراً وباطناً، وإحسانَهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم.

---

(١) لم أجده في المسند كما أشار إليه المؤلف رحمه الله، وإنما وجدته في حلية الأولياء (١/٧٩) في وصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد بلفظ قريب من هذا.

(٢) الآية /٥٣/ من سورة الحج.

(٣) سزرة الحج، الآية /٣٤/.

وهـذا إنما يتـأتى للقلب المخبت: قـال ابن عبـاس: «المخبتين» المتـواضعين. وقال مجاهـد: المطمئنين إلى الله. وقـال الأخفش: الخاشعين. وقـال ابن جريـر: الخـاضعين. وقال الـزجاج: اشتقـاقُه من الخبْتِ وهـو المنخفضُ من الأرض، وكلُّ مخبتٍ متواضعٌ، فالإخبات سكونُ الجوارح على وجه التواضع والخشوع لله.

فـإن قيل: فـإذا كان معنـاه التـواضـع والخشـوع فكيف عُـدِّيَ بـإلى في قـولـه: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[1]؟

قيل: ضمن معنى أنابوا واطمأنوا وتابوا، وهذه عباراتُ السلفِ في هذا الموضع. والمقصـودُ أن القلب المخبت ضد القـاسي والمريض، وهـو سبحانـه الـذي جعـل بعضَ القلوب مخبتاً إليه وبعضَها قاسياً، وجعلَ للقسوة آثاراً وللإخبات آثاراً.

فمن آثـار القسـوة تحـريفُ الكلم عن مـواضعـه، وذلـك مِن سـوءِ الفهم وسـوء القصد، وكلاهما ناشىء عن قسوة القلب، ومنها نسيان ما ذُكر به، وهـو تَرْكُ مـا أمر به علماً وعملاً.

ومِن آثار الإخبات وَجَلُ القلوب لذكره سبحانه، والصبرُ على أقداره، والإخلاص في عبوديته، والإحسانُ إلى خلقه.

فصل: وأما تضييقُ الصدر وجَعْلُه حرجاً لا يقبلُ الإيمـان فقال تعـالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾[2].

والحـرجُ هو الشـديدُ الضيق في قـول أهل اللغـة جميعهم، يقـال: رجـل حـرَج وحرج أي ضيق الصدر، قال الشاعر:

لا حرجُ الصدر ولا عنيف

وقال عبيد بن عمير: قرأ ابن عباس هذه الآية فقال: هـل هنا أحـدٌ من بني بكر؟

---

(١) سورة هود، الآية /٢٣/.
(٢) سورة الأنعام، الآية /١٢٥/.

قال رجل. نعم قال: ما الحَرَجةُ فيكم؟ قالوا: الوادي الكثيرُ الشجر الذي لا طـريقَ فيه. فقال ابن عباس: كذلك قلبُ الكافر[1].

وقرأ عمر بن الخطاب الآية فقال: ايتوني رجلاً مِن كنانة واجعلوه راعياً فأتَوْه بـه، فقال عمر: يا فتى ما الحرجةُ فيكم؟ فقال: الشجرةُ تُحدث بها الأشجارُ الكثيرة فـلا تصلُ إليها راعية ولا وحشية، فقال عمر: كذلك قلبُ الكـافر لا يصـلُ إليه شيء من الخير[2].

قال ابن عباس: يجعل صدره ضيقاً حرجاً، إذا سَمع ذِكـر الله اشمأز قلبـهُ، وإن ذُكر شيء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك.

ولما كان القلبُ محلاً للمعرفة والعلم والمحبة والإنابة، وكانت هذه الأشيـاء إنما تدخل في القلب إذا اتسع لها، فإذا أراد الله هدايةَ عبد وسع صدرَه وشرحَه فدخلتْ فيه وسكَنته، وإذا أراد ضلاله ضَيّق صدره وأحرجه فلم يجدْ محلاً يدخل فيه فيعـدلُ عنه ولا يساكنه.

وكلُّ إناء فارغٍ إذا دخل في الشيء ضـاق به، وكلمـا أفرغتَ فيـه الشيءَ ضاق، إلا القلب اللين، فكلما أفرغ الإيمـان والعلمُ اتسعَ وانفسـحَ، وهذا مِن آيـات قدرة الرب تعالى.

وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: إذا دخل النورُ القلبَ انفسح وانشرح. قالوا: فمـا علامـةُ ذلك يـا رسولَ الله؟ قـال: الإنـابـةُ إلى دار الخلود، والتجـافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت قبل نزوله[3].

فشَرْحُ الصدر مِن أعظم أسباب الهـدى، وتضييقُه من أسبـاب الضلال، كمـا أن شرحَه مِن أجلّ النعم وتضييقَه مِن أعظم النقم، فالمؤمنُ منشرحُ الصدر منفسحُه في

---

(١) انظر جامع البيان للطبري (٢٨/٨) من تفسير سورة الأنعام.

(٢) رواه ابن جرير في جامع البيان (٢٦/٨) من تفسير سورة الأنعام.

(٣) لم أجده في الترمذي كما ذكر المؤلف رحمه الله، وقد أخرجه الطبـري (٢٧/٨) من حديث ابن مسعـود، وذكره السيـوطي في الدر المنشـور (٤٤/٣) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبـة وابن أبي الدنيا وأبي الشيخ وابن مردويه، وقال ابن كثير (١٧٤/٢) بعد أن ذكـره عن عبد الـرزاق وابن أبي حاتم وابن جـرير فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً.

هذه الدار على ما ناله مِن مكروهها، وإذا قوي الإيمانُ وخالطتْ بشاشتهُ القلوبَ كان على مَكارِهها أشْرَحَ صدراً منه على شهواتها ومحابِّها. فإذا فارقها كان انفساحُ رُوحه والشرحُ الحاصلُ له لفراقها أعظمَ بكثير، كحال مَن خرج مِن سِجن ضيق إلى فضاءٍ واسعٍ موافق له، فإنها سِجنُ المؤمن، فإذا بعثه الله يومَ القيامة رأى مِن انشراحِ صدره وَسعته ما لا نسبةَ لما قَبْله إليه، فشرحُ الصدر كما أنه سببُ الهداية فهو أصلُ كل نعمة وأساسُ كل خير.

وقد سأل كليم الرحمن موسى بن عمران ربه أن يشرح له صدرَه لمّا علم أنه لا يتمكن من تبليغ رسالته والقيام بأعبائها إلا إذا شَرح له صدره[1].

وقد عدَّد سبحانه مِن نعمه على خاتم أنبيائه ورسله شَرْحَ صدرِه له[2]. وأخبر عن أتباعه أنه شَرَح صدورَهم للإسلام.

فإن قلت: فما الأسباب التي تشرحُ الصدرَ والتي تضيقه؟

قلتُ: السببُ الذي يشرحُ الصدر النورُ الذي يقذفه الله فيه، فإذا دخله ذلك النورُ أنار وانشرح.

فإن قلت: فهل يمكنه اكتساب هذا النور أم هو وَهْبي؟

قلت: هو وَهْبي وكَسْبي، واكتسابُه أيضاً مجردُ موهبة من الله تعالى، فالأمرُ كله لله والحمدُ كله له والخير كله بيديه، وليس مع العبد مِن نفسه شيء البتةَ، بل الله واهبُ الأسباب ومسبِّباتها وجاعلُها أسباباً ومانحُها مَن يشاء ومانعُها مَن يشاء، إذا أراد بعبده خيراً وفّقه لاستفراغ وسْعه وبذل جهده في الرغبة والرهبة إليه فإنهما مادتا التوفيق، فبقدر قيام الرغبة والرهبة في القلب يحصل التوفيق.

فإنْ قلت: فالرغبةُ والرهبةُ بيده لا بيد العبد.

قلت: نَعم واللهِ، وهما مجردُ فَضْله ومِنّته، وإنما يجعلهما في المحلّ الذي يليق بهما ويحبسهما عمن لا يصلح لهما. فإن قلت: فما ذنبُ مَن لا يصلحُ؟

قلت: أكثرُ ذنوبه أنه لا يصلح، لأن صلاحيتَه بما اختاره لنفسه وآثره وأحبه من

---

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى في الآية /٢٥/ من سورة طه: ﴿قال رب اشرح لي صدري﴾.
(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى في الآية/١/ من سورة الشرح: ﴿ألم نشرح لك صدرك..﴾

الضلال والغيّ على بصيرة مِن أمره، فآثر هواه على حق ربه ومَرْضاته، واستحبّ العمى على الهدى، وكان كُفْرُ المنعمِ عليه بصنوف النعم وجحدُ إلاهيّته والشّركُ به والسعيُ في مساخطه أحبَّ إليهِ مَن شُكره وتوحيده والسعي في مَرْضاته، فهذا مِن عدم صلاحيته لتوفيق خالقه ومالكه، وأيُّ ذنبٍ فوق هذا؟

فإذا أمسكَ الحكَمُ العَدْلُ توفيقَه عمن هذا شأنه كان قد عَدَل فيه وانسدتْ عليه أبوابُ الهداية وطرق الرشاد فأظلم قلبهُ فضاق عن دخول الإسلام والإيمان فيه، لو جاءته كلُّ آية لم تزده إلا ضلالاً وكفراً.

وإذا تأمل مَن شَرَحَ اللهُ صدرَه للإسلام والإيمان هذه الآية وما تضمنته من أسرار التوحيد والقدر والعدل وعظمة شأن الربوبية صار لقلبه عبوديةٌ أخرى ومعرفةٌ خاصة، وعَلم أنه عَبْدٌ من كل وجه وبكل اعتبار وأنّ الرب تعالى ربُّ كل شيء ومليكُه مِن الأعيان والصفات والأفعال، والأمرَ كلَّه بيده والحمد كلَّه له وأزِمّةَ الأمور بيده ومرجعَها كلّها إليه.

ولهذه الآية شأن فوقَ عقولنا وأجلُّ مِن أفهامنا وأعظمُ مما قال فيها المتكلمون الذين ظلموها معناها وأنفسَهم كانوا يظلمون. تالله لقد غلظَ عنها حجابُهم وكُثفتْ عنها أفهامهم ومنعتهم من الوصول إلى المراد بها أصولُهم التي أصّلوها وقواعدُهم التي أسسوها.

فإنها تضمنتْ إثباتَ التوحيد والعدل الذي بَعَثَ اللهُ به رسلَه وأنزل به كتبه، [لا التوحيدَ] والعدلَ الذي يقوله معطّلو الصفات ونفاةُ القدر.

وتضمنت إثباتَ الحكمةِ والقدرةِ والشرعِ والقدر والسبب والحكم والذنب والعقوبة، ففتحَتْ للقلب الصحيح باباً واسعاً من معرفة الرب تعالى بأسمائه وصفاتِ كماله ونعوتِ جلاله وحكمتِه في شرعه وقدَره وعدله في عقابه وفضله في ثوابه،

وتضمنتْ كمالَ توحيده وربوبيته وقيّوميته وإلهيته، وأن مصادرَ الأمور كلَّها عن محض إرادته ومردَّها إلى كمال حكمته، وأن المهديّ مَن خصّة الله بهدايته وشَرَح صدره لدينه وشريعته، وأن الضال مَن جعلَ صدره ضيقاً حرجاً عن معرفته ومحبته كأنما يتصاعد في السماء، وليس ذلك في قدرته، وأنّ ذلك عدلٌ في عقوبته لمن لم يقدُره حقَّ قدْره وجَحَدَ كمالَ ربوبيته وكفرَ بنعمته وآثر عبادةَ الشيطان على عبوديته،

فسدّ عليه بابَ توفيقِه وهدايته وفتحَ عليه أبواب غِيّة وضلاله فضاق صدرُه وقسا قلبه وتعطلتْ من عبودية ربها جوارحُه وامتلأتْ بالظلمة جوانحُه.

والذنبُ له حيث أعرضَ عن الإيمان واستبدل به الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، ورضي بموالاة الشيطان، وهانت عليه معاداةُ الرحمن، فلا يحدِّثُ نفسَه بالرجوع إلى مولاه، ولا يعزمُ يوماً عن إقلاعه عن هواه، قد ضادّ الله في أمره، بحبِّ ما يُبغضُهُ، وبِبغضِ ما يحبه، ويوالي مَن يعاديه، ويعادي مَن يواليه، يغضبُ إذا رضيَ الربُّ، ويرَضى إذ غضب.

هذا وهو يتقلبُ في إحسانه ويسكنُ في داره ويتغذى برزقه ويتقوى على معاصيه بنعمه، فَمنْ أعدلُ منه سبحانه عما يصفه به الجاهلون والظالمون إذا جَعَلَ الوحي على أمثال هذا مِن الذين لا يؤمنون.

فصل: وإذا شرَح اللهُ صدرَ عبده بنوره الذي يقذفه في قلبه أراه في ضوء ذلك النور حقائقَ الأسماء والصفات التي تضل فيها معرفةُ العبد إذ لا يمكن أن يعرفها العبد على ما هي عليه في نفس الأمر.

وأراه في ضوء ذلك النور حقائقَ الإيمان وحقائقَ العبودية وما يصححها وما يفسدها، وتفاوتت معرفة الأسماء والصفات والإيمان والإخلاص وأحكام العبودية بحسب تفاوتهم في هذا النور. قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾[1]،

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾[2].

فيكشفُ لقلب المؤمن في ضوء ذلك النور عن حقيقة المثل الأعلى مستوياً على عرش الإيمان في قلب العبد المؤمن، فيشهد بقلبه رباً عظيماً قاهراً قادراً أكبرَ مِن كل شيء في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله. السمواتُ السبعُ قبضةُ إحدى يديه،

---

(١) سورة الأنعام، الآية /١٢٢/.
(٢) سورة الحديد، الآية /٢٨/.

والأرضون السبعُ قبضةُ اليد الأخرى، يمسكُ السمواتِ على إصبع وَالأرضين على إصبع والجبالَ على إصبع والشجر على إصبع والثَّرى على إصبع ثم يهزهنّ ثم يقول أنا الملكُ[1].

فالسمواتُ السبعُ في كفه كخردلة في كف العبد، يحيطُ ولا يُحاط به، ويحصر خَلقه ولا يحصرونه، ويدركُهم ولا يدركونه. لو أن الناسَ من لَدُن آدمَ إلى آخرِ الخلق قاموا صفاً واحداً ما أحاطوا به سبحانه.

ثم يشهدُه في علمه فوق كلّ عليم، وفي قدرته فوق كل قدير، وفي جُوده فوق كل جواد، وفي رحمته فوق كل رحيم، وفي جماله فوق كل جميل، حتى لو كان جمالُ الخلائق كلِّهم على شخص واحد منهم ثم أعطي الخلقُ كلُّهم مثلَ ذلك الجمال لكانت نسبتهُ إلى جمال الرب سبحانه دون نسبة سراجٍ ضعيف إلى ضوء الشمس.

ولو اجتمعتْ قُوى الخلائقِ على شخص واحد منهم ثم أعْطى كلّ منهم مثلَ تلك القوة لكانت نسبتُها إلى قوته سبحانه دون نسبة قوة البعوضة إلى حَمَلةِ العرش.

ولو كان جُودهم على رجل واحد وكلُّ الخلائقِ على ذلك الجود لكانت نسبتُه إلى جوده دون نسبةِ قطرةٍ إلى البحر.

وكذلك عِلمُ الخلائق إذا نُسب إلى علمه كان كنقرة عصفور من البحر.

وكذلك سائر صفاته كحياته وسمعه وبَصَره وإرادته، فلو فُرِضَ البحرُ المحيط بالأرض مِداداً تحيطُ به سبعةُ أبحر، وجميعُ أشجار الأرض شيئاً بعد شيء أقلاماً لَفنيَ ذلك المدادُ والأقلامُ ولا تفنى كلماته ولا تنفَد[2]، فهو أكبر في علمه مِن كل

(١) يشير بذلك إلى الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (٨/٢٠٢) في التوحيد، باب كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، وكذا مسلم برقم /٢٧٨٦/ في صفات المنافقين، باب صفة القيامة والجنة والنار، وتمام الحديث (إن الله تعالى يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزّهن فيقول: أنا الملك، أنا الملك...)

(٢) إشارة لقوله تعالى من سورة لقمان، الآية /٢٧/: ﴿ولو انما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾.

عالم، وفي قدرته من كل قادر، وفي جوده من كـل جواد. وفي غِنـاه من كل غني، وفي علوّه من كل عالٍ، وفي رحمته من كل رحيم.

استوَى على عرشه واستولى على خلقه، منفردٌ بتدبير مملكتـه فلا قبضَ ولا بسطَ ولا منع ولا هدى ولا ضلالَ ولا سعادة ولا شقاوةَ ولا موت ولا حياةَ ولا نفع ولا ضر إلا بيده. لا مالكَ غيرُه، ولا مـدبرَ سـواه، لا يستقلّ أحـدٌ معه بملكِ مثقـال ذرة في السمـوات والأرض، ولا له شـركةٌ في ملكهـا. ولا يحتـاج إلى وزيـر ولا ظهيـر ولا معين، ولا يغيبُ فيخلفُه غيرُه، ولا يعي فيعينهُ سواه. ولا يتقدم أحدٌ بـالشفاعـة بين يديه إلا مِن بعد إذنه لمن شاء وفيمن شاء.

فهو أولُ مَشَاهِد المعرفة ثم يترَقى منـه إلى مشهد فـوقه لا يتم إلا بـه وهو مشهـدُ الإلهيـة فيُشهدُ سبحـانه متجليـاً في كمالـه بأمـره ونهيه، ووعْدهِ ووعيـده، وثـوابـه وعقابه، وفضله في ثـوابه، فيُشهـد رباً قيـوماً، متكلمـاً آمراً نـاهياً، يحب ويبغض، ويرضى ويغضب، قد أرسلَ رُسله وأنزل كتبه وأقام على عباده الحجةَ البـالغة، وأتم عليهم نعمتَه السابغة، يهدي من يشاءُ منه نعمـةً وفضلاً ويضـلّ من يشاء حكمـةً منه وعـدلاً، ينزلُ إليهم أوامـرَه وتعرضُ عليـه أعمـالُهمْ. لم يخلقْهم عبثـاً ولم يتـركهم سـدى، بل أمـرُه جارٍ عليهم في حـركاتهم وسكنـاتهم وظواهـرهم وبـواطنهم، فلله عليهم حُكم وأمر في كل تحريكةٍ وتسكينة ولحظة ولفظة.

وينكشف له في هذا النور عدلُه وحكمته ورحمته ولطفه وإحسانه وبره في شـرعه وأحكامه، وأنها أحكام رب رحيم محسن لطيف حكيم، قد بهرت حكمته العقـولَ، وأقرّتْ بها الفِطرُ، وشهدتْ لمنزلها بالوحدانية، ولمن جاء بها بالرسالة والنبوة.

وينكشف لـه في ضوء ذلـك النور إثبـاتُ صفات الكمـال وتنـزيهـه سبحـانـه عن النقص والمثال، وأن كل كمـال في الوجـود فمعطيـه وخالقـه أحق به وأولى، وكـلّ نقصٍ وعيب فهو سبحانه منزهٌ متعالٍ عنه.

وينكشفُ له في ضوء هذا النور حقائقُ المعاد واليوم الآخر ومـا أخبر بـه الرسـولُ عنه حتى كأنه يشاهدُه عِياناً وكأنه يخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأمـره ونهيه ووعـده ووعيده إخبارَ مَن كأنه قد رأى وعاينَ وشاهدَ ما أُخبر به.

فمن أراد سبحانه هدايته شَرَح صدرَه لهذا فاتسع له وانفسـح، ومَن أراد ضلالتـه

جعلَ صدره مِن ذلـك في ضيق وحَرَج لا يجـدُ فيه مسلكـاً ولا منفذاً والله المـوفِّق المعين.

وهذا الباب يكفي اللبيبَ في معرفة القدر والحكمة ويطلعه على العدل والتوحيـد اللذين تضمنهما قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1].

(١) سورة آل عمران، الآية /١٨/.

البابُ السَّادس عشر

فيما جاء في السنة مِن تفرّد الرب تعالى بخَلْق أعمال العباد كما هو متفرد بخلق ذواتهم وصفاتهم

قال البخاري في كتاب خلق أفعال العباد. حدثنا علي بن عبدالله ثنا مروان بن معاوية ثنا أبو مالك عن ربعي بن حراش عن حذيفة قال النبي ﷺ: إن الله يصنعُ كلَّ صانع وصنعتَه. قال البخاري: وتلا بعضُهم عند ذلك: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

حدثنا محمد أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق عن حذيفة نحوه موقوفاً عليه[2].

وأما استشهادُ بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ بحَمْلِ «ما» على المصدر، أي خلَقكم وأعمالَكم، فالظاهرُ خلافُ هذا وأنها موصولة، أي خلَقكم وخلقَ الأصنام التي تعملونها، فهو يدلّ على خَلْق أعمالهم مِن جهة اللزوم، فإن الصنم اسم للآلة التي حلّ فيها العملُ المخصوصُ، فإذا كان مخلوقاً لله كان خلقه متناوِلاً لمادته وصورته.

قال البخاري: وحدثنا عمرو بن محمد حدثنا ابن عيينة عن عمرو عن طاوس عن ابن عمر: «كلّ شيء بقدر، حتى وضعُك يدَك على خدك»[3].

---

(١) سورة الصَّافات، الآية /٩٦/.

(٢) انظر كتاب خلق أفعال العباد للإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله، ص ٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٢٦.

قال البخاري وحدثني إسماعيل قال حدثني مالك عن زياد بن سعد عن عمرو بن مسلم عن طاوس قال: أدركتُ ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء يقدَر حتى العَجْزُ والكَيسُ. رواه مسلم في صحيحه عن طاوس وقال: سمعتُ عبد الله بن عمر يقول قال رسول الله ﷺ: «كلّ شيء بقدر حتى العجزُ والكَيَسُ»[1].

قال البخاري: وقال ليث عن طاوس عن ابن عباس ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[2] حتى العجزُ والكَيَسُ.

قال البخاري: سمعتُ عبيد الله بن سعيد يقول سمعت يحيى بن سعيد يقول: ما زلتُ أسمعُ أصحابنا يقولون: أفعالُ العباد مخلوقة.

قال البخاري: حركاتُهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة[3].

وقال جابر بن عبد الله: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركعْ ركعتين مِن غير الفريضة. ثم ليقلْ اللهم إني أستخيرُك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك مِن فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتَعْلم ولا أعلم، وأنتَ علاّم الغيوب، اللهم إن كنتَ تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فيسره لي ثم باركْ لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفْه عني واصرفني عنه، واقدُرْ لي الخيرَ حيث كان ثم رضني به» قال: ويُسمِّي حاجتَه[4]. قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

فقوله إذا همّ أحدُكم بالأمر صريحٌ في أنه الفعلُ الاختياري المتعلق بإرادة العبد، وإذا عُلم ذلك فقولُه: «استقدرك بقدرتك» أي أسألك أن تُقدرني على فعله بقدرتك. ومعلوم أنه لم يُسأل القدرةَ المصححة التي هي سلامة الأعضاء وصحة

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم /٢٦٥٥/ في القدر، باب كل شيء بقدر، ورواه أيضاً الإمام مالك في الموطأ (٢/٨٩٩) في القدر، باب النهي عن القول بالقدر.

(٢) سورة القمر، الآية /٤٩/.

(٣) خلق أفعال للعباد للبخاري ص ٢٦.

(٤) رواه البخاري (١٦٢/٧) في الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، وأبو داود برقم /١٥٣٨/ في الصلاة، باب في الاستخارة، والترمذي برقم /٤٨٠/ في الصلاة، باب ما جاء في صلاة الاستخارة، والنسائي (٦/ ٨٠ و٨١) في النكاح، باب كيف الاستخارة.

البنية، وإنما سأل القدرة التي توجب الفعل فعلمَ أنها مقدروةٌ لله ومخلوقة له، وأكّدَ ذلك بقوله: «فإنك تقْدر ولا أقدر» تقدرُ أن تجعلني قـادراً فاعـلاً ولا أقدر أن أجعـلَ نفس كذلك.

وكذلك قوله: «تعلم ولا أعلم» أي حقيقـةُ العلم بعواقب الأمـور ومآلُهـا والنافـعُ منها والضارُّ عندك وليس عندي.

وقوله «يسره لي أو اصرفه عني» فإنه طلبَ من الله تيسيرَه إن كان له فيـه مصلحةٌ وصَرْفَه عنه إن كان فيه مَفسدة. وهذا التيسيرُ والصرفُ متضّمِن إلقاء داعيةِ الفعل في القلب أو إلقاءَ داعيةِ التركِ فيه، ومتى حَصَلَتْ داعيـةُ الفعل حصـل الفعلُ، وداعيـةُ التركِ امتنع الفعل.

وعند القدرية ترجيحُ فاعلية العبد على الترك منه ليس للرب فيـه صُنع ولا تـأثير، فطلبُ هذا التيسيرِ منه لا معنى له عندهم، فـإن تيسيرَ الأسبـاب التي لا قدرةَ للعبـد عليها موجودٌ ولم يسأله العبدُ.

وقوله «ثم رضني به» يدلّ على أن حصـول الرضـا وهو فعـل اختياري مِن أفعـال القلوب أمرٌ مقدور للرب تعالى وهو الذي يجعل نفسَه راضياً.

وقوله: «فاصرفه عني واصرفني عنـه» صريـحٌ في أنه سبحـانه هـو الذي يصـرِفُ عبـدَه عن فعله الاختياري إذا شـاء صَـرْفـه عنـه، كمـا قـال تعـالى في حق يـوسف الصـديق: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ﴾[1]، وصـرفُ السـوء والفحشاء هو صَرْفُ دواعي القلب وميله إليهما فينصرفان عنه بصرف دواعيهما.

وقولُه: «واقدُرْ لي الخيرَ حيث كـان» يعم الخيرَ المقـدور للعبد مِن طـاعته وغيـرَ المقـدور له، فعُلم أن فعـلَ العبد للطاعـة والخير أمـرٌ مقـدورٌ لله إن لم يَقـدره الله للعبد لم يقع مِن العبد.

ففي هذا الحديث الشفـاءُ في مسألـة القدر. وأمـرَ النبيُّ ﷺ الداعيَ بـه أن يقدّم بين يدي هذا الدعاء ركعتين عبوديةً منه بين يدي نجواه، وأن يكونا مِن غير الفريضة ليتجردَ فعلُهما لهذا الغرض المطلوب.

---

(١) سورة يوسف، الآية /٢٤/.

ولما كان الفعلُ الاختياري متوقفاً على العلم والقدرة والإرادة لا يحصلُ إلا بها توسّل الداعي إلى الله بعلمه وقدرته وإرادته التي يؤتيه بها مِن فضله، وأكد هذا المعنى بتجرده وبراءته مِن ذلك فقال: «إنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر» وأمرَ الداعي أن يعلقَ التيسيرَ بالخير والصرفَ بالشر. وهو علمُ الله سبحانه تحقيقاً للتفويض إليه واعترافاً بجعل العبد بعواقب الأمور كما اعترف بعجزه. ففي هذا الدعاء إعطاءُ العبودية حقَّها وبالله المستعان.

وفي الترمذي وغيره مِن حديث الحسن بن علي قال: علمني رسولُ الله ﷺ كلماتٍ أقولهن في الوِتر: «اللهم اهدِني فيمن هَدَيت، وعافني فيمن عافيت، وتولّني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقِني شرَّ ما قضيت، إنَّكَ تقضي ولا يُقضى عليك، إنهُ لا يَذِلُّ مَن واليت، تباركتَ وتعاليت»[1].

فقولُه «اهدني» سؤال للهداية المطلقة التي لا يتخلفُ عنها الاهتداءُ.

وعند القدرية أن الرب سبحانه وتعالى عن قولهم لا يقدرُ على هذه الهداية وإنما يقدرُ على هداية البيان والدلالة المشتركةِ بين المؤمنين والكفار.

وقولُه «فيمن هديت» فيه فوائدُ.

أحدُها: أنه سؤالٌ له أن يدخَله في جملة المهديين وزمرتهم ورفقتهم.

الثانية: توسلٌ إليه بإحسانه وإنعامه، أي يا ربي قد هَدَيتَ من عبادك بشراً كثيراً فَضْلاً منك وإحساناً فأحسنْ إليّ كما أحسنتَ إليهم. كما يقول الرجلُ للملك اجعلني مِن جملة مَن أغنيتَه وإعطيتَه وأحسنتَ إليه.

الثالثة: أن ما حصلَ لأولئك مِن الهدى لم يكن منهم ولا بأنفسهم، وإنما كان منك فأنتَ الذي هديتهم.

وقولُه: «وعافني فيمن عافيت» إنما يسأل ربَّه العافيةَ المطلقةَ وهي العافيةُ مِن الكفر والفسوق والعصيان والغفلة والإعراض وفعلِ ما لا يحبه وتَرْكِ ما يحبه، فهذا

---

(١) رواه أبو داود برقم /١٤٢٥/ في الصلاة، باب القنوت في الوتر، والترمذي برقم /٤٦٤/ في الصلاة، باب ما جاء في القنوت في الوتر، والنسائي (٣/٢٤٨) في قيام الليل باب الدعاء في الوتر، وقال الترمذي: ولا نعرف عن النبي ﷺ في القنوت شيئاً أحسن من هذا.

حقيقةُ العافية، ولهذا ما سُئلَ الربُّ شيئاً أحبَّ إليـه مِن العافيـة، لأنها كلمـة جامعـة للتخلص من الشر كله وأسبابه.

وقـولُه: «وتـولني فيمن تـوليت» سؤالٌ للتـولي الكـامـل ليس المـرادُ بـه مـا فعلَه بـالكافـرين مِن خلق القدرة وسـلامة الآلـة وبيان الـطريق، فإن كـان هذا هـو ولايتَه للمؤمنين فهو وليّ الكفار كما هو وليّ المؤمنين، وهو سبحانه يتولى أوليـاءه بأمـور لا توجد في حق الكفار مِن توفيقهم وإلهامهم وجَعلِهم مهديين مطيعين.

ويدلُّ عليه قولُه: «إنه لا يَذلُّ مَن واليت» فإنه منصـورٌ عزيـز غالب بسبب تَـوَليك له، وفي هذا تنبيـه على أن مَن حصلَ لـه ذلك في النـاس فهو بنقصـان ما فـاته مِن تولي الله، وإلا فمع الـولاية الكـاملة ينتفي الذل كله ولـو سُلط عليه بـالأذى مَن في أقطارها، فهو العزيزُ غير الذليل.

وقوله «وقِني شر ما قضيتَ» يتضمنُ أن الشر بقضائه، فإنه هو الذي يقي منه.

وفي المسنـد وغيـره أن رسـول الله ﷺ قـال لمعـاذ بن جبـل: يـا معـاذُ والله إني لأحبك، فلا تنسَ أن تقول دُبُرَ كلِّ صلاةٍ: «اللهم أعني على ذكـرك وشكرك وحسن عبادتك»(1).

وهذه أفعالٌ اختيارية، وقد سأل الله أن يعينه على فعلها. وهـذا الطلبُ لا معنى له عند القدرية فإن الإعانة عندهم الإقدارُ والتمكينُ وإزاحةُ الأعـذار وسلامـةُ الآلة، وهذا حاصلٌ للسائل وللكفار أيضاً.

والإعانةُ التي سـألها أن يجعله ذاكـراً محسناً لعبـادته كمـا في حديث ابن عبـاس عنـه ﷺ في دعائـه المشهور: «ربِّ أعنِّي ولا تعنْ عليّ، وانصـرني ولا تنصرْ عليّ، وامكر لي ولا تمكرْ عليّ، واهدني ويَسِّر الهـدى لي، وانصرني على من بَغَى عليَّ، ربِّ اجعلْني لك شكّاراً، لك ذكاراً، لـك رهّابـاً مِطواعـاً، لك مخبتـاً، إليك أوّاهـا منيباً، ربِّ تقبلْ توبتي، واغسل حَوْبتي، وأجبْ دعوتي، وثبِّتْ حُجتي، واهد قلبي،

(1) رواه الإمـام أحمد في المسنـد (٥/٢٤٥ و٢٤٧)، ورواه أيضاً أبـو داود بـرقم /١٥٢٢/ في الصلاة، باب الاستغفار، والنسائي (٣/٥٣) في السهو، باب نوع آخر من الدعاء، وإسنـاده صحيح.

وسدد لساني، واسلل سخيمةَ صدري»[1]. رواه الإمام أحمد في المسند وفيه أحدٌ وعشرون دليلاً فتأملها.

وفي الصحيحين أنه ﷺ كان يقول بعد انقضاء صلاته: «لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانعَ لما أعطيتَ ولا معطي لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجدّ منك الجدُّ»[2].

وكان يقولُ ذلك الدعاءَ عند اعتداله مِن الركوع، ففي هذا نَفْيُ الشريكِ عنه بكل اعتبار، وإثباتُ عموم الملك له بكل اعتبار، وإثباتُ عموم الحمد، وإثبات عموم القدرة، وأن الله سبحانه إذا أعطى عبداً فلا مانع له وإذا منعه فلا معطي له.

وعند القدرية أن العبدَ قد يَمنع مَن أعطى اللهُ ويُعطي مَن منعه، فإنه يفعلُ باختياره عطاءً ومنعاً لم يشأه الله ـ ولم يجعله معطياً مانعاً فيُتصورَ أن يكون لمن أعطى مانع ولمن منع معطٍ.

وفي الصحيح أن رجلاً سأله أن يدله على عمل يدخلُ به الجنةَ فقال «إنه لَيسير على من يَسّره الله عليه»[3].

فدل على أن التيسير الصادر مِن قِبله سبحانه يُوجب اليسر في العمل، وعدم

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٣١٠)، وأبو داود برقم /١٥١٠/ في الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم، والترمذي برقم /٣٥٤٦/ في الدعوات، باب من أدعية النبي ﷺ، وابن ماجة برقم /٣٨٣٠/ في الدعاء، باب دعاء النبي ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه ابن حيان برقم /٢٤١٤/ موارد الظمآن.

(٢) رواه البخاري (١/٢٠٤) في صفة الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة، ومسلم برقم /٥٩٣/ في المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، وأبو داود برقم /١٥٠٥/ في الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم، والنسائي (٣/٧٠) في السهو، باب نوع آخر من القول عند انقضاء الصلاة.

(٣) إسناده صحيح، وهو قطعة من حديث لمعاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله اخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً.. إلخ الحديث. وقد رواه الترمذي برقم /٢٦١٦/ في كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، وابن ماجة برقم /٣٩٧٣/ في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، وأحمد في المسند (٥/٢٣١)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهو كما قال.

التيسير يستلزمُ عدمَ العمل لأنه ملزومُه، والملزومُ ينتفي لانتفاء لازمه. والتيسيرُ بمعنى التمكين وخلق الفعل وإزاحة الأعذار وسلامة الأعضاء حاصلٌ للمؤمن والكافر. والتيسيرُ المذكور في الحديث أمر آخر وراء ذلك وبالله التوفيق والتيسير.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال لأبي موسى: «ألاَ أدلكَ على كنز من كنوز الجنة، لا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

وقد أجمعَ المسلمون على هذه الكلمة وتلقيها بالقَبول، وهي شافية كافية في إثبات القدر وإبطال قول القدرية. وفي بعض الحديث: «إذا قالها العبدُ قال الله: أسلمَ عبدي واستسلم»[2]. وفي بعضه «فوّضَ إليَّ عبدي».

قال بعض المنتسبين للقدر: لما كانت القدرةُ بالنسبة إلى الفعل وإلى الترك بحصول الدواعي على التسوية، وما دام الأمرُ كذلك امتنع صدورُ الفعل، فإذا رَجَحَ جانبُ الفعل على الترك بحصول الدواعي وإزالة الصوارف حصلَ الفعلُ، وهذه القوةُ هي المشارُ إليها بقولنا: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وشأنُ الكلمة أعظمُ مما قال، فإن العالَمَ العُلويَّ والسفلي له تحولٌ من حالٍ إلى حال، وذلك التحولُ لا يقعُ إلا بقوة يقع بها التحولُ، فكذلك الحوْل، وتلك القوةُ قائمة بالله وحده، ليست بالتحويل، فيدخلُ في هذا كلُّ حركة في العالم العلوي والسفلي، وكل قوة على تلك الحركةِ قسرية أو إرادية أو طبيعية، وسواء كانت مِن الوسط أو إلى الوسط أو على الوسط، وسواء كانت في الكَم أو الكيف أو في الأين، كحركة النبات، وحركة الطبيعة، وحركة الحيوان، وحركة الفلك، وحركة النفس والقلب، والقوةُ على هذه الحركات التي هي حولٌ، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولما كان الكنزُ هو المال النفيس المجتمع الذي يخفى على أكثر الناس، وكانَ

---

(١) رواه البخاري (١٦٩/٧) في الدعوات، باب قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ومسلم برقم /٢٧٠٤/ في الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر.

(٢) قال الحافظ في الفتح وقد جاء في الحديث إذا قال العبد لا حول ولا قوة إلا بالله قال الله: أسلم عبدي واستسلم. قال الحافظ: أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة بسند قوي.

هـذا شأن هـذه الكلمة كـانت كنزاً مِن كنـوز الجنة فـأوتيها النبيُّ ﷺ مِن كنـزٍ تحت العرش. وكأن قائلها أسلم واستسلم لمن أزمّةُ الأمور بيديه وفوض أمره إليه.

وفي المسند والسنن عن أبي الديلمي قال: أتيتُ أبيَّ بن كعب فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يُذهبه [عني][1] من قلبي، فقال: إن الله لو عذب أهلَ سمـاواته وأهـلَ أرضه لعـذَّبهم وهو غيـرُ ظالم لهم، ولـو رحمهم لكانت رحمتُه خيراً لهم مِن أعمالهم، ولو أنفقتَ مثلَ أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمنَ بالقدر، وتعلمَ أن ما أصابك لم يكن ليخطئـك، وما أخـطأك لم يكن ليصيبك، ولـو متَّ على غير ذلك كنتَ من أهل النار» قـال: فأتيتُ عبـدَ الله بن مسعود وحـذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت فكلّ منهم حدثني بمثل ذلك عن رسول الله ﷺ[2].

وهذا الحديث حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه، ولـه شأن عـظيم، وهو دال على أن مَن تكلم به أعرفُ الخلق بالله وأعظمهُم له توحيداً وأكثرهم له تعظيماً، وفيه الشفاء التام في باب العدل والتوحيـد، فإنـه لا يزال يجـولُ في نفوس كثيـر من النـاس كيف يجتمعُ القضـاء والقدر والأمـر والنهي، وكيـف يجتمعُ العـدل والعقـاب على المقضِيّ المقدّر الذي لا بد للعبد من فعله.

ثم سلك كلُّ طائفة في هذا المقام وادياً وطريقاً.

فسلكَ الجبريةُ وادي الجبر وطريقَ المشيئة المحضة الذي يرجّـح مثلاً على مثـل مِن غير اعتبارِ علة ولا غاية ولا حكمة.

قالوا: وكل ممكن عدل، والظلمُ هو الممتنع لذاته، فلو عَذَّب أهلَ سمواته وأهلَ أرضه لكان متصرفاً في ملكه، والظلمُ تصرفُ القادر في غير ملكه، وذلـك مستحيل عليه سبحانه.

قالوا: ولما كان الأمـر راجعاً إلى محض المشيئـة لم تكن الأعمال سببـاً للنجاة،

---

(١) ليست موجودة في أصل الحديث.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/١٨٥ و١٨٩)، وأبو داود بـرقم /٤٦٩٩/ في السنة، بـاب القـدر، وإسناده حسن. وابن حبـان في صحيحه بـرقم /١٨١٧/ كمـا في المـوارد. وذكـره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٩٨) بطريق أخرى، وقال رواه الـطبراني بـاسنادين ورجـال هذه الطريق ثقات، وأشار إلى صحته شيخنا الألباني في تخريج السنة برقم /٢٤٥/.

فكـانت رحمتُه للعبـاد هي المستقلة بنجاتهم، فكـانت رحمتُـه خيـراً مِن أعمـالهم. وهؤلاء راعَـوْا جانبَ الملك وعَـطّلوا جانبَ الحمـد، واللهُ سبحـانـه لـه الملكُ ولـه الحمد.

وسلكَت القدريةُ وادي العدل والحكمة، ولم يوفوه حقه وعطلوا جانب التوحيـد، وحاروا في هذا الحديث ولم يَدْروا ما وجهه. وربما قابلَه كثير منهم بالتكذيب والردّ له وأن الرسولَ لم يقل ذلك.

قالوا: وأي ظلم يكون أعظمَ مِن تعذيب مَن استنفد أوقـاتَ عمره كلَّهـا واستفرغ قواه في طاعته، وفعل ما يحبه ولم يعصه طَرفةَ عين وكان يعملُ بأمـره دائماً؟ فكيف يقول الرسول ﷺ أن تعذيب هذا يكون عدلاً لا ظلماً؟

قالوا: ولا يقال إن حقه عليهم، وما ينبغي له أعظمُ مِن طاعـاتهم، فلا تقـعُ تلك الطاعاتُ في مقابلة نِعمهِ وحقوقه، فلو عذّبهم لعذبهم بحقـه عليهم، لأنهم إذا فعلوا مقدورهم مِن طاعته لم يكلَّفوا بغيره، فكيف يُعذبون على تركِ ما لا قدرةَ لهم عليه؟ وهل ذلك إلا بمنزلة تعذيبهم على كونهم لم يخلقـوا السمواتِ والأرضَ ونحـوِ ذلك مما لا يدخلُ تحت مقدورهم؟

قالوا: فلا وجه لهذا الحديث إلا ردّة أو تأويلُه وحمْله على معنى يصح، وهـو أنه لو أراد تعذيبهم جعلهم أمة واحدة على الكفر، فلو عذبهم في هذه الحال لكان غيرَ ظالم لهم، وهو لم يقلْ لو عذبهم مع كَونهم مطيعين له عابدين له لَعذبهم وهو غيـرُ ظالم لهم، ثم أخبر أنه لو عمَّهم بالرحمة لكانت رحمتُه لهم خيراً مِن أعمـالهم، ثم أخبر أنه لا يُقْبَلُ مِن العبد عملٌ حتى يؤمن بالقـدرُ، والقدرُ هـو علمُ الله بالكـائنات وحُكمه فيها.

ووقفتْ طائفة أخرى في وادي الحيرة بين القدَر والأمر والثـواب والعقاب، فتـارةً يغلِب عليهم شهـودُ القدَر فيغيبـون بـه عن الأمـر، وتـارة يغلب عليهم شهـودُ الأمـر فيغيبون عن القدر، وتارةً يبقون في حيرة وعمى.

وهذا كله إنما سببهُ الأصولُ الفاسدة والقواعد الباطلة التي بنوا عليها. ولو جمعـوا بين الملك والحمد والربوبية والإلهية والحكمة والقـدرة، وأثبتوا لـه الكمالَ المـطلقَ ووصفوه بالقدرة التامة الشاملة، والمشيئةِ العامة النافـذة التي لا يوجـد كائن إلا بعـد

وجودها، والحكمةِ البالغة التي ظهرت في كل موجود لَعلموا حقيقةَ الأمر وزالت عنهم الحيرة، ودخلوا إلى الله سبحانه من باب أوسعَ مِن السموات السبع، وعرفوا أنه لا يليقُ بكماله المقدس إلا ما أخبر به عن نفسه على ألسنة رسله، وأنّ ما خالفه ظنونٌ كاذبة وأوهام باطلة تولدتْ بين أفكار باطلة وآراء مظلمة.

فنقول وبالله التوفيق وهو المستعان وعليه التُّكْلانُ ولا حول ولا قوة إلا بالله: الربُّ تبارك اسمه وتعالى جدُّه، ولا إله غيره. هو المنعم على الحقيقة بصنوف النعم التي لا يحصيها أهلُ سمواته وأرضه، فإيجادهمُ نعمةٌ منه، وجَعْلهم أحياءً ناطقين نعمةٌ منه، وإعطاؤهم الأسماعَ والأبصارَ والعقولَ نعمةٌ منه، وإدرارُ الأرزاقِ عليهم على اختلاف أنواعها وأصنافها نعمةٌ منه، وتعريفُهم نفسَه بأسمائه وصفاته وأفعاله نعمة منه، وإجراءُ ذِكره على ألسنتهم ومحبتِهِ ومعرفتِهِ على قلوبهم نعمةٌ منه، وحفظهم بعد إيجادهم نعمةٌ منه، وقيامه بمصالحهم دقيقها وجليلها نعمةٌ منه، وهدايتُهم إلى أسباب مصالحهم ومعايشهم نعمةٌ منه.

وذِكرُ نعمه على سبيل التفصيل لا سبيلَ إليه، ولا قدرةَ للبشر عليه، ويكفي أن النَّفس من أدنى نِعمه التي لا يكادون يعدّونها، وهو أربعة وعشرون ألف نفَسٍ في كل يومٍ وليلة. فلله على العبد في النفس خاصةً أربعةٌ وعشرون ألفَ نِعمة كلَّ يوم وليلة، دع ما عدا ذلك مِن أصنافِ نعمه على العبد.

ولكلِ نعمةٍ من هذه النعم حقٌّ مِن الشكر يستدعيه ويقتضيه، فإذا وُزّعتْ طاعاتُ العبد كلُّها على هذه النعم لم يخرجْ قسطُ كل نعمةٍ منها إلا جزءاً يسيراً جداً لا نسبةَ إلى قدْر تلك النعمة بوجه من الوجوه.

قال أنس بن مالك: «يُنشر للعبد يومَ القيامة ثلاثةُ دواوين، ديوانٌ فيه ذنوبهُ وديوان فيه العملُ الصالح، وديوان فيه النعم من الله عليه[1]، فيأمرُ الله تعالى أصغرَ نِعمة مِن نعمه فتقوم فتستوعبُ عملَه كلَّه، ثم يقولُ: أي ربّ وعزتِك وجلالِك ما استوفيتُ ثَمني وقد بقيت الذنوبُ والنعم. فإذا أراد الله بعبد خيراً قال: ابنَ آدم ضَعّفتُ حسناتِك، وتجاوزتُ عن سيئاتك، ووهبتُ لك نِعمي فيما بيني وبينك[2]».

(١) سقط ذكر الديوان الثالث من الأصل، وقد استدركته من مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٠).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد عن أنس بن مالك مرفوعاً إلى النبي ﷺ (١٠/ ٣٦٠) وقال: رواه البزار وفيه صالح المري وهو ضعيف.

وفي صحيح الحاكم حديثُ صاحب الرمّانة الذي عبدَ الله خمسمائة سنةٍ يأكل كلّ يوم رمانة تخرجُ مِن شجرة ثم يقوم إلى صَلاته، فسأل ربه وقتَ الأجَلِ أن يقبضه ساجداً وأن لا يجعلَ للأرض عليه سبيلاً حتى يُبعثَ وهو ساجد، فإذا كان يومُ القيامة وقفَ بين يدي الرب فيقولُ تعالى: «أدخلوا عبدي الجنةَ برحمتي، فيقولُ: ربِّ بل بعملي، فيقولُ الرب جل جلاله: قايسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله، فتؤخذَ نعمةُ البصر بعبادة خمسمائة سنة، وبقيتْ نعمةُ الجسد فضلاً عليه، فيقول: أدخلوا عبدِي النار، فيجرُّ إلى النار، فينادِي: ربِّ برحمتك، رب برحمتك أدخلني الجنة، فيقولُ: رُدّوه. فيوقفَ بين يديه فيقول: يا عبدي مَن خلَقك ولم تكن شيئاً؟ فيقول: أنتَ يا رب، فيقول: مَن قوّاكَ على عبادة خمسمائة سنة؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: من أنزلكَ في جبل وسط اللجة وأخرجَ لك الماءَ العذبَ مِن الماء المالح، وأخرجَ لك كل يوم رُمانة وإنما تخرجُ مرةً في السنة، وسألتني أن أقبضك ساجداً ففعلتُ ذلك بك؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول الله: فذلك برحمتي، وبرحمتي أدخلكَ الجنة»[1].

رواه مِن طريق يحيى بن بكير، حدثنا الليثُ بن سعد عن سليمان بن هرم عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي ﷺ، والإسناد صحيح[2]، ومعناه صحيح لا ريب فيه، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: «لن ينجوَ أحدٌ منكم بعمله» وفي لفظ: «لن يدخل أحدٌ منكم الجنةَ بعمله». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمّدني الله برحمةٍ منه وفضل»[3].

---

(١) ضعيف رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٥٠ و٢٥١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد فإن سليمان بن هرم العابد من زهاد أهل الشام، والليث بن سعد لا يروي عن المجهولين، وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: لا والله وسليمان غير معتمد. ورواه العقيلي في الضعفاء (٢/ ١٤٤ و١٤٥) برقم /٦٣٨/. وقال: سليمان بن هرم عن محمد بن المنكدر مجهول في الرواية حديثه غير محفوظ. وقال الأزدي سليمان بن هرم لا يصح حديثه، وقال الذهبي في الميزان (٢/ ٢٢٨) لم يصح هذا.

(٢) قلت: بل الإسناد غير صحيح كما تبين، ولكن المعنى صحيح، فإن الأعمال سبباً لدخول الجنة، ولكنها ليست ثمناً لها، بل أعمالنا هي من فضل الله ونعمه علينا.

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ١٨١) في الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ومسلم برقم /٢٨١٦/ في صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله.

قلت: وقد أجاب ابن الجوزي رحمه الله كما نقله ابن حجر عنه في الفتح (١١/ ٢٥٣)=

فقد أخبر ﷺ أنه لا ينجي أحداً عمله من الأولين ولا مِن الآخرين إلا أن يرحمه ربه سبحانه، فتكون رحمتُه خيراً له من عمله، لأن رحمته تنجيه وعمله لا ينجيه. فعُلم أنه سبحانه لو عَذّب أهلَ سمواته وأرضِه لَعذبهم ببعض حقه عليهم.

ومما يوضحه أنه كلما كملتْ نعمةُ الله على العبد عظمَ حقّه عليه وكان ما يُطالَبُ به مِن الشكر أكثرَ مما يُطالَبُ [به] مَن دونه، فيكونُ حق الله عليه أعظمَ وأعمالُه لا تفي بحقه عليه. وهذا إنما يعرفهُ حقَّ المعرفة مَن عرفَ الله وعرفَ نفسه.

وهذا كله لو لم يحصلْ للعبد مِن الغفلة والإعراض والذنوب ما يكون في قباله طاعاته، فكيف إذا حصلَ له مِن ذلك ما يوازي طاعاته أو يزيدُ عليها، فإن مِن حق الله على عبده أن يعبده لا يشركُ به شيئاً، وأن يذكرَه ولا ينساه، وأن يشكره، ولا يكفره، وأن يرضي به رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً.

وليس الرضا بذلك مجردَ إطلاق هذا اللفظ وحالُه وإرادتُه تكذّبه وتخالفه.

= عن الجمع بين هذا الحديث وقوله تعالى: ﴿وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ بأربعة أجوبة:

الأول: أن التوفيق للعمل من رحمة الله، ولولا رحمة الله السابقة ما حصل الإيمان ولا الطاعة التي يحصل بها النجاة.

الثاني: أن منافع العبد لسيده، فعمله مستحق لمولاه، فمهما أنعم عليه من الجزاء فهو من فضله.

الثالث: جاء في بعض الأحاديث أن نفس دخول الجنة برحمة الله، واقتسام الدرجات بالأعمال.

الرابع: أن أعمال الطاعات كانت في زمن يسير، والثواب لا ينفذ، فالانعام الذي لا ينفذ في جزاء ما ينفذ بالفضل لا بمقابلة الأعمال.

وقال ابن القيم في مفتاح دار السعادة الباء المقتضية للدخول غير الباء النافية، فالأولى السببية الدالة على أن الأعمال سبب الدخول المقتضية له كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، والثانية باء المعاوضة، نحو اشتريت منه بكذا، فأخبر أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد، وأنه لولا رحمة الله لعبده لما أدخله الجنة، لأن العمل بمجرده لو تناهى لا يوجب بمجرده دخول الجنة، ولا أن يكون عوضا لها، لأنه وقع على الوجه الذي يحبه الله لا يقاوم نعمة الله بل جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة فتبقى سائر نعمه مقتضية لشكرها وهو لم يوفها حق شكرها.

فكيف يَرضى به ربّاً مَن يَسخط ما يقضيه له إذا لم يكن موافقاً لإرادته وهواه فيظل ساخطاً به متبرماً، يَرضى وربُّه غضبان، ويغضبُ وربُّه راضٍ، فهذا إنما رضي مِن ربه حظاً لم يرضَ بالله ربّاً؟

وكيف يدّعي الرضا بالإسلام ديناً من يَنبذ أصولَه خلف ظهره إذا خالفت بدعته وهواه، وفروعَه وراءه إذا لم توافق غرضه وشهوته؟

وكيف يصحّ الرضا بمحمد رسولاً ممن لم يُحكّمه على ظاهره وباطنه ويتلقى أصول دينه وفروعَه مِن مِشكاته وحده؟

وكيف يَرضى به رسولاً مَن يَتركُ ما جاء به لقولِ غيره، ولا يتركُ قولَ غيره لقوله، ولا يُحكمه ويحتجّ بقوله إلا إذا وافق تقليدَه ومذهبه فإذا خالفه لم يلتفت إلى قوله؟

والمقصودُ أن مِن حقه سبحانه على كل أحد من عبيده أن يرضى به ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً، وأن يكون حبه كله لله، وبغضه في الله، وقوله لله، وتركهُ لله، وأن يذكره ولا ينساه ويطيعه ولا يعصيه، ويشكره ولا يكفره.

وإذا قام بذلك كله كانت نِعمُ الله عليه أكثر من عمله، بل ذلك نفسُه من نعم الله عليه حيث وفقه له ويسره وأعانه عليه وجعله من أهله واختصه به على غيره، فهو يستدعي شكراً آخرَ عليه، ولا سبيل له إلى القيام بما يجب لله من الشكر أبداً. فنعمُ الله تطالبه بالشكر وأعماله لا تقابلها، وذنوبه وغفلتهُ وتقصيره قد تستنفد عمله، فديوانُ النعمِ وديوانُ الذنوب يستنفدان طاعاته كلَّها.

هذا وأعمالُ العبد مستحقة عليه بمقتضى كونه عبداً مملوكاً مستعملاً فيما يأمره به سيده، فنفسُه مملوكة، وأعمالهُ مستحقة بموجبِ العبودية، فليس له شيء من أعماله كما أنه ليس له ذرة من نفسه، فلا هو مالكُ لنفسه ولا صفاته ولا أعماله ولا لما بيده من المال في الحقيقة، بل كلُّ ذلك مملوك عليه مستحق عليه لمالكه، أعظم استحقاقاً من سيد اشترى عبداً بخالص ماله ثم قال اعملْ وأدِّ إليَّ فليس لك في نفسك ولا في كسبك شيء.

فلو عمل هذا العبدُ من الأعمال ما عمل فإن كلَّه مستحق عليه لسيده وحق من حقوقه عليه، فكيف بالمنعم المالك على الحقيقة الذي لا تعد نعمهُ وحقوقه على

عبده ولا يمكن أن تقابلها طاعاته بوجه؟ فلو عذبه سبحانه لعذبه وهو غير ظالم له، وإذا رحمه فرحمته خير له من أعماله، ولا تكون أعماله ثمناً لرحمته البتة، فلولا فضلُ الله ورحمتهُ ومغفرته ما هنأ أحداً عيشٌ البتة، ولا عرف [أحدٌ] خالقه، ولا ذكره، ولا آمن به، ولا أطاعه،

فكما أن وجودَ العبد - محض وجوده - [من جوده] وفضله ومنتهِ عليه، وهو المحمودُ على إيجاده، فتوابعُ وجودهِ كُلّها كذلك، ليس للعبد منها شيء كما ليس له في وجوده شيء، فالحمدُ كله لله، والفضلُ كله له، والإنعام كله له، والحقُّ له على جميع خلقهِ، ومن لم ينظر في حقه عليه وتقصيره وعجزه عن القيام به فهو من أجهل الخلق بربه وبنفسه، ولا تنفعه طاعاته ولا يُسمعُ دعاؤه.

قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا جرير بن حازم عن وهب قال: بلغني أن نبي الله موسى مرّ برجل يدعو ويتضرع فقال: يا ربّ ارحمه فإني قد رحمته، فأوحى الله تعالى إليه: لو دعاني حتى ينقطع فؤادُهُ ما استجبتُ له حتى ينظرَ في حقي عليه[1].

والعبدُ يسيرُ إلى الله سبحانه بين مشاهدةِ منته عليه ونعمه وحقوقه، وبين رؤية عيب نفسه وعمله وتفريطه وإضاعته، فهو يعلم أن ربه لو عذبه أشدّ العذاب لكان قد عَدلَ فيه، وأن أقضيته كلها عدْل فيه، وأن ما فيه من الخير فمجردُ فضل ومنتهِ وصدقته عليه. ولهذا كان في حديث سيد الاستغفار: «أبوءُ لك بنعمتك عليَّ وأبوءُ بذنبي»[2]. فلا يرى نفسه إلا مقصراً مذنباً، ولا يرى ربّه إلا محسناً متفضلاً.

وقد قسم الله خلقه إلى قسمين لا ثالث لهما، تائبين وظالمين فقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[3]

وكذلك جعلهم قسمين، معذبين وتائبين، فمن لم يتب فهو معذب ولا بد، قال

---

(١) رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد ص ١١١.

(٢) قطعة من حديث لشداد بن أوس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت.. الحديث. وقد رواه الإمام البخاري (١٤٥/٧)في الدعوات، باب أفضل الاستغفار، والترمذي برقم /٣٣٩٠/ في الدعوات باب رقم (١٥)، والنسائي (٢٧٩/٨) في الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر ما صنع.

(٣) سورة الحجرات، الآية /١١/.

تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[1].

وأمر جميع المؤمنين من أولهم إلى آخرهم بالتوبة، ولا يستثنى من ذلك أحدٌ وعلق فلاحهم بها، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

وعدَّد سبحانه من جملة نعمه على خير خلقه وأكرمهم عليه وأطوعهم له وأخشاهم له أن تاب عليه وعلى خواص أتباعه فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾[3].

ثم كرر توبته عليهم فقال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4]

وقدَّم توبته عليهم على توبة الثلاثة الذين خلَّفوا[5]. وأخبر سبحانه أن الجنة التي وعدها أهلها في التوراة والإنجيل يدخلها التائبون[6].

فذكر عموم التائبين أولاً ثم خصّ النبيّ والمهاجرين والأنصار بها، ثم خصَّ الثلاثة الذين خلّفوا، فعُلم بذلك احتياجُ جميع الخلق إلى توبته عليهم ومغفرته لهم وعفوه عنهم. وقد قال تعالى لسيد ولد آدم وأحب خلقه إليه «عفا الله عنك»[7] فهذا خبرٌ منه وهو أصدق القائلين، أو دعاءٌ لرسوله بعفوه عنه، وهو طلبٌ من نفسه.

وكان ﷺ يقول في سجوده أقرب ما يكون من ربه: «أعوذ برضاك من سخطك،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية /٧٣/.

(٢) سورة النور، الآية /٣١/.

(٣) و(٤) سورة التوبة، الآية /١١٧/.

(٥) يشير بذلك إلى قوله تعالى بعد الآية السابقة من سورة التوبة (وعلى الثلاثة الذين خلفوا...)

(٦) إشارة إلى قوله تبارك وتعالى الآية /١١١/ من سورة التوبة: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ ثم قوله: ﴿التائبون...﴾.

(٧) الآية /٤٣/ من سورة التوبة.

وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك»[1].

وقال: «لأطوع نساءِ الأمة وأفضلهن وخيرهن الصديقة بنت الصديق». وقد قالت له: «يا رسول الله لئن وافقتُ ليلةَ القدر فما أدعو به»، قال: «قولي اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعف عني»[2]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وهو سبحانه لمحبته للعفو والتوبةِ خلق خلقه على صفات وهيئات وأحوال تقتضي توبتهم إليه واستغفارهم وطلبهم عفوه ومغفرته. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»[3].

والله تعالى يحبُّ التوابين. والتوبةُ من أحبِّ الطاعات إليه، ويكفي في محبتها شدةُ فرحه بها، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عزّ وجلّ: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني والله لله أفرحُ بتوبةِ عبده من أحدكم يجدُ ضالته في الفلاة»[4].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ: «للهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامُهُ وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبتْ فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال أرجع إلى المكان الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموتَ، فاستيقظ وعنده

---

(١) رواه مسلم برقم /٤٨٦/ في الصلاة، باب ما يقول في الركوع والسجود، والموطأ (١/٢١٤) في القرآن، باب ما جاء في الدعاء، وأبو داود برقم /٨٧٩/ في الصلاة، باب الدعاء في الركوع والسجود والترمذي برقم /٣٤٩١/ في الدعوات، باب رقم (٧٨) والنسائي (٢/٢٢٥) في الافتتاح، باب نوع آخر من الدعاء في السجود.

(٢) اسناده صحيح، رواه الترمذي برقم /٣٥٠٨/ في الدعوات، باب رقم (٨٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه أيضاً الإمام أحمد (٦/١٧١ و١٨٢ و٢٠٨)، وابن ماجه برقم /٣٨٥٠/ في الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية.

(٣) رواه مسلم برقم /٢٧٤٩/ في التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار.

(٤) جزء من حديث رواه الإمام مسلم برقم /٢٦٧٥/ في التوبة، باب الحض على التوبة والفرح بها.

راحلتـه عليها زادُه وطعـامه وشـرابه. فـالله أشد فـرحاً بتـوبة العبـد المؤمن من هـذا براحلته، وزاده»[1].

وفي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من رجل حملَ زاده ومزاده[2] على بعيـر ثم سار حتى كـان بفلاةٍ فـأدركته القائلة فنزل فقال[3] تحتَ شجرةٍ فغلبته عينهُ وانسلّ بعيرهُ فاستيقظ فسعى شرفاً[4] فلم ير شيئاً، ثم سعى شرفاً ثانياً، ثم سعى شرفاً ثالثاً، فلم ير شيئاً، فأقبل حتى أتى إلى مكانه الذي قال فيه فبينا هو قـاعـدٌ فيه إذْ جـاء بعيرهُ يمشي حتى وضـع خُطامـه في يده، فالله أشدُّ فرحاً بتوبة العبد من هذا حين وجد بعيره»[5].

فتأمل محبته سبحانـه لهذه الـطاعة التي هي أصـلُ الطاعـات وأساسهـا. فإن من زعم أن أحـداً من الناس يستغني عنهـا ولا حاجـة به إليهـا فقد جهـل حقَّ الربـوبية ومرتبة العبودية، وينتقصُ من أغناه بزعمه عن التوبة من حيث زعم أنه مُعـظم له، إذْ عطله عن هذه الطاعة العظيمة التي هي من أجلّ الطاعـات، والقُربـة الشريفـة التي هي من أجلّ القُربات، وقال لستَ من أهل هذه الـطاعة ولا حـاجة بـك إليها، فـلا قدَرَ الله حق قدْره ولا قدَرَ العبدَ حق قدره، وقد جعل بعض عباده غنياً عن مغفرة الله وعفوه وتوبته إليه، وزعم أنه لا يحتاج إلى ربه في ذلك.

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالـك قال: قـال رسول الله ﷺ: «للهُ أشـدُّ فرحاً بتـوبة عبـده حين يتوب عن أحـدكم من رجل[6] كـان على راحلته بـأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابـه فأيس منهـا فأتى شجـرةً فاضـطجع وقـد يئس من راحلته، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمةً عنده، ثم قـال من شدةِ الفـرح: اللهم أنتَ عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»[7].

---

(١) رواه البخاري (١٤٥/٧) في الدعوات، باب التوبة، ومسلم برقم /٢٧٤٤/ في التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها.
(٢) (مزاده) المزادة: ظرف الماء من الجلود.
(٣) (فَقالَ) من القيلولة: وهو نزول وسط النهار، لتذهب شدة الحر، ويكون للمسافر والمقيم.
(٤) (شرفاً) الشرفُ: الموضع العالي المرتفع.
(٥) رواه مسلم برقم /٢٧٤٥/ في التوبة، باب الحض على التوبة والفرح بها.
(٦) خطأ، والصواب (أحدكم) كما في الصحيحين.
(٧) رواه البخاري (١٤٥/٧) في الدعوات، باب التوبة، ومسلم برقم /٢٧٤٧/ في التوبة، بـاب الحض على التوبة.

وأكمـلُ الخلق أكملهم توبـةً وأكثرهم استغفـاراً. وفي صحيح البخـاري عن أبي هـريرة قـال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: «والله إني لأستغفر الله وأتـوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[1].

ولما سمع أبو هريرة هذا من النبي ﷺ كان يقول مـا رواه الإمام أحمـد في كتاب الزهد عنه: «إني لأستغفر الله في اليـوم والليلة أثني عشر ألف مـرة بقدر ديتي». ثم ساقه من طريق آخر وقال: «بقدْر ذنبه»[2].

وقال عبد الله ابنُ الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا محمد بن راشـد عن مكحـول عن رجلٍ عن أبي هـريرة قـال: «ما جلستُ إلى أحـد أكثـر استغفـاراً من رسـول الله ﷺ»، قـال الـرجـل: «ومـا جلستُ إلى أحـد أكثـر استغفـاراً من أبي هريرة»[3].

وفي صحيح مسلم عن الأغر المـزني أن رسول الله ﷺ قـال: «إنه ليغـانُ[4] على قلبي، وإني لأستغفرُ الله في اليوم مائة مرةٍ»[5].

وفي السنن والمسنـد من حـديث ابن عمـر قـال: كنـا نعـدُ لـرسـول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة «ربِّ اغفرْ لي وتب عليّ إنَّكَ أنت التوابُ الرحيم»[6]. قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيـل ثنا يـونس عن حميد بن هـلال عن أبي بردة: قال: جلستُ إلى شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجد الكوفة فحدثني قـال:

---

(١) رواه البخاري (١٤٥/٧) في الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، ورواه أيضاً الإمام أحمد في مسنده (٣٤١/٢).

(٢) و(٣) أنظر كتاب الزهد للإمام أحمد ص ١٣ وص ٥٠.

(٤) (إنه ليغان على قلبي): أي يغطى ويغشى والمراد به السهو.

(٥) رواه مسلم برقم /٢٧٠٢/ في الذكر، باب استحبـاب الاستغفار والاستكثـار منه، وأبـو داود برقم /١٥١٥/ في الصلاة، باب في الاستغفار.

(٦) رواه الإمـام أحمـد في المسنـد (٢١/٢) ورواه أبـو داود بـرقم /١٥١٦/ في الصـلاة بـاب الاستغفار، والترمذي برقم /٣٤٣٠/ في الدعوات، بـاب ما يقـول إذا قام من مجلسـه وابن ماجة في الأدب، باب الاستغفار برقم /٣٨٥٩/. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، وذكره الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم /٥٥٦/.

سمعتُ رسول الله، أو قال: قال رسول الله ﷺ «يا أيها الناس توبوا إلى الله عزّ وجلّ واستغفروه فإني أتوب إلى الله واستغفره كل يوم مائة مرة»(١).

قال الإمام أحمد وثنا يحيى عن شعبة ثنا عمرو بن مرة قال: سمعت أبا بردة قال: سمعتُ الأغر يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم عز وجل فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة»(٢).

وقال أحمد ثنا يزيد أنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي عن عائشة قالت: «كان النبي ﷺ يقول: اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساؤوا استغفروا»(٣).

وكان من دعائه ﷺ في أول الصلاة عند الاستفتاح بعد التكبير: «اللهم أنتَ ربي وأنا عبدك، ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي، فاغفر لي إنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت، واهدني لأحسنِ الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخيرُ في يديك، وأنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، استغفرك وأتوب إليك»(٤) رواه مسلم.

وفي الصحيحين عنه أنه كان يقول في دعائه: «اللهم باعدْ بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»(٥).

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/٢٦١ و٥/٤١١) وسنده صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر، ويشهد له ما بعده.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/٢١١ و٢٦٠) وسنده صحيح، ورواه أيضاً الإمام مسلم بنفس السند ولكن بلفظ يا أيها الناس توبوا إلى الله. الحديث برقم /٢٧٠٢/ في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والإكثار منه.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٦/١٢٩ و١٤٥ و١٨٨ و٢٣٩)، ورواه ابن ماجة برقم /٣٨٦٥/ في الأدب، باب الاستغفار، وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان كما ذكر الحافظ من التقريب ص ٤٠١، وذكره شيخنا الألباني في ضعيف الجامع برقم /١١٦٨/.

(٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم /٧٧١/ في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، وأول الحديث (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً.. الحديث بتمامه).

(٥) رواه البخاري (١/١٨١) في صفة الصلاة، باب ما يقول بعد التكبير ومسلم برقم /٥٩٨/ في المساجد باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، وأبو داود برقم /٧٨١/ في الصلاة، باب السكتة عند الافتتاح والنسائي (٢/١٢٨) في الافتتاح، باب الدعاء بين التكبيرة والقراءة.

وكان يقول هذا سراً لم يعلمْ به من خلفه حتى سأله عنه أبو هـريرة. وروى عنـه عليٌّ بن أبي طالب أنه كان إذا استفتح الصلاةَ قال: «لا إلـه إلا أنت، ظلمتُ نفسي وعملتُ سوءاً، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وفي الصحيحين أنه كان يقول في ركوعه وسجوده «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»[(١)].

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبي أوفى أنه ﷺ كان إذا رفع رأسه من الـركوع قال: «سمع اللهُ لمن حمـده، اللهم ربنا لـك الحمدُ مـلءَ السموات ومـلءَ الأرض ومـلءَ ما شئت من شيء بعـدُ، اللهم طهرني بـالثلج والبـرد والمـاء البـارد، اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوبُ الأبيض من الوسخ»[(٢)].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده «اللهم اغفر ذنبي كلَّه دقَّة وجلَّه، أوّله وآخره، علانيته وسرَّه»[(٣)].

وفي مسند الإمام أحمد أنه كان يقول في صلاته: «اللهم اغفرْ لي ووسع عليَّ في ذاتي، وباركْ لي فيما رزقتني»[(٤)].

وفي صحيـح مسلم عن فروة بن نـوفل قـال: قلت لعائشـة: حدثيني بشيء كـان رسول الله ﷺ يدعو به في صلاته، قالت: نعمْ كان يقول: «اللهم إني أعوذُ بـك من شر ما [علمت][(٥)] ومن شر ما لم أعلم»[(٦)].

---

(١) رواه البخاري (١/١٩٩) في صفة الصلاة، باب التسبيح والدعاء في السجود، وباب الدعـاء في الركوع. ومسلم برقم /٤٨٤/ في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، وأبو داود برقم /٨٧٧/ في الصلاة، باب في الدعـاء في الركـوع والسجود، والنسـائي (٢/٢١٩) في الافتتاح، باب الدعاء في السجود.

(٢) رواه مسلم برقم /٤٧٦/ في الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، وأبو داود مثله إلى قوله: من شيء بعد برقم /٨٤٦/ في الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع.

(٣) رواه مسلم برقم /٤٨٣/ في الصلاة، بـاب ما يقـال في الركـوع والسجود، ورواه أيضاً أبو داود برقم /٨٧٨/ في الصلاة، باب في الدعاء في الركوع والسجود.

(٤) رواه الإمـام أحمـد في المسنـد من حـديث عبيـد بن القعقـاع (٥/٣٦٧ و٣٧٥) وعبيـد بن القعقاع لم أجد له ترجمة.

(٥) خـطأ والصواب عملت كمـا في صحيح مسلم وغيـره وكـذا ألفـظه أعلم في آخـره الصـواب (أعمل).

(٦) رواه مسلم برقم /٢٧١٦/ في الذكر، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمـل وأبو=

وكـان يقـول بين السجدتين: «اللهم اغفـر لي وارحمني واجبـرني واهـدني وارزقني»[1].

وكـان يقول في قيـامه إلى الصـلاة بالليل: «اللهم لك الحمـدُ» ـ الحديث ـ وفيـه «فاغفر لي ما قدمتُ وما أخرت، وما أسررتُ وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلمُ به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»[2].

وفي الصحيحين عن أبي مـوسى الأشعري أن النبي ﷺ كـان يدعـو بهذا الدعاء: «اللهم اغفـر لي خطيئتي، وجهلي، وإسـرافي في أمري، ومـا أنت أعلمُ بـه مني، أنتَ المقدِّم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»[3].

وحقيقةُ الأمر أن العبـد فقير إلى الله بكـل وجه وبكـل اعتبار. فهـو فقير إليـه من جهة ربوبيته له، وإحسانه إليه، وقيامه بمصالحه، وتدبيره له.

وفقيرٌ إليه من جهة إلهيته وكونه معبوده وإلهه ومحبوبه الأعظم الذي لا صـلاح له ولا فـلاحَ ولا نعيم ولا سرور إلا بـأن يكون أحبَّ شيء إليـه، فيكون أحب إليـه من نفسه وأهله وماله ووالده وولده ومن الخلق كلهم.

= داود برقم /١٥٥٠/ في الصلاة، باب الاستعاذة والنسائي (٥٦/٣) في السهو باب التعوذ في الصلاة.

(١) إسناده حسن، رواه أبو داود برقم /٨٥٠/ في الصلاة، باب الدعاء بين السجدتين والترمذي بـرقم /٢٤٨/ في الصلاة، باب مـا يقـول بين السجـدتين، وابن مـاجـة بـرقم /٨٩٨/ في الصلاة، باب ما يقول بين السجدتين، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) جزء من حديث طويل رواه البخاري (٤١/٢) في التهجد، باب التهجد بالليل، ومسلم برقم /٧٦٩/ في صلاة المسافرين، باب الـدعاء في صـلاة الليل وقيـامه والمـوطأ (٢١٥/١) في القرآن، باب ما يقال في الدعاء، والتـرمذي بـرقم /٣٤١٤/ في الدعـوات باب مـا جاء مـا يقول إذا قام من الليل إلى الصلاة، وأبو داود برقم /٧٧١/ في الصلاة، باب مـا يستفتح بـه الصلاة من الدعاء، والنسائي (٢٠٩/٣) في قيام الليل، باب ذكر ما يستفتح به القيام.

(٣) ذكر المؤلف رحمه الله الحديث مختصراً مما رواه البخاري (١٦٥/٧) في الـدعوات، بـاب قـول النبي ﷺ اللهم اغفـر لي مـا قـدمت ومـا أخـرت، ومسلم بـرقم /٢٧١٩/ في الـذكـر والـدعـاء، بـاب التعـوذ من شـر مـا عمـل وشـر مـا لم يعمـل. وتمـام الحـديث كمـا في الصحيحين: (اللهم رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، واسـرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي، وكـل ذلك عنـدي، اللهم اغفر لي مـا قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير).

وفقيرٌ إليه من جهة معافاته له من أنواع البلاء، فإنه إن لم يُعافه منها هلك ببعضها.

وفقيرٌ إليه من جهة عفوه عنه، ومغفرته له، فإنه إن لم يعْفُ عن العبد ويغفر له فلا سبيل إلى النجاة، فما نُجِّي أحدٌ إلا بعفو الله، ولا دخل الجنة إلا برحمة الله.

وكثيرٌ من الناس ينظرُ إلى نفس ما يتابُ منه فيراه نقصاً ولا ينظرُ إلى كمال الغاية الحاصلة بالتوبة، وأن العبد بعد التوبة النصوح خيرٌ منه قبل الذنب، ولا ينظر إلى كمال الربوبية وتفرد الرب بالكمال وحده، وأن لوازم البشرية لا ينفك منها البشرُ، وأن التوبة غاية كل أحد من ولد آدم وكماله كما كانت هي غايته وكماله، فليس للعبد كمالٌ بدون التوبة البتة، كما أنه ليس له انفكاكٌ عن سببها فإنه سبحانه هو المتفردُ المستأثر بالغني والحمد من كل وجه وبكل اعتبار، فرحمته للعبد خيرٌ له من عمله، فإن عمله لا يستقل بنجاته ولا سعادته، ولو وكل إلى عمله لم ينجُ به البتة. فهذا بعضُ ما يتعلق بقولهﷺ: «إن الله لو عذب أهلَ سمواته وأهلَ أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم»[1].

ومما يوضحه أن شكره سبحانه مستحق عليه بجهة ربوبيته لهم وكونهم عبيده ومماليكه، وذلك يوجب عليهم أن يعرفوه ويعظموه ويوحدوه ويتقربوا إليه تقرب العبد المحب الذي يتقلب في نعمه ولا غناءَ به عنه طرفةَ عين، فهو يدأبُ في التقرب إليه بجهده، ويستفرغُ في ذلك وسعه وطاقته، ولا يعدلُ به سواه في شيء من الأشياء، ويؤثر رضا سيده على إرادته وهواه، بل لا هوى له ولا إرادةَ إلا فيما يريد سيدُه ويحبه.

وهذا يستلزم علوماً وأعمالاً وإرادات وعزائم لا يعارضُها غيرها، ولا يبقى له معها التفاتٌ إلى غيره بوجه.

ومعلومٌ أن ما يطبع عليه البشرُ لا يفي بذلك، وما يستحقه الربّ تعالى لذاته وأنه

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ١٨٥ و١٨٩). وأبو داود برقم /٤٦٩٩/ في السنة، باب القدر، واسناده حسن، ورواه أيضاً ابن حبان في صحيحه برقم /١٨١٧/ كما في الموارد، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٨/٧) بطريق أخرى، وقال رواه الطبراني باسنادين ورجال هذه الطريق ثقات، وأشار إلى صحته الألباني في تخريج السنة برقم /٢٤٥/.

أهلٌ أن يعبدَ أعظم مما يستحقـه لإحسانـه، فهو المستحقُّ لنهـاية العبـادة والخضوع والذل لذاته ولإحسانه وإنعامه.

وفي بعض الآثار «لو لَم أخلقْ جنةً ولا ناراً لكنت أهلاً أن أعبد» ولهذا يقولُ أعبد خلقه له يوم القيامة وهم الملائكة «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك».

فمن كرمه وجوده ورحمته أن رضي من عباده بدون اليسيـر مما ينبغي أن يعبـد به ويستحقه لذاته وإحسانه، فلا نسبة للواقع منهم إلى مـا يستحقه بـوجه من الـوجوه، فلا يسعهم إلا عفوه وتجاوزه.

وهو سبحانه أعلمُ بعباده منهم بأنفسهم فلو عذبهم لعذبهم بما يعلمـه منهم، وإنْ لم يحيـطوا به علمـاً، ولو عـذبهم قبل أن يرسل رسله إليهم على أعمـالهم لم يكن ظالماً لهم، كما أنه سبحانه لم يظلمهم بمقته لهم قبـل إرسال رسـوله على كفـرهم وشركهم وقبائحهم، فإنه سبحانه نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عـربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب[1]، ولكن أوجب على نفسه إذ كتب عليها الرحمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه برسالته.

وسرُّ المسألة أنه لما كان شكرُ المنعم على قدْره وعلى قدْر نعمه، ولا يقوم بذلك أحد، كان حقه سبحانه على كل أحد، وله المـطالبة بـه، وإن لم يغفر لـه ويرحمـه وإلا عذبه فحاجتهم إلى مغفرته ورحمته وعفوه كحاجتهم إلى حفظه وكلاءته ورزقه، فإن لم يحفظهم هلكوا، وإن لم يرزقهم هلكوا، وإن لم يغفر لهم ويـرحمهم هلكوا وخسروا. ولهذا قال أبوهم آدم وأمهم حواءُ: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[2].

وهذا شأنُ ولـده من بعده وقـد قال مـوسى كليمهُ سبحـانه: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي ﴾[3]،

وقال ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4]،

---

(١) يشير المؤلف ـ رحمه الله ـ إلى ما رواه الإمام مسلم من حديث عياض بن حمـار المجاشعي برقم /٢٨٦٥/ في الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

(٢) سورة الأعراف، الآية /٢٣/.

(٣) سورة القصص، الآية /١٦/.

(٤) سورة الأعراف، الآية /١٤٣/.

وقال: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾(1).

وقال: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾(2).

وقال خليله إبراهيم: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾(3).

وقال: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾(4) إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾(5).

وقال أولُ رُسله إلى أهل الأرض: ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(6).

وقال لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ ﴾(7)

وقال ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾(8) إلى قوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(9).

وقال: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾(10).

---

(1) سورة الأعراف، الآية /151/.
(2) سورة الأعراف، الآية /155/.
(3) سورة إبراهيم، الآية /41/.
(4) سورة الشعراء، الآية /78/.
(5) سورة الشعراء، الآية /82/.
(6) سورة هود، الآية /47/.
(7) سورة غافر، الآية /55/.
(8) سورة النساء، الآية /105/.
(9) سورة النساء، الآية /106/.
(10) سورة الفتح، الآية /1/.

وقد تقدم حديثُ ابن عباس في دعائه ﷺ «رب أعني ولا تعن عليّ» وفيه «رب تقبلْ توبتي واغسلْ حوبتي»، الحديث[1].

وقد أخبرَ سبحانه عن أعبدِ البشر داود أنه استغفر ربه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾[3].

وقال عن نبيه سليمان: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[4].

وقال عن نبيه يونس إنه ناداه في الظلمات: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5].

وقال صديق الأمة وخيرُها وأبرها وأتقاها لله بعد رسوله «يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي»، فقال - قل - «اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلماً كبيراً، ولا يغفرُ الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفورُ الرحيم»[6].

فاستفتحَ الخبر عن نفسه بأداة التوكيد التي تقتضي تقريرَ ما بعدها.

---

(١) سنده صحيح، أخرجه أبو داود برقم /١٥١٠/ في الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا اسلم. والترمذي برقم /٣٥٥١/ في الدعوات، باب من أدعية النبي ﷺ، وابن ماجة برقم /٣٨٣٠/ في الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ. وأحمد في المسند (٣/٣١٠)، وصححه ابن حبان برقم /٢٤١٤/ كما في الموارد، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سورة ص، الآية /٢٤/.

(٣) سورة ص، الآية /٢٥/.

(٤) سورة ص، الآية /٣٥/.

(٥) سورة الأنبياء، الآية /٨٧/.

(٦) رواه البخاري (١/٢٠٢) في صفة الصلاة، باب الدعاء قبل السلام، ومسلم برقم /٢٧٠٥/ في الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، والترمذي برقم /٣٥٢١/ في الدعوات، باب دعاء يقال في الصلاة، والنسائي (٣/٥٣) في السهو، باب نوع آخر من الدعاء.

ثم ثنّى بالإخبار عن ظلمه لنفسه.

ثم وصف ذلك الظلم بكونه ظلماً كبيراً.

ثم طلب من ربه أن يغفر له مغفرةً من عندهِ، أي لا يبلغها علمه ولا سعيه، بل هي محضُ منته وإحسانه، وأكبرُ من عمله.

فإذا كان هذا شأن من وزن بالأمة فرجح بهم فكيف بمن دونه!؟

البَابُ السَّابع عشر

في الكَسْب والجبر ومعناهما لغةً واصطلاحاً وإطلاقهما نفياً وإثباتاً وما دلّ عليه السمعُ والعقل مِن ذلك

أما الكسبُ فأصلهُ في اللغة الجمعُ. قاله الجوهري، وهو طلبُ الرزق. يقال: كسبتُ شيئاً واكتسبتُه، بمعنى، وكسبتُ أهلي خيراً، وكسبتُ الرجلَ مالاً فكسِبه. وهذا مما جاء على فَعَلْته ففعلَ. والكواسبُ الجوارحُ. وتكسَّب تكلّف الكَسْب، انتهى.

والكسبُ قد وقع في القرآن على ثلاثة أوجه: أحدُها عَقْدُ القلب وعزمه، كقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾[1] أي بما عزمتم عليه وقصدتموه.

وقال الزجاج: أي يؤاخذكم بعَزْمكم على أن لا تَبرّوا، وأن لا تتقوا وأن تَعْتلوا في ذلك بأنكم حَلَفتم. وكأنه التفتَ إلى لفظ المؤاخذة، وأنها تقتضي تعذيباً فجعل كَسْبَ قلوبهم وعزمهم على ترك البر والتقوى لمكان اليمين، والقولُ الأولُ أصح، وهو قولُ جمهور أهلِ التفسير، فإنه قابلَ به لغوَ اليمين، وهو أن لا يقصدَ اليمين، فكسبُ القلب المقابلُ لِلغو اليمين هو عَقْدُه وعزمه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾[2] فتعقيدُ الأيمان هو كسبُ القلب..

---

(١) سورة البقرة، الآية /٢٢٥/.
(٢) سورة المائدة، الآية /٨٩/.

الوجهُ الثاني مِن الكسب كسبُ المال من التجارة قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾[1]، فالأولُ للتجار والثاني للزراع.

الوجهُ الثالث مِن الكسب السعيُ والعملُ كقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾[2]، وقوله: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾[3] ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾[4] فهذا كله للعمل

واختلف الناسُ في الكسب والاكتساب هل هما بمعنى واحدٍ أم بينهما فرق، فقالت طائفة: معناهما واحد. قال أبو الحسن علي بن أحمد: وهو الصحيحُ عند أهل اللغة ولا فرق بينهما، قال ذو الرمة:

ألفى أباه بهذا الكسب يَكتسبُ

وقال الآخرون: الاكتساب أخصّ مَن الكسب، لأن الكسبَ ينقسم إلى كسبه لنفسه، ولغيره، ولا يقال يكتسب، قال الحطيئة:

ألقيتَ كاسبَهم في قعرِ مظلمةٍ فاغفرْ هداك مليكُ الناس يا عمرُ

قلتُ: والاكتسابُ افتعالٌ، وهو يستعدي اهتماماً وتعملاً واجتهاداً. وأما الكسبُ فيصح نسبتهُ بأدنى شيء، ففي جانب الفضل جَعَلَ لها ما لها فيه أدنى سعي، وفي جانب العدل لم يجعلْ عليها إلا ما لها فيه اجتهادٌ واهتمام.

وأما الجبرُ فيرجع في اللغة إلى ثلاثة أصول:

أحدُها أن يغْنى الرجلُ من فقر، أو يجبر عظمُه مِن كَسْر، وهذا مِن الإصلاح. وهذا الأصلُ يُستعمل لازماً ومتعدياً. يقال جبرتُ العظمَ، وجبرَ. وقد جَمَعَ العجّاجُ بينهما في قوله:

قد جَبَرَ الدينَ الإلهُ فجبر

---

(١) سورة البقرة، الآية /٢٦٧/.
(٢) سورة البقرة، الآية /٢٨٦/.
(٣) سورة الأنعام، الآية /٣/.
(٤) سورة الأنعام، الآية /٧٠/.

الأصلُ الثاني الإكراهُ والقهرُ، وأكثرُ ما يُستعمل هذا على أفعل، يقال: أجبرتهُ على كذا، إذا أكرهتَه عليه، ولا يكاد يجيء جبَرتُه عليه إلا قليلاً.

والأصلُ الثالث مِن العزّ والامتناع، ومنه نخلة جبّارة. قال الجوهري: والجبّارُ من النخل ما طال وفات اليدَ، قال الأعشى:

طريقٌ وجَبّارٌ رِواءٌ أصولُه … عليه أبابيلٌ مِن الطير تَنعَبُ

وقال الأخفش في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾[1] قال: أراد الطولَ والقوةَ والعِظم. ذَهَبَ في هذا إلى الجبّار مِن النخل، وهو الطويلُ الذي فات الأيدي. ويقال: رجل جبار، إذا كان طويلاً عظيماً قوياً تشبيهاً بالجبار مِن النخل.

قال قتادة: كانت لهم أجسام وخِلَق عجيبة ليست لغيرهم. وقيل: الجبار ههنا مِن جَبَرَه على الأمر، إذا أكرهه عليه. قال الأزهري: وهي لغة معروفة، وكثيرٌ من الحجازيين يقولونها، وكان الشافعي رحمه الله يقول: جَبَره السلطانُ، ويجوزُ أن يكون الجبارُ مِن أجْبَره على الأمر، إذا أكرهه.

قال الفراء: لم أسمع فَعّالاً مِن أفعلَ إلا في حرفين وهما جبّار مِن أجبرَ، ودَراك مِن أدركَ. وهذا اختيارُ الزجاج، قال: الجبارُ مِن الناس العاتي الذي يُجبر الناسَ على ما يريد، وأما الجبّارُ مِن أسماء الرب تعالى فقد فسّره بأنه الذي يَجبر الكسير ويُغني الفقيرَ والربُّ سبحانه كذلك. ولكنْ ليس هذا معنى اسمه الجبّار، ولهذا قَرَنه باسمه المتكبر، وإنما هو الجبروت.

وكان النبي ﷺ يقول: «سبحان ذي الجبروتِ والملكوتِ والكبرياءِ والعظمة»[2].

فالجبارُ اسم مِن أسماء التعظيم كالمتكبر والملك والعظيم والقهار. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾[3]. هو العظيمُ وجبروتُ الله عظمتُه. والجبّارُ مِن أسماء الملوك. والجَبْرُ الملِكُ. والجبابرةُ الملوكُ قال الشاعر:

وانْعَمْ صباحاً أيها الجبرُ

---

(١) سورة المائدة، الآية /٢٢/.

(٢) رواه النسائي (٢/١٩١) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه، في الافتتاح باب نوع آخر من الذكر في الركوع، واسناده صحيح.

(٣) سورة الحشر، الآية /٢٣/.

أي أيها الملك. وقال السدي: هو الذي يُجبر الناسَ ويقهرهم على ما يريد.

وعلى هذا فالجبار معناه القهار. وقال محمد بن كعب: إنما سُمي الجبار لأنه جَبَرَ الخلقَ على ما أراد، والخلقُ أدقّ شأناً مِن أن يعصوا ربهم طَرْفَة عين إلا بمشيئته. قال الزجاج: الجبارُ الذي جَبَرَ الخلقَ على ما أراد. وقال ابن الأنباري: الجبارُ في صفة الرب سبحانه الذي لا يُنال، ومنه قولُهم نخلةٌ جبارة، إذا فاتت يدَ المتناوِل.

فالجبارُ في صفة الرب سبحانه يرجعُ إلى ثلاثة معان: المُلْك، والقهر، والعلو، فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي سُميت جبارةً، ولهذا جعلَ سبحانه اسمَه الجبار مقروناً بالعزيز والمتكبر. وكلٌّ واحد من هذه الأسماء الثلاثة تَضمَّن الاسمين الآخرين. وهذه الأسماءُ الثلاثة نظيرُ الأسماء الثلاثة، وهي الخالق البارىء المصوِّر.

فالجبارُ المتكبر يجريان مَجرى التفصيل لمعنى اسم العزيز، كما أن البارىء المصوِّر تفصيلٌ لمعنى اسم الخالق فالجبارُ مِن أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعزة والمُلْك، ولهذا كان من أسمائه الحسنى.

وأما المخلوقُ فاتصافهُ بالجبار ذم له ونقص كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[1]،

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[2]، أي مسلَّط تقهرهمُ وتُكرههم على الإيمان. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: «يُحشرُ الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذَّر يطأهم الناس»[3].

---

(١) سورة غافر، الآية /٣٥/.

(٢) سورة ق، الآية /٤٥/.

(٣) جزء من حديث رواه الترمذي برقم /٢٤٩٤/ في صفة القيامة، باب (٤٨)، ورواه أيضاً الإمام أحمد في المسند (١٧٨/٢) وكلاهما من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: ... وذكر الحديث بتمامه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن وهو كما قال كما أشار إلى ذلك شيخنا الألباني حفظه الله في تخريج المشكاة ٥١١٢.

فصل: إذا عُرف هذا فلفظُ الكَسْب تطلقه القدريةُ على معنى، والجبريةُ على معنى، وأهلُ السنة والحديث على معنى.

فكسبُ القدرية هو وقوعُ الفعل عندهم بإيجاد العبد وإحداثه ومشيئته من غير أن يكون الله شاءه أو أوجده.

وكسبُ الجبرية لفظ لا معنى له ولا حاصلَ تحته، وقد اختلفتْ عباراتُهم فيه، وضربوا له الأمثالَ وأطالوا في المقال.

فقال القاضي: الكسبُ ما وَجدوا عليه قدرةً مُحدِثةً، وقيل إنه المتعلقُ بالقادر على غير جهة الحدوث، عليه قدرة محدثة» انها قدرةٌ على وجوده، فإن القادرَ على وجوده هو الله وحده، وإنما نعني بذلك أن للكسب تعلقاً بالقدرة الحادثة لا مِن باب الحدوث والوجود.

وقال الإسفرائيني: «حقيقةُ الخلق مِن الخالق وقوعُه بقدرته مِن حيث صح انفرادُه به، وحقيقةُ الفعل وقوعُه بقدرته، وحقيقةُ الكسب مِن المكتسِب وقوعُه بقدرته مع انفراده به. ويختصُ القديمُ تعالى بالخلق، ويشترك القديمُ والمحدَثُ في الفعل، ويختص المحدَثُ بالكسب».

قلت: مُراده أن إطلاقَ لفظ الخلق لا يجوز إلا على الله وحده، وإطلاقَ لفظ الكسب يختصّ بالمحدَث، وإطلاق لفظ الفعل يصح على الرب سبحانه والعبدِ.

وقال أيضاً: كلُّ فِعل يقعُ على التعاون كان كسباً مِن المستعين.

قلت: يريدُ أن الخالق يستقلّ بالخلق والإيجاد، والكاسب إنما يقعُ منه الفعلُ على جهة المعاونة والمشاركة منه ومِن غيره لا يمكنه أن يستقل بإيجاد شيء البتة.

وقال آخرون: قدرةُ المكتسِب تتعلقُ بمقدوره على وجهٍ ما، وقدرةُ الخالق تتعلق به من جميع الوجوه. قالوا: وليس كونُ الفعل كسباً مِن حقائقه التي تخصه، بل هو معنى طرأ عليه، كما يقول منازعونا مِن المعتزلة إن هذه الحركةَ لُطف، وهذا الفعلُ لُطف، وصيغة «افعلْ» يصير أمراً بالإرادة لأنها حَدَثتْ بالإرادة، واعتقاد الشيء على ما هو به يصير علماً بسكون النفس إليه، لا أنه يَحدثُ كذلك به،

والأشياء قد تقترن في الوجوه فتتغيرُ أوصافُها وأحكامُها. قالوا: فالحركـةُ إذا صادفت المتحركَ بها على وجه مخصوص تُسمى سباحةً مثلاً ولطماً ومشياً ورقصاً.

وقال الأشعري[1] وابنُ الباقلاني: الواقعُ بـالقدرة الحـادثة هـو كونُ الفعـل كسباً، دون كونه موجوداً أو محدَثاً، فكونه كسباً وصفٌ للوجود بمثابة كونه معلوماً.

ولخص بعضُ متـأخريهم هـذه العبارات بـأن قـال: الكسبُ عبـارةٌ عن الاقتـران العادي بين القدرة المحدِثة والفعلِ، فإن الله سبحانه أجرى العادةَ بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لا بهما. فهذا الاقترانُ هو الكسب.

ولهذا قال كثيرٌ من العقلاء: إنّ هذا مِن مُحالات الكلام، وإنه شقيقُ أحـوال أبي هاشم، وطفْرةِ النَّظَّام[2][3]، والمعنى القائم بـالنفس الذي يسميـه القائلون بـه كلامـاً. وشيءٌ مِن ذلك غيرُ معقولٍ متصوّر.

والذي استقر عليه قول الأشعري: إن القدرة الحادثةَ لا تؤثـر في مقدورهـا، ولم يقع [بها] المقدورُ ولا صفةٌ من صفـاته، بـل المقدورُ بجميـع صفاتـه واقعٌ بـالقدرة القديمة، ولا تأثير للقدرة الحادثة فيه. وتابَعه على ذلك عامةُ أصحابه. والقاضي أبو بكـر يوافقـه مرةً ومـرة يقول: القـدرةُ الحادثـة لا تؤثر في إثبـات الذات وإحـداثها ولكنها تقتضي صفةً للمقـدور زائدةً على ذاتـه تكون حـالاً له. ثم تـارة يقول: تلك الصفةُ التي هي مِن أثر القدرة الحادثة مقدورةٌ لله تعالى. ولم يمتنع من إثبـات هذا المقدور بين قادرين على هذا الوجه.

وقـد اضـطربتْ آراءُ أتبـاع الأشعـري في الكسب اضـطرابـاً عـظيمـاً، واختلفت عباراتُهم فيه اختلافاً كثيراً. وقد ذكره كلَّه أبو القاسم سليمان بن ناصر الأنصاري في «شرح الإرشاد» وذكر اختلافَ طرائقهم واضطرابَهم فيه ثم قال: وقد قال الأستاذ في «المختصر» قولُ أهـل الحق في الكسب لا يرجـعُ إلى إثبات قـدرةٍ للعبد عليـه كما يقال إنه معلوم له، إلا أن الإمام ادّعى على الأستاذ أنه أثبتَ للقدرة الحادثة أثراً في الحدوث، فإنه لما نَفى الأحوالَ وأثبتَ للقدرة الحادثة أثراً فلا يُعقـلُ الجمعُ بينهمـا

---

(١) سبقت ترجمة الأشعري، والإشارة إلى القول بالكسب ص ٤، ١٤٦

(٢) سبقت ترجمة أبي هاشم الجبائي، والإشارة إلى قوله بالأحوال ص ١٤٧

(٣) سبقت ترجمة النظام شيخ المعتزلة، والإشارة إلى طفرته. ص ١٤٧

إلا أن يكـون الأثرُ في الحـدوث. ثم ذكر لنفسـه مذهبـاً ذَكره في الكتـاب المترجَم «بالنظامية»، وانفرد به عن الأصحاب وهو قريبٌ مِن مذهب المعتزلة، والخلافُ بينه وبينهم فيـه في الاسم. قال: وهـذه العقدةُ التي تـورَّط الأصحابُ فيهـا في الكسب شبيهةٌ بالعقدة التي وقعتْ بين الأئمة في القراءة والمقروء. قال: وما ذكره الإمامُ في «النظامية» له وجه، غيـرَ أنه ممـا انفرد بـاطلاقـه، ولكل نـاظرٍ نـظرهُ، والله يرحمنـا وإياه.

قلت: الذي قاله الإمـامُ في «النظامية» أقربُ إلى الحق مما قاله الأشعـري وابنُ الباقلاني ومَن تابعهما. ونحن نـذكرُ كـلامَه بلفـظه. قال: «قـد تقررَ عنـد كل حـاظٍ بعقله مُتـرقٍّ عن مراتب التقليـد في قواعـد التوحيـد أن الربَّ سبحـانهُ يـطالِب عبادَه بـأعمالهم في حيـاتهم ودواعيهم إليها، ومُثيبهُم ومُعـاقبهُم عليهـا في مـآلهم. وتبينَ بالنصوص التي لا تتعرضُ للتأويلات أنه أقدرَهم على الوفاءِ بما طالبهم به، ومكّنهم من التوصل إلى امتثال الأمر والانكفاف عن مواقع الزجر.

ولو ذهبتُ أتلو الآيَ المتضمنةَ لهذه المعاني لَـطال المرام، ولا حـاجةَ إلى ذلـك مع قَطْع اللبيب المنصِف به. ومَن نظرَ في كليات الشرائع ـ وما فيها من الاستحثاث والـزواجر عن الفـواحش الموبقـات، وما نيطَ ببعضهـا من الحدود والعقـوبات، ثم تلفّتَ على الوعد والـوعيد، ومـا يجبُ عَقْدُه مِن تصـديق المرسلين في الإنبـاء عما يَتوجَّهُ على المرَدة العُتاة مِن الحساب والعقـاب وسُوء المنقلَب والمـآب، وقول الله لهم لِمَ تعديتم وعصيتم وأبيتم وقد أرخيتُ لكم الـطوَلَ وفسحتُ لكم المهَل وأرسلتُ الـرسلَ وأوضحتُ المحجّـةَ لئلا يكـونَ للناس عليَّ حجـةٌ ـ وأحاطَ بـذلك كلِّه، ثم استراب في أن أفعال العبـاد واقعةٌ على حسب إيثـارهم واختيارهم واقتـدارهم ـ فهو مصابٌ في عقله أو مستقرٌ على تقليده مصممٌ على جهله. ففي المصير إليه ـ أنه لا أثر لقدرة العبد في فعله ـ قطعُ طلباتِ الشرائع والتكذيبُ بما جاء به المرسلون.

فإن زعم مَن لم يوفق لمنهـج الرشـاد أنه لا أثـرَ لقدرة العبـد في مقدوره أصـلاً، وإذا طُولب بمتعلّق طلبِ الله بفعل العبد تحريمـاً وفرضـاً ذهبَ في الجواب طـولاً وعرضاً، وقال: لله أن يفعل ما يشاء، ولا يتعرض للاعتراض عليه المعتـرضون، لا يُسأل عما يفعلُ وهم يُسألون ـ قيل له: ليس لما جئتَ بـه حاصـلٌ. كلمة حقٍّ أريـد بهـا باطـل. نعمْ يفعلُ الله مـا يشـاء ويُحكم مـا يـريـد، ولكنْ يتقـدس عن الخُلْف

ونقيضِ الصدق. وقد فهمنا بضرورات المعقولِ من الشرع المنقول أنه ـ عزّتْ قدرتهُ ـ طالبَ عبادَه بما أخبرَ أنهم ممكّنون مِن الوفاء به، فلم يكلّفهم إلا على مبلغ الطاقة والوُسع في موارد الشرع.

ومَن زعمَ أنه لا أثر للقدرة الحادثة في مقدورها كما لا أثرَ للعلم في معلومه فوجْهُ مطالبةِ العبد بأفعاله عنده كوجه مطالبته بأن يُثبتَ في نفسه ألواناً وإدراكاتٍ، وهذا خروجٌ من حد الاعتدال إلى التزام الباطل والمحال، وفيه إبطالُ الشرع وردُّ ما جاء به النبيون.

فإذا لزمَ المصيرُ إلى أن القدرةَ الحادثةَ تؤثرُ في مقدورها، واستحال إطلاقُ القول بأن العبدَ خالقُ أعماله فإنّ فيه الخروجَ عما دَرَجَ عليه سلفُ الأمة واقتحام ورطاتِ الضلال. ولا سبيلَ إلى المصير إلى وقوع فعل العبد بقدرته الحادثةِ والقدرةِ القديمة، فإن الفعل الواحدَ يستحيل حدوثهُ بقادرَيْن، إذ الواحدُ لا ينقسم، فإنْ وقعَ بقدرة الله استقل بها وأسقط أثرُ القدرة الحادثة، ويستحيلُ أن يقعَ بعضهُ بقدرة الله تعالى، فإنّ الفعلَ الواحدَ لا بعضَ له.

وهذه مَهواةٌ لا يَسْلُم مِن غوائلها إلا مرشَد موفق، إذ المرءُ بين أن يدّعي الاستبدادَ، وبين أن يُخرج نفسَه عن كونه مطالباً بالشرائع، وفيه إبطالُ دعوةِ المرسلين، وبين أن يُثبتَ نفسَه شريكاً لله في إيجاد الفعل الواحد.

وهذه الأقسام بجملتها باطلةٌ، ولا ينجي من هذا الملتَطم ذِكْر اسمٍ محض ولقبٍ مجرّد مِن غير تحصيلِ معنى. وذلك أن قائلاً لو قال: العبدُ يكتسبُ واثرُ قدرته الاكتسابُ، والربُّ سبحانه خالقٌ لما العبدُ مكتسبٌ له، قيل له: فما الكسبُ وما معناه، وأديرتْ الأقسامُ المتقدمةُ على هذا القائل فلا يجدُ عنه مهرباً.

ثم قال: «فنقولُ: قدرةُ العبد مخلوقةٌ لله تعالى باتفاق القائلين بالصانع، والفعلُ المقدورُ بالقدرة الحادثة واقعٌ بها قطعاً ولكنه يضافُ إلى الله سبحانه تقديراً وخَلْقاً، فإنه وَقَعَ بفعل الله وهو القدرةُ فِعلاً للعبد، وإنما هي صفتهُ، وهي ملكٌ لله وخَلْق له، فإذا كان مُوقعُ الفعل خَلْقاً لله فالواقعُ به مضافٌ خَلْقاً إلى الله تعالى وتقديراً. وقد ملَّكَ اللهُ تعالى العبدَ اختياراً يصرّف به القدرة، فإذا أوقعَ بالقدرة شيئاً آل الواقعُ إلى حُكم الله مِن حيثُ أنه وقعَ بفعل الله.

ولو اهتدتْ إلى هذا الفرقةُ الضالةُ لم يكن بيننا وبينهم خلافٌ، ولكنهم ادّعَوا استبداداً بالاختراع وانفراداً بالخلق والابتداع فضَلّوا وأضلّوا، وتبين تميزُنا عنهم

بتفريغ المذهبين، فإنا لَمَّا أضفنا فعلَ العبد إلى تقدير الإله سبحانه قلنا أحدث الله تعالى القدرةَ في العبد على أقدارٍ أحاط بها علمُه، وهيأ أسبابَ الفعل، وسلبَ العبدَ العلمِ بالتفاصيل، وأراد مِن العبد أن يفعل فأحدث فيه دواعيَ مستحثّةً وخيرَةً وإرادةً، وعَلم أن الأفعالَ ستقعُ على قدر معلوم فوقعتْ بالقدرة التي اخترعها العبدُ على ما علمَ وأراد، فاختيارُهم واتصافهم بالاقتدارِ والقدرة خَلْقُ الله ابتداءً، ومقدورُها مضافٌ إليه مشيئةً وعِلماً وقضاءً وخلْقاً مِن حيثُ أنه نتيجة ما انفردَ بخلقه، وهو القدرةُ، ولو لم يُرِدْ وقوعَ مقدورها لَمَا أقدره عليه ولمَا هيأ أسبابَ وقوعه.

ومَن هدى لهذا استمرَ له الحقَ المبين، فالعبدُ فاعلٌ مختار مطالَبٌ مأمورٌ منهيّ، وفعلُه تقديرٌ للهِ مِن أدلة خلق مقضيّ.

ونحن نضربُ في ذلك مثلاً شرعياً يستريحُ إليه الناظرُ في ذلك فنقول: العبدُ لا يملكُ أن يتصرف في مال سيده، ولو استبد بالتصرف فيه لم يَنفذْ تصرفهُ، فإذا أذن له في بيع ماله فباعه نفذَ، والبيعُ في التحقيق معزوّ إلى السيد مِن حيثُ أن سببه إذنهُ، ولولا إذنه لم يَنفذ التصرفُ، ولكن العبدَ يُؤمر بالتصرف ويُنهى ويُوبّخ على المخالفة ويعاقب.

فهذا والله الحقُّ الذي لا غطاءَ دونه ولا مِراء فيه لمن وعاه حقَّ وَعْيه.

وأما الفرقةُ الضالة فإنهم اعتقدوا انفرادَ العبد بالخلق، ثم صاروا إلى أنه إذا عَصَى فقد انفردَ بخلق فعله والربُّ كارهٌ له، فكان العبدُ على هذا الرأي الفاسد مزاحِماً لربه في التدبير مُوقعاً ما أراد إيقاعه شاء الرب أو كرِه.

فإن قيل: على ماذا تحملون آيات الطبع والختمِ والإضلال في القرآن، وهي متضمنةٌ اضطرارَ الرب سبحانه للأشقياء إلى ضلالتهم؟

قلنا: إذا أتاح اللهُ حلَّ هذا الإشكال والجواب عن هذا السؤال لم يبق على ذوي البصائر بعده غموض. فنقول أولاً: منْ أنبأ الله سبحانه عن الطبع على قلوبهم كانوا مخاطَبين بالإيمان مطالبين بالإسلام والتزام الأحكام مطالبةَ تكليفٍ ودعاء مع وَصْفهم بالتمكن والاقتدار والإيثار كما سبق تقريره.

ومن اعتقد أنهم كانوا ممنوعين مأمورين مصدودين قهراً مدعوّين فالتكليفُ عنده إذاً بمثابةِ ما لو شُدَّ من الرَّجُل يَداه ورجلاه رباطاً وأُلقي في البحر ثم قيل له لا تبتل.

وهذا أمرٌ لا يحمل شرائعَ الرسل عليه إلا غـائبٌ بنفسه، مجتـرىء على ربه، ولا فـرق عنـد هـذا القـائـل بين أمـر التسخيـر والتكـوين في قـولـه: ﴿ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] وبين أمر التكليف، فإذا بطل ذلك، فالوجهُ في الكلام على هـذه الآي - وقد غَـوى في حقائقها أكثر الفرق - أن يقول: إذا أراد الله بعبدٍ خيراً أكمل عقله وأتمَّ بصيرته، ثم صرف عنه العوائق والدوافع، وأزاح عنه الموانع، ووفَّق له قرنـاء الخير، وسهَّـل له سبله، وقطع عنه الملهيات وأسباب الغفـلات، وقيض له مـا يقرّبـه إلى القربـات فيوافيها ثم يعتادُها ويمرُنُ عليها.

وإذا أراد الله بعبده شراً قدَّر له ما يبعده عن الخير ويقُصيه، وهيأ له أسباب تماديه في الغيّ، وحبب إليه التشوف إلى الشهوات، وعرَّضه للآفـات، وكلما غلبتْ عليـه دواعي النفس خنست دواعي الخير، ثم يستمر على الشرور على مرِّ الدهور، ويأتي مهاويَها، ويتعاون عليه الوسواسُ ونزعاتُ الشيطان ونزعـات النفس الأمارة بـالسوء، فتنسجُ الغفلة على قلبه غشاوةً بقضاء الله وقدره. فذلكم الطبعُ والختمُ والأكنةُ.

وأنا أضربُ في ذلك مثلاً فأقول: لو فرضنا شابـاً حديث العهـد بحلمه لم تهذبـه المذاهبُ، ولم تحنكه التجارب، وهو على نهاية في غُلمتـه وشهوتـه، وقد استمكن من بُلغـة من الحطام، وخُص بمسْحـة من الجمال، ولم يَقم عليـه قـوّام يـزغـه عن ورطات الردى، ويمنعه عن الارتباك في شبكـات الهوى، ووافـاه أخدان الفسـاد وهو في غُلواء شبابه يحدث نفسه بالبقاء أمداً بعيداً، فمـا أقربَ مَن هـذا وصفه من خلَع العِـذار والبدار إلى شيم الأشـرار، وهو مـع ذلك كله مؤْثـر مختار ليس مجبـراً على المعـاصي والزلات، ولا مصـدوداً عن الطاعـات، ومعه من العقـل ما يستـوجب بـه اللائمة إذا عصى،

فمَن هذا سبيله لا يستحيل في العقل تكليفه، فإنه ليس ممنوعاًولكن أن سبَقَ له مِن الله سُـوء القضاء فهـو صائـر إلى حكم الله الجَزْم وقضـائـه الفَصـل، محجـوجٌ بحجة الله إلا أن يتغمده الله برحمته وهو أرحم الراحمين.

وهذا الذي ذكرته بيِّن في معاني الآيات لا يتمـارَى فيه مـوفَّق قال الله تعـالى:

(١) سورة البقرة، الآية /٦٥/.
(٢) سورة يس، الآية /٨٢/.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾(١)، أراد أنهم استمروا على المخالفات، وأصروا بانتهاك الحُرمات فقستْ قلوبهم.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾(٢)، فقد جمَعَت بين تفويض الأمور كلها نفعها وضرِّها خيرها وشرها، إلى الإله جلّت قدرتهُ، وبين إثبات حقائق التكليف وتقرير قواعد الشرع على الوجه المعقول. ألست في هذا أهدى سبيلاً وأقومَ قيلاً ممن يقدرُ الطبع منعاً والختم صداً ودفعاً ثم ينفي التكاليف بزعمه؟

وقد افترق الخلقُ في هذا المقام فرقا، فذهب ذاهبون إلى أن المخذولين ممنوعون مدفوعون لا اقتدار لهم على إجابة دُعاة الحق، وهم مع ذلك مُلزمون. وهذا خطبٌ جسيم وأمر عظيم، وهو طعن في الشرائع وإبطال للدعوات، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ ﴾(٣)،

وقال لإبليس: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾(٤) نعوذُ بالله من سوء النظر في مواقع الخطر.

وذهَبَ طوائف من الضُّلّال إلى أن العبد يعصي والربُّ لما يأتي به كاره، فهذا خبْط في الأحكام الإلهية، ومزاحمةٌ في الربوبية. ولو لم يُرد الربُّ من الفُجّار ما علمه منهم في أزليته لما فَطَرَهم مع علمه بهم، كيف وقد أكمل قواهم وأمدهم بالعدد والعُدد والعتاد وسهل لهم طريق الحَيْد عن السداد. فإن قيل: فَعَلَ ذلك بهم ليطيعوه، قلنا أنّى يستقيم ذلك وقد علم أنهم يعصونه ويهلكون أنفسهم، ويهلكون أولياءه وأنبياءه، ويشقَون شقاوة لا يسعدون بها أبداً؟

ولو علم سيدٌ عن وحي أو إخبار نبي أنه لو أمد عبدَه بالمال لطغى وأبق وقطع الطريق فأمده بالمال زاعماً أنه يريد منه ابتناء القناطر والمساجد، وهو مع ذلك يقولُ أعلم أنه لا يفعل ذلك قطعاً، فهذا السيد مفسدٌ عبده وليس مصلحاً له باتفاقٍ من أرباب الألباب.

فقد زاغت الفئتان وضلت الفرقتان. واعترضت إحداهما على القواعد الشرعية

---

(١) سورة البقرة، الآية /٧٤/.
(٢) سورة الكهف، الآية /٥٥/.
(٣) سورة الكهف، الآية /٢٨/.
(٤) سورة ص، الآية /٧٥/.

وزاحمت الأخرى أحكام الربوبية، واقتصد الموفَّقون فقالوا: مُراد الله من عباده ما علم أنهم إليه يصيرون، ولكنه لم يسلبهم قدرتهم ولم يمنعهم مَراشدهم، فقرتْ الشريعة في نصابها، وجرت العقيدة في الأحكام الإلهية على صوابها.

فإن قيل: كيف يريد الحكيمُ السَّفهَ؟ فقد أوضحنا أن الأفعال متساوية في حق من لا ينتفع ولا يتضررُ، ولكن إذا أخبرَ أنه مكلِّف، مطالبٌ عباده، مزيح عللهم، فقوله الحقُّ وكلامه الصدق. وأقربُ أمر يعارَضون به أن الحكيم منا إذا رأى جواريه وعبيده يمرُج بعضهم في بعض وهم على محارمهم بمرأى منه ومسمع فلا يحسنُ تركهم على ما هم عليه، والربُّ سبحانه يطلعُ على سوء أفعالهم ويستدرجهم من حيثُ لا يعلمون.

ثم قال: «قد أطلقتُ أنفاسي ولكنْ لو وجدتُ في اقتباس هذا العلم مَن يسردُ لي هذا الفصل لكان ـ وحقِّ القائم على كل نفسٍ بما كسبت ـ أحبَّ إليّ من مُلك الدنيا بحذافيرها أطولَ أمدها». انتهى كلامه بلفظه.

وهذا توسّط حسنٌ بين الفريقين. وقد أنكره عليه عامة أصحابه، منهم الأنصاري شارحُ الإرشاد وغيره. وقالوا: هو أقربُ من مذهب المعتزلة، ولا يرجعُ الخلافُ بينه وبينهم إلا إلى الاسم فقط، وإن هذا مما انفرد به ولكنْ بقيَ عليه فيه أمورٌ: منها أنه نفى كراهة الله لما قدّره من المعاصي بناءً على أصله أن كل مُراد له فهو محبوب له، وأنه إذا كان قد قدّر الكفر والفسوق والعصيان فهو يريدُه ويحبه ولا يكرهه، وإن كانت قدرةُ العبد واختيارهُ مؤثرة في إيجاد الفعل عنده بإقدار الرب سبحانه، وقد أصاب في هذا وأجاد.

ولكن القول بأن الله سبحانه يحب الكفر والفسوق والعصيان ولا يكرهه إذا كان واقعاً، قولٌ في غاية البطلان، وهو مخالفٌ لصريح العقل والنقل. والذي قاده إلى ذلك قولهُ إن المحبة هي الإرادة والمشيئةُ، وإن كل ما شاءه فقد أراده وأحبه.

ومَن لم يفرق بين المشيئة والمحبة لزمه أحدُ أمرين باطلين لا بد له من التزامه، إما القولُ بأن الله سبحانه يحبُّ الكفر والفسوق والعصيان، أو القولُ بأنه ما شاء ذلك ولا قدره ولا قضاه. وقد قال بكل من المتلازمين طائفةٌ. قالت طائفة: لا يحبها ولا يرضاها فما شاءها ولا قضاها، وقالت طائفة: هي واقعةٌ بمشيئته وإرادته فهو يحبها ويرضاها. فاشتركت الطائفتان في هذا الأصل وتباينا في لازِمِهِ.

وقد أنكر الله سبحانه على من احتج على محبته بمشيئتـه في ثلاثـة مواضـع من كتابه في سورة «الأنعام»، و«النحل»، و«الزخـرف» فقال تعـالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[1].

وكذلك حكى عنهم في «النحل» ثم قال ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2].

وقال في «الزخرف»: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[3].

فاحتجوا على محبته لشركهم ورضاه به بكـونه أقـرَّهم عليه، وأنـه لولا محبتـه له ورضاه به لما شاءه منهم، وعارضوا بذلك أمـره ونهيه ودعـوة الرسـل. قالـوا: كيف يأمرُ بالشيء قد شاء مِنا خلافه؟ وكيف يكره منا شيئاً قد شـاء وقوعـه، ولو كـرهه لم يمكنّا منه ولحال بيننا وبينه؟

فكذَّبهم سبحانه في ذلك، وأخبر أن هذا تكذيبٌ منهم لرسله، أن رسله متفقـون على أنـه سبحانـه يكره شـركهم ويبغضه ويمقتـه وأنه لـولا بغضه وكـراهته لمـا أذاق المشركين بالله عذابه، فإنه لا يعذب عبده على ما يحبه.

ثم طالبهـم بالعلم على صحة مذهبهم بأن الله أذن فيه، وأنه يحبه ويـرضى به، ومجـردُ إقراره لهم قـدراً لا يدل على ذلـك عند أحـد من العقلاء، وإلا كـان الظلمُ والفواحش والسعي في الأرض بالفساد والبغي محبوباً له مرضياً.

ثم أخبر سبحانـه أنه مستنـدهم في ذلك إنمـا هو الـظن، وهو أكـذبُ الحديث، وأنهم لذلك كانوا أهل الخرْص والكـذبِ ثم أخبر سبحـانه أن لـه الحجة عليهم من جهتين:

(١) سورة الأنعام الآية /١٤٨/.
(٢) سورة النحل، الآية /٣٥/.
(٣) سورة الزخرف، الآية /٢٠/.

إحداهما، ما ركبه فيهم من العقول التي يفرقون بها بين الحسن والقبيح، [والحق] والباطل، والأسماع والأبصار التي هي آلةُ إدراك الحق والتي يُفرق بها بينه وبين الباطل.

والثانية، إرسال رسله، وإنزالُ كتبه، وتمكينهم من الإيمان والإسلام، ولم يؤاخذهم بأحد الأمرين بل بمجموعهما، لكمال عدْله وقطعاً لعذرهم من جميع الوجوه.

ولذلك سمى حجته عليهم بالغة، أي قد بلغتْ غايةَ البيان وأقصاه بحيث لم يبق معها مقالٌ لقائل، ولا عذرٌ لمعتذر. ومن اعتذر إليه سبحانه بعذر صحيح قبله.

ثم ختم الآية بقوله﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] وأنه لايكون شيء إلا بمشيئته، وهذا من تمام حُجته البالغة، فإنه إذا امتنع الشيء لعدم مشيئته لزم وجودهُ عند مشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. كان هذا من أعظم أدلة التوحيد ومن أبين أدلة بطلان ما أنتم عليه من الشرك واتخاذ الأنداد من دونه، فما احتججتم به من المشيئة على ما انتم عليه من الشرك هو من أظهر الأدلة على بطلانه وفساده.

فلو أنهم ذكروا القدر والمشيئة توحيداً له، وافتقاراً والتجاءً إليه، وبراءةً من الحوْل والقوة إلا به، ورغبةً إليه أن يلقيهم مما لو شاء أن لا يقع منهم لما وقع لنفعهم ذلك ولفتح لهم باب الهداية، ولكن ذكروه معارضين به أمره، ومبطلين به دعوةَ الرسل، فما ازدادوا به إلا ضلالاً.

والمقصود أنه سبحانه قد فرق بين حجته ومشيئته. وقد حكى أبو الحسن الأشعري في مقالاته اتفاق أهل السنة والحديث على ذلك. والذي حكى عنه ابن فورّك في كتاب تجريده لمقالاته أنه كان يفرق بين ذلك، قال:

«وكان لا يفرقُ بين الود والحب والإرادة والمشيئة والرضا. وكان لا يقول إن شيئاً منها يخصّ بعض المرادات دون بعض، بل كان يقول إن كل واحد منها بمعنى صاحبه على جهة التقييد الذي يزولُ معه الإبهام، وهو أن المؤمن محبوبٌ لله أن يكون مؤمناً من أهل الخير كما علم، والكافر أيضاً مرادٌ أن يكون كافراً كما علم من

---

(١) سورة النحل، الآية /٩/.

أهل الشر ويحب[1] أن يكون ذلك كذلك كما علم. وكذلك كان يقول في الرضا والاصطفاء والاختيار، ويقيدُ اللفظ بذلك حتى لا يتوهم فيه الخطأ». انتهى.

والذي عليه أهلُ الحديث والسنة قاطبة والفقهاء كلهم وجمهورُ المتكلمين والصوفية أنه سبحانه يكره بعض الأعيان والأفعال والصفات، وإن كانت واقعة بمشيئته، فهو يبغضها ويمقتها كما يبغضُ ذاتَ إبليس وذوات جنوده، ويبغضُ أعمالهم، ولا يحب ذلك وإنْ وجد بمشيئته.

قال تعالى؛ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[2]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[4]، وقال: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[5]، وقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[6] وقال: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[7].

فهذا إخبارٌ عن عدم محبته لهذه الأمور، ورضاه بها بعد وقوعها. فهذا صريحٌ في إبطال قول من تأول النصوص على أنه لا يحبها ممن لم تقع منه ويحبها إذا وقعت، فهو يحبها ممن وقعتْ منه ولا يحبها ممن لم تقع منه. وهذا من أعظم الباطل والكذب على الله، بل هو سبحانه يكرهها ويبغضها قبل وقوعها، وحال وقوعها، وبعد وقوعها، فإنها قبائح وخبائث، والله منزه عن محبة القبيح والخبيث، بل أكره شيء إليه.

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[8]،

---

(١) كذا في المطبوعة ولعل في النص سقطا.
(٢) سورة البقرة، الآية /٢٠٥/.
(٣) سورة آل عمران، الآية /٥٧/.
(٤) سورة لقمان، الآية /١٨/.
(٥) سورة النساء، الآية /١٤٨/.
(٦) سورة المائدة، الآية /٨٧/.
(٧) سورة الزمر، الآية /٧/.
(٨) الآية /٣٨/ من سورة الإسراء.

وقد أخبر سبحانه أنه يكره طاعات المنافقين، ولأجل ذلك يثبطهم عنها، فكيف يحب نفاقهم ويرضاه ويكون أهله محبوبين له مصطفين عنده مرضيين؟

ومن هذا الأصل الباطل نشأ قولُهم باستواء الأفعال بالنسبة إلى الرب سبحانه، وأنها لا تنقسم في نفسها إلى حسن وقبيح، فلا فرق بالنسبة إليه سبحانه بين الشكر والكفر، ولذلك قالوا لا يجب شكرهُ على نعمه عقلاً.

فمن هذا الأصل قالوا إن مشيئته هي عينُ محبته، وإن كل ما شاءه فهو محبوب له ومرضي له ومصطفى ومختار. فلم يمكنهم بعد تأصل هذا الأصل أن يقولوا إنه يبغض الأعيانَ والأفعالَ التي خلقها ويحب بعضها، بل كلُّ ما فعله وخلقه فهو محبوب له، والمكروهُ المبغوضُ ما لم يشأه ولم يخلقه.

وإنما أصّلوا هذا الأصل محافظة منهم على القدر، فحثوا به على الشرع والقدر، والتزموا لأجله لوازم شوّشوا بها القدر والحكمة، وكابروا لأجلها صريح العقل، وسوّوا بين أقبح القبائح وأحسن الحسنات في نفس الأمر، وقالوا هما سواء لا فرقَ بينهما إلا بمجرد الأمر والنهي، فالكذب عندهم والظلمُ والبغي والعدوان مساوٍ للصدق والعدل والإحسان في نفس الأمر. ليس في هذا ما يقتضي حسنه، ولا في هذا ما يقتضي قبحه، وجعلوا هذا المذهب شعاراً لأهل السنة، والقول بخلافه قول أهل البدع من المعتزلة وغيرهم.

ولعمرُ الله إنه لمن أبطل الأقوال وأشدّها منافاةً للعقل والشرع، ولفطرة الله التي فطر عليها خلقه. وقد بينا بطلانه من أكثر من خمسين وجهاً في كتاب المفتاح[1].

والمقصودُ أنه لما انضم القولُ به إلى القول بأنه سبحانه لا يحب شيئاً ويبغضُ شيئاً بل كلُّ موجودٍ فهو محبوب له، وكلُّ معدوم فهو مكروه له، وانضم إلى هذين الآخرين إنكارُ الحِكم والغاياتِ المطلوبة في أفعاله سبحانه، وأنه لا يفعلُ شيئاً لمعنى البتة، وانضم إلى ذلك إنكارُ الأسباب، وأنه لا يفعلُ شيئاً بشيء، وإنكارُ القوي والطبائع والغرائز، وأن تكون أسباباً أو يكون لها أثر - انسدّ عليهم بابُ الصواب في مسائل القدر والتزموا هذه الأصول الباطلة لوازمَ هي أظهرُ بطلاناً

(١) انظر كتاب مفتاح دار السعادة من تحقيقي، وهو من نشر وتوزيع مكتبة السوادي بجدة.

وفساداً، وهي مِن أدلّ شيء على فساد هذه الأصول وبطلانها، فإن فسادَ اللازم من فساد ملزومه.

فإن قيل: الكراهةُ والمحبةُ ترجعُ إلى المنافرة والملاءمة للطبع، وذلك مُحال في حق مَن لا يوصف بطبع ولا منافرة ولا ملاءمة.

قيل: قد دلّتْ النصوصُ التي لا تُدفع على وصفه تعالى بالمحبة والكراهة، فتبيينكم حقائقَ ما دلّتْ عليه بالتعبير عنها بملاءمة الطبع ومنافرته باطلٌ، وهو كنَفي كلِّ مبطلٍ حقائقَ أسمائه وصفاته بالتعبير عنها بعبارات اصطلاحية توصّل بها إلى نفي وَصفَ به نفسَه، كتسمية الجهمية المعطِّلة صفاتِه إعراضاً، ثم توصلوا بهذه التسمية إلى نفيها.

وسموا أفعاله القائمة به حوادثَ ثم توصلوا بهذه التسمية إلى نفيه، وقالوا: لا تحله الحوادثُ، كما قالت المعطلةُ ولا تقومُ به الأعراضُ.

وسموا علوّه على خَلقه، واستواءَه على عرشه. وكونَه قاهراً فوق عباده، تحيزاً وتجسماً، ثم توصلوا بنفي ذلك إلى نفي علوّه عن خلقه واستوائه على عرشه.

وسَموا ما أخبرَ به عن نفسهِ من الوجه واليدين والإصبع جوارحَ وأعضاء، ثم نفَوْا ما أثبته لنفسه بتسميتهم له بغير تلك الأسماء، ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[1].

فتوصلوا بالتشبيه والتجسيم والتركيب والحوادث والأعراض والتحيز إلى تعطيل صفاتِ كماله ونعوتِ جلاله وأفعاله، وأخْلَوا تلك الأسماء من معانيها وعطّلوها مِن حقائقها.

فيقال لمن نَفِي محبتَه وكراهتَه لاستلزامهما ميلَ الطبع ونفرتَه: ما الفرقُ بينك وبين من نَفَى كونَه مريداً لاستلزام الإرادة حركةَ النفسِ إلى جَلْب ما ينفعُها بالمسموعِ والمبصَرِ، وانطباع صورةِ المرئي في الرائي وحَمْلَ الهواءِ الصوتَ المسموع إلى أذن السامع.

---

(١) سورة النجم، الآية /٢٣/.

ومَن نَفى علمَه لاستلزامه انطباعَ صورةِ المعلوم في النفس الناطقة.

ونَفَى غضبَه ورضاه لاستلزام ذلك حركـةَ القلب وانفعالَه بما يـرِدُ عليه مِن المؤلم والسار.

ونَفَى كلامَه لاستلزام الكلامِ محلاّ يقومُ به ويظهرُ منه مِن شفةٍ ولسان ولهوَاتٍ.

ولمّا لم يكنْ أحداً أقرَّ بوجود رب العالمين طَرّدَ ذلك وَقـعَ في التناقض ولا بـد، فإنه أيُّ شيء أثبتَه لزمَه فيه ما التزم، كمَنْ أثبتَ ما نفاه هو مِن غير فرق البتة.

ولهذا قال الإمام أحمد وغيرُه مِن أئمة السنـة: لا نزيـلُ عن الله صفةً مِن صفـاته لأجل شناعة المشنّعين.

والمقصودُ أنَّا لا نجحدُ محبتَه تعالى لما يحبـه وكراهتَـه لما يكـرهه لتسميـة النفاةِ ذلك ملاءمةً ومنافرةً. وينبغي التفطنُ لهذا الموضع فإنـه من أعظم أصـول الضلال. فلا نُسمي العـرش حيّزاً، ولا نسمي الاستـواءَ تحيزاً، ولا نسمي الصفـاتِ أعراضـاً ولا الأفعالَ حوادثَ، ولا الوجه واليدينِ والأصابـعَ جوارحَ وأعضـاء، ولا إثباتَ صفـاتِ كماله التي وَصَف بها نفسَه تجسيماً وتشبيهاً، فنجنيَ جنايتين عظيمتين، جنايةً على اللفظ وجنايةً على المعنى، فنبدلَ الاسم ونعطلَ معناه.

ونظيرُ هذا تسميةُ خَلْقه سبحانه لأفعال عباده وقضائه السباق جَبْـراً. ولذلـك أنكرَ أئمة السنة كالأوزاعي، وسفيان الثـوري، وعبد الـرحمن بن مهدي، والإمـام أحمد، وغيرهم هذا اللفظ.

قال الأوزاعي والزبيدي ليس في الكتاب والسنة لفظ «جبر»، وإنما جاءت السنـة بلفظ «الجَبْل» كما في الصحيح أن النبي ﷺ قال لأشج عبد القيس «إنّ فيك خُلُقين يحبهما اللهُ: الحلمَ والأناةَ، فقـال: أخلقين تخلَّقتُ بهما أم جُبلْتُ عليهمـا، فقال: بل جُبلتَ عليهما، فقال: الحمدُ لله الذي جبَلني على ما يحب»(1).

---

(1) جزء من حديث رواه الإمام مسلم برقم /١٨/ في الإيمان، باب الأمر بالإيمـان بالله تعـالى ورسوله ﷺ، والنسائي (٣٠٦/٨)، باب النهي عن نبيذ الدباء والحنتم والنقير، وكـلاهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه الترمذي برقم /٢٠١٢/ ي البر، بـاب ما جاء في التأني والعجلة، من حـديث عبد الله بن عبـاس رضي الله عنهما مقتصـراً على لفظ المؤلف رحمـه الله. ورواه أبـو داود بجـزء من حـديث مـطر بن عبـد الـرحمن الاعنق بـرقم /٥٢٢٥/ في الأدب، باب قبلة الرجل.

فأخبر النبيُّ ﷺ أن الله جَبَله على الحلم والأناة وهما من الأفعال الاختيارية وإنْ كانا خُلقين قائمين بالعبد، فإن من الأخلاق ما هو كسْبي ومنها ما لا يدخل تحت الكسب، والنوعان قد جَبلَ اللهُ العبد عليهما، وهو سبحانه يحب ما جبلَ عبدَه عليه مِن محاسن الأخلاق، ويكره ما جبله عليه من مساوئها، فكلاهما بجبَله وهذا محبوبٌ له وهذا مكروه، كما أن جبريلَ صلوات الله عليه مخلوقٌ له، وإبليسَ عليه لعائن الله مخلوقٌ له، وجبريلُ محبوب له مصطفى عنده، وإبليس أبغضُ خَلْقه إليه.

ومما يوضح ذلك أن لفظ الجبر لفظ مجمل فإنه يقال: أجبْرَ الأب ابنته على النكاح، وجَبَر الحاكم الرجلَ على البيع، ومعنى هذا الجبر أكرهَه عليه، ليس معناه أنه جعله مُحباً لذلك راضياً به مختاراً له.

واللهُ تعالى إذا خَلق فعلَ العبد جعله محبّاً له مختاراً لإيقاعه راضياً به كارهاً لعدَمه. فإطلاقُ لفظ الجبر على ذلك فاسدٌ لفظاً ومعنى، فإنه سبحانه أجلُّ وأعزَ مِن أن يجبرَ عبدَه بذلك المعنى، وإنما يُجبر العاجزُ عن أن يَجعلَ غيرَه فاعلاً بإرادته ومحبته ورضاه.

وأما مَن جعل العبد مريداً محباً مؤثراً لما يفعله فكيف يقال إنه جَبرَه عليه، فهو سبحانه أجلّ وأعظمُ وأقدرُ مِن أن يجبر عبدَه ويكرهه على فعل يشاؤه منه، بل إذا شاء مِن عبده أن يفعلَ فعلاً جعله قادراً عليه مريداً له محباً مختاراً لإيقاعه، وهو أيضاً قادر على أن جعلَه فاعلاً له باختياره مع كراهته له وبغضه ونُفرته عنه. فكلُّ ما يقع من العباد بإراداتهم ومشيئاتهم فهو سبحانه الذي جعلَهم فاعلين له سواء، أحبوه أو أبغضوه وكرهوه، وهو سبحانه لم يجبرهم في النوعين كما يجبرُ غيرُه مَن لا يقدرُ على جَعْله فاعلاً بإرادته ومشيئته.

نَعم نحنُ لا ننكر استعمالَ لفظ الجبر فيما هو أعم مِن ذلك بحيثُ يتناول مَن قَهر غيرَه وقدَر على جَعْله فاعلاً لما يشاء فِعلَه وتاركاً لما لا يشاء فِعلَه، فإنه سبحانه المحدثُ لإرادته له وقدرته عليه. قال محمد بن كعب القرظبي في اسم «الجبار» إنه سبحانه هو الذي جَبر العبادَ على ما أراد. وفي الدعاء المعروف عن عليّ رضي الله

عنه «اللهم داحيَ المدحوَّات وبارىءَ المسموكات جبارَ القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها»[1].

فالجبرُ بهذا المعنى معناه القهرُ والقدرةُ وأنه سبحانه قادر على أن يفعلَ بعبده ما شاء، وإذا شاء منه شيئاً وقع ولا بد، وإنْ لم يشأ لم يكن، ليس كالعاجز الذي يشاء ما لا يكونَ ويكون ما لا يشاء. والفرقُ بين هذا الجبر وجبر المخلوق لغيره من وجوه:

أحدُها: أن المخلوقَ لا قدرةَ له في جَعْل الغير مريداً للفعل محباً له، والربُّ تعالى قادرٌ على جَعل عبده كذلك.

الثاني: أن المخلوقَ قد يجبر غيرَه إجباراً يكون به ظالماً معتدياً عليه، والربُّ أعدلُ مِن ذلك فإنه لا يظلم أحداً مِن خلقه بل مشيئتهُ نافذة فيهم بالعدل والإحسان، بل عدلُه فيهم من إحسانه إليهم كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

الثالثُ: أن المخلوقَ يكون في جبره لغيره سفيهاً أو غائباً أو جاهلاً، والربُّ تعالى إذا جَبر عبدَه على أمر من الأمور كان له في ذلك من الحكمة والعدل والإحسان والرحمة ما هو محمودٌ عليه بجميع وجوه الحمد.

الرابع: أن المخلوقَ يجبر غيرَه لحاجته إلى ما جَبَره عليه ولانتفاعه بذلك وهذا لأنه فقير بالذات، وأما الربُّ تعالى فهو الغني بذاته الذي كلُّ ما سواه محتاجٌ إليه وليس به حاجةٌ إلى أحد.

الخامسُ: أن المخلوقَ يجبر غيرَه لنقصه فيجبره ليحصلَ له الكمالُ بما أجبره عليه، والربُّ تعالى له الكمالُ المطلق مِن جميع الوجوه، وكمالُه مِن لوازم ذاته لم يستفدْه مِن خَلْقه، بل هو الذي أعطاهم من الكمال ما يليقُ بهم، فالمخلوقُ يجبرُ غيرَه ليتكمّل، والربُّ تعالى مُنزه عن كل نقص فكمالُه المقدس ينفي الجبر.

السادسُ: أن المخلوقَ يجبر غيرَه على فِعلٍ يُعينه به على غرضه لِعجزه عن التوصل إليه إلا بمعاونته له، فصار الفعلُ مِن هذا والقهرُ والإكراه مِن هذا محصِّلاً لغرض المكْره كما أنّ المعينَ لغيره باختياره شريكٌ له في الفعل، والربُّ تعالى غَني عما سواه بكل وجهٍ فيستحيلُ في حقه الجبر.

السابعُ: أن المجبورَ على ما لا يريد فِعلَه يجدُ مِن نفسه فَرْقاً ضرورياً بينه وبين

ما يريدُ فِعلَه باختياره ومحبته، . فالتسويةُ بين الأمرين تسويةٌ بين ما عُلم بالحس والاضطرار الفرقُ بينهما، وهو كالتسوية بين حركة المرتعش وحركة الكاتب، وهذا من إبطال الباطل.

الثامنُ: أن الله سبحانه قد فطرَ العبادَ على أن المجبور المكرهَ على الفعل معذورٌ لا يستحق الذم والعقوبةَ، ويقولون قد أكره على كذا وجبرَه السلطانُ عليه، وكما أنهم مفطورون على هذا فهم مفطورون أيضاً على ذمٍّ من فَعَلَ القبائحَ باختياره، وشريعتهُ سبحانه موافقةٌ لفطرته في ذلك، فمن سوَّى بين الأمرين فقد خرجَ عن مُوجِب الشرع والعقل والفطرة.

التاسعُ: أنَ من أمر غيرَه بمصلحة المأمور وما هو محتاجٌ إليه ولا سعادةَ له ولا فلاحَ إلا به لا يقال جَبَره على ذلك، وإنما يُقال نَصحَه وأرشده ونَفعه وهَداه ونحو ذلك، وقد لا يختار المأمورُ المنهيُّ ذلك فيجبرُه الناصحُ له على ذلك، من له ولاية الإجبار، وهذا جبرُ الحق وهو جائزٌ بل واقعٌ في شرع الرب، وقدَره وحكمته ورحمته وإحسانه لا نمنعُ هذا الجبر.

العاشرُ: أن الربَّ ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله، فجعله العبدَ فاعلاً لقدرته ومشيئته واختياره أمرٌ يختص به تبارك وتعالى، والمخلوقُ لا يقدرُ أن يجعل غيرَه فاعلاً إلا بإكراهه له على ذلك، فإنْ لم يكرهْه لم يقدِرْ على غير الدعاء والأمر بالفعل وذلك لا يصيّر العبدَ فاعلاً، فالمخلوقُ هو [الذي] يجبر غيره على الفعل ويكرهه عليه، فنسبةُ ذلك إلى الرب تشبيهٌ له في أفعاله بالمخلوق الذي لا يجعلُ غيرَه فاعلاً إلا بجبره له وإكراهه، فكمالُ قدرته تعالى وكمالُ علمه وكمالُ مشيئته وكمالُ عدله وإحسانه وكمالُ غناه وكمالُ مُلكه وكمالُ حُجته على عبده تَنفي الجبرَ.

فصل: فالطوائفُ كلّها متفقة على الكسب ومختلفون في حقيقته.

فقالت القدريةُ: هو إحداثُ العبد لفعله بقدرته ومشيئته استقلالاً، وليس للرب صُنع فيه ولا هو خالقَ فِعلِهِ ولا مكونَه ولا مريداً له.

وقالت الجبريةُ :الكسبُ اقترانُ الفعل بالقدرة الحادثة مِن غير أن يكون لها فيه أمر.

وكلا الطائفتين فرقَ بين الخلق والكسب، ثم اختلفوا فيما وقعَ به الفرقَ. فقال الأشعري في عامة كتبه: الكسبُ أن يكون الفعلُ بقدرةٍ مُحدَثة، فمَنْ منع الفعل

بقدرة قديمة فهو فاعلٌ خالقٌ، ومَن وقعَ منه بقدرة محدَثة فهو مكتسِب.

وقال قائلون: من يفعلْ بغير آلة ولا جارحة فهو خالقٌ، ومَن يحتاج في فعله إلى الآلات والجوارح فهو مكتسِب. وهذا قولُ الاسكافي وطوائفُ من المعتزلة.

قال: واختلفوا هل يُقال إن الإنسانَ فاعل على الحقيقة، فقالت المعتزلة كلُّها إلا الناشىءَ: إن الإنسان فاعلٌ محدِث ومخترع ومنشىءٍ على الحقيقة دون المجاز.

وقال الناشىءُ: الإنسان لا يفعلُ في الحقيقة ولا يُحدث في الحقيقة، وكان يقول: إن الباريءَ أحدثَ كَسْبَ الإنسان. قال: فلزمَه محدَثٌ لا لمحدِث في الحقيقة ومفعولٌ لا لفاعل في الحقيقة.

قلت: وجهُ إلزامه ذلك أنه قد أعطى أن الإنسان غيرُ فاعل لفعله وفعله مفعولٌ وليس هو فعلاً لله ولا فعلاً للعبد فلزمه مفعولٌ مِن غير فاعل.

ولَعمر الله إن هذا الإلزام لازمٌ لأبي الحسن وللجبرية. فإن عندهم الإنسانُ ليس بفاعل حقيقةً والفاعلُ هو الله وأفعالُ الإنسان قائمةٌ لم تقم بالله، فإذا لم يكن الإنسانُ فاعِلَها مع قيامها به فكيف يكون الله سبحانه هو فاعلها؟ ولو كان فاعلها لعادتْ أحكامُها عليه واشتُقتْ له منها أسماء، وذلك مستحيل على الله، فيلزمُك أن تكون أفعالاً لا فاعلَ لها، فإن العبدَ ليس بفاعل عندك، ولو كان الربّ فاعلاً لها لاشتُقتْ له منها أسماء وعاد حُكمها عليه.

فإن قيل: فما تقولون أنتم في هذا المقام؟ قلنا: لا نقول بواحدٍ من القولين بل نقول هي أفعالٌ للعباد حقيقةً ومفعولةٌ للرب، فالفعلُ عندنا غيرُ المفعول، وهو إجماعٌ مِن أهل السنة حكاه الحسينُ بن مسعود البغوي وغيرُه. فالعبدُ فعلُه حقيقة، واللهُ خالقه وخالقُ ما فعلَ به من القدرة والإرادة وخالقُ فاعليته.

وسرُّ المسألة أن العبدَ فاعلٌ منفعلٌ باعتبارين، هو منفعلٌ في فاعلية فربُّه تعالى هو الذي جَعله فاعلاً بقدرته ومشيئته وأقدره على الفعل، وأحدثَ له المشيئةَ التي يفعلُ بها. قال الأشعري: وكثيرٌ من أهل الإثبات يقولون: إن الإنسان فاعلٌ في الحقيقة بمعنى مكتسِب، ويمنعون أنه مُحدث.

قلت: هؤلاء وقفوا عند ألفاظ الكتاب والسنة فإنهما مملوءان مِن نسبة الأفعال إلى العبد بإسمها العام وأسمائها الخاصة، فالاسمُ العام كقوله تعالى: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾،

﴿ تَفۡعَلُونَ ﴾ ﴿ تَكۡسِبُونَ ﴾ ، والأسماء الخاصة: «يقيمون الصلاة»، و«يؤتون الزكاة»، «ويؤمنون»، و«يخافون»، و«يتوبون»، و«يجاهدون».

وأما لفظُ الإحداث فلم يجىء إلا في الذم كقوله ﷺ: «لعن الله مَن أحدثَ حدَثاً أو آوى محدِثاً»[1]،

فهذا ليس بمعنى الفعل والكسب. وكذلك قولُ عبدالله بن مغفل لابنه: «إياك والحدثَ في الإسلام»[2].

ولا يمتنعُ إطلاقهُ على فعل الخير مع التقييد.

قال بعض السلَف: «إذا أحدثَ الله لك نعمةً فأحدِثْ لها شكراً، وإذا أحدثتَ ذنباً فأحدِثْ له توبة». ومنه قولُه: «هل أحدثت توبة وأحدثت للذنب استغفاراً». ولا يلزمُ مِن ذلك إطلاقُ اسم الحدثِ عليه والإحداث على فِعله. قال الأشعري: «وبلَغني أن بعضهم أطلقَ في الإنسان أنه مُحدِث في الحقيقة، بمعنى مكتسب، قلتُ: ههنا ألفاظ، وهي فاعل، وعامل، ومكتسِب، وكاسب، وصانع، ومحدِث، وجاعل، ومؤثر، ومُنشىء، وموجد، وخالق، وباریء، ومصور، وقادر، ومريد، وهذه الألفاظ ثلاثة أقسام:

قسم لا يُطلق إلا على الرب سبحانه، كالباریء والبديع والمبدع.

وقسم لا يطلَق إلا على العبد كالكاسب والمكتسب.

وقسم وقَعَ إطلاقه على الرب والعبد، كاسم صانع وفاعل وعامل ومنشىء ومريد وقادر، وأما الخالقُ والمصور فإن استُعملا مُطْلقين غيرَ مقيدَيْن لم يُطلقا إلا على الرب كقوله: ﴿ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ ﴾[3]

وإن اسُتعملا مقيدين أطلقا على العبد، يقال لمن قدّر شيئاً في نفسه إنه خلَقه: قال:

---

(١) رواه مسلم برقم /١٩٧٨/ في الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى، والنسائي (٢/٢٣٢) في الضحايا، باب من ذبح لغير الله عز وجل.

(٢) جزء من حديث ابن عبدالله بن مغفل رحمه الله، وقد رواه الترمذي برقم /٢٤٤/ في الصلاة، باب ما جاء في ترك الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، والنسائي (٢/١٣٥) في الافتتاح، باب ترك الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم.

(٣) الآية /٢٤/ من سورة الحشر.

ولأنتَ تفـرِي مـا خلَقتَ وبعـ ـضُ القـوم يخلقُ ثم لا يفـري

أي لك قدرةٌ تُمضي وتُنفذ بها ما قدرتَه في نفسك وغيرُك يقدّر أشياء وهو عاجزٌ عن إنفاذها وإمضائها. وبهذا الاعتبار صح إطلاقُ «خالق» على العبد في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[1] أي أحسنُ المصورين والمقدرين. والعرب[2] تقول: «قدرت الأديم وخلقته» إذا قِستَه لتقطعَ منه مَزادةً أو قِربةً ونحوها: قال مجاهد: يصنعون ويصنع الله والله خيرُ الصانعين. وقال الليث: رجلٌ خالق، أي صانع، وهن الخالقات، للنساء. وقال مقاتل: يقول تعالى هو أحسنُ خَلْقاً مِن الذين يخلقون التماثيلَ وغيرَها التي لا يتحرك منها شيء[3].

وأما الباريءُ فلا يصح إطلاقهُ إلا عليه سبحانه، فإنه الذي بَرَأ الخليقةَ وأوجدها بعد عَدَمها، والعبدُ لا تتعلق قدرته بذلك، إذ غايةُ مقدوره التصرفُ في بعض صفاتِ ما أوجده الربُّ تعالى وبَرَاه، وتغييرُها مِن حال إلى حال على وجهٍ مخصوص لا تتعداه قدرتُه، وليس من هذا «بريتُ القلم» لأنه معتلّ لا مهموز، ولا «برأتُ من المرض»، لأنه فِعل لازم غير متعد.

وكذلك مُبدعُ الشيء وبديعهُ لا يصح إطلاقهُ إلا على الرب، كقوله: «بديعُ السموات والأرض». والإبداعُ إيجادُ المبدَع على غير مثال سَبق. والعبدُ يسمّى مبتدِعاً لكونه أحدَث قولاً لم تمض به سُنة، ثم يقال لمن اتّبعه عليه مبتدعٌ أيضاً.

وأما لفظُ الموجِد فلم يقعْ في أسمائه سبحانه وإن كان هو الموجد على الحقيقة، ووقَع في أسمائه الواجدُ، وهو بمعنى الغنيّ الذي له الوجد، وأما الموجدُ فهو مُفْعِل مِن أوجدَ، وله معنيان: أحدُهما أن يَجعلَ الشيء موجوداً: وهو تعديةُ وَجَده وأوجده، قال الجوهري: وُجد الشيءُ عن عدَم فهو موجَد، مثل حُمّ فهو محموم، وأوجدَه اللهُ. ولا يقال وَجَده.

والمعنى الثاني أوجدَه جعلَ له جِدَةً وغنى، وهذا يتعدّى إلى مفعولين. قال في الصحاح: أوجدَه الله مطلوبه. أي أظفره به، وأوجده، أي أغناه. قلت: وهذا

---

(١) الآية /١٤/ من سورة المؤمنون.

(٢) في الأصل: والعرفُ.

(٣) انظر جامع البيان للطبري مج: ١٠، جـ١٨، ص ١١.

يحتملُ أمرين: أحدُهما أن يكون من باب حَذْفِ أحدِ المفعولين، أي أوجدَه مالاً وغِنى، وأن يكون مِن باب صيَّره واجداً. مثل أغناه وأفقره، إذا صيَّره غنياً وفقيراً.

فعلى التقدير الأول يكون تعديةَ وجد مالاً وغنى وأوجده الله إياه.

وعلى الثاني يكون تعديةَ وجد وجداً إذا استغنى. ومَصْدُر هذا الوجد بالضم والفتح والكسر، قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾(١).

فغيرُ ممتنع أن يُطلَق على مَن يفعلُ بالقدرة المحدثة أنه أوجد مقدورَه كما يطلق عليه أن فعَله وعملَه وصنعه وأحدثه، لا على سبيل الاستقلال.

وكذلك لفظُ المؤثر لم يردْ إطلاقهُ في أسماء الرب، وقد وقعَ إطلاقُ الأثر والتأثير على فعل العبد، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾(٢)،

قال ابن عباس: ما أثروا مِن خير أو شر، فسَمى ذلك آثاراً لحصوله بتأثيرهم.

ومن العجب أن المتكلمين يمتنعون من إطلاق التأثير والمؤثر على مَن أطلق عليه في القرآن والسنة، كما قال النبي ﷺ لبني سلمَةَ «ديارُكم تكتبُ آثارَكم»(٣)، أي الزموا دياركم، ويخصوّنه بمن لم يقع إطلاقهُ عليه في كتاب ولا سنة وإن استعملَ في حقه الإيثارُ والاستئثارُ كما قال أخو يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾. وفي الأثر: «إذا استأثر الله بشيء فاله عنه». وقال الناظم:

استأثر اللهُ بالثناء وبالحمد وولّى الملامةَ الرجُلا

ولما كان التأثيرُ تفعيلاً من أثرتُ في كذا تأثيراً فأنا مُؤثر لم يتمنعْ إطلاقهُ على العبد. قال في الصحاح: التأثيرُ إبقاءُ الأثر في الشيء.

وأما لفظُ الصانع فلم يردْ في أسماء الرب سبحانه ولا يمكن ورودُه، فإن الصانعَ

---

(١) الآية /٦/ من سورة الطلاق.

(٢) الآية /١٢/ من سورة يس.

(٣) جزء من حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم /٦٦٥/ في المساجد، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد.

مَن صَنَع شيئاً عدْلاً كان أو ظلماً، سفَهاً أو حكمةً، جائـزاً أو غيرَ جـائز، ومـا انقسم مسمـاه إلى مـدحٍ وذم لم يجىء اسمـهُ المـطلق في الأسمـاء الحسنى، كـالفـاعـل والعـامل والصـانع والمـريد والمتكلم، لانقسـام معـاني هـذا الأسمـاء إلى محمـود مذموم، بخلاف العالم والقادر والحي والسميع والبصير. وقد سمَّى النبي ﷺ العبـدَ صانعاً.

قال البخاري: «حـدثنا علي بن عبـدالله ثنا مـروان بن معاويـة ثنا أبـو مالـك عن ربعي بن خـراش عن حـذيفـة قـال: قـال النبي ﷺ: «إن الله يصنـع كـلَّ صـانـع وصنعته»[1].

وقـد أطلق سبحـانـه على فعله اسم الصنُّع فقـال: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[2]. وهو منصوب على المصدر، لأن قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[3] يدلّ على الصنعـة. وقيـل هـو نَصْب على المفعـوليـة، أي انـظروا صُنـع الله، فعلى الأول يكـون صُنـع الله مَصـدْراً بمعنى الفعـل، وعلى الثاني يكـون بمعنى المصنوع والمفعـول، فإنـه الـذي يمكن وقـوعُ النظر والرؤية عليه.

وأما الإنشاء فإنما وقع إطلاقهُ عليه سبحـانه فعـلاً كقولـه: ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾[4].

وقوله: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ ﴾[5].

وقوله: ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[6] وهو كثير، ولم يردْ لفظ المنشىء.

وأما العبدُ فيطلَقُ عليه الإنشاء باعتبار آخر، وهو شروعـهُ في الفعل وابتـداؤه له، يقول: أنشأ يحدثنا، وأنشـأ السيرَ، فهـو منشىء لذلـك، وهذا إنشـاء مقيد، وإنشـاءُ الـرب إنشاءٌ مـطلق. وهذه اللفـظة تدور على معنى الابتـداء، أنشـأه الله أي ابتـدأ

(١) رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٢٥. وقد سبق تخريجه في ص ١٩٥.
(٢) الآية /٨٨/ من سورة النمل.
(٣) الآية /٨٨/ من سورة النمل.
(٤) الآية /١٢/ من سورة الرعد.
(٥) الآية /١٩/ من سورة المؤمنون.
(٦) الآية /٦١/ من سورة الواقعة.

خَلْقه، وأنشأ يفعلُ كذا، ابتدأ، وفلان ينشيء الأحاديثَ أي يبتدىء وَضْعَها، والناشيءُ أولُ ما ينشأ من السحاب. قال الجوهري: وناشئةُ الليل أولُ ساعاته التي منها ينشأ الليلُ.

والصحيح أنها لا تختصّ بالساعة الأولى، بل هي ساعاتُهُ ناشئة بعد ناشئة، كلما انقضتْ ساعةٌ نشأتْ بعدَها أخرى. وقال أبو عبيدة: ناشئةُ الليل ساعاته وآناؤه ناشئة بعد ناشئة. قال الزجاج: ناشئةُ الليل، كلُّ ما نشأ منه، أي حدث منه، فهو ناشئة. قال ابن قتيبة: هي آناء الليل وساعاتهُ، مأخوذةٌ من نشأتْ تنشأ نشأ، أي ابتدأتْ وأقبلتْ شيئاً بعد شيء. وأنشأها اللهُ فنشأتْ، والمعنى إن ساعات الليل الناشئة. وقولُ صاحب الصحاح منقولٌ عن كثير من السلف.

قال علي بن الحسين: ناشئةُ الليل ما بين المغرب إلى العشاء، وهذا قولُ أنس وثابت وسعيد بن جبير والضحاك والحكم واختيارُ الكسائي. قالوا: ناشئةُ الليل أولُه. وهؤلاء راعَوْا معنى الأولية في الناشئة. وفيها قولٌ ثالث، إن الليلَ كلّه ناشئة، وهذا قولُ عكرمة وأبي مجلز ومجاهد والسدى وابن الزبير وابن عباس في رواية. قال ابنُ أبي مليكه: سألتُ ابن الزبير وابن عباس عن ناشئة الليل فقالا: الليلُ كلُّه ناشئة. فهذه أقوالُ مَن جعلَ ناشئة الليلِ زماناً.

وأمّا من جعلَها فِعلاً ينشأ بالليل فالناشئةُ عندهم اسم لما يُفعلُ بالليل من القيام. وهذا قولُ ابن مسعود ومعاوية بن قرة وجماعة. قالوا: ناشئةُ الليلُ قيامُ الليل. وقال آخرون منهم عائشة: إنما يكونُ القيامُ ناشئةً إذا تقدمه نومٌ، قالت عائشة: ناشئةُ الليل القيامُ بعد النومُ، وهذا قولُ ابن الأعرابي، قال: إذا نمتَ من أول الليل نومةً ثم قمتَ فتلك النشأة، ومنه ناشئةُ الليل. فعلى قول الأولين ناشئةُ الليل بمعنى مِن، إضافة نوع إلى جنسه، أي ناشئة منه. وعلى قول هؤلاء إضافة بمعنى في، أي طاعة ناشئة فيه، والمقصودُ أن الإنشاء ابتداء سواء تقدّمه مثلُه كالنشأة الثانية أو لم يتقدمه كالنشأة الأولى.

وأما الجعلُ فقد أطلق على الله سبحانه بمعنيين: أحدُهما الإيجادُ والخلقُ، والثاني التصييرُ، فالأول يتعدى إلى مفعول، كقوله: «وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ»(١)،

---

(١) سورة الأنعام، الآية /١/.

والثاني أكثر ما يتعدى إلى مفعولين كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[1].

وأطلق على العبد بالمعنى الثاني خاصةً كقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾[2].

وغالبُ ما يستعمل في حق العبد فى جعل التسمية والاعتقاد حيث لا يكون له صُنع في المجعول، كقوله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[3].

وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[4] وهذا يتعدّى إلى واحدٍ وهو جَعْلُ اعتقادٍ وتسمية.

وأما الفعلُ والعملُ فأطلاقهُ على العبد كثير، «لبئس ما كانوا يفعلون»، «لبئسَ ما كانوا يعملون» «بما كنتم تعملون». وأطلقه على نفسه فِعلاً واسماً، فالأول كقوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[5]

والثاني كقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[6].

وقوله: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ في موضعين من كتابه أحدهما قولُه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[7].

والثاني قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[8].

---

(١) سورة الزخرف، الآية /٣/.
(٢) سورة الأنعام، الآية /١٣٦/..
(٣) سورة الزخرف، الآية /١٩/.
(٤) سورة يونس، الآية /٥٩/.
(٥) سورة إبراهيم، الآية /٢٧/.
(٦) سورة هود، الآية /١٠٧/. والبروج الآية /١٦/.
(٧) سورة الأنبياء، الآية /٧٩/.
(٨) سورة الأنبياء، الآية /١٠٤/.

فتأمل قوله: ﴿كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ في هـذين الموضعين المتضمنين للصنـع العجيب الخـارج عن العادة كيف تجـدُه كالـدليل على مـا أخبر بـه، وأنـه لا يستعصي على الفاعل حقيقةً، أي شأنُنا الفعلُ كما لا يخفى الجهرُ والإسرار بالقول على مَن شأنـه العلم والخبرةُ، ولا تصعب المغفرةُ على مَن شأنه أن يغفرَ الذنوبَ، ولا الرزْقُ على من شأنُه أن يرزقَ العبادَ. وقـد وقَعَ الـزجّاجُ على هـذا المعنى بعينه فقـال: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾، قادرين على فعل ما نشاء.

البَابُ الثامِن عَشر

في فَعَلَ وأفعلَ في القضاء والقدر والكسب وذِكر الفعل والانفعال

ينبغي الاعتناءُ بكَشْف هذا الباب وتحقيق معناه فبذلك ينحلّ عن العبد أنواعٌ من ضلالاتِ القدَرية والجبرية حيث لم يعطوا هذا البابَ حقّه من العرفان.

أعلَمْ أن الرب سبحانه فاعلٌ غيرُ منفعِل، والعبدَ فاعلٌ منفعِل، وهو في فاعليته منفعِلٌ للفاعل الذي لا ينفعلُ بوجه.

فالجبريةُ شهدتْ كونَه منفعلاً يجري عليه الحكمُ بمنزلة الآلة والمحلّ، وجعلوا حركتَه بمنزلة حركات الأشجار، ولم يجعلوه فاعلاً إلا على سبيل المجاز، فقام وقَعَد وأكلَ وشرب وصلّى وصام عندهم بمنزلة مرضَ وألم ومات، ونحو ذلك مما هو فيه منفعل محضاً.

والقدريةُ شهدتْ كونَه فاعلاً محضاً غيرَ منفعل في فعله.

وكلّ من الطائفتين نظرَ بعين عوراء. وأهلُ العلم والاعتدال أعطوا كِلا المقامَيْن حقّه، ولم يبطلوا أحدَ الأمرين بالآخر فاستقام لهم نظرُهم ومناظرتُهم، واستقر عندهم الشرعُ والقدَر في نصابه، ومهدوا وقوعَ الثواب والعقاب على مَن هو أوْلى به، فأثبتوا نُطقَ العبدِ حقيقةً، وإنطاقَ الله له حقيقةً، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1].

(١) الآية /٢١/ من سورة فُصلت.

فالإنطاقُ فِعلُ الله الذي لا يجوزُ تعطيلهُ، والنطقُ فِعلُ العبد الذي لا يمكن إنكارُه، كَما قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾(١)

فعُلم أن كونَهم ينطقون هو أمرٌ حقيقي حتى شُبه به في تحقيق كونِ ما أخبر بـه، وأن هذا حقيقةٌ لا مجاز.

ومَن جَعَلَ إضافَة نُطق العبد إليه مجازاً لم يكن ناطقاً عنده حقيقة، فلا يكونُ التشبيه بنطقه محققاً لما أخبر به، فتأمله.

ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾(٢) فهو المضحكُ المبكي حقيقةً، والعبدُ الضاحكُ الباكي حقيقة، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ﴾(٣)،

وقال: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾(٤).

فلولا المنطق الذي أنطقَ والمضحك المبكي الذي أضحك وأبكى لم يوجدْ ناطقٌ ولا ضاحك ولا باك. فإذا أحبَّ عبداً أنطقه بما يحب وأثابه عليه، وإذا أبغضه أنطقه بما يكرهه فعاقبه عليه، وهو الذي أنطق هذا وهذا، وأجرى ما يحب على لسان هذا، وما يكره على لسان هذا، كما أنه أجرى على قلب هذا ما أضحكه وعلى قلب هذا ما أبكاه.

وكذلك قولُه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾(٥)،

وقوله: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٦).

فالتسييرُ فِعلهُ حقيقةً، والسيرُ فِعلُ العبد حقيقةً، فالتسييرُ فِعل مَحْض والسيرُ فعل وانفعال.

---

(١) سورة الذاريات، الآية /٢٣/.
(٢) سورة النجم، الآية /٤٣/.
(٣) سورة التوبة، الآية /٨٢/.
(٤) سورة النجم، الآية /٦٠/.
(٥) سورة يونس، الآية /٢٢/.
(٦) سورة الأنعام، الآية /١١/.

ومِن هـذا قولُـه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾[1]. فهو سبحانه المزوجُ ورسولُه المتزوج.

وكذلك قـولُه: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[2] فهـو المزوّجُ وهم المتـزوجون.

وقد جمعَ سبحانه بين الأمـرين في قولـه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[3]. فالإزاغةُ فِعلهُ والزيغُ فِعلهم.

فإن قيل: أنتم قررتم أنه لم يقعْ منهم الفعل إلا بعدَ فِعله، وأنه لـولا إنطاقـه لهم وإضحاكهُ وإبكاؤه لَمَا نطقوا ولا ضحكوا ولا بكوا، وقد دلّت هذه الآيةُ على أن فعله بعدَ فِعلهم، وأنه أزاغ قلوبَهم بعـد أن زاغوا، وهـذا يدل على أن إزاغةَ قلوبهم هو حُكمه عليها بالزيغ لا جعْلُها زائغةً، وكذلك قوله: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ﴾[4] المرادُ جَعَـلَ لنا آلةَ النطق، ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[5]، جَعَلَ لهم آلةَ الضحك والبكاء.

قيـل: أمّا الإزاغةُ المترتبةُ على زَيغهم فهي إزاغةٌ أخرى غيرُ الإزاغـة التي زاغوا بها أولاً عقوبـةً لهم على زيغهم والربُّ تعـالى يعاقبُ على السيئة بمثلها كما يثيب على الحسنـة بمثلهـا. فحـدث لهم زيـغٌ آخرُ غيـرُ الـزيـغ الأول، فهم زاغـوا أولاً فجازاهم الله بإزاغةٍ فوق زيغهم.

فإن قيل: فـالزيـغُ الأول من فِعلهم وهو مخلوق لله فيهم على غيـر وجه الجـزاء وإلا تسلسلَ الأمر.

قيل: بل الزيغُ الأولُ وقعَ جزاءً لهم وعقـوبةً على تـركهم الإيمانَ والتصـديقَ لما جاءهم من الهدى، وهذا التركُ أمر عدَمي لا يستدعي فاعلاً فإن تـأثيرَ الفـاعل إنمـا في الوجود لا في العدم.

فإن قيل: فهذا التركُ العدَمي له سببٌ أو لا سببٌ له؟

قيل: سببهُ عدم سببِ ضدّه فيبقى على العدَم الأصلي، ويشبهُ هذا قولُه: ﴿وَلَا

(١) سورة الأحزاب، الآية /٣٧/.
(٢) سورة الدخان، الآية /٥٤/.
(٣) سورة الصف، الآية /٥/.
(٤) سورة فُصلت، الآية /٢١/.
(٥) سورة النجم، الآية /٤٣/.

﴿تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(١)،

عاقبهم على نسيانهم له بأن أنساهم أنفسَهم فنسوا مصالحها أن يفعلوها، وعيوبَها أن يصلحوها، وحظوظَها أن يتناولوها. ومِن أعظمِ مصالحها وأنفع حظوظها ذكرُها لربها وفاطرِها، وهي لا نعيمَ لها ولا سرورَ ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره وحبه وطاعته والإقبال عليه والإعراض عما سواه، فأنساهم ذلك لما نسوه، وأحدث لهم هذا النسيانُ نسيلاً آخر، وهذا ضدّ حال الذين ذكَروه ولم ينسوه، فذكّرهم مصالحَ نفوسهم ففعلوها، وأوقفهم على عيوبها فأَصلحوها، وعرّفهم حظوظها العالية فبادروا إليها، فجازَى أولئك على نسيانهم بأن أنساهم الإيمانَ ومحبته وذِكرَه وشكرَه، فلما خلَتْ قلوبُهم مِن ذلك لم يجدوا عن ضده محيصاً.

وهذا يبينُ لك كمالَ عدله سبحانه في تقدير الكفروالذنوب عليها. وإذا كان قضاؤه عليها بالكفر والذنوب عدلاً منه عليها، فقضاؤه عليها بالعقوبة أعدلُ وأعدلُ، فهو سبحانه ماضٍ في عبده حُكمهُ، عدلٌ فيه قضاؤه(٢). وله فيها قضاءان قضاءُ السبب وقضاءُ المسبَّب، وكلاهما عدلٌ فيه، فإنه لما تركَ ذِكرَه وتركَ فِعلَ ما يحبه عاقبه بنسيان نفسه، فأحدث له هذا النسيانُ ارتكابَ ما يبغضه ويسخطه بقضائه الذي هو عدل، فترتب له على هذا الفعل والترك عقوباتٌ وآلام لم يكن له منها بدٌ، بل هي مترتبة عليه ترتبَ المسببات على أسبابها، فهو عدل مَحْض مِن الرب تعالى، فعدَلَ في العبد أولاً وآخراً، فهو مُحسن في عدله محبوبٌ عليه محمود فيه، يحمدهُ مَن عدلَ فيه طوعاً وكرهاً. قال الحسن: لقد دخلوا النارَ وإنّ حمدَه لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً.

وسنزيدُ هذا الموضع بَسْطاً وبياناً في باب دخول الشر في القضاء الإلهي إن شاء الله، إذ المقصودُ ههنا بيانُ كونِ العبد فاعلاً منفعلاً، والفرقُ في هذا الباب بين

---

(١) سورة الحشر، الآية /١٩/.

(٢) يشير إلى ما ورد في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من كثر همه فليقل: اللهم إني عبدك... إلى قوله: ماض فيَّ حكمك، عدل في قضاؤك. الحديث)، وهو حديث صحيح رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٩١ و٤٥٢) وصححه ابن حبان برقم /٢٣٧٢/ موارد، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٩) في الدعاء، باب دعاء يدفع الهم والحزن.

فَعلَ وأفعلَ، وأن الله سبحانه أفعلَ والعبد فعلَ، فهو الذي أقام العبدَ وأضله وأماته، والعبد هو الذي قام وضلّ ومات.

وأما قولكم إن معنى انطقه وأضحكه وأبكاه جعلَ له آلةً ينطق بها ويَضحك ويبكي، فإعطاؤه الآلةَ وحدها لا يكفي في صدق القول بأنه أنطقه وأضحكه، فلو أن رجلاً صمتَ يوماً كاملاً فحلفَ حالفٌ أن الله أنطقه لكان كاذباً حانثاً، ولو دعوتَ كافرين إلى الإسلام فنطقَ أحدُهما بكلمة الشهادة وسكتَ الآخرُ لم يقلْ أحد قط إن الله قد أنطق الساكتَ كما أنطق المتكلم، وكلاهما قد أُعطى آلة النطق، ومتعلَّقُ الأمر والنهي والثواب والعقاب والفِعلُ لا الإفعالُ.

فإن قيل: هل تطردون هذا في جميع أفعال العبد مِن كُفره وزناه وسرقته فتقولون إن الله أفعله وهو الذي فعل، أمْ تخصّون ذلك ببعض الأفعال فيظهرَ تناقضُكم؟

قيل: ههنا أمران: أمر لغوي وأمر معنوي،

فأما اللغوي فإن ذلك لا يطّرد في لغة العرب، لا يقولون: أزنى الله الرجلَ وأسرقه وأشربه وأقتله إذا جعلَه يزني ويسرقُ ويشرب ويقتل، وإن كان في لغتها أقامه وأقعدَه وأنطقه وأضحكه وأبكاه وأضله، وقد يأتي هذا مضاعفاً كفهمه وعلمه وسيره، وقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾(1).

فالتفهيمُ منه سبحانه والفهمُ من نبيه سليمان.

وكذلك قولُه: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾(2).

فالتعليمُ منه سبحانه، وكذلك التسييرُ والسير والتعلم مِن العبد.

فهذا المعنى ثابت في جميع الأفعال فهو سبحانه هو الذي جعلَ العبدَ فاعلاً كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾(3)، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾(4)

---

(1) سورة الأنبياء، الآية /٨٩/.
(2) سورة الكهف،الآية /٦٥/.
(3) سورة الأنبياء، الآية /٧٣/.
(4) سورة القصص، الآية /٤١/.

فهو سبحانه الذي جعلَ أئمة الهدى يهدون بأمره وجعلَ أئمة الضلال والبدع يدعون إلى النار، فامتناعُ إطلاق أكْلمه فتكلم لا يمنعُ من إطلاق أنطقَه فنطقَ. وكذلك امتناعُ إطلاق أهداه بأمره وأدْعاه إلى النار لا يمنعُ مِن إطلاق جعلَه يهدي بأمره ويدعو إلى النار.

فإن قيل: ومع ذلك كله هل تقولون إن الله سبحانه هو الذي جعل الزانيين يزنيان، وهو الذي جمعَ بينهما على الفعل وساق أحدَهما إلى صاحبه؟

قيل: أصل بلاءِ أكثر الناس مِن جهة الألفاظ المجملة التي تشتمل على حق وباطل، فيطلقها مَن يريدُ حقها فينكرها مَن يريدُ باطلها. فيردُّ عليه من يريد حقَّها.

وهذا باب إذا تأمله الذكي الفطن رأى منه عجائبَ وخلّصه مِن ورطات تورط فيها أكثرُ الطوائف. فالجعلُ المضافُ إلى الله سبحانه يراد به الجعلُ الذى يحبه ويرضاه، والجعل الذي قدّره وقضاه، قال الله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾(1) فهذا نفيٌ لجعله الشرعي الديني، أي ما شرعَ ذلك ولا أمرَ به ولا أحبه ورضيه.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾(2) فهذا جعل كوني قدري، أي قدرنا ذلك وقضيناه، وجعْل العبدِ إماماً يدعو إلى النار أبلغُ من جعله يزني ويسرق ويقتل. وجَعْلُه كذلك أيضاً لفظُ مجملٌ [لا] يراد به أنه جَبَره وأكرهه عليه واضطره إليه، وهذا مُحال في حق الرب تعالى وكماله المقدس، يأبى ذلك، وصفاتُ كماله تمنعُ منه كما تقدم، ويراد به أنه مكّنه مِن ذلك وأقدره عليه مِن غير أن يضطره إليه ولا أكرهه ولا أجبره، فهذا حق.

فإن قيل: هذا كله عدول عن المقصود، فمن أحدث معصية وأوجدها وأبرزها مِن العدم إلى الوجود؟

قيل: الفاعل لها هو الذي أوجدها وأحدثها وأبرزها مِن العدم إلى الوجود بإقدار الله له على ذلك وتمكينه منه مِن غير إلجاء له ولا اضطرار منه إلى فعلها.

فإن قيل: فمن الذي خلَقها إذاً؟ قيل لكم: ومَن الذي فعلَها؟ فإن قلتم الربّ

(1) الآية /١٠٣/ من سورة المائدة.
(2) الآية /٤١/ من سورة القصص.

سبحانه هو الفاعلُ للفسوق والعصيان أكْذبكم العقلُ والفطرة، وكُتبُ اللهِ المنزلةُ، وإجماعُ رسله وإثباتُ حمده وصفاتُ كماله، فإن فِعلَه سبحانه كله خير وتعالى أن يفعلَ شراً بوجه من الوجوه، فالشرُّ ليس إليه والخيرُ هو الذي إليه، ولا يفعل إلا خيراً، ولا يريد إلا خيراً، ولو شاء لَفعلَ غيرَ ذلك، لكنه تعالى تنزه عن فعل ما لا ينبغي وإرادتِه ومشيئته كما هو منزه عن الوصف به والتسمية به.

وإن قلتم: العبدُ هو الذي فعلَها بما خُلق فيه من الإرادة والمشيئة، قيل: فالله سبحانه خالقُ أفعال العباد كلها بهذا الاعتبار. ولو سلكَ الجبريّ مع القدَري هذا المسلكَ لاستراح معه وأراحه، وكذلك القدري معه، ولكن انحرفَ الفريقان عن سواء السبيل كما قال:

سارتْ مشرّقةً وسرتُ مغرّباً   شتانَ بين مُشرق ومُغرّبِ

فإن قيل: فهل يمكنه الامتناعُ منها وقد خلقت فيه نفسُها أو أسبابُها الموجبةُ لها، وخَلْقُ السببِ الموجبِ خلقٌ لمسببه ومُوجبه؟

قيل: هذا السؤالُ يورَدُ على وجهين:

أحدهما: أن يراد به أنه يصيرُ مضطراً إليها، مُلجأ إلى فِعلها بخلْقها أو خَلْق أسبابها بحيث لا يبقى له اختيارٌ في نفسه ولا إرادةٌ وتبقى حركتهُ قسريةً لا إرادته.

الثاني: أنه هل لاختياره وإرادته وقدرته تأثير فيها أو التأثيرُ لقدرة الرب ومشيئته فقط؟ وذلك هو السببُ الموجب للفعل.

فإن أوردتموه على الوجه الأول فجوابهُ أنه يمكِنه أن يفعل وأن لا يفعل ولا يصير مضطراً مُلجَأ بخلْقها فيه ولا بخلق أسبابها ودواعيها، فإنها إنما خلقتْ فيه على وجهٍ يمكنه فِعلَها وترْكَها ولو لم يمكنه التركُ لزمَ اجتماعُ النقيضين، وأن يكون مريداً غيرَ مريد، فاعلاً غيرَ فاعل، مُلجَأ غيرَ ملجىء.

وإن أوردتموه على الوجه الثاني فجوابهُ أن لإرادته واختياره وقدرته أثراً فيها وهي السببُ الذي خَلقها الله به في العبد، فقولُكم إنه لا يمكنه التركُ مع الاعتراف بكونه متمكناً مِن الفعل جَمْعٌ بين النقيضين، فإنه إذا تمكن مِن الفعل كان الفعل اختيارياً إن شاء فعله وإن شاء لم يفعله، فكيف يصح أن يقال لا يمكنه تركُ الفعل الاختياري الممكن؟ هذا خَلْفٌ مِن القول، وحقيقةُ الأمر أنه يمكنه الترك لو أراده لكنه لا يريدُه فصار لازماً بالإرادة الجازمة.

فإن قيل: فهذا يكفي في كونه مجبوراً عليه، قيل: هذا من أدلِّ شيء على بطلان الجبر، فإنه إنما لزم بإرادته المنافية للجبر، ولو كان وجوبُ الفعل بالإرادة يقتضي الجبرَ لكان الرب تعالى وتقدس مجبوراً على أفعاله لوجوبها بإرادته ومشيئته، وذلك محال.

فإن قيل: الفرقُ أن إرادة الرب تعالى من نفسه، لم يجعله غيرهُ مريداً، والعبدُ إرادته من ربه، إذ هي مخلوقة له فإنه هو الذي جعله مريداً.

قيل: هذا موضعٌ اضطرب فيه الناس فسلكت فيه القدريةُ وادياً وسلكت الجبرية وادياً.

فقالت القدريةُ: العبدُ هو الذي يحدث إرادته وليست مخلوقة لله، واللهُ مكّنه من إحداث إرادته بأنْ خلقه كذلك.

وقالت الجبرية: بل الله هو الذي يُحدث إرادات العبد شيئاً بعد شيء. فإحداثُ الإرادات فيه كإحداث لونه وطوله وقصره وسواده وبياضه مما لا صُنع له فيه البتة. فلو أراد أن لا يريد لما أمكنه ذلك وكان كما لو أراد أن يكون طوله وقصره ولونه على غير ما هو عليه، فهو مضطر إلى الإرادة. وكلُّ إرادة من إراداته فهي متوقفةٌ على مشيئة الرب لها بخصوصها، فهي مرادةٌ له سبحانه كما هي معلومة مقدورة، فلزمهم القولُ بالجبر من هذه الجهة ومن جهة نفيهم أن يكون لإرادة العبد وقدرته أثر في الفعل.

فإن قيل: فأي واد تسلكونه غير هذين الواديين، وأي طريق تمرون فيها سوى هذين الطريقين؟

قيل: نعم ههنا طريقةٌ ثالثة لم يسلكها الفريقان ولم يهتد إليها الطائفتان، ولو حكمت كلُّ طائفة ما معها من الحق والتزمت لوازمه وطردته لساقها إلى هذا الطريق ولا وقعها على المحجة المستقيمة.

فنقول وبالله التوفيق وهو المستعان وعليه التُّكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله: العبدُ بجملته مخلوق لله، جسمهُ وروحه وصفاته وأفعاله وأحواله، فهو مخلوق من جميع الوجوه، وخلق على نشأة وصفة يتمكن بها من إحداث إرادته وأفعاله. وتلك النشأةُ بمشيئة الله وقدرته وتكوينه فهو الذي خلقه وكونه كذلك، وهو لم يجعل نفسه

كذلك، بل خالقهُ وباريه جعله محدثاً لإرادته وأفعاله، وبذلك أمره ونهاه، وأقام عليه حجته، وعرّضه للثواب والعقاب، فأمره بما هو متمكنٌ من إحداثه، ونهاه عما هو متمكن من تركه، ورتّب ثوابه وعقابه على هذه الأفعال والتروك التي مكّنه منها وأقدره عليها وناطها به، وفطر خلقه على مدحه وذمه عليها مؤمنَهم وكافرهم المقرّ بالشرائع منهم والجاحد لها، فكان مريداً شائياً بمشيئة الله له، ولولا مشيئةُ الله أن يكون شائياً لكان أعجز وأضعف من أن يجعل نفسه شائياً.

فالرب سبحانه أعطاه مشيئة وقدرة وإرادة، وعرّفه ما ينفعه وما يضره، وأمره أن يُجري مشيئته وإرادته وقدرته في الطريق التي يصلُ بها إلى غاية صلاحه، فإجراؤها في طريق هلاكه بمنزلة من أعطى عبده فرساً يركبها وأوقفه على طريق نجاة وهلكة وقال: أجرها في هذا الطريق، فعدل بها إلى الطريق الأخرى وأجراها فيها، فغلبته بقوة بأسها وشدة سيرها، وعز عليه ردُّها عن جهة جريها، وحيل بينه وبين إدارتها إلى ورائها مع اختيارها وإرادتها. فلو قلت كان ردُّها عن طريقها ممكناً له مقدوراً أصبت، وإن قلت: لم يبق في هذه الحال بيده من أمرها شيء، ولا هو متمكن أصبت، بل قد حال بينه وبين ردّها من يحول بين المرء وقلبه ومن يقلب أفئدة المعاندين وأبصارهم.

وإذا أردت فهم هذا على الحقيقة فتأمل حال من عرضت له صورة بارعة الجمال فدعاه حسنها إلى محبتها فنهاه عقله وذكره ما في ذلك من التلف والعطب، وأراه مصارع العشاق عن يمينه وعن شماله ومن بين يديه ومن خلفه، فعاد يعاودُ النظر مرة مرة، ويحث نفسه على التعلق وقوة الإرادة، ويحرّضها على أسباب المحبة، ويدني الوقود من النار، حتى إذا اشتعلت وشبّ ضرامها ورمت بشررها وقد أحاطت به وطلب الخلاص قال له القلبُ هيهات لاتَ حين مناصٍ وأنشده:

تولّع بالعشق حتى عشِقْ فلما استقلَّ به لم يُطقْ
رأى لجةً ظنها موجةً فلما تمكّن منها غَرِقْ

فكان التركُ أولاً مقدوراً له لمّا لم يوجد السببُ التام والإرادة الجازمة الموجبة للفعل، فلما تمكّن الداعي واستحكمت الإرادة قال المحبُّ لعاذله:

يا عاذلي والأمرُ في يده هلّا عذلتَ وفي يدي الأمر

فكان أولُ الأمر إرادةً واختياراً ومحبة، ووسطه اضطراراً، وآخره عقوبةً وبلاء.

ومثلُ هذا برجل ركب فرساً لا يملكه راكبُه ولا يتمكن من رده، وأجراه في طريق ينتهي به إلى موضع هلاك، فكان الأمرُ إليه قبل ركوبها. فلما توسطت به الميدانَ خرج الأمرُ عن يده، فلما وصلتْ به إلى الغاية حصل على الهلاك.

ويشبه هذا حالَ السكران الذي قد زال عقلُهُ إذ جنى عليه في حال سكره لم يكن معذوراً لتعاطيه السببَ اختياراً، فلم يكن معذوراً بما ترتبَ عليه اضطراراً. وهذا مأخذ من أوقع طلاقه من الأئمة، ولهذا قالوا: إذا زال عقله بسبب يُعذر فيه لم يقعْ طلاقه، فجعلوا وقوع الطلاق عليه من تمام عقوبته. والذين لم يوقعوا الطلاق قولهم أفقهُ، كما أفتى به عثمانُ بن عفان، ولم يُعلم له في الصحابة مخالفٌ، ورجعَ عليه الإمامُ أحمد، واستقر عليه قوله، فإن الطلاقَ ما كان عن وطر، والسكران لا وطر له في الطلاق.

وقد حكم النبي ﷺ بعدم وقوع الطلاق في حال الغلق[1] والسكرُ من الغلق، كما أن الاكراه والجنونَ من الغلق، بل قد نص الإمام أحمد وأبو عبيد وأبو داود على أن الغضب إغلاقٌ وفسرَ به الإمام أحمد الحديث في رواية أبي طالب، وهذا يدل على أن مذهبه أن طلاقَ الغضبان لا يقع، وهذا هو الصحيحُ الذي يُفتى به إذا كان الغضبُ شديداً قد أغلق عليه قصده، فإنه يصيرُ بمنزلة السكران والمكره، بل قد يكونان أحسن حالاً منه، فإن العبد في حال شدة غضبه يصدرُ منه ما لا يصدر من السكران من الأقوال والأفعال.

وقد أخبر الله سبحانه أنه لا يجيبُ دعاءه على نفسه وولده في هذه الحال، ولو أجابه لقضى إليه أجله، وقد عذر سبحانه من اشتد به الفرحُ بوجود راحلته في

---

(١) الغلق والإغلاق: الغضب، وقيل الإكراه، كأنه يغلق عليه الباس ويحبس حتى يطلق، ولفظ الحديث هو: (لا طلاق ولا عتاق في إغلاق)، وقد أخرجه أبو داود من حديث صفية بنت شيبة رضي الله عنها قالت: سمعت عائشة تقول: . . . وذكر الحديث وبعد ذكر الحديث قال أبو داود: الغلاق: الغضب. انظر سنن أبي داود برقم /٢١٩٣/ في الطلاق، باب في الطلاق على غلط، ورواه أيضاً الإمام أحمد في المسند (٢٧٦/٦) وابن ماجة برقم /٢٠٤٦/ في الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، ورواه الحاكم في المستدرك (١٩٨/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ولم يوافقه الذهبي لوجود محمد بن عبيد بن أبي صالح في سنده، وهو ضعيف. أقول ولكن يشهد له ما روي في معناه من أحاديث أخر صحيحه، ولهذا حسنة شيخنا الألباني في تخريج الارواء برقم /٢١٠٧/.

الأرض المهلكة بعدما يئس منها فقال: «اللهم أنتَ عبدي وأنا ربك»[1] ولم يجعله بذلك كافراً لأنه أخطأ بهذا القول من شدة الفرح. فكمالُ رحمته وإحسانه وجوده يقتضي أن لا يؤاخِذ من اشتد غضبهُ بدعائه على نفسه وأهله وولده ولا بطلاقه لزوجته.

وأما إذا زال عقلهُ بالغضب فلم يعقل ما يقولُ فإن الأمة متفقةٌ على أنه لا يقع طلاقهُ ولا عتقه، ولا يكفرُ بما يجري على لسانه من كلمة الكفر.

(١) جزء من حديث رواه البخاري (١٤٥/٧) في الدعوات، باب التوبة، ومسلم برقم /٢٧٤٧/ في التوبة، باب الحض على التوبة، وكلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وأول الحديث (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم. . .).

الباب التاسع عشر

في ذكر مناظرةِ جرتْ بين جبريٍ وسني جمعهما مجلسُ مذاكرة

قال الجبري: القولُ بالجبر لازم لصحة التوحيد، ولا يستقيم التوحيدُ إلا به، لأنّا إنْ لم نقلْ بالجبر أثبتنا فاعلاً للحوادث مع الله إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وهذا شرك ظاهر لا يخلص منه إلا القولُ بالجبر.

قال السني: بل القولُ بالجبر منافٍ للتوحيد، ومع منافاته للتوحيد فهو منافٍ للشرائع ودعوة الرسل والثواب والعقاب، فلو صح الجبرُ لبطلت الشرائعُ وبطل الأمرُ والنهي، ويلزم من بُطلان ذلك بطلانُ الثواب والعقاب.

قال الجبري: ليس من العجب دعواك منُافاة الجبر للأمر والنهي والثواب والعقاب، فإن هذا لم يزل يقال، وإنما العجبُ دعواك منافاته للتوحيد وهو من أقوى أدلة التوحيد، فكيف يكون المصور للشيء المقوي له منافياً له؟

قال السني: منافاته للتوحيد من أظهر الأمور، ولعلها أظهرُ من منافاته الأمرَ والنهي. وبيانُ ذلك: أن أصل عقد التوحيد وإثباته هو شهادةُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والجبر ينافي الكلمتين، فإن الإله هو المستحق لصفات الكمال، المنعوتُ بنعوت الجلال، وهو الذي تألهه القلوب، وتصمد إليه بالحب والخوف والرجاء.

فالتوحيد الذي جاءت به الرسلُ هو إفراد الرب بالتأله الذي هو كمالُ الذل والخضوع والانقياد له، مع كمال المحبة والإنابة وبذل الجهد في طاعته ومرضاته، وأيثار محابِّه ومرادِهِ الديني على محبَّة العبد ومراده، فهذا أصلُ دعوة الرسل وإليه

دعوا الأممَ، وهو التوحيدُ الـذي لا يقبلُ اللهُ من أحـد ديناً سـواه، لا من الأولين ولا من الآخـرين، وهو الـذي أمر بـه رسله، وأنزل بـه كتبه، ودعـا إليه عبـاده، ووضع الثواب والعقاب لأجله، وشرعَ الشرائع لتكميله وتحصيله.

وكان من قولك أيها الجبري أن العبدَ لا قدرة له على هذا البتة، ولا أثر له فيـه، ولا هو فعله، وأمرُه بهذا أمرٌ لـه بما لا يـطيق، بل أمـرٌ له بـإيجاد فعـل الرب، وإن الرب سبحانه أمره بذلك وأجبره على ضده، وحال بينه وبين ما أمره بـه، ومنعه منـه وصده عنه ولم يجعل له إليـه سبيلاً بـوجه من الـوجوه، مـع قولـك إنه لا يُحب ولا يحب فلا تتأله القلوب بالمحبة والود والشوق والطلب وإرادةِ وجهه، والتوحيـدُ معنى ينتظم من إثبات الإلهية وإثبات العبودية، فرفعت معنى الإلهية بـإنكار كـونهِ محبـوباً مـودوداً تتنافس القلوبُ في محبتـه وإرادة وجهه والشـوق إلى لقائـه، ورفعت حقيقة العبودية بإنكار كون العبد فاعلاً وعابداً ومحبّاً.

فإن هذا كله مجاز لا حقيقة لـه عندك، فضـاع التوحيـدُ بين الجبر وإنكـار محبته وإرادة وجهه ولا سيما والوصفُ الذي وصفته به منفرٌ للقلوب عنه، حائلٌ بينهـا وبين محبته، فإنك وصفته بأنه يأمر عبده بما لا قدرة على فعله، وينهاه غمـا لا يقدر على تركه، بل يأمره بفعله هو سبحانه وينهاه عن فعله هو سبحانه، ثم يعاقبه أشدّ العقوبة على ما لم يفعله البتة، بل يعاقبه على أفعاله هو سبحانه.

وصرحت بأن عقوبته على تـرك ما أمـره وفعل مـا نهاه بمنـزلة عقـوبته على تـرك طيـرانه إلى السمـاء، وتـرك تحـويله للجبـال عن أمـاكنهـا، ونقله ميـاه البحـار عن مواضعها، وبمنزلة عقوبته له على ما لا صُنع له فيه من لونه وطوله وقصره.

وصرّحت بأنه يجوز عليه أن يعذب أشد العذاب لمن لم يعصـه طرفـة عين، وأن حكمـته ورحمته لا تمنعُ ذلك، بل هو جائز عليه، ولولا خبره عن نفسه بأنه لا يفعل ذلك لم ننزهه عنه.

وقلتَ إن تكليفـه عباده بمـا كلفتهم به بمنـزلة تكليف الأعمى بـالكتـابـة والـزمن بالطيران، فبغضت الربَّ إلى من دعوته إلى هذا الاعتقاد، ونفرته عنـه وزعمت أنك تقرر بذلك توحيده وقد قلعت شجرة التوحيد من أصلها.

وأما منافاة الجبر للشرائع فأمر ظـاهر لا خفـاء به، فـإن مبنى الشرائـع على الأمر

والنهي، وأمرُ الآمر لغيره بفعل نفسه لا بفعل المأمور، ونهيه عن فعله لا فعل المنهي، عبثٌ ظاهر، فإن متعلق الأمر والنهي فعلُ العبد وطاعته ومعصيته، فمن لا فعل له كيف يُتصور أن يوقعه بطاعةٍ أو معصية، وإذا ارتفعت حقيقةُ الطاعة والمعصية ارتفعت حقيقةُ الثواب والعقاب، وكان ما يفعله الله بعباده يوم القيامة من النعيم والعذاب أحكاماً جاريةً عليهم بمحض المشيئة والقدرة لا أنها بأسباب طاعاتهم ومعاصيهم.

بل هنا أمر آخر وهو أن الجبر منافٍ للخلْق كما هو منافٍ للأمر، فإن الله سبحانه له الخلقُ والأمر، وما قامت السمواتُ إلا بعدله، فالخلقُ قام بعدله وبعدله ظهر، كما أن الأمر بعدله وبعدله وُجد، فالعدلُ سببُ وجود الخلق والأمر وغايتهُ، فهو علةُ الفاعلية والغائية، والجبرُ لا يجامعُ العدلَ ولا يجامع الشرعَ والتوحيد.

قال الجبري: لقد نطقت أيها السني بعظيم، وفهتَ بكبير، وناقضتَ بين متوافقين، وخالفت بين متلازمين، فإن أدلة العقول والشرع المنقول قائمة على الجبر، وما دلّ عليه العقلُ والنقلُ كيف ينافي موجب العقل والشرع؟ فاسمع الآن الدليلَ الباهر والبرهان القاهر على الجبر ثم نُتبعه بأمثال، فنقول: صدورُ الفعل عند حصول القدرة والداعي إما أن يكون واجباً أو لا يكون واجباً.

فإن كان واجباً كان فعل العبد اضطرارياً، وذلك عين الجبر؛ لأن حصول القدرة والداعي ليس بالعبد، وإلا لزم التسلسل، وهو ظاهر، وإذا كان كذلك فعند حصولهما يكون واجباً وعند عدم حصولهما يكون الفعل ممتنعاً فكان الجبرُ لازماً لا محالة.

وأما إنْ لم يكن حصولُ الفعل عند حصول القدرة والداعي واجباً، فإما أن يتوقف رجحانُ الفعل على رجحان الترك على مرجّحٍ أو لا يتوقفُ.

فإنّ توقف كان حصولُ ذلك الفعل عند حصول المرجح واجباً، وإلا عاد الكلامُ ولزم التسلسل، وإذا كان واجباً كان اضطرارياً وهو عينُ الجبر.

وإن لم يتوقف على مرجح كان جائزَ الوقوع وجائزَ العدم، فوقوعهُ بغير مرجح يستلزمُ حصولَ الأثر بلا مؤثر وذلك محال.

فإن قلت: المرجّح هو إرادةُ العبد، قلتُ لك: إرادةُ العبد حادثة، والكلامُ في

حدوثها كالكلام في حديث المراد بها، ويلزمُ التسلسل.

قال السني: هذا أحدُّ سهم في كنانتك، وهو بحمد الله سهم لا ريش له ولا نصل، مع عوجه وعدم استقامته، وأنا استفسرك عما في هذه الحجة من الألفاظ المجملة المستعملة على حق وباطل، وأبينُ فسادها. فما تعني بقولك إن كان الفعل عند القدرة والداعي واجباً كان فعل العبد اضطرارياً وهو عينُ الجبر؟

أتعني به أن يكون مع القدرة والداعي بمنزلة حركةِ المرتعش، وحركةِ من نفضته الحمى، وحركة من رُمي به من مكانٍ عالٍ فهو يتحرك في نزوله اضطراراً منه، أم تعني به أن الفعل عند اجتماع القدرة والداعي يكون لازم الوقوع بالقدرة؟

فإن أردت بكونه اضطرارياً المعنى الأول كذبتك العقول والفطر والحس والعيان، فإن الله فطر عباده على التفريق بين حركة من رُمي به من شاهق فهو يتحرك إلى أسفل وبين حركة من يرقى في الجبل إلى علوه، وبين حركة المرتعش وبين حركة المصفق، وبين حركة الزاني والسارق والمجاهد والمصلي، وحركة المكتوف الذي قد أُوثق رباطاً وجُر على الأرض، فمن سوّي بين الحركتين فقد خلع ربقة العقل والفطرة والشرعة من عنقه.

وإن أردت المعنى الثاني وهو كونُ الفعل لازم الوجود عند القدرة والداعي كان لازم الوجود، وهذا لا فائدة فيه. وكونه لازماً وواجباً بهذا المعنى لا ينافي كونه مختاراً مراداً له مقدوراً له غير مكره عليه ولا مجبور، فهذا الوجوبُ واللزوم لا ينفي الاختيار.

ثم نقول: لو صحّت هذه الحجة لزم أن يكون الرب سبحانه مضطراً على أفعاله مجبوراً عليها بمعنى ما ذكرت من مقدماتها، وأنه سبحانه لا يفعل بقدرته ومشيئته، وما ذكرت من وجوب الفعل عند القدرة والداعي وامتناعه عند عدمها ثابت في حقه سبحانه. وقد اعترف أصحابك بهذا الإلزام وأجابوا عنه بما لا يجدي شيئاً.

قال ابن الخطيب عقيب ذكر هذه الشبهة: فإن قلت هذا ينفي كونه فاعلاً مختاراً، قلتُ: الفرق أن إرادة العبد محدَثة فافتقرت إلى ارادة يُحدثها الله دفعاً للتسلسل، وإرادة الباري قديمة فلم تفتقر إلى إرادة أخرى.

وردَّ هذا الفرق صاحبُ التحصيل فقال: ولقائل أن يقول: هذا لا يدفعُ التقسيم

المذكورَ، قلتُ: فإن التقسيم متردد بين لزوم الفعل عند الداعي وامتناعه عند عدمه، وهذا التقسيمُ ثابت في حق الغائب والشاهد. وكونُ إرادة الرب سبحانه قديمةً من لوازم ذاته لا فاعل لها لا يمنع هذا الترديد والتقسيم، فإنها عند تعلقها بالمراد يلزمُ وقوعهُ وعند عدم تعلقها به يمتنعُ وقوعه، وهذا اللزومُ والامتناعُ لا يخرجه سبحانه عن كونه فاعلاً مختاراً.

ثم نقول: هذا المعنى لا يسمّى جبراً ولا اضطراراً، فإن حقيقة الجبر ما حصل بإكراه ضير الفاعل له إلى الفعل وحمله على إيقاعه بغير رضاه واختياره. والربُّ سبحانه هو الخالقُ للإرادة والمحبة والرضا في قلب العبد فلا يسمّى ذلك جبراً، لا لغة ولا عقلاً ولا شرعاً.

ومن العجب احتجاجُك بالقدرة والداعي على أن الفعل الواقعَ بهما اضطراريّ من العبد والفعل عندكم لم يقع بهما ولا هو فعل العبد بوجه وإنما هو عينُ فعل الله، وذلك لا يتوقف على قدرة من العبد ولا داعٍ منه، ولا هناك ترجيحٌ له عند وجودهما، ولا عدم ترجيح عند عدمهما، بل نسبةُ الفعل إلى القدرة والداعي كنسبته إلى عدمها، فالفعل عندك غير فعل الله فلا ترجيح هناك من العبد ولا مرجح ولا تأثير ولا أثر.

قال السُّني: وقد أجابك إخوانُك مِن القدَرية عن هذه الحجة بأجوبة أخرى، فقال أبو هاشم وأصحابه: لا يتوقف فعل القادر على الداعي بل يكفي في فعله مجردُ قدرته. قالوا: فقولك عند حصول الداعي إما أن يجب الفعلُ أو لا يجب عندنا أو لا يجب الفعل بالداعي ولا يتوقف عليه، ولا يمكنك أيها الجبري الردُّ على هؤلاء، فإن الداعي عندك لا تأثير له في الفعل البتة وهو متوقفٌ عليه ولا على القدرة، فإن القدرةَ الحادثة عندك لا تؤثر في مقدورها فكيف يؤثُر الداعي في الفعل؟ فهذه الحجة لا تتوجه على أصولك البتة، وغايتها إلزامُ خصومك بها على أصولهم.

وقال أبو الحسين البصري (١) وأصحابه: يتوقفُ الفعل على الداعي. ثم قال أبو

---

(١) (أبو الحسين البصري). هو محمد بن علي بن الصيب، أبو الحسين البصري، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف الكبيرة، توفي في بغداد سنة /٤٣٦/ انظر سير أعلام النبلاء (٥٨٧/١٧).

الحسين إذا تجـردَ الداعي وَجَب وقـوعُ الفعل، ولا يَخـرجُ بهذا الـوجوب عن كـونه اختيارياً.

وقال محمود الخوارزمي صاحبهُ: لا ينتهي بهذا الـداعي إلى حد الـوجوب، بـل يكون وجودُه أولى، قالوا: فنجيبُـك عن هذه الشبهـة على الرأيين جميعـاً، اما على رأي أبي هـاشم فنقول: صـدورُ إحدى الحـركتين عـه دون الأخـرى لا يحتـاج إلى مرجِّح، بـل مِن شأن القـادر أن يوقـع الفعل مِن غيـر مرجـح لجـانب وجـوده على عدمه. قالوا: ولا استبعادَ في العقل وفي وجـود مخلوق متمكن من الفعل بـدلاً عن التـرك، وبالضـد من غير مـرجح، كمـا أن النائم والسـاهيَ يتحركـان من غيـر داعٍ وإرادة.

فـإنْ قلتم: بل هنـاك داعٍ وإرادةٌ لا يذكـرها النـائمُ والناسي كـان ذلك مكـابرةً. قلت: وأصحاب هذا القول يقولون إن القادرَ هو الذي يفعل مع جـواز أن لا يفعل. وأصحابُ القول الأول يقولون: بل يفعل مع وجوب أن يفعل.

ومحمود الخوارزمي توسط بين المذهبين وقال: بل يفعـل مع أولـوية أن يفعـل، ولا ينتهي الترجيح إلى حد الوجوب.

فالأقوال خمسةٌ: أحدُها أن الفعل موقوف على الداعي، فإذا انضمت القدرةُ إليه وجبَ الفعل بمجموع الأمرين. وهذا قولُ جمهور العقلاء. ولم يصنع ابنَ الخـطيب شيئاً في نسبته له إلى الفلاسفة وأبي الحسين البصري من المعتزلة.

الثـاني: أن الفعل يجبُ بقـدرة الله وقدرةِ العبـد. هذا قـولُ مَن يقـول إن قـدرةَ العبد مؤثرة في مقدوره مع قدرة الله على عين مقدور العبد. وهذا قـولُ أبي إسحق واختيارُ الجويني في «النظامية».

الثالثُ: قولُ مَن يقول. يجبُ بقدرة الله فقط. وهذا قـول الأشعري والقـاضي أبي بكـر. ثم اختلفا فقـال القاضي: كـونهُ فعـلاً واقعٌ بقـدرة الله، وكونـه صلاةً أو حجاً أو زِناً أو سرقةً واقعٌ بقدرة العبد، فتأثيـرُ قدرة الله في ذات الفعـل وتأثيـرُ قدرة العبد في صفة الفعل. وقال الأشعري: أصلُ الفعل ووصفهُ واقعـان بقدرة الله، ولا تأثيرَ لقدرة العبد في هذا ولا هذا.

الرابعُ: قول من يقولُ: لا يجبُ الفعلُ مِن القادر البتة، بل القادرُ هو الذي يفعل

مع جواز أن لا يفعل، فلا ينتهي فعلُ القادر المختار إلى الوجوب أصلاً. وهـذا قولُ أبي هاشم وأصحابه.

الخامسُ: أن يكون عند الداعي أوْلى بالوقوع ولا ينتهي إلى حد الوجوب. وهذا قـولُ الخـوارزمي. وقـد سلم أبـو الحسين أن الفعـلَ يجبُ مـع الـداعي وسلم أن الـداعيَ مخلوق لله، وقال: إن العبـد مستقل بـإيجـاد فِعله. قـال: والعلمُ بـذلـك ضروري قال ابن الخطيب: وهذا غلوّ منه في القدَر، وقولُه إنـه يتوقفُ عـل الداعي والـداعي خلْقٌ لله غلو في الجبـر فجمـعَ بين القـدَر والجبـر مـع غُلوه فيهمـا. ولم ينصفه، فليس ما ذهبَ إليـه غلو في قدر ولا جَبـر، فإنّ تـوقّفَ الفعل على الـداعي ووجـوبه عنـده بقدرة العبـد ليس جبراً فضـلاً عن أن يكون غلواً فيـه، وكـونُ العبـد محـدِثاً لفعله ضـرورةً بما خلَقـه الله فيـه مِن القـدرة والاختيـار ليس قـولاً بمـذهب القدَرية فضلاً عن كونه غلواً فيه.

فصل: قال الجبـري: إذا كان الـداعي ليس مِن أفعالنـا وهو عِلْم القـادر أن في ذلك الفعل مصلحةً له، وذلك أمرٌ مركوز في طبيعته التي خُلق عليها، وذلك مفعول لله فيه، والفعلُ واجبٌ عنده ـ فلا معنى للجبر إلا هذا.

قال له السني: أخوك القدَري يجيبك عن هذا بأن ذلك الـداعي قد يكـون جهلاً وغلَطاً، وهـذه أمورٌ يُحـدثها الإنسـانُ في نفسه فيفعـلُ على حسب ما يتـوهم أن فيه مصلحتَه، صادَفها أو لم يصادفها، فالداعي لا ينحصرُ في العلم خاصة.

قال الجبري: لا يساوي هذا الجوابُ شيئاً، فـإن العطشـانَ مثلاً يـدعوه الـداعي إلى شُرب الماء لعلمـه بنقمه وشهـوته وميله إلى شـربه، وذلـك العلْم وتلك الشهوةُ والميلُ إلى الشرب مِن فعل الله، فيجب على القدري أن يترك مذهبه صاغراً داخراً ويعترفُ بأن ذلك الفعلَ مضافٌ إلى مَن خَلَق فيه الداعيَ المقتضِي.

قـال القدري: ذلـك الداعي وإن كـان مِن فِعل الله إلا أنـه جارٍ مَجـرى فِعل المكلَّف لأنه قادر على أن يبـطل أثرَه بـأن يستحضر صـارفاً عن الشـرب، مثل أن يُحجم عن الشراب تجربةً هل يقدُر على مخالفـة الداعي أم لا، فـإحجامـهُ لأجل التجـربة إثـرَ داعٍ ثانٍ هو الصارفُ يعارض الـداعي، فالحي قـادرٌ على تحصيله وقادرٌ على إبقـاء الداعي الأول بحاله، فإبقاؤه الداعيَ الأول بحاله وإعراضهُ عن إحضار المعارِض له

أمرٌ لولاه ما حصل الشرب، فمنْ هذا الوجهِ كان الشربُ فِعلاً له، لأنه قادرٌ على تحصيل الأسباب المختلفة التي تصدرُ عنها الآثارُ.

ويصيرُ هذا كمن شاهدَ إنساناً في نار متأججة وهو قادرٌ على إطفائها عنه مِن غير مشقة ولا مانع، فإنه إن لم يطفئها استحق الذمَّ، وإن كان الإحراق مِن أثر النار.

وقد أجاب ابن أبي الحديد بجواب آخر فقال: ويمكن أن يقال: إذا تجردَ الداعي كما ذكرتم في صورة العطشان فإن التكليفَ بالفعل والتركَ يسقط، لأنه يصير أسوأ حالاً مِن المُلْجأ. وهذا من أفسد الأجوبة على أصول جميع الفرق، فإن مقتضى التكليف قائم، فكيف يَسقط مع حضور الفعل والقدرة؟ وهذا قسمٌ رابع من الذين رُفع عنهم التكليف أثبته هذا القدريُّ زائداً على الثلاثة الذين رُفع عنهم القلم، وهذا خرْق منه لإجماع الأمة المعلوم بالضرورة، ولو سقَط التكليفُ عند تجرد الداعي لكان كلُّ من تجردَ داعية إلى فِعل ما أمر به قد سقَط عنه التكليفُ. وهذا القولُ أقبحُ مِن القول بتكليف ما لا يطاق. ولهذا كان القائلون به أكثرَ من هذا القائل، وقولُهم يُحكَى ويُناظرُ عليه.

قال الجبري: إذا كان الداعي من الله وهو سببُ الفعل والفعلُ واجب عنده كان خالقُ الفعل هو خالق الداعي، أي خالقُ السبب.

قال السني: هذا حق فإن الداعي مخلوق لله في العبد وهو سببُ الفعل، والفعلُ يضاف إلى الفاعل لأنه صدرَ منه ووقعَ بقدرته ومشيئته واختياره، وذلك لا يمنعُ إضافتَهُ بطريق العموم إلى مَن هو خالقُ كلِّ شيء وهو على كل شيء قدير.

وأيضاً فالداعي ليس هو المؤثرُ، بل هو شرط في تأثير القادر في مقدوره، وكونُ الشرط ليس مِن العبد لا يُخرجه عن كونه فاعلاً، وغايةُ قدرةِ العبد وإرادته الجازمة أن يكون شرطاً أو جزءَ سبب، والفعلُ موقوفٌ على شروط وأسباب لا صُنع للعبد فيها البتة، وأسهلُ الأفعال رفعُ العين لرؤية الشيء.

فَهَبْ أن فَتْحَ العيْنِ فعلُ العبد إلا أنه لا يستقل بالإدراك فإن تمام الإدراك موقوف على خَلْق الدَّرْك وكونه قابلاً للرؤية، وخَلْق آلة الإدراك وسلامتها، وصرفِ الموانع عنها، فما تتوقفُ عليه الرؤيةُ مِن الأسباب والشروط التي لا تدخل تحت مقدور العبد أضعافُ أضعافِ ما يَقدرُ عليه من تقليب حدّقته نحو المرئي. فكيف يقول عاقل إن جزءَ السبب أو الشرط موجبٌ مستقل لوجود الفعل؟!!

وهذا الموضعُ مما ضلّ فيه الفريقان حيث زعمت القدريةُ أنه موجِبٌ للفعل، وزعمت الجبريةُ أنه لا أثر له فيه فخالفت الطائفتان صريحَ المعقول والمنقول، وخرجتْ عن السمع والعقل.

والتحقيقُ أن قدرةَ العبد وإرادته ودواعيَه جزءٌ من أجزاء السبب التام الذي يجب به الفعلُ. فمن زَعَم أن العبد مستقل بالفعل مع أن أكثر أسبابه ليست إليه فقد خرج عن مُوجِب العقل والشرع.

فهَبْ أن دواعيَ حركة الضرب منك مستقلاً بها فهل سلامةُ الآلة منك؟ وهل وجودُ المحل المنفعل وقَبوله منك؟ وهل خَلْقُ الفضاء بينك وبين المضروب وخلوّه من المانع منك؟ وهل إمساكُ قدرته عن مضاربتك وغلبك منك؟ وهل القوةُ التي في اليد والرباطات والاتصالات التي بين عظامها وشدّ أسرْها منك؟ ومَنْ زَعَم أنه لا أثر للعبد بوجه ما في الفعل، وأن وجود قدرته وإرادته وعدَمهما بالنسبة إلى الفعل على السواء فقد كابر العقل والحس.

قال الجبري: إن انتهتْ سلسلةُ الترجيحات إلى مرجِّح مِن العبد فذلك المرجِّح ممكن لا محالة، فإنْ ترجَّح بلا مرجِّح انسد عليكم باب إثبات الصانع إذا جوزتم رجحانَ أحدِ طرفي الممكن، وإن توقف على مرجِّح آخرَ لزمَ التسلسلُ فلا بد من انتهائه إلى مرجح من الله لا صُنع للعبد فيه.

قال السني: أما إخوانُك القدريةُ فإنهم يقولون: القادرُ المختارُ يحدِث إرادتَه وداعيته بلا مرجِّح مِن غيره. قالوا: والفطرةُ شاهدةٌ بذلك، فإنا لا نفعلُ ما لم نُردْ، ولا نريدُ ما لم نعلم أن في الفعل منفعة لنا أو دفعَ مضرة، ولا نجد لهذه الإرادة إرادةً أحدَثْتها، ولا لعلمنا بأنّ ذلك نافعٌ علماً آخرَ أحْدثه. فالمرجحُ هو ما خُلق عليه العبد وفُطر عليه من صفاته القائمة به.

فالله سبحانه أنشأ العبدَ نشأة يتحرك فيها بالطبع، فحركته بالإرادة والمشيئة مِن لوازم نشئه وكونه حيواناً، فإرادتهُ وميله مِن لوازم كونه حيّاً، فأفعال العبد الخاصة به هي الدواعي والإرادات لا غير، وما يقع بها مِن الأفعال شبيه بالفعل المتولد من حيث كان المتولدُ سبباً، وهذه الأفعالُ صادرة عن الدواعي التى عرفها العبدُ ابتداءً من غير واسطة، فاشتراكُهما في أن كل واحد منهما مستندٌ إلى فِعل خاص بالعبد، فهما متماثلان من هذه الجهة.

قال السني: وهذا جوابٌ باطل بأبطلَ منه، ورد فاسد بأفسدَ منه. ومعاذَ الله - والله أكبرُ وأجلّ وأعظم وأعز - أن يكون في عبده شيء غيرُ مخلوق له ولا هو داخلٌ تحت قدرته ومشيئته. فما قَدَرَ الله حق قدْره مَنْ زَعَم ذلك، ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حقَّ تعظيمه، بل العبدُ جسمهُ وروحُه وصفاته وأفعاله ودواعيَه وكل ذرة فيه مخلوقٌ لله خلقاً تصرف به في عبده.

وقد بينا أن قدرته وإرادته ودواعيه جزء من أجزاء سبب الفعل غيرُ مستقل بإيجاده، ومع ذلك فهذا الجزءُ مخلوق لله فيه، فهو عبدٌ مخلوق مِن كل وجه وبكل اعتبار، وفقرُه إلى خالقه وبارئه مِن لوازم ذاته، وقلبهُ بيد خالقه وبين أصبعين من أصابعه يقلّبه كيف يشاء، فيجعلهُ مُريداً لما شاء وقوعَه منه، كارهاً لما لم يشأ وقوعه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ونعم والله سلسلة المرجحات تنتهي إلى أمر الله الكوني ومشيئته النافذة التي لا سبيلَ لمخلوق إلى الخروج عنها، ولكنّ الجبر لفظ مجملٌ يراد به حق وباطل كما تقدم.

فإن أردتم به أن العبدَ مضطر في أفعاله، وحركتَه في الصعود في السلم كحركته في وقوعه منه فهذا مكابرة للعقول والفِطر.

وإن أردتم به أنه لا حول له ولا قوة إلا بربه وفاطره فنَعم لا حول ولا قوة إلا بالله وهي كلمة عامة لا تخصيص فيها بوجه ما، فالقوةُ والقدرة والحولُ بالله، فلا قدرة له ولا فعل إلا بالله، فلا ننكرُ هذا ولا نجحدهُ لتسمية القَدري له جبراً، فليس الشأنُ في الأسماء: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾(١)، فلا نترك لهذا الأسماء مقتضَى العقل والإيمان.

والمحذورُ كلَّ المحذور أن نقول إن الله يعذب عبدَه على ما لا صنع له فيه، ولا قدرة له عليه، ولا تأثير له في فعله بوجه ما، بل يعذبه على فعله هو سبحانه، وعلى حركته إذا سقط من علو إلى سفل.

نعمْ لا يمتنعُ أن يعذبه على ذلك إذا كان قد تعاطى أسبابه بإرادته ومحبته كما

---

(١) الآية /٢٣/ من سورة النجم.

يعاقب السكرانَ على ما جناه في حال سكره لتفريطه وعدوانه بارتكاب السبب، وكما يعاقب العاشقَ الذي غُلب على صبره وعقله وخرج الأمر عن يده لتفريطه السابق بتعاطي أسباب العشق، وكما يعاقب الذي آل به إعراضُهُ وبغضهُ للحق إلى أن صار طبعاً وقُفلاً ورَيْناً على قلبه فخرج الأمر عن يده وحيلَ بينه وبين الهدى، فيعاقبُه على ما لم يبقَ له قدرةٌ عليه ولا إرادةٌ، بل هو ممنوع منه، وعقوبتهُ عليه عدل محض لا ظلم فيه بوجه ما.

فإن قيل: فهل يصيرُ في هذا الحال مكلَّفاً وقد حيلَ بينه وبين ما أُمر به وصُدَّ عنه ومُنع منه أم يزول التكليف؟

قيل: ستقف على الجواب الشافي إن إن شاء الله عن هذا السؤال في باب القول في تكليف ما لا يطاق قريباً، فإنه سؤال جيد: إذ المقصودُ ههنا الكلامُ في الجبر وما لفظه من الإجمال وما في معناه من الهدى والضلال.

فصل: قال الجبري: إذا صدرَ من العبد حركةٌ معيّنة فإما أن تكون مقدورةً للرب وحده، أو العبد وحده، أو للرب والعبد، أو لا للرب ولا للعبد، وهذا القسم الأخير باطلٌ قطعاً. والأقسامُ الثلاثة قد قال بكل واحد منها طائفة.

فإن كانت مقدورةً للرب وحده فهو الذي يقوله، وذلك عينُ الجبر.

وإن كانت مقدورةً للعبد وحده فذلك إخراجٌ لبعض الأشياء عن قدرة الرب تعالى، فلا يكون على كل شيء قديراً، ويكون العبدُ المخلوق الضعيف قادراً على ما لم يقدرْ عليه خالقهُ وفاطرُه. وهذا هو الذي فارقتْ به القدريةُ التوحيدَ وضاهت به المجوسَ.

وإن كانت مقدورةً للرب والعبدِ لزمت الشركةُ ووقوعُ مفعولٍ بين فاعلين ومقدور بين قادرين، وأثر بين مؤثرين، وذلك محال لأن المؤثرين إذا اجتمعا استقلالاً على أثر واحد فهو غني عن كل منهما بكل منهما، فيكون محتاجاً إليهما مستغنياً عنهما.

قال السني: قد افترق الناسُ في هذا المقام فرقاً شتى:

ففرقةٌ قالت: إنما تقعُ الحركة بقدرة الله وحده لا بقدرة العبد، وتأثير قدرة العبد في كونها طاعة أو معصية، فقدرةُ الرب وحده اقتضت وجودَها وقدرة العبد اقتضت صفتها. وهذا قولُ القاضي أبي بكر ومَن اتبعه. ولَعمرُ الله إنه لغير شافٍ ولا كافٍ،

فإن صفة الحركة إن كان أثراً وجودياً فقد أثرت قدرتهُ في أمر موجود فلا يمتنعُ تأثيرها في نفس الحركة، وإن كان صفتها أمراً عدَمياً كان متعلّق قدرته عدماً لا وجوداً، وذلك ممتنع، إذْ أثرُ القدرة لا يكون عدماً صرفاً.

وفرقةٌ أخرى قالت: بل الفعلُ وصفتهُ واقعٌ بمحض قدرة الله وحده، ولا تأثيرَ لقدرة العبد في هذا ولا هذا، وهذا قولُ الأشعري ومَن اتبعه.

وفرقةٌ قالت: بل المؤثرُ قدرةُ العبدِ وحده دون قدرة الرب.

ثم انقسمت هذه الفرقةُ إلى فرقتين.

فرقة قالت: إن قدرةَ العبد هي المؤثرة مع كون الرب قادراً على الحركة، وقالت: إن مقدوراتِ العباد مقدورة لله تعالى، وهذا قولُ أبي الحسين البصري، وأتباعه الحسينية.

وفرقة قالت: إن قدرة العبد هي المؤثرةُ، والله سبحانه غيرُ قادر على مقدور، وهذا قولُ المشايخية أتباع أبي علي وأبي هاشم.

وليس عند ابن الخطيب وجمهور المتكلمين غيرُ هذه الأقوال التي لا تَشفي عليلاً ولا تُروي غليلاً، وليس عند أربابها إلا مناقضةُ بعضهم بعضاً.

وقد أجاب بعضُ أصحاب أبي الحسين عن هذا السؤال أنه وإن كان يقول بمقدورٍ بين قادرين فله أن يقول في هذا المقام إن كان الدليلُ الذي ذكرته دليلاً صحيحاً على استحالة اجتماعهما على فعل واحد فإنما يدل على استحالته على فعلهما على سبيل الجمع ولا يستحيلُ على سبيل البدل، كما يستحيلُ حصولُ جوهرين في مكان واحد، ولا يستحيلُ حصولهما فيه على البدل.

وهذا جوابٌ باطل قطعاً، فإن مضمونه أن أحدهما لا يقدرُ عليه إلا إذا تركت الآخر. فحالُ تلبس العبد بالفعل بقدرته وإرادته إن كان مقدوراً لله فهو القولُ بمقدور بين قادرين، وإن لم يكن مقدوراً له لزمَ إخراجُ بعض الممكنات عن قدرته.

فإن قلت: هو قادرٌ عليه بشرطِ أن لا يقدر عليه العبد، قبل ذلك: فهذا تصريحٌ منك بأنه في حال قدرة العبد عليه لا يقدرُ عليه الرب، فلا ينفعك القولُ بأنه قادرٌ عليه على البدل.

وأيضاً فإن قدَر عليه بشرطِ أن لا يقدرَ عليه العبدُ فإذا قدَر العبدُ عليه انتفتْ قدرةُ الرب لانتفاء شرطها، وهذا مما صاح به عليكم أهل التوحيد مِن أقطار الأرض ورمَوْكم به عن قوس واحدة، وإنما صانعتم به أهلَ السنة مصانعة، وإلا فحقيقةُ هذا القول أن العبدَ يقدرُ على ما لا يقدرُ عليه الرب، وحكايةُ هذا الرأي الباطلِ كافيةٌ في فساده.

فإن قلت: كما لا يمتنعُ معلومٌ واحد بين عالمين، ومراد واحد بين مُريدين، قيل: هذا مِن أفسد القياس، لأن المعلومَ لا يتأثرُ بالعالم، والمرادَ لا يتأثر بالمريد، فيصحُ الاشتراك في المعلوم والمرادِ كما يصح الاشتراكُ في المرئي والمسموع، وأما المقدورُ فيجوزُ اشتراكُ القادرين فيه بالقدرة المصحَحة وهي صحة وقوعه مِن كل واحد منهما، وصحةُ التأثير من أحدهما لا تنافي صحتَه من الآخر. أما اشتراكُهما فيه بالقدرة الموجبة المقارنة لمقدورها فهو عينُ المحال، إلا أن يراد الاشتراكُ على البدل فيكون تأثيرُ أحدهما فيه شرطاً في تأثير الآخر.

ولما تفطن أبو الحسين لهذا قال: لستُ أقولُ إن إضافته إلى أحدهما هي اضافته إلى الآخر، كما أن الشيءَ الواحد يكون معلوماً لعالمين ويمتنعُ أن يكون علمُ أحدهما به هو علمٌ بالآخر، فهكذا أقول في المقدور بين قادرين، ليست قدرة أحدهما عليه هي قدرة الآخر، والمفعول بين فاعلين ليس فعلُ أحدهما فيه هو فعل الآخر، وإنما معنى قولي هذا أنه فِعل لهذا وتأثير له أنه لِقدرته وداعيته وُجد، وليس معنى كونه وُجد لقدرة هذا وداعيته هو معنى كَوْنه وُجد لقدرة الآخر وداعيته. قال: وليس يمتنعُ في العقل إضافةُ شيء واحد إلى شيئين لكنه يمتنعُ أن يكون إضافتُه إلى أحدهما هي عين إضافته إلى الآخر. وهذا لا يجدي عنه شيئاً. فإن التقسيمَ المذكورَ دائر فيه.

ونحن نقول: قد دل الدليلُ على شمول قدرة الرب سبحانه لكل ممكن من الذوات والصفات والأفعال، وأنه لا يخرج شيء عن مقدوره البتّة.

ودلّ الدليلُ أيضاً على أن العبدَ فاعل لفعله بقدرته وإرادته، وأنه فعل له حقيقةً يُمدحُ ويُذم به عقلاً وعُرفاً وشرعاً، وفطرةً فَطرَ اللهُ عليها العبادَ حتى الحيوانَ البهيمَ.

ودل الدليلُ على استحالة مفعول واحد بالعين بين فاعلين مستقلين، وأثرٍ واحدٍ بين مؤثرين فيه على سبيل الاستقلال.

ودل الدليلُ أيضاً على استحالة وقوع حادث لا محدث له، ورُجحان راجح لا مرجِّح له.

وهذه أمور كتبها الله سبحانه في العقول، وحُجج العقل لا تتناقضُ ولا تتعارضُ ولا يجوز أن يُضرب بعضها ببعض، بل يقال بها كلها ويُذهب إلى موجبها فإنها يَصدُق بعضها بعضاً. وإنما يعارِضُ بينهما مَن ضعفتْ بصيرتُه وإن كثر كلامُه وكثرتْ شكوكُه، والعلمُ أمر آخرُ وراء الشكوك والإشكالات، ولهذا تناقضَ الخصوم.

وهذا رأسُ مال المتكلمين. والقولُ الحق لم ينحصر في هذه الأقوال التي حكوها في المسألة. والصوابُ أن يقال: تقعُ الحركةُ بقدرة العبد وإرادته التي جعلها الله فيه، فالله سبحانه إذا أراد فعل العبد خلق له القدرة والداعيَ إلى فعله، فيضاف الفعلُ إلى قدرة العبد إضافة السبب إلى مسببه، ويضافُ إلى قدرة الرب إضافة المخلوق إلى الخالق، فلا يمتنعُ وقوعُ مقدور بين قادرين، قدرةُ أحدِهما أثر لقدرة الآخر وهي جزءُ سبب، وقدرةُ القادر الآخر مستقلة بالتأثير.

والتعبيرُ عن هذا المعنى بمقدور بين قادرين تعبير فاسد وتلبيس، فإنه يوهمُ أنهما متكافئان في القدرة، كما تقولُ: هذا الثوبُ بين هذين الرجلين، وهذه الدارُ بين هذين الشريكين، وإنما المقدورُ واقع بالقدرة الحادثة وقوعَ المسبب بسببه، والسببُ أو المسبب والفاعل والآلةُ كله أثرُ القدرة القديمة.

ولا نعطلُ قدرة الرب سبحانه عن شمولها وكمالها وتناولها لكل ممكن، ولا نعطل قدرة الرب التي هي سبب عما جعلها الله سبباً له ومؤثرة فيه، وليس في الوجود شيء مستقل بالتأثير سوى مشيئة الرب سبحانه وقدرته، وكلّ ما سواه مخلوق له وهو أثرُ قدرته ومشيئته.

ومن أنكرَ ذلك لزمه إثبات خالق سوى الله، أو القولُ بوجود مخلوق لا خالق له، فإن فعل العبد إن لم يكن مخلوقاً لله كان مخلوقاً للعبد، إما استقلالاً وإما على سبيل الشركة، وإما أن يقعَ بغير خالق، ولا مخْلص عن هذه الأقسام لمنكرِ دخول الأفعال تحت قدرة الرب ومشيئته وخلقه.

وإذا عرف هذا فنقول: الفعلُ وقعَ بقدرة الرب خلْقاً وتكويناً كما وقعتْ سائرُ المخلوقاتِ بقدرته وتكوينه، وبقدرة العبد سبباً ومباشرة والله خلقَ الفعل، والعبد فعله وباشره، والقدرة الحادثة وأثرها واقعان بقدرة الرب ومشيئته.

فصل: قال الجبري: لو كان العبدُ فاعلاً لأفعاله لكان عالماً بتفاصيلها، لأنه يمكن أن يكون الفعلُ أزيدَ مما فعله أو أنقصَ، فوقوعه على ذلك الوجه مشروط بالعلم بتفصيله، ومعلوم أن النائم والغافل قد يفعلُ ولا يشعر بكيفية ولا قدرةٍ، وأيضاً فالمتحرك يقطعُ المسافة ولا شعور له بتفاصيل الحركة ولا أجزاء المسافة، ومحرك إصبعه محرك لأجزائها ولا يشعر بعدد أجزائها ولا بعدد أحيازها، والمتنفسُ يتنفس باختياره ولا يشعر في الغالب بنفسه فضلاً عن أن يشعر بكميته وكيفيته ومبدئه ونهايته، والغافلُ قد يتكلم بالكلمة ويفعل الفعل باختياره ثم بعد فراغه منه يعلم أنه لم يكن قاصداً له.

فنحن نعلم علماً ضرورياً من أنفسنا عدم علمنا بوجود أكثر حركاتنا وسكناتنا في حالة المشي والقيام والقعود، ولو أردنا فصل كل جزء من أجزاء حركاتنا في حالة إسراعنا بالمشي والحركة والإحاطة به لم يمكنا ذلك، بل ونعلم ذلك من حال أكمل العقلاء، فما الظنّ بالحيوانات العجم في مشيها وطيرانها وسباحتها حتى الذر والبعوض، وهذا مُشاهد في السكران ومن اشتد به الغضب، ولهذا قال تعالى:
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[1].

فدل على أن السكران يصدرُ منه أقوالٌ لا يعلم بها فكيف يكون هو المحدث لتلك الأقوال وهو لا يشعر بها، والإرادةُ فرعُ الشعور، ولهذا أفتى الصحابةُ بأنه لا يقعُ طلاقُ السكران، نزلوا حركة لسانه منزلة تحريك غيره له بغير إرادته، ولهذا قال النبي ﷺ «لا طلاق في الإغلاق»[2].

لأن الإغلاقَ يمنعُ العلم والإرادة، فكيف يكون التطليقُ فعله وهو غير عالم به ولا مريد له.

---

(١) الآية /٤٣/ من سورة النساء.
(٢) حديث حسن، وقد سبق تخريجه في ص ٢٤٤.

وأيضاً فقد قال جمهورُ الفقهاء إن الناسي غيرُ مكلف، لأنه فعله لا يدخل تحت الاختيار، ففعله غير مضاف إليه مع أنه وقع باختياره. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه في قوله: «من أكلَ أو شرب ناسياً فليتمّ صومه فإنما أطعمه الله وسقاه»[1].

فأضاف فعله إلى الله لا إليه، فلم يكن له فعل في الأكل والشرب فلم يفطر به.

قال السني: هذا موضع تفصيل لا يليقُ به الإجمال، فنقول: ما يصدرُ من العبد من الأفعال ينقسم أقساماً متعددة بحسب قدرته وعلمه وداعيته وإرادته.

فتارة يكون ملْجأ إلى الفعل لا إرادة له فيه بوجه ما، كمنْ أمسكت يدهُ وضُرب بها غيرهُ، أو أمسكت إصبعه وقلع بها عينُ غيره، فهذا فعله بمنزلة حركات الأشجار بالريح، ولهذا لا يترتب عليه حكم البتة ولا يمدح عليه ولا يذم ولا يثاب ولا يعاقب، وهذا لا يُسمى فاعلاً عقلاً ولا شرعاً ولا عُرفاً.

وتارةً يكون مكرهاً على أن يفعل، فهذا فعله يضاف إليه وليس كالملجأ الذي لا فعل له. واختلف الناسُ هل يقال إنه فعل باختياره وإنه يختارُ ما فعله، أو لا يطلق عليه ذلك، على قولين. والتحقيق أن النزاع لفظي. فإنه فعل بإرادة هو محمول عليها مُكره عليها. فهو مكره مختار، مكره على أن يفعل بإرادته مُريد ليفعل ما أكره عليه. فإن أريدَ بالمختار من يفعل بإرادته وإن كان كارهاً للفعل فالمكره مختار، وأيضاً فهو مختار ليفعل ما أكره لتخلصه به مما هو أكره إليه من الفعل، فلما عرض له مكروهان أحدهما أكره إليه من الآخر اختارَ أيسرهما دفعاً لأشقهما، ولهذا يقتل قِصاصاً إذا قتل عند الجمهور، والملجأ لا يقتل باتفاق الناس.

ومما يوضح هذا أن المكره على التكلم لا يتأتى منه التكلُم إلا باختياره وإرادته، ولهذا أوقع طلاقه وعتاقه بعضُ العلماء، والجمهور قالوا لا يقعُ، لأن الله جعل كلام المكره على كلمة الكفر لغواً لا يترتب عليه أثرهُ، لأنه وإن قصد التكلم باللفظ دفعاً عن نفسه فلم يقصد معناه وموجبه، حتى قال بعضُ الفقهاء لو قصد الطلاق

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٢٣٤) في الصوم، باب الصائم إذا أكل أو شرب ناسياً، ومسلم برقم /١١٥٥/ في الصيام، باب أكل التاسي وشربه وجماعه لا يفطر، وأبو داود برقم /٢٣٩٨/ في الصوم، باب من أكل ناسياً، والترمذي برقم /٧٢١/ في الصوم، باب في الصائم يأكل ويشرب ناسياً.

بقلبه مع الإكراه لم يقعْ طلاقه لأن قوله هذْر ولغو عند الشارع، فوجوده كعدمه في حكمه، فبقي مجردُ القصد وهو غير موجب للطلاق، وهذا ضعيف فإن الشارع إنما ألغى قول المكره إذا تجرد عن القصد وكان قلبُه مطمئناً بضده، فأما إذا قارن اللفظ القصدُ واطمأن القلب بموجبه فإنه لا يُعذر.

فإن قيل: فما تقولون فيمن ظنّ أن الإكراه لا يمنعُ وقوع الطلاق فقصده جاهلاً بأن الإكراه مانع من وقوعه، قيل: هذا لا يقعُ طلاقه لأنه لمّا ظنّ أن الإكراه على الطلاق يوجب وقوعه إذا تكلم به كان حكم قصده حكم لفظه، فإنه إنما قصده دفعاً عن نفسه لما علم أنه لا يتخلص إلا به. ولم يظن أن الكلمة بدون القصد لغو، أو دهش عن ذلك ولا وطرَ له في الطلاق، فهذا لا يقع بخلاف الأول، فإنه لما أكره على الطلاق نشأ له قصد طلاقها إذ لا غرض له أن يقيمَ مع امرأة أكره على طلاقها وإن كان لو لم يُكره لم يبتدىء طلاقها. والمقصود أن المكره مريد لفعله غيرُ ملجأ إليه.

فصل: وأما أفعال النائم فلا ريب في وقوع الفعل القليل منه والكلام المفيد. واختلف الناسُ هل تلك الأفعال مقدورة له أو مكتسبة أو ضرورية بعد اتفاقهم على أنها غيرُ داخلة تحت التكليف.

فقالت المعتزلة، وبعضُ الأشعرية: هي مقدورة له، والنومُ لا يضاد القدرة وإن كان يضادّ العلم وغيره مِن الإدراكات.

وذهب أبو إسحاق وغيرهُ إلى أن ذلك الفعل غير مقدور له، وأن النوم يضاد القدرة كما يضاد العلم.

وذهب القاضي أبو بكر وكثيرٌ من الأشعرية إلى أن فعل النائم لا يقطع بكونه مكتسباً ولا بكونه ضرورياً، وكلّ من الأمرين ممكن، قال أصحاب القدرة: كان النائم قادراً في يقظته وقدرته باقية والنوم لا ينافيها، فوجب استصحاب حكمها.

قالوا: وأيضاً فالنائم إذا انتبه فهو على ما كان عليه في نومه، ولا يتجدد أمر وراء زوال النوم وهو قادرٌ بعد الانتباه وزوال النوم غيرُ موجب للاقتدار ولا وجودهُ نافياً للقدرة.

قالوا: وأيضاً قد يوجد من النائم ما لو وُجد منه في حال اليقظة لكان واقعاً على

حسب الداعي والاختيار، والنومُ وإن نافى القصد فلا ينافي القدرة.

قال النافون للقدرة: قولكم النومُ لا ينافي القدرةَ دعوى كاذبةٌ، فإن النائم منفعل محضٌ متأثر صرفٌ، ولهذا لا يمتنعُ ممن يؤثر فيه. وقولكم لم يتجدد له أمرٌ غير زوال النوم فالتجدد زوالُ المانع من القدرة فعاد إلى ما كان عليه، كمن أوثق غيره رباطاً ومنعه من الحركة فإذا حل رباطه تجدد زوالُ المانع. قالوا: نجدُ تفرقة ضرورية بين حركة النائم وحركة المرتعش والمفلوج، وما ذاك إلا أن حركته مقدورة له، وحركة المرتعش غيرُ مقدورة له. والتحقيقُ أن حركة النائم ضرورية له غيرُ مكتسبة، وكما فرقنا في حق المستيقظ بين حركة ارتعاشه وحركة تصفيقه كذلك نجدُ تفرقةً ضرورية بين حركة النائم وحركة المستيقظ.

فصل: وأما زائلُ العقل بجنون أو سكر فليست أفعاله اضطراريةً كأفعال الملجأ، ولا اختياريةً بمنزلة أفعال العامل العالم بما يفعله، بل هي قسم آخرٌ من الاضطرارية، وهي جارية مجرى أفعال الحيوان وفعل الصبي الذي لا تمييز له.

بل لكل واحد من هؤلاء داعية إلى الفعل يتصورها، وله إرادة يقصدُ بها وقدرة يُنفذ بها وإن كان داعيه نوعاً آخر غير داعي العاقل العالم بما يفعله، فلا بد أن يتصور ما في الفعل من الغرض ثم يريده ويفعله، وهذا أفعالٌ طبيعية واقعة بالداعي والإرادة والقدرة، والدواعي والإرادات تختلفُ ولهذا لا يكلَّف أحد هؤلاء بالفعل، فأفعاله لا تدخلُ تحت التكليف، وليستْ كأفعال الملجأ ولا المكره، وهي مضافة إليهم مباشرةً، أو إلى خالق ذواتهم وصفاتهم خلقاً، فهي مفعولة وأفعاله لهم.

والساهي الذي يفعل الفعل مع غفلته وذهوله فهو إنما يفعله بقدرته إذْ لو كان عاجزاً لما تأتّى منه الفعلُ، وله إرادة لكنه غافل عنها، فالإرادة شيء والشعورُ بها شيء آخر، فالعبدُ قد يكون له إرادة وهو ذاهل عن شعوره بها لاشتغال محل التصور منه بأمر آخرَ منعه من الشعور بالإرادة فعملتْ عملها وهي غيرُ مشعورٍ بها، وإن كان لا بد من الشعور عند كل جزء من أجزائه، وبالله التوفيق.

وبالجملة فالفعلُ الاختياري يستلزمُ الشعورَ بالفعل في الجملة، وأما الشعورُ به على التفصيل فلا يستلزمه.

فصل: قال الجبري: ضلالُ الكافر وجهله عند القدري مخلوقٌ له موجودٌ بإيجاده اختياراً، وهذا ممتنعٌ، فإنه لو كان كذلك لكان قاصداً له إذ القصدُ مِن لوازم

الفعلَ اختياراً، واللازمُ ممتنعٌ فإن عاقلاً لا يريدُ لنفسه الضلالَ والجهلَ فلا يكون فاعلاً له اختياراً.

قال السني: عجباً لك أيها الجبريُّ تنزهُ العبدَ أن يكون فاعلاً للكفر والجهل والظلم ثم تجعلُ ذلك كلَّه فعل الله سبحانه.

ومن العجب قولك إن العاقل لا يقصدُ لنفسه الكفرَ والجهل وأنت ترى كثيراً من الناس يقصد لنفسه ذلك عناداً وبغياً وحسداً مع علمه بأن الرشدَ والحق في خلافه، فيطيعُ دواعيَ هواه وغيه وجهله ويخالف داعي رُشده وهداه، ويسلك طريق الضلال ويتنكب عن طريق الهدى وهو يراهما جميعاً، قال أصدقُ القائلين: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾(1)،

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾(2).

وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾(3).

وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾(4).

﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾(5).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ﴾(6)

وقال: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ﴾(7).

---

(1) سورة الأعراف، الآية /١٤٥/.
(2) سورة فصلت، الآية /١٧/.
(3) سورة النمل، الآية /١٣/.
(4) سورة النمل، الآية /٢٤/.
(5) سورة العنكبوت، الآية/ ٣٨/.
(6) سورة البقرة، الآية /١٠٢/.
(7) سورة البقرة، الآية /٩٠/.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقال: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ﴾[2].

وهذا في القرآن كثير يبينُ سبحانه فيه اختيارهم الضلال والكفر عمداً على علم. هذا وكم من قاصدٍ أمراً يظن أنه رشدٌ وهو ضلال وغيّ.

فصل: قال الجبري: لو جاز تأثيرُ قدرة العبد في القول بالإيجاد لجاز تأثيرها في إيجاد كل موجود، لأن الوجود قضيةٌ واحدة مشتركة بين الموجودات الممكنة وإن اختلفتْ محاله وجهاتُه. ويلزمُ من صحة تأثير القدرة في بعضه صحةُ تأثيرها في جميعه لاتحاد المتعلَّق، وإنْ ما ثبت لأحد المثلين ثبت للآخر.

وأيضاً فالمصحح للتأثير هو الإمكان، ويلزمُ من الاشتراك في المصحح للتأثير الاشتراكُ في الصحة.

ومعلومٌ قطعاً أن قدرة العبد لا تتعلق بإيجاد الأجسام وأكثر الأعراض، إنما تتعلقُ ببعض الأعراض القائمة بمحلّ قدرته.

قال السني: لقد كشفَ اللهُ عُوار مذهبٍ يكون إثباتُه مستنداً إلى مثل هذه الخرافات التي حاصلُها أنه يلزمُ من صحة قدرة العبد على قلع حصاةٍ من الأرض صحةُ قدرته على قلع الجبل، ومن إمكان حمْله لرطلٍ إمكانُ حمله لمائة ألفِ رطل، ومن إيجاده للفعل القائم به من الأكل والشرب والصلاة وغيرها صحةُ إيجادِه لخلق السموات والأرض وما بينهما. وهل سُمع في الهذيان بأسمجَ[3] من هذا وأغثَّ[4] منه؟

(١) سورة آل عمران، الآية /٧٠/.

(٢) سورة آل عمران، الآية /٩٩/.

(٣) (أسمج) السَّمْجُ: الخبيث الطعم أو الرائحة.

(٤) (أغث) الغيث: الهزيل، والرديء الفاسد، وما لا خير فيه.

واشتراك الموجودات في مسمّى الوجود الكلي العام لا يلزمُ منه أنَّ ما جاز على موجودٍ ما جاز على كل موجود. وهذا أسمجُ مِن الأول وأبينُ فساداً. ولا يلزمُ من ذلك تماثلُ البعوضة والفيل، وتماثلُ الأجسام والأعراض.

ومن يجعلُ من الجبرية للقدرة الحادثة تعلقاً ما بفعلِ العبدِ يعترفُ بالفرق، ويقولُ قدرتُه تتعلقُ ببعض الأعراض ولا تتعلقُ بالأجسام ولا بكل الأعراض. فإن احتجَّ على إبطال التأثير بهذه الشبهة الغثة أُلزم بها بعينها في عموم تعلق قدرته بكل موجود.

فصل: قال الجبري: دليلُ التوحيد ينفي كون العبد فاعلاً، وأن يكون لقدرته تأثيرٌ في فعله وتقريره بدليل التمانع.

قال السني: دليلُ التوحيد إنما ينفي وجودَ رب ثان، ويدل على أنه لا ربَّ إلا هو سبحانه، ولا يدل على امتناع وجودِ مخلوق له قدرةٌ وإرادة مخلوقة يُحدثُ بها وهو وقدرتُه وإرادتُه وفعلهُ مخلوق لله، فهو بعد طولِ مقدماته واعترافِ فضلائكم بالعجز عن تقريره وذكر ما في مقدماته من منعٍ ومعارضةٍ، إنما ينفي وجودَ قادرين متكافئين قدرةُ كل واحدٍ منهما من لوازم ذاتِه ليست مستفادة من الآخر، وهو دليل صحيحٌ في نفسه، وإن عجزتم عن تقريره، ولكن ليس فيه ما ينفي أن تكون قدرةُ العبد وإرادتهُ سبباً لوجود مقدوره، وتأثيرها فيه تأثير الأسباب في مسبباتها، فلا للتوحيد قررتم بدليل التمانع ولا للجبر. وقد كَفانا أفضلُ متأخريكم بيان تنافي هذا الدليل من المنوع والمعارضات.

قال الجبري: دعنا من هذا كله، أليس في القول بتأثير قدرة العبد في مقدوره مع الاعتراف بأن الله سبحانه قادرٌ على مقدور العبد إلزامَ وقوع المقدور الواحد بين القادرْين والدليلُ ينفيه؟

قال السني: ما تعني بقولك يلزمُ وقوعُ مقدورٍ بين قادرين؟ أتعني به قادرين مستقلين متكافئين؟ أم تعني به قادرين تكون قدرةُ أحدهما مستفادة مِن الآخر؟

فإن عنيت الأول مُنعت الملازمة، وإنْ عنيت الثاني منع انتفاء اللازم. ومثبتو الكسب يجيبون عن هذا بأنه لا يمتنعُ وقوعُ مقدور بين قادرين لقدرةِ أحدهما تأثيرٌ في إيجاده ولقدرة الآخر تأثيرٌ في صفته، كما يقوله القاضي أبو بكر ومن تبعه.

والأشعري يجيب عنه على أصله بأنّ الفعل وقع بين قادرين لا تأثير لقدرة أحدهما في المقدور، بل تعلُّقُ قدرتِه بمقدورها كتعلقِ العلم بمعلومه، وإنما الممتنعُ عنده وقوعُ مقدور بين قادرين مؤثرين، وهذا الاعتذارُ لا يخرج عن الجبر، وإن زُخرفت له العبارات. وأجاب عنه الحسينية بما حكيناه أنه لا يمتنعُ مقدورٌ بين قادرين على سبيل البدل ويمتنعُ على سبيل الجمع، وقد تقدم فسادُه.

وأجاب عنه المشايخية بأنه مقدورٌ للعبد وليس مقدوراً للرب، وهذا أبطلُ الأجوبةِ وأفسدها، والقائلون به يقولون إن الله ـ سبحانه عن إفكهم ـ يريدُ الشيء فلا يكون، ويكون الشيء بغير إرادته ومشيئته، فيريدُ ما لا يكون ويكونُ ما لا يريد، وكفى بهذا بطلاناً وفساداً.

قال الجبري: الفعل عند المرجِّح التام واجب والمرجحُ ليس من العبد وإلا لزم التسلسلُ فهو من الرب، فإذا وجبَ الفعلُ عنده فهو الجبرُ بعينه.

قال السني: قد تقدم هذا الدليلُ وبيانُ ما فيه، وحيث أعدتموه بهذه العبارة الوجيزة المختصرة فنحن نذكر الأجوبة عنه كذلك.

قولُكم لا بد من مرجح يرجِّح الفعل على الترك أو بالعكس مسلَّم.

قولُكم: المرجحُ إن كان من العبد لزمَ التسلسلُ وإن كان من الرب لزم الجبرُ.

جوابُه ما المانعُ أن يكون من فعل العبد، ولا يلزمُ التسلسلُ بأن يكون من فعله على وجهٍ لا يكون التركُ ممكناً له حينئذ. ولا يلزمُ من سلب الاختيار عنه في فعل المرجح سلْبه عنه مطلقاً.

ثم ما المانعُ أن يكون المرجحُ من فعل الله، ولا يلزمُ الجبرُ؟

فإنكم إن عنيتم بالجبر أنه غيرُ مختار للفعل، ولا مريدٍ له لم يلزم الجبرُ بهذا الاعتبار، لأن الربَّ سبحانه جعل المرجح اختيار العبد ومشيئته فانتفى الجبرُ.

وإن عنيتم بالجبر أنه وُجد لا بإيجاد العبد لم يلزم الجبرُ أيضاً بهذا الاعتبار.

وإن عنيتم أنه يجبُ عند وجود المرجح وأنه لا بد منه فنحن لا ننفي الجبرَ بهذا الاعتبار. وتسمية ذلك جبراً اصطلاحٌ يختص بكم، وهو اصطلاح فاسد، فإنّ فعلَ الرب سبحانه يجبُ عند وجود مرجحه التام، ولا يكون ذلك جبراً بالنسبة إليه

سبحانه، ثم هذا لازمٌ على من أثبتَ الكسب منكم، فنقول له في الكسب ما قاله في أصل الفعل سواء، ومن لم يثبت الكسب لزم ذلك في فعل الرب كما تقدم.

فإن قلتم: الفرقُ أن صدورَ الفعل عن القادر موقوفٌ على الإرادة وإرادةُ العبد محدثة فافتقرتْ إلى مُحدث، فإن كان ذلك المحدثُ هو العبد لزمَ التسلسلُ فوجب انتهاءُ جميع الإرادات إلى إرادةٍ ضرورية يخلقُها الله في القلب ابتداءً ويلزمُ منه الجبرُ بخلاف إرادة الرب سبحانه فإنها قديمةٌ مستغنية عن إرادة أخرى فلا تسلسل.

قيل لكم: لا يجدي هذا عليكم في دفع الإلزام، فإن الإرادة القديمة إما أن يصح معها الفعلُ بدلاً عن الترك وبالعكس أو لا، فإن كان الأولُ فلا بد لأحد الطرفين من مرجح، والكلام في ذلك المرجح كالكلام في الأول، ويلزمُ التسلسلُ، وإنْ كان الثاني لزمَ الجبرُ.

قال الجبري: معتمدي في الجبر على حرفٍ لا خلاص لكم منه إلا بإلزام الجبر، وهو أن العبدَ لو كان فاعلاً لفعله لكان محدثاً له، ولو كان محدثاً له لكان خالقاً له والشرعُ والعقلُ ينفيه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾(1)..

قال السني:

قد دل العقلُ والشرعُ والحس على أن العبدَ فاعل له وأنه يستحق عليه الذمَّ واللعن، كما ثبتَ عن النبي ﷺ أنه رأى حماراً قد وُسم في وجهه. فقال أَلَمْ أَنْهَ عن هذا؟ لعنَ اللهُ مَن فعلَ هذا.(2).

---

(1) سورة فاطر، الآية /٣/.

(2) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٢٩٧) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه. وفي سند الحديث يحيى بن أبي كثير ثقة ثبت لكنه يدلس ويرسل، ولكن للحديث عدة شواهد صحيحة من غير هذا الطريق عند مسلم وأبي داود وفي صحيح ابن حبان. وفي البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنه أنه مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً أو دجاجة يترامونها فقال: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا. إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ الروح غرضاً. البخاري (٦/٢٢٨) في الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة، ومسلم برقم /١٩٥٨/ في الصيد والذبائح، باب النهي عن صبر البهائم.

وقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[1]،

وقال: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2]،

وقال: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾[3].

وهذا في القرآن أكثر مِن أن يُذكر، والحسُّ شاهدٌ به فلا تقبلُ شبهةٌ تُقام على خلافه، ويكون حكم تلك الشبهةِ حكمَ القدْح في الضروريات فلا يُلتفت إليه، ولا يجبُ على العالم حلُّ كل شبهةٍ تعرضُ لكل أحدٍ، فإنَّ هذا لا آخر له.

فقولكم: لو كان فاعلاً لفِعْله لكان محدِثاً له، إن أردتم بكونه محدِثاً صدور الفعل منه اتحدَ اللازمُ والملزوم، وصار حقيقة قولكم لو كان فاعلاً لكان فاعلاً.

وإن أردتم بكونه محدِثاً كونَه خالقاً سألناكم ما تعنون بكونه خالقاً؟ هل تعنون به كونَه فاعلاً أم تعنون به أمراً آخر غيرَ كونه فاعلاً فبينوه.

فإن قلتم: نعني به كونَه موجداً للفعل من العدم إلى الوجود، قيل: هذا معنى كونه فاعلاً، فما الدليلُ على إحالة هذا المعنى، فسمُّوه ما شئتم إحداثاً أو إيجاداً أو خَلْقاً، فليس الشأنُ في التسميات وليس الممتنع إلا أن يكون مستقلاً بالإيجاد، وهذا غيرُ لازم لكونه فاعلاً، فإنا قد بينا أن غاية قدرة العبد وإرادته وداعيه وحركته أن تكون جزء سبب، وما توقَفَ عليه الفعلُ من الأسباب التي لا تدخلُ تحت قدرته أكثر مِن الجزء الذي إليه بأضعافٍ مضاعَفة، والفعلُ لا يتم إلا بها.

فإن قيل: فهذا الجبرُ بعينه، قيل: ذلك السببُ الذي أُعفيَ به من القدرة والإرادة هو الذي أخرجه مِن الجبر وأدخله في الاختيار، وكونُ ذلك السببِ من خالقه وفاطره ولمنشئه هو الذي أخرجه من الشرك والتعطيل وأدخله في باب التوحيد، فالأولُ أدخله في باب العدل، والثاني أدخلَه في باب التوحيد، ولم يكن ممن نقضَ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية /٧٤/.

(٢) سورة النمل، الآية /٩٠/.

(٣) الآية /٧٠/ من سورة الزمر.

التوحيدَ بالعدل ولا ممن نقضَ العدلَ بالتـوحيد، فهؤلاء جنَـوْا على التوحيـد وهؤلاء جنَوْا على العدل. وهدَى اللهُ أهلَ السنة للتوحيد والعدل، واللهُ يهدي مَن يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم.

تم ـ بعون الله وتوفيقه ـ الجزء الأول من كتاب
«شـفـاء العـلـيـل»
ويليه الجزء الثاني وأوله
الباب العشرون في
ذكر مناظرة بين
قدري وسني

الفهرس

فهرس الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
مقدمة التحقيق بقلم مصطفى أبو النصر الشلبي	٥
ترجمة المؤلف رحمه الله	١١
مقدمة المؤلف رحمه الله وهي عبارة عن فصل في تسمية الكتاب وتعداد أبوابه	١٧
الباب الأول: في تقدير المقادير قبل خلق السموات والأرض	٢٧
الباب الثاني: في تقدير الرب تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم	٣٣
الباب الثالث: في ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام في ذلك وحكم النبي ﷺ لآدم	٤٥
الباب الرابع: في ذكر التقدير الثالث والجنين في بطن أمه	٦١
الباب الخامس: في ذكر التقدير الرابع ليلة القدر	٦٩

الباب السادس:
في ذكر التقدير الخامس اليومي ٧١

الباب السابع:
في أن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضي ترك الأعمال ٧٥

الباب الثامن:
في قوله تعالى: «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى
أولئك عنها مبعدون». ٨١

الباب التاسع:
في قوله تعالى: «إنا كل شيء خلقناه بقدر» ٨٧

الباب العاشر:
في مراتب القضاء والقدر التي من لم يؤمن بها لم
يؤمن بالقضاء والقدر ٩١

الباب الحادي عشر:
في ذكر المرتبة الثانية من مراتب القضاء والقدر
وهي مرتبة الكتابة ١١٥

الباب الثاني عشر:
في ذكر المرتبة الثالثة من مراتب القضاء والقدر
وهي مرتبة المشيئة ١٢٥

الباب الثالث عشر:
في ذكر المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر
وهي خلق الأعمال ١٤٥

الباب الرابع عشر:
في الهدى والضلال ومراتبها، والمقدور منها للخلق
وغير المقدور لهم ١٨١

الباب الخامس عشر:
في الطبع والختم والقفل والغل والسد والغشاوة والحائل
بين الكافر وبين الإيمان، وأن ذلك مجعول للرب تعالى ٢٢٥

الباب السادس عشر:
في ما جاء في السنة من تفرد الرب تعالى بخلق أعمال
العباد كما هو متفرد بخلق ذواتهم وصفاتهم ٢٨٣

الباب السابع عشر:
في الكسب والجبر ومعناهما لغة واصطلاحاً وإطلاقهما
نفياً وإثباتاً ٣٠٩

الباب الثامن عشر:
في فعل وأفعل في القضاء والقدر والكسب، وذكر الفعل والإنفعال ... ٣٣٩

الباب التاسع عشر:
في ذكر مناظرة جرت بين جبري وسني جمعهما مجلس مذاكرة ٣٥١

فهرس الجزء الأول ٣٧٧